للإمام الحافظ أبي بكر بن فورك
المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

تحقيق وتعليق
موسى محمد علي

عالم الكتب

بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

بسم اللہ الرحمن الرحیم

رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

سورۃ الکہف آیت "١٠"

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، فله الفضل والثناء الجميل . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رائدنا في خير سبيل ، والمرسل رحمة من الله للعالمين ، هديه خير هدي ، وسنته هي الطريق المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالإيمان ، ورباهم بالقرآن وجعلهم قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله . رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

وبعد : فإننا أمام سفر جليل يتحدث عن نوع من أحاديث السنة النبوية الشريفة ، فكان من الطبيعي أن نتناول بإيجاز :

معنى السنة ومنزلتها في الشريعة الإسلامية . وحرص المؤمنين عليها وعنايتهم بها . كما نتناول أيضاً : منهج العلماء في جمعها وتدوينها ، ودقتها الدقيقة في المنقول منها باعتبارها ركيزة هامة ودعامة قوية ، لها خطورتها في الكيان الإسلامي .

ونخلص من هذا البحث الموجز بواجبنا نحو السنة الشريفة ، ونحو صاحبها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه فنقول وبالله التوفيق .

معنى السنة :

السنة عند المحدثين : أقوال النبي ﷺ، وأفعاله ، وتقريراته .

فكل ما ثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه ، من قول ، أو فعل ، فهو سنة ، وكذلك من السنة أيضاً ما يقوله غيره أمامه ، أو يفعله ، فلا ينكره عليه ، أو يبلغه

فيسكت عنه ، لأنه عليه الصلاة والسلام : لا ينطق إلا عن وحي معصوم ، ولا يقر إلا الحق الثابت .

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(١) .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾(٢) .

ويرى بعض العلماء : أن من السنة كذلك أقوال الصحابة وأفعالهم ، مستندين إلى قول رسول الله ﷺ :

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجـذ »(٣) .

منزلة السنة :

السنة هي الأصل الثاني للدين ، لأن القرآن الكريم ـ كما هو معروف ـ هو الأصل الأول ، والمصدر الإلهي وقد أنزله الله سبحانه وتعالى شاملا لأصول الشريعة ، وجاءت السنة مفسرة له :

تبين مجمله وتقيد مطلقه ، وتخصص عامه ، وتفصل أحكامه ، وتوضح مشكله ؛ روى الإمام مسلم في صحيحه ، أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع :

« خذوا عني مناسككم ، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هـذا » .

وروى الإمام البخاري كذلك في صحيحه قوله ﷺ :

---

(١) سورة النجم الآية (٣/٤) .

(٢) سورة الحشر الآية (٧) .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وحسنه .

« صلوا كما رأيتموني أصلي » .

وتفسير القرآن الكريم ، وبيان أغراضه ، حق لرسول الله ﷺ ، بعد أن نقرأ قوله تعالى :

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾[1] .

وقوله سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[3] .

وقوله :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[4] .

ولولا السنة النبوية الشريفة ، لأشكل علينا كثير من الآيات القرآنية الكريمة ولتخبطنا دون الوصول إلى معانيها كبيان : الصلاة مثلا ، وعدد ركعاتها ، ونصاب الزكاة ومقدارها ، والنصاب الذي يحد فيه السارق ، وغير ذلك من الأحكام التي وضحتها السنة بعد أن جاءت في القرآن الكريم مجملة .

---

(١) سورة النساء الآية (٨٠) .

(٢) سورة الحشر الآية (٧) .

(٣) سورة النساء الآية (٦٥) .

(٤) سورة النور الآية (٥٤) .

روى الحاكم في المستدرك عن الحسن قال : بينما عمران بن حصين يحدث عن سنة نبينا ﷺ إذ قال له رجل :

يا أبا نجيد ، حدثنا بالقرآن ؟ فقال له عمران :

أنت وأصحابك تقرؤون القرآن ، أكنت محدثي عن الصلاة وما فيها وحدودها ؟ أكنت محدثي عن الزكاة في الذهب ، والإبل والبقر وأصناف المال ؟

ولكن : قد شهدت وغبت أنت ، ثم قال :

فرض علينا رسول الله ﷺ وآله في الزكاة كذا وكذا ؟

فقال الرجل : « أحييتني أحياك الله » .

قال الحسن :

« فما مات ذلك الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين »[١] .

ويقول الإمام أحمد رضي الله عنه :

« وقد تستقل السنة بأحكام التشريع ، مثل تحليل ميتة البحر من السمك ، وتحريم أكل كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير » .

روى الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن صالح ، وابن مهدي ـ كلاهما عن معاوية بن صالح ـ حدثني الحسن بن جابر أنه سمع المقدام بن معد يكرب يقول :

« حرم النبي ﷺ ، أشياء يوم خيبر ، منها : الحمار الأهلي وغيره ، فقال رسول الله ﷺ .

---

(١) سنة رسول الله ﷺ للشيخ التجاني .

« يوشك أن يقعد الرجل فيكم على أريكته يحدث بحديثي ، فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله » .

لهذا كانت السنة حجة بنص القرآن فيما سقناه من آيات وفي قوله تعالى :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ، أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١] .

وكانت حجة كذلك بما رويناه من أحاديث صحيحة ، ولم يخالف ذلك إلا من لاحظ له في الإسلام - كما يقول الشوكاني :

جاء في سنة الرسول ﷺ للشيخ التجاني :

« أولئك الذين يهملون السنة أو يشككون فيها ، ويدعون إلى تركها ، حكموا على سنة رسول الله ﷺ - وهي واجبة الإتباع - بالاعدام بل حكموا بالاعدام على أنفسهم ، لأنهم فضحوا جهلهم بالعلم ، والتحقيق والأمانة ، وقولهم دليل على جهلهم بالسنة ومكانتهم ، وسنة رسول الله ﷺ لم تزل قائمة ، فإنهم لم يعرفوها ، وأراحوا أنفسهم من عناء الاشتغال بها » اهـ .

وقد نبهنا رسول الله ﷺ إلى أهمية سنته وخطورة شأنها ، وضرورة العناية بها ، فيما رواه الإمام أبو داود عن المقدام بن معد يكرب ، أن رسول الله ﷺ قال :

« ألا إنني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكيء على أريكته يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » .

---

(١) سورة النور الآية (٦٣) .

فواضح أن المقصود لقوله « **ومثله معه** » الحديث الشريف .

وجاء في فقه السيرة للأستاذ الغزالي :

(والرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته ، وحمل رسالاته ، كان قرآنا حيًّا يسعى بين الناس ، كان مثلا حيًّا لما صوره القرآن من :

إيمان وإخبان ، وسعي وجهاد ، وحق وقوة ، وفقه وبيان ، فلا جَرم أن قوله وفعله ، وتقريره وأخلاقه وأحكامه ونواحي حياته كلها تعد ركنا في الدين وشريعة للمؤمنين) اهـ .

وقد أظهر الرسول ﷺ ، اعجابه بـمعاذبن جبل ـ مبعوثه إلى اليمن ـ حينما سأله ماذا تصنع إن عرض لك قضاء ؟

قال : أقضي بما في كتاب الله .

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ .

قال : فبسنة رسول الله ﷺ .

قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟ .

قال : أجتهد في رأيي ولا آلو .

قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري ، ثم قال :

« الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ، لما يرضي رسول الله ﷺ »[1] .

---

(١) رواه شعبة بسنده عن معاذ .

اهتمام المسلمين بالسنة :

عني المسلمون عناية بالغة بسنة نبيهم ﷺ، بمالا يزيد عليه فكانوا يتناوبون السماع، ويقول الواحد منهم لأخيه وهو في الطريق لمجلس رسول الله ﷺ :

« تعال نؤمن ساعة » .

ويصور سيدنا عمر رضي الله عنه إهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بالسنة الشريفة فيقول :

(كنت أنا وجار لي من الأنصار من بني أمية بن زيد ، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك)[١] .

وشجعهم رضوان الله عليهم على ذلك ما سمعوه من قوله ﷺفيما رواه زيد بن ثابت .

« نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » أهـ .

وكانوا يعتمدون على الذاكرة القوية في حفظ السنة ، ولما أمن الرسول ﷺاختلاط الحديث بالقرآن الكريم ، أذن بكتابة السنة .

ففي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه قال : حدثنا يحيى بن سعيد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال :

(كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه ، فنهتني

---

(١) أخرجه الامام البخاري .

قريش) فقالوا :

(إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺبشر يتكلم في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ) .

فقال :

« أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق » .

فكتب الأحاديث التي سمعها في مجموعها سماها الصحيفة الصادقة ـ كما في أسد الغابة لابن الأثير ـ وباتساع الفتوح وتفرق الحفاظ في الأقطار ، شاعت رواية الحديث ، وازدادت العناية بالتدوين في عهد عمر بن عبد العزيز الذي كتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه بالمدينة :

(أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً) .

وكتب مثل ذلك : إلى مختلف البلدان .

واستمر الحال إلى نهاية عصر بني أمية ، كما حث أبو جعفر المنصور العلماء على جمع الحديث .

وأشار على الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، أن يؤلف كتاب « الموطأ » .

غير أن التدوين في تلك الفترة ، وإن كان مبوباً ، فقد ضمت إلى الحديث فتاوى الصحابة منسوبة لأصحابها كما فعل مالك في الموطأ ، ولكن في نهاية القرن الثاني الهجري عني العلماء بتخليص الحديث من أقوال الصحابة فكان ما يعرف بالمسانيد

ومن أشهرها مسند الإمام أحمد بن حنبل ، رضي الله تعالى عنه .

أما في القرن الثالث : فقد ظهر أعلام الحديث وأصحاب الصحاح ، حيث اختبروا الأحاديث ونقحوها واتبعوا في ذلك منهجاً علمياً أقاموه وعلى قواعد ثابتة تمتاز بالدقة فاشترطوا :

أولاً : صحة السند :

بأن يكون رواته ثقات حتى يصلوا إلى رسول الله ﷺعلى أن يتوفر في الراوي : الإسلام والبلوغ ، والضبط ، والعدالة .

وعنوا عناية فائقة بالكشف عن أحوال الرواة ووضعوهم تحت منظار : « الجرح والتعديل » حتى تطمئن الأمة لتراثها ، فتأخذ صحيحه ، وتطرح ما ادعاه الزنادقة والمنافقون كذباً على صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى سبيل المثال نجد الإمام البخاري رضي الله عنه ، يشترط إتصال الإسناد : بأن يكون الراوي معاصراً لمن روى عنه ، والتقى به ولو مرة .

أما إذا لم تتوافر المعاصرة واللقاء ، فلا تقبل روايته ، على أن يكون كل راوٍ مسلمًا صادقاً ، غير مدلس ، ولا مختلط العقل متصفاً بصفات العدالة ، ضابطاً متحفظاً ، سليم الذهن والإعتقاد قليل الوهم .

ثانياً : صحة المتن :

بأن يتخلص النص من ركاكة المعنى وضعفه وفساده ، ومخالفته للكتاب الكريم ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعي ، ومخالفة الوقائع التاريخية المقطوع بصحتها ، ولا يكون الحديث صادراً من راوٍ متعصب لمذهبه ، مُغال فيه ، ولا يشتمل الحديث على افراط في الثواب على عمل صغير ، أو مبالغة في العذاب على ذنب

حقير .

كما لا ينفرد بروايته راو واحد في واقعة لو صح حدوثها لعرفها الناس ورواها كثيرون .

وهذا لا شك دقة دقيقة مشكورة ، ومنهج واضح يستحق كل تقدير وإجلال .

واجبنا نحو السنة :

لقد هدي المسلمون إلى الحق فترات طويلة بسبب تفيئهم ظلال السنة النبوية ، فنعموا براحة وسعادة في منقلب حياتهم .

وما زال المتمسكون بها يحيون حياة طيبة مباركة ، وينعمون باستقرار نفسي ووجداني ومادي ، يحسدهم عليه كثيرون ، أما الشاردون عن سنة رسول الله ﷺ ، فتلفحهم الحياة بحرها القائظ ، وتبتلعهم متاهات البدع الحمقاء ، والخرافات الجوفاء ، والهوى المتبع ، والإدعاءات الباطلة ، التي لا يسندها دليل ، ولا يدعمها فكر ناضج ، أو منطق سليم :

« فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ » .

إن الصراعات التي نمت في المجتمع الإسلامي ، والفرق التي شوهت بأفكارها سماحة الحق تعود أسبابها إلى الانحراف عن السنة النبوية ، والسير وراء الأفكار المستوردة ، والفلسفات العقيمة ، وما نلاقيه اليوم من قلق واضطراب ، وما يعانيه عصرنا من متاعب ومشاكل ، مرده إلى البون الشاسع بين واقعنا وهدي رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

والخروج من ذلك كله لن يكون إلا بالعودة إلى سنة النبي ﷺ المشبعة الممتعة :

« تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي » .

التعريف بالإمام أبي بكر بن فورك

الأستاذ أبو بكر بن فورك ، من العلماء المبرزين ، وأعلام الأئمة الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

حفلت به كتب التراجم ، وتتبع سيرته كثير من المؤلفين ، وسجلوا مواقفه الفذة : في خدمة الدين والدفاع عن الحق ونشر العلم .

له ترجمة في النجوم الزاهرة[١] ، وأخرى في ابن الصلاح ، وثالثة في أنباه الرواة[٢] ، ورابعة في الوافي[٣] ، وخامسة في العبر[٤] ، وغيرها من عيون الكتب ، كمرآة الجنان وشذرات الذهب والأعلام وكشف الظنون .

وعني بسيرته العطرة : الشيرازي[٥] ، وابن خلكان وابن الأثير ، والاسنوي ، وابن حزم ، والسبكي ، والذهبي ، وغيرهم من الثقات :

جاء في شذرات الذهب عند التعريف بالإمام أنه :

« الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، بضم الفاء ، وفتح الراء ، الأصبهاني المتكلم صاحب التصانيف .

---

(١) ج٤ ص ٢٤ .
(٢) ج٣ ١١٠ .
(٣) ج٣ ص ٣٤٤ .
(٤) ج ص ٩٥٣ .
(٥) ص ١٣٢ .

وفي طبقات السبكي :

(محمد بن الحسن بن فورك ، الأستاذ أبو بكر الأنصاري الأصبهاني ، الإمام الجليل ، والحبر الذي لا يجارى : فقها وأصولا وكلاماً ووعظاً ونحوا مع مهابة وجلالة وورع بالغ ، رفض الدنيا وراء ظهره ، وعامل الله في سره وجهره وصمم على دينه) اهـ .

وفي وفيات الأعيان[1] وقع اسمه فيه :

« محمد بن الحسين تصحيف الحسن ، وفيه ضبط فورك بضم الفاء ، كما في اللباب .

وزاد في التاج[2] :

جواز فتح الفاء لقوله فورك كفوفل ، وفوفل في القاموس بضم الفاء الأولى وفتحها » .

لقطات من حياته

أقام أولا « بالعراق »، ثم ورد الري وهناك وشت به المبتدعة، وسعوا عليه ، فغادرها إلى « نيسابور » قال الحاكم أبو عبد الله :

« فتقدمنا إلى الأمير ناصر الدولة ، أي الحسن محمد بن ابراهيم ، والتمسنا منه المراسلة في توجهه (يعني ابن فورك) إلى « نيسابور » فبنى له الدار والمدرسة من خانقاه أبي الحسن اليوشنجي ، وأحيا الله به في بلدنا أنواعا من العلوم لما استوطنها ، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة وتخرجوا به » .

(١) ج١ ص ٤٨٢
(٢) جـ٧ ص ١٦٧

ودعي إلى مدينة « غزنة » وجرت له فيها مناظرات ، وبينما هو عائد من غزنة سم في الطريق ، فتوفي سنة ست وأربعمائة حميداً شهيداً .

ونقل إلى نيسابور ، ودفن بالحيرة : وقبره ظاهر هناك .

ويقول ابن خلكان في مجمل حياة ابن فورك مالا يخرج عما ذكرناه ونصه :

(هو المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ ، أقام بالعراق مدة يدرس ثم توجه إلى الري ، فشنعت به المبتدعة فراسله أهل نيسابور ، والتمسوا منه التوجه إليهم ففعل ، وورد نيسابور فبني له مدرسة وداراً ، فأحيى الله تعالى به أنواعاً من العلوم ، وظهرت بركته على المتفقهة ، وبلغت مصنفاته قريباً من مائة مصنف ، ثم دعي إلى مدينة غزنة من الهند وجرت له بها مناظرات عظيمة .

فلما رجع إلى نيسابور سم في الطريق ، فمات سنة ست وأربعمائة ، فنقل إلى نيسابور فدفن بها) .

وذكره « ابن الصلاح » في طبقاته ولم يؤرخ وفاته .

ونقل عن « ابن حزم » أن السلطان محمود بن سبكتكين قتله لقوله :

(إن نبينا ﷺ، ليس هو رسول الله اليوم ، لكنه كان رسول الله)[1] .

وسنرد هذا القول عند الحديث عن محنة الرجل ، إن شاء الله تعالى .

علمه ومؤلفاته :

تلقى أبو بكر بن فورك علومه بالعراق ، حيث كانت حواضره موطن العلماء والفقهاء ، وأئمة الحديث وعلوم القرآن ، والزهد ، كما كانت مقصد طلاب العلم .

---

(١) طبقات الشافعية للاسنوى جـ٢ ص ٢٦٦ .

سمع ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ من عبد الله بن جعفر الأصفهاني جميع مسند الطيالسي ، كما كثر سماعه بالبصرة ، وبغداد .

وسمع من ابن خوذاذ الأهوازي ، ودرس مذهب الأشعري على أبي الحسن الباهلي .

وروى عنه الحافظ أبو بكر البيهقي ، وأبو القاسم القشيري ، وأبو بكر احمد بن علي بن خلف . ولقد تنوعت علومه ، وتعددت فنونه ، فهو إمام في الفقه ، وعالم بالأصول ، ومتبحر في الكلام ، وضليع في الوعظ ، وخبير بالنحو ، وعارف بالأدب ، وسبق أن ذكرنا أن ابن خلكان قال عنه :

هو المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ . . إلى أن قال : « وبلغت مصنفاته قريباً من مائة مصنف » اهـ .

وقال عبد الغافر بن اسماعيل :

« بلغت تصانيفه في أصول الدين ، وأصول الفقه ، ومعاني القرآن ، قريباً من مائة » اهـ .

ووصفه في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، بأنه :

(المتكلم صاحب التصانيف في الأصول والعلم ، روى مسند الطيالسي عن محمد بن فارس ، وتصدر للإفادة بنيسابور ، وكان ذا زهد وعبادة ، وتوسع في الأدب والكلام والوعظ والنحو) اهـ .

وقال عنه الأسنوي في طبقاته :

(أقام بالعراق يدرس ، ثم توجه إلى الري . وورد نيسابور ، فبنى بها مدرسة وداراً ، فأحيا الله تعالى به أنواعاً من العلوم ، وظهرت بركته على المتفقهة ، وبلغت

مصنفاته في الأصول ومعاني الأصول ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف)[1] أهـ .

أما ابن عساكر فيقول عنه :

(بلغت تصانيفه في أصول الدين ، وأصول الفقه ، ومعاني القرآن قريباً من المائة ، فيها :

مشكل الحديث وغريبه ، والنظامي في أصول الدين ، ألفه لنظام الملك ، والحدود وأسماء الرجال وغير ذلك) اهـ .

اشتغاله بعلم الكلام :

حكي عن ابن فورك أنه قال :

(كان سبب إشتغالي بعلم الكلام أني كنت بأصبهان أختلف إلى فقيه ، فسمعت أن الحجر يمين الله في الأرض ، فسألت ذلك الفقيه عن معناه فلم يجب بجواب شاف ؛ فأرشدت إلى فلان من المتكلمين ؛ فسألته فأجاب بجواب شاف ، فقلت : لا بد من معرفة هذا العلم ، فاشتغلت به) .

واستثمر ابن فورك علمه في إفادة من حوله ، ونشر المعارف الإسلامية ، والوقوف في وجه المبتدعة والأدعياء ، مما عرضه للأذى والاستشهاد

قبس من أخلاقه :

كان للإمام أبي بكر بن فورك رصيد عظيم من الأخلاق الحميدة ، رشحه لمنزلة عالية بين العلماء والمديرين ، وعمق الثقة فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال ، وجعله قدوة طيبة لمن حوله .

---

(١) طبقات الشافعية للأسنوي جـ١ ، وطبقات المفسرين جـ١ ص ١٢٩ للداودي

ومن أبرز تلك الصفات ، الثبات على الحق مهما كلفه من مشقة وعنت ، فإظهار الحق لديه أسمى من كل متع الحياة ، رفض الدنيا وراء ظهره ، وعامل الله في سره وجهره ، وثبت على مبادئه صادقا .

مصمم ليس تلويه عواذله ... في الدين ثبت قوي بأسه عسر
ولا يلين لغير الحق يتبعه ... حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ومن أخلاقه : سمو الهمة ، وبعد الغاية ، والعزمة القوية ؛ وحسن التوكل على الله عز وجل ؛ ومواجهة الأعداء بشجاعة نادرة ؛ شمر عن ساعد الإجتهاد :

بهمة في الثريا إثر أخمصها ... وعزمة ليس من عاداتها السأم
وعمر الدين عزم منه معتضد ... بالله تشرق من أنواره الظلم

وكان الرجل صبوراً على ما يلاقي ، مثابراً غير طامع في ثمر لنفسه ، لا يخدعه حب الحياة ، ولا تشوقه ألحاظ الدميُّ[1] :

والصبر أجمل إلا أنه صبر ... وربما جنت الأعقاب من عسله
لكنه مغرم بالحق يتبعه ... لله في الله هذا منتهى أمله

ومن غرائب أخلاقه ما ذكره الإمام الشهيد أبو الحجاج بن دوناس الفندلاوي المالكي[2] :

((أن الإمام أبا بكر بن فورك ، ما نام في بيت فيه مصحف قط ، وإذا أراد النوم انتقل عن المكان الذي فيه إعظاما لكتاب الله عز وجل)) .

---

(١) إلحاق الدما .

(٢) المدفون خارج باب الصفير بدمشق وقبره ظاهر معروف باستجابة الدعاء عنده .

منزلته بين العلماء :

كان للرجل مهابة وجلالة لما امتاز به من صفات حميدة ، وما حصله من علوم شتى ، وأصحاب الفضل يعرفون أقدار الناس ، وينزلونهم منازلهم ، قال عنه صاحب شذرات الذهب :

(تصدر للإفادة بنيسابور ، وكان ذا زهد وعبادة ، وتوسع في الأدب والكلام والوعظ والنحو) .

وقال عنه عبد الغافرِ بن اسماعيل :

(سمعت أبا صالح المؤذن يقول : كان الأستاذ ـ أوحد وقته ـ أبو علي الدقاق ، يعقد المجلس ، ويدعو للحاضرين والغائبين من أعيان البلد وأئمتهم ، فقيل له يوماً :

قد نسيت ابن فورك ، ولم تدع له ؟ فقال :

كيف أدعو له ، وكنت أقسم على الله البارحة بإيمانه أن يشفي عليّ ؟ وكان به وجع البطن تلك الليلة) .

ولما حضرت الوفاة واحد عصره ، وسيد وقته ، أبا عثمان المغربي ، أوصى بأن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك ، وذلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

وكان رحمه الله موضع ثقة من حوله ، يطمئنون لما يصدر عنه ، ويصدقون حديثه حيثما اتجه ، ويتناقلونه ؛ وهذا تلميذه أبو القاسم القشيري يقول :

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يقول :

حملت مقيدا إلى شيراز لفتنة في الدين فوافيت باب البلد مصبحاً ، وكنت

مهموم القلب ، فلما أسفر النهار وقع بصري على محراب في مسجد على باب البلد مكتوب عليه :

(أليس الله بكاف عبده) .

(وحصل لي تعريف من باطني أن أكفي عن قريب ، فكان كذلك) اهـ .

والأقوال الصادرة من العلماء عن ابن فورك كثيرة ، وكلها تنبيء عن إحترام وإجلال لهذا العالم الزاهد ، ومثله جدير بكل تقدير وتكريم من ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

محنة ابن فورك :

من الطبيعي أن تقابل ابن فورك ـ وهو من هو من العلم والزهد والعبادة والمعرفة ـ محن ، فالمحن عقبات طبيعية في حياة العلماء .

لهذا : اجتاز الإمام أبو بكر بن فورك مرحلة عصيبة من البلاء ، قدم حياته ثمناً لها ، وذلك لأنه :

« كان شديد الرد على أبي عبد الله بن كرام ، وأذكر أن سبب ما حصل له من المحنة من شغب أصحاب ابن كرام وشيعتهم المجسمة » .

« ذكر شرح حال المحنة المشار إليها »[1]

في سبيل الحق :

اعلم أنه يعز علينا شرح هذه الأمور لوجهين :

أحدهما : أن كتمانها وسترها أولى من إظهارها وكشفها ، لما في ذلك من فتح

(١) كما ذكرها السبكي في طبقات الشافعية جـ٤ ص ١٢٧ ـ ١٣٥ .

الأذهان لما هي غافلة عنه ، مما لا ينبغي التفطن له .

والثاني : ما يدعو إليه كشفها من تبيين معرة أقوام ، وكشف عورهم ، وقد كان الصمت أزين ولكن لما رأينا المبتدعة تشمخ بآنافها وتزيد وتنقص على حسب أغراضها وأهوائها ، تعين لذلك ضبط الحال وكشفه ، مع مراعاة النصفة فنقول :

ابن فورك والكرامية :

كان الأستاذ أبو بكر بن فورك ، شديداً في الله . قائمًا في نصرة الدين ، ومن ذلك أنه فوّق نحو المشبهة الكرامية سهاما لا قبل لهم بها ، فتحزبوا عليه ، ونموا غير مرة وهو ينتصر عليهم وآخر الأمر أنهم أنهوا إلى السلطان محمود بن سبكتكين : أن هذا الذي يؤلب علينا عندك أعظم منا بدعة وكفرا ، وذلك أنه يعتقد أن نبينا محمداً ﷺليس نبياً اليوم ، وأن رسالته انقطعت بموته ، فاسأله عن ذلك ؟

بين يدي السلطان :

عظم على السلطان هذا الأمر وقال : (إن صح هذا عنه لأقتلنه ، وأمر بطلبه) .

والذي لاح لنا من كلام المحررين لما ينقلون ، الواعين لما يحفظون ، الذين يتقون الله فيما يحكون أنه :

لما حضر بين يديه وسأله عن ذلك كذب الناقل وقال ـ ما هو معتقد الأشاعرة على الاطلاق ـ .

إن نبينا ﷺ حيّ في قبره ، ورسول الله أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز ، وأنه كان وآدم بين الماء والطين ولم تبرح نبوته باقية ولا تزال .

وعند ذلك وضح للسلطان الأمر ، وأمر بإعزازه وإكرامه ، ورجوعه إلى وطنه .

فشل واغتيال :

لما أيست الكرامية ، وعلمت أن ما وشت به لم يتم ، وأن حيلها ومكايدها قد وهت ، عدلت إلى السعي في موته ، والراحة من تعبه ، فسلطوا عليه من سمه ، فمضى حميداً شهيداً ، هذه خلاصة المحنة .

زعم باطل :

والمسألة المشار إليها : وهي انقطاع الرسالة بعد الموت مكذوبة قديماً على الإمام أبي الحسن الأشعري نفسه[1] .

إذا عرفت هذا فاعلم أن أبا محمد بن حزم الظاهري ذكر في « النصائح » أن ابن سبكتكين قتل ابن فورك بقوله لهذه المسألة ، ثم زعم ابن حزم أنها قول جميع الأشعرية .

قلت : وابن حزم لا يدري مذهب الأشعري ولا يفرق بينهم وبين الجهمية لجهلهم بما يعتقدون .

وقد حكى ابن الصلاح ما ذكره ابن حزم ثم قال :

(ليس الأمر كما زعم ، بل هو تشنيع على الأشعرية أثارته الكرامية فيما حكاه القشيري) .

رأي الذهبي :

ذكر الإمام الذهبي كلام ابن حزم ، وحكى أن السلطان أمر بقتل ابن فورك ،

---

(١) أنظر طبقات الشافعية للسبكي جـ٥ ص ٤٠٦ .

فشفع إليه ، وقيل :

هو رجل له سن فأمر بقتله بالسم فسقي السم ، ثم قال :

وقد دعا ابن حزم للسلطان محمود أن وفق لقتل ابن فورك ، وقال :

وفي الجملة : ابن فورك خير من ابن حزم وأجل وأحسن نحلة .

وقال قبل ذلك : أعني الإمام الذهبي :

« كان ابن فورك رجلا صالحا . ثم قال : كان مع دينه صاحب فلتة وبدعة »
اهـ .

مناقشة رأي الذهبي :

ويناقش السبكي رأي الذهبي فيقول :

قلت : أما أن السلطان أمر بقتله فشفع إليه . . . إلى آخر الحكاية فأكذوبة سمجة ، ظاهرة الكذب من جهات متعددة .

منها : أن ابن فورك لا يعتقد ما نقل عنه ، بل يكفر قائله ، فكيف يعترف على نفسه بما هو كفر ؟ وإذا لم يعترف فكيف يأمر السلطان بقتله ؟

وهذا أبو القاسم القشيري أخص الناس بابن فورك ، **فهل نقل هذه الواقعة ؟**

بل ذكر من عزى إلى الأشعرية هذه المسألة فقد افترى عليهم ، وأنه لا يقول بها أحد منهم .

ومنها أنه بتقدير اعترافه ، وأمره بقتله ، كيف ترك ذلك لسنه ؟

وهل قال مسلم : إن السن مانع من القتل بالكفر على وجه الشهرة أو مطلقاً ؟

ثم ليت الحاكي ضم إلى السن العلم ـ وإن كان أيضاً لا يمنع القتل ـ ولكنه لبغضه فيه لم يجعل له خصلة يمت بها ، غير أنه شيخ مسن .

فيا سبحان الله ، أما كان رجلا عالماً ؟

أما كان اسمه ملأ بلاد خراسان والعراق ؟

أما كان تلامذته قد طبقت طبق الأرض ؟

فهذا من ابن حزم : مجرد تحامل ، وحكاية لأكذوبة سمجة ، كان مقداره أجل من أن يحكيها .

وأما قول الإمام الذهبي : « أنه مع دينه صاحب فلتة وبدعة » فكلام متهافت ، فإنه يشهد بالصلاح والدين لمن يقضي عليه بالبدعة ، ثم ليت شعري ، ما الذي يعني بالفلتة ؟

إن كانت قيامه في الحق ـ كما نعتقد نحن فيه ـ فتلك من الدين ، وإن كانت في الباطل فهي تنافي الدين .

وأما حكمه : بأن ابن فورك خير من ابن حزم ، فهذا التفضيل أمره إلى الله تعالى ، ونقول لشيخنا :

إن كنت تعتقد فيه ما حكيت من انقطاع الرسالة : فلا خير فيه البتة ، وإلا فلم نبهت على أن ذلك مكذوب عليه لئلا يفتر به[١] ؟

من الرواية عنه من حديثه عن ابن خرزاز :

أخبرنا الحافظ أبو العباس بن المظفر بسنده ، أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن

---

(١) انتهى كلام السبكي .

هوزان القشيري ، أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسن فورك ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن خرزاز الأهوازي بسنده ، حدثنا سفيان الثوري ، وشريك بن عبد الله ، وسفيان بن عيينة عن سليمان عن خيثمة عن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال :

« لا ترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهة كاره ، وإن الله بعدله وبسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » اهـ .

ومن حديثه عن عبد الله بن جعفر وبه إلى ابن فورك :

أخبرنا عبد الله بن جعفر ، بسنده عن قتادة ، سمع أنسا يقول : قال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ومن كلامه رضي الله عنه :

« كل موضع ترى فيه اجتهاداً ، ولم يكن عليه نور ، فاعلم أنه بدعة خفية »

وبعد فيقول السبكي :

وهذا كلام بالغ في الحسن ، دال على أن الأستاذ كثير الذوق ، وأصله قوله ﷺ :

« البر ما اطمأنت إليه النفس » .

ونحن بكل إعجاب وتقدير ـ بعد البحث والتنقيب عن هذا العلم العالم ،

التقي الزاهد المحدث الفاضل ـ نقر ما قاله السبكي ورضي الله عنهم أجمعين .

وبالله السداد والتوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

موسى محمد علي

مشكل الحديث وبيانه

للإمام الحافظ أبي بكر بن فورك
المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

تحقيق وتعليق
موسى محمد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفضل بنعمه ، المتطول بأياديه ومننه[١] ، الذي خص من شاء بهدايته ، من غير حاجة[٢] ، ومنعها من شاء من غير نقص ولا آفة[٣] .

أوجد المخلوقات بقدرته ، وأتقنها بعلمه ، ودبرها على حسب إرادته ومشيئته .

ودلت بدائعه[٤] على حكمته ، وشهدت صنائعه بعزته وعظمته ، فكل مفطور[٥] شاهد بوحدانيته ، وكل مخلوق دال على إلاهيته وربوبيته ، متوحد بصفات العلو ، والتوحيد ، والتعظيم في أزله ، منفرد بأسمائه في قدسه ، مقدس عن الحاجات[٦] ، مبرأ عن العاهات ، منزه عن وجوه النقص والآفات ، متعال عن أن يوصف بالجوارح والآلات والأدوات ، والسكون والحركات ، والدواعي

---

(١) من عليه أنعم وبابه رد ، والمنان من أسماء الله تعالى ، ومن عليه أي أمن عليه وبابه رد . وفي الحديث : الكمأة من المن ، قال الزجاج : « المن كل ما يمن الله تعالى به مما لا تعب فيه ولا نصب ، وهو المراد في الحديث .

(٢) إذ هو الغني لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، سبحانه وتعالى .

(٣) ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ سورة ال عمران الاية (٢٦) .

(٤) خلائقه واختراعاته سبحانه ، من قولهم : أبدع الشيء اخترعه لأعلى مثال ، والله بديع السموات والأرض ، أي مبدعها ، والبديع المبتدع والمبتدع أيضاً .

(٥) الفطرة : بالكسر الخلقة ، ومفطور مخلوق ، والفطر أيضاً الابتداء والاختراع وبابه نصر : قال ابن عباس : رضي الله تعالى عنه :

كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأتها .

(٦) ﴿ **يا أيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الفُقراءُ إلى اللهِ واللهُ هُو الغنيُّ الحميدُ** ﴾ سورة فاطر الاية (١٥) .

والخطرات ، بل هو الأعلى عن جميع من في الأرض والسموات[1] .

لا يليق به الحدود والنهايات ، ولا يجوز عليه الألوان والمماسات ، ولا يجري عليه الأزمان والأوقات ، ولا يلحقه النقائض والزيادات .

موجود بلا حد ، موصوف بلا كيف ، مذكور بلا أين ، معبود بلا شبه .

لا تتصوره الأوهام[2] ، ولا تقدره الأفهام[3] ، ولا يحيط بكنه عظمته الدلائل والأعلام .

خلق ما خلق أنواعاً متفرقة : وأجناساً متفقة ، فدل بها أولي الألباب[4] ، على أنه خارج عن كل نوع وجنس ، بعيد عن مشابهة كل شيء بشكل وشكل .

ونحمده على نعمه عوداً وبدءاً ،ونشكره على فواضله[5] أولا وآخراً ، ونستعصمه من الخطأ والزلل ، ونستوفقه لأرشد القول والعمل ، ونستعينه على إتمام ما ابتدأ به من فضله ورحمته ، ونشهد له بالتوحيد والتفرد بإنشاء المخترعات على اختلافها نفعاً وضراً ، وعطاء ومنعاً ، وخيراً وشراً ، وأن جميع ذلك العدل من فضله ، والقسط[6] من تقديره وتدبيره .

---

(١) ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) وهم في الحساب غلط فيه وسها ، وبابه فهم ، ووهم في الشيء من باب وعد إذا ذهب وهمه اليه وهو يريد غيره ، وتوهم : أي ظن .

(٣) العقول والافكار ، وفي الخبر : « لا يعرف الله إلا الله » .

(٤) أولى العقول الراسخة والبصائر السليمة .

(٥) الفضل والفضيلة ضد النقص والنقيصة ، والأفضال والأحسان .

(٦) القسوط : الجور والعدول عن الحق ، وبابه جلس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ سورة الجن الآية (١٥) .

والقسط : بالكسر العدل ، تقول منه : أقسط الرجل فهو مقسط ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ سورة المائدة الآية (٤٢) .

ونشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصفوته وخيرته ، أرسله بالحق إلى الخلق بشيراً ونذيراً ، صادقاً أميناً ، فقطع به العذر ، وأكمل الحجة[1] ، وختم الرسالة[2] ، ﷺخاصة ، وعلى النبيين والمرسلين والملائكة المقربين ، وعلى جميع المطيعين له عامة ، وسلم تسليما .

(١) يشير الى قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾

(٢) تشير الى قوله تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِيناً ﴾

« فصل »

أما بعد : فقد وفقت أسعدكم الله بمطلوبكم ، ووفقنا الإتمام بما ابتدأنا به ، على تحري النصح والصواب ، إلى إملاء كتاب نذكر فيه ما اشتهر من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ، مما يوهم ظاهره التشبيه ، مما يتسلق به الملحدون ، على الطعن في الدين ، وخصوا بتقبيح ذلك : الطائفة التي هي الظاهرة بالحق[1] لساناً وبياناً ، وقهراً وعلواً وإمكاناً ، الطاهرة عقائدها من شوائب الأباطيل وشوائب البدع والأهواء الفاسدة ؛ وهي المعروفة بأنها اصحاب الحديث وهم فرقتان :

١ ـ فرقة منها هي أهل النقل والرواية ، الذين تشتد عنايتهم بنقل السنن ، وتتوفر دواعيهم على تحصيل طرقها ، وحصر أسانيدها ، والتمييز بين صحيحها وسقيمها ، فيغلب عليهم ذلك ، ويعرفون به وينسبون إليه .

٢ ـ وفرقة منهم يغلب عليهم تحقيق طرق النظر والمقاييس[2] ، والإبانة ، عن ترتيب الفروع على الأصول ، ونفي شبه الملبسين عنها ، وإيضاح وجوه الحجج والبراهين على حقائقها .

---

(١) يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون** » .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة : (**لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها**) ابن ماجه .

وفي رواية ايضاً عن جابر : (**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين الى يوم القيامة**) أخرجه مسلم .

وفي رواية أخرى عن عمر : (**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة**) أخرجه الحاكم .

(٢) وفي نسخة أخرى : والمقاييس .

فالفرقة الأولى للدين : كـالخزنة للملك ، والفرقة الأخرى كالبطارقة التي تذب[1] عن خزائن الملك ، المعترض عليها والمتعرضين لها ، وذكرتم أن أهل البدع ، من أصحاب الأهواء الفاسدة ، العادلة له من مناهج الكتاب والسنة ، نحو :

الجهمية[2] ، والمعتزلة[3] ، والخوارج[4] ، والرافضة[5] ،

---

(١) الذب : المنع والدفع ، وبابه رد ، والمعنى : تذب تدفع وتمنع من يريد السلب والنهب .

(٢) الجهمية : أصحاب جهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بن أمية ، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الازلية ، وزاد عليهم بأشياء منها : قوله : « لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقتضي تشبيها ، فنفى كونه حيا ، عالما ، وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق » الملل والنحل للشهرستاني جـ١ ص ١٢٧ .

(٣) المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية ، واعتزالهم يدور على أربع قواعد :

القاعدة الاولى : القول بنفي صفات الباري تعالى ، من العلم ، والقدرة ، والارادة ، والحياة ، ويردون جميع الصفات الى كونه عالما قادرا .

القاعدة الثانية : القول بالقدر ، وإنما سلك في ذلك مسلك معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وقرر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر ما كان يقرر قاعدة الصفات .

القاعدة الثالثة : القول بالمنزلة بين المنزلتين في حكم مرتكب الكبيرة .

القاعدة الرابعة : قوله في الفريقين من أصحاب الجمل ، وأصحاب صفين : أن أحدهما مخطىء لا بعينه .

(٤) الخوارج : كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الائمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والائمة في كل زمان . والمراد بهم هنا . أول من خرج على أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وهم جماعة ممن كان معه في حرب صفين ، وأشدهم خروجا عليه ، ومروقا من الدين : الأشعث بن قيس ، ومسعود بن ندكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي حين قالوا : القوم يدعونا الى كتاب الله وأنت تدعونا الى السيف ، حتى قال : أنا أعلم بما في كتاب الله » .

(٥) الروافض هم الشيعة الذي رفضوا إمامة زيد ثم أطلقت على الشيعة عموما ، ولا يقولون إلا بإمامة سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه .

والجسمية[1] . ومن ناصب[2] هذه الفرقة بالعدواة ، من سائر اهل الأهواء الباطلة تقصد دائماً تهجين هذه العصابة ، بنقل امثال هذه الأخبار ، وتروم بذلك التلبيس على الضعفاء ، لتوهمهم أنها تنقل ما لا يليق بالتوحيد ، ولا يصح في الدين ، وتظن أن هذه الفرقة ، احتملت ذلك لإعتقادها حقائق معاني هذه الألفاظ على حسب المعهود من أحوال الخلق ، المعروف من صفاتهم ، وجوارحهم ، وأدواتهم ، واشتغلت بذلك ، وهي ذاهبة عن معانيها ، غافلة عن المقاصد فيها ، فرمتها بكفر التشبيه ، وبفعلة أهل الإلحاد والتعطيل ، جاهلة أنها إنما نقلت ما وعت عن رسولها ، وروت ما سمعت عن العدول ، عن النبي ﷺ ، وقد اعتقدت اصول الدين ، وحقائق التوحيد بدلائل العقول والسمع ؛ فروت ذلك على موافقة أصولها ، ومعاضدة ما شهدت البراهين بصحتها .

وإنما حمل هؤلاء المبتدعة على هذا التهجين والإنكار على هذه الطائفة بنقل ما نقل من ذلك ، ما حمل الملحدة والمعطلة[3] على إنكار كتاب الله تعالى ، اعتراضاً منهم

---

(١) الجسمية : هم جماعة من الشيعة الغالية ، وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه مثل الهشاميين من الشيعة ، ومثل نصر ، وكهمش ، وأحمد الهجيمي وغيرهم من أهل الشيعة قالوا معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض إما روحانية أو جسمانية يجوز عليه الانتقال ، والنزول ، والصعود ، والاستقرار ، والتمكين « أنظر الملل والنحل للشهرستاني » .

(٢) نصرها وأيدها .

(٣) يقول صاحب محاسن التأويل :

« ومن البدع في هذا الموضع : بدع المشبهة على اختلاف أنواعهم ، وبدع المعطلة على اختلافهم أيضا : فغلاتهم يعطلون الذات والصفات والاسماء : الجميع ومنهم الباطنية ، ودونهم الجهمية .

ومن الناس من يوافقهم في بعض ذلك دون بعض ، فالفريقان المشبهة والمعطلة إنما أوتوا من تعاطي علم مالا يعلمون : ولو أنهم سلكوا مسالك السلف في الايمان بما ورد من غير تشبيه لسلموا ، فقد أجمعوا على أن طريقة السلف أسلم ، ولكنهم أدعوا أن طريقة الخلف أعلم ، فطلبوا العلم من غير فطانة ، بل

عليه ، بذكر بعض ما ذهبت عن معرفة معانيها وخفائها من آياته المتشابهة .

وذلك أن آي الكتاب قسمان :

فقسم هو محكم تأويله بتنزيله ، يفهم المراد منه بظاهره وذاته .

وقسم لا يوقف على معناه إلا بالرد إلى المحكم ، وانتزاع وجه تأويله[1] منه

طلبوا علم ما لا يعلم ، فتعارضت أنظارهم العقلية ، وعارض بعضهم بعضا في الادلة السمعية : فالمشبهة ينسبون خصومهم الى رد آيات الصفات ، ويدعون فيها ما ليس من التشبيه . والمعطلة ينسبون خصومهم وسائر أئمة الاسلام جميعاً الى التشبيه ، ويدعون في تفسيره ما لا تقوم عليه حجة . والكل حرموا طريق الجمع بين الآيات والآثار ، والاقتداء بالسلف الأخيار ، والاقتصار على جليات الأبصار ، وصحاح الآثار .

وقد روى زيد بن أسلم أن رجلا سأل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في مسجد الكوفة فقال : يا أمير المؤمنين ، هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً ؟

فغضب رضي الله عنه ونادى : « الصلاة جامعة » فحمد الله وأثنى عليه الى قوله : فكيف يوصف الذي عجزت الملائكة مع قربهم من كرسي كرامته ، وطول ولههم إليه وتعظيم جلال عزته ، وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم ، وهم من ملكوت القدس كلهم ، ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا :

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾

فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ، وتقدمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأتم به واستضيء بنور هدايته ، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها ، فخذ ما أوتيت ، وكن من الشاكرين : وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ، ولا في سنة النبي ﷺ، ولا عن أئمة الهدى أثره فكل علمه الى الله سبحانه ، فإنه منتهى حق الله عليك » اهـ .

(١) يشير بهذا إلى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾

ولكي نوضح شرح هذه المسألة نذكر ما ذكره فخر الدين الرازي فيها بنصه :

« اعلم أن القرآن دل على أنه بكليته محكم ؛ ودل على أنه بكليته متشابه ، ودل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه .

أما ما دل على أنه بكليته محكم قوله ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ سورة يونس الآية (١) ، ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ اياتُهُ ﴾ سورة هود الآية (١) ، فذكر في هاتين الآيتين أن جميعه محكم .

والمراد من المحكم بهذا المعنى : كونه كلاما حقا ، فصحيح الالفاظ ، صحيح المعاني ، وكل قول وكلام يوجد كان القرآن أفضل منه في فصاحة اللفظ وقوة المعنى ، ولا يتمكن أحد من إتيان كلام يساوي القرآن في هذين الوصفين ، والعرب تقول في البناء الوثيق والعقد الذي لا يمكن حله محكم ، فهذا معنى وصف جميعه بأنه محكم .

وأما ما دل على أنه بكليته متشابه فهو قوله تعالى : ﴿ كِتَاباً مُتَشابِهاً مِثَانِي ﴾ ، والمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضا ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ سورة النساء الآية (٨٢) .

أي لكان بعضه واراد على نقيض الآخر ، ولتفاوت نسق الكلام في الفصاحة والركاكة .

وأما ما دل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه فهو هذه الآية التي نحن في تفسيرها ، ولا بد لنا من تفسير المحكم والمتشابه بحسب أصل اللغة ، ثم من تفسيرهما في عرف الشريعة .

أما المحكم : فالعرب تقول : حاكمت وحكمت وأحكمت ، بمعنى رددت ومنعت ، والحاكم يمنع الظالم وحكمة اللجام هي التي تمنع الفرس عن الاضطراب .

وفي حديث النخعي : أحكم اليتيم كما تحكم ولدك ، أي امنعه عن الفساد .

وقال جرير : أحكموا سفهاءكم ، أي امنعوهم وبناء محكم ، أي وثيق يمنع من تعرض له ، وسميت الحكمة حكمة ، لأنها تمنع عما لا ينبغي .

وأما المتشابه ، : فهو أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سورة البقرة الاية (٧٠) .

وقال في وصف ثمار الجنة : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ سورة البقرة الآية (٢٥) أي متفق المنظر ، مختلف الطعوم .

وقال الله تعالى : ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ سورة البقرة الاية (١١٨) .

ومنه يقال : اشتبه على [illegible] يفرق بينهما .

ويقال لأصحاب المخاريق : اصحاب الشبه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **الحلال** بين والحرام بين ، **وبينهما أمور متشابهات** » **وفي رواية أخرى** (مشتبهات) .

فكذلك أخبار الرسول ﷺ، جارية هذا المجرى ، ومنزلة على هذا التنزيل فمنها ، الكلام البين[1] المستقل في بيانه بذاته .

ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الانسان عن التمييز بينهما سمي كل ما لا يهتدي الانسان اليه بالمتشابه، إطلاقا لاسم السبب على المسبب ، ونظيره المشكل سمي بذلك لأنه أشكل ، أي دخل في شكل غيره ، فأشبهه وشابهه .

ثم يقال لكل ما غمض وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل ، ويحتمل أن يقال : إنه الذي لا يعرف أن الحق ثبوته أو عدمه ، وكان الحكم بثبوته مساويا للحكم بعدمه في العقل والذهن ، ومشابها له ، وغير متميز أحدهما عن الآخر بمزيد رجحان فلا جرم سمي غير المعلوم بأنه متشابه .

فهذا تحقيق القول في المحكم والمتشابه بحسب أصل اللغة فنقول :

الناس قد أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه ، ونحن نذكر الوجه الملخص الذي عليه أكثر المحققين :

ثم نذكر عقيبه أقوال الناس فيه فنقول :

اللفظ الذي جعل موضوعا لمعنى ، فإما أن يكون محتملا لغير ذلك المعنى ، وإما أن لا يكون ، فإذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهذا هو النص وإما إن كان محتملا لغيره ، فلا يخلو إما أن يكون إحتماله لأحدهما راجحا على الآخر ، وإما أن لا يكون كذلك ، بل يكون إحتماله لهما على السواء ، فإن كان احتماله لأحدهما راجحا على الآخر سمي ذلك اللفظ بالنسبة الى الراجح ظاهراً وبالنسبة الى المرجوح مؤولا .

وإما إن كان إحتماله لهما على السوية كان اللفظ بالنسبة اليهما معا مشتركا وبالنسبة الى كل واحد منهما على التعيين مجملا ، فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه أن اللفظ إما أن يكون نصا أو ظاهرا أو مؤولا أو مشتركا أو مجملا ، أما النص والظاهر فيشتركان في حصول الترجيح ، إلا أن النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع من الغير ، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم .

وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان في أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة وإن لم يكن راجحا لكنه غير مرجوح ، والمؤول مع أنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد ، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمتشابه لان عدم الفهم حاصل في القسمين جميعا ، وقد بينا أن ذلك يسمى متشابها ، إما لأن الذي لا يعلم يكون النفي فيه مشابها للاثبات في الذهن ، وإما لاجل أن الذي يحصل فيه التشابه بعيد غير معلوم ، فأطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقا لاسم السبب على المسبب فهذا هو الكلام المحصل في المحكم والمتشابه » اهـ جـ٢ ص ٤٠١ ، ص ٤٠٢ .

(١) البين الواضح الذي لا يحتاج الى تأويل ، بل يفهم المراد منه لمجرد عرضه والتصريح به .

ومنها المفتقر في بيانه إلى غيره[١] ، وذلك على حسب عادة العرب في خطابها ، وعرف أهل اللغة في بيانها ، إذ لم يكن كل خطابهم جليا بينا مستغنيا عن بيان وتفسير (ولا كله خفيا مستحيلا يحتاج إلى بيان وتفسير)[٢] من غيره .

فإذا كانت دلائل الله تعالى على ما فطر عليها العقول منقسمة ؛ فكذلك دلائل السمع منقسمة .

وكما لم يعترض ما خفي من دلائل العقل على ما تجلى منها ، حتى يسقط دلائل العقول رأساً ، فكذلك ، ما خفي من دلائل السمع لا يعترض على ما تجلى منها ، وإنما أراد الله عز وجل ، أن يرفع الذين أوتوا العلم[٣] بخصائص رفعه ، ودرجات فيها يبين حالهم بها ، عمن لم ينعم عليه بمثلها[٤] ، فإذا كانت دلائل العقول صحيحة ، مع تفاوتها في الجلي والخفي عند أكثر الملحدة[٥] فكذلك دلائل الله عز وجل فيما دلت عليه من الأحكام والأوصاف ، ونعوت الخالق والخلق ، وكذلك كون تنويع دلائل السمع ـ الذي هو السنن ـ متنوعة ، لا يبطلها جهل الجاهل بمعانيها .

وهذه المقدمة تكشف لك عن جهالة المبتدعة في اعتراضهم أهل النقل عن أصحابنا في نقل هذه الأخبار : فتوضح لك أن قود هذه المقالة يجر القائل به والقائل له إلى أبطال الكتاب بمثل ما أبطل به السنة .

---

(١) الذي يحتاج الى تأويل ليفهم المقصود منه والمراد به .

(٢) ما بين القوسين غير موجود في نسخة أخرى .

(٤) يشير الى قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ سورة المجادلة آية (١١) .

(٥) أي حرم نعمة العلم وبالتالي حرم نعمة الرفعة التي يرفع الله بها من أوتوا العلم درجات ، كما نصت على ذلك الآية السابقة في سورة المجادلة .

وإنه متى زعم أن للآي المتشابهة التي وردت في الكتاب معنى وطرقاً من جهة اللغة تنزل عليها وتصحح بها ، من حيث لا يؤدي إلى شبهة ولا إلى تعطيل[١] ، فكذلك سبيل هذه الأخبار ، والتطرق إلى تنزيل معانيها ، وتصحيح وجوهها على الوجه الذي يخرج عن التشبيه والتعطيل ، كذلك لم يبق إلا أن هؤلاء المبتدعة إنما تقصد بهذا التهجين ، الكشف مما تستره من العقائد الردية في هذه الطائفة الطاهرة ، التي هي بالحق ظاهرة[٢] سبيل اعتراض الملحدة أجاوبني .

وأما ما كان من نوع الآحاد مما صحت الحجة به من طريق وثاقة[٣] النقلة ، وعدالة الرواة ، وإتصال نقلهم ، فإن ذلك ـ وإن لم يوجب العلم والقطع ـ فإنه يقتضي غالب ظن ، وتجويز حكم ، حتى يصح أن يحكم أنه من باب الجائز الممكن دون المستحيل الممتنع .

وإذا كانت ثمرة ما جرى هذا المجرى من الأخبار ما ذكرناه فقد حصلت به فائدة عظيمة ، لا يمكن التوصل إليها إلا به ، وهذا يقتضي أن يكون الإشتغال بتأويله وإيضاح وجهه مرتباً على ما يصح ، ويجوز في أوصافه جل ذكره محمولا على الوجه الذي نبينه من غير اقتضاء تشبيه أو إضافة إلى ما لا يليق بالله جل ذكره إليه ، فعلى ذلك تجري مراتب هذه الأخبار ، وطرق تأويلها ، فاعلمه إن شاء الله تعالى .

---

(١) بيد أن القرآن الكريم أمرنا أن نرد علم ذلك لله تعالى وحده :
﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللهُ، وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوْا ٱلْأَلْبَابِ﴾ سورة آل عمران آية (٧) . أمر برد علم ذلك لله تعالى وحده بعد أن بين في صدر الآية قول الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

(٢) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم :
« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(٣) أي ثقة الناقل وأمانته وعدالة الرواة وسلامة اتصال نقلهم .

ذكر خبر مما يقتضي التأويل
ويوهم ظاهره التشبيه

وهو حديث الصورة ، وبيان تأويله ، فمن أقسام الرتبة الأولى من هذه الأخبار مما يدخل في باب المستفيض ، الذي تلقاه أهل العلم بالقبول ، ولم ينكره منهم منكر ، وهو حديث الصورة[1] .

وقد روي ذلك على وجهين في بعض الأخبار ، وهو قوله عليه السلام :

« **إنّ الله خلق آدم على صورته** » .

ولا خلاف بين أهل العلم والنقل ، في صحة ذلك .

---

(١) وحديث الصورة هو ما أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان ، باب بدء الأذان جـ٨ ص ٥٠ ولفظه : حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا عبد الرزاق ، عن عمر ، عن همام ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال : إذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ، ورحمة الله فزاده : ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق بنقص حتى الآن » .

وفيما أخرجه الامام مسلم بسنده عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال : إذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك به ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، قال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله » قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق بنقص بعده حتى الآن » .

وقد روي أيضاً « **إن الله خلق آدم على صورة الرحمن** »(١) وأهل النقل أكثرهم على إنكار ذلك ، وعلى أنه غلط وقع من طريق التأويل لبعض النقلة ، فتوهم أن الهاء يرجع إلى الله تعالى ،فنقل على المعنى على ما كان عنده في أن الكناية ترجع إلى الله تعالى(٢) .

وقد روي في بعض أحاديث عكرمة عن ابن عباس ، وفي حديث أم الطفيل وغيره عن النبي ﷺ : اطلاق لفظ الصورة على وجه آخر ، وهو قوله عليه السلام :

---

(١) والمعنى ، بأن هذه الاضافة إضافة تشريف وتكريم ، لأن الله تعالى خلقه على صورة لم يشكلها شيء من الصور في الكمال والجمال .

وقيل الضمير لله تعالى لما في بعض الطرق : « خلقه على صورة الرحمن » أي على صفته تعالى من العلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء .

(٢) ويقول ابن قتيبة :

« وقد اضطرب الناس في تأويل قول رسول الله ﷺ : « إنه خلق ادم عليه السلام على صورته » : فقال قوم من أصحاب الكلام :

أراد خلق آدم على صورة آدم ، لم يزد على ذلك ولو كان المراد هذا ما كان في الكلام فائدة . ومن يشك في أن الله تعالى خلق الانسان على صورته ، والسباع على صورها ، والأنعام على صورها ؟ وقال قوم : إن الله تعالى خلق آدم على صورة عنده .

وهذا لا يجوز ، لأن الله عز وجل لا يخلق شيئاً من خلقه على مثال .

وقال قوم في الحديث لا تقبحوا الوجه ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته . يريد أن الله جل وعز ، خلق آدم على صورة الوجه .

وهذا أيضا بمنزلة التأويل الاول ، لا فائدة فيه .

والناس يعلمون أن الله تبارك وتعالى خلق آدم ، على خلق ولده ، ووجهه على وجوههم . وزاد قوم في الحديث : إنه ـ عليه السلام ـ مر برجل يضرب وجه رجل آخر فقال : « **لا تضربه ، فإن الله تعالى ،** خلق ادم ، عليه السلام ، على صورته ، أي صورة المضروب » . وفي هذا القول من الخلل ، ما في الأول .

ولما وقعت هذه التأويلات المستكرهة ، وكثر التنازع فيها ، حمل قوما اللجاج على أن زادوا في

« رأيت ربي في أحسن صورة »[1] .

الحديث ، فقالوا : روى ابن عمر عن النبي ﷺ، فقالوا :

« إن الله عز وجل خلق ادم على صورة الرحمن » .

يريدون أن تكون الهاء في « صورته » لله عز وجل ، وأن ذلك يتبين بأن يجعلوا الرحمن مكان الهاء كما تقول : « إن الرحمن خلق آدم على صورته » فركبوا قبيحا من الخطأ .

وذلك أنه لا يجوز أن نقول : « إن الله تعالى خلق السماء بمشيئة الرحمن » ولا إرادة الرحمن .

وإنما يجوز هذا . إذا كان الاسم الثاني غير الاسم الاول ، أو لو كانت الرواية : « لا تقبحوا الوجه ، فإنه خلق على صورة الرحمن » فكان « الرحمن » غير الله أوالله ، غير الرحمن .

فان صحت رواية ابن عمر عن النبي ﷺبذلك ، فهو كما قال رسول الله ﷺفلا تأويل ، ولا تنازع فيه .

قال أبو محمد :

ولم أر في التأويلات شيئا أقرب من الاطراد ، ولا أبعد من الاستكراه ، من تأويل بعض أهل النظر ، فإنه قال فيه :

« أراد أن الله تعالى خلق آدم في الجنة على صورته في الارض » .

كأن قوما قالوا : إن آدم كان من طوله في الجنة كذا ، ومن حليته كذا ، ومن نوره كذا ، ومن طيب رائحته كذا ، لمخالفة ما يكون في الجنة ما يكون في الدنيا .

فقال النبي ﷺ : ﴿ إن الله خلق آدم ﴾ يريد في الجنة ﴿ على صورته ﴾ يعني في الدنيا اهـ .

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه يقول رسول الله ﷺ : « رأيت ربي في أحسن صورة فقال يا محمد ، قلت : لبيك ربي وسعديك ، قال : هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ .

قلت : لا أعلم ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، فقال : يا محمد ، أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى ،؟ قلت . نعم ، في الدرجات ، والكفارات ، ونقل الأقدام الى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في السبرات ، وإنتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن حافظ عليهن عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه :

قال : يا محمد ، قلت لبيك ربي وسعديك ، قال : إذا صليت فقل : اللهم إني أسأل فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني اليك غير مفتون ، قال : والدرجات إفشاء السلام ، وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » .

بيان تأويل ذلك

فأما قوله عليه السلام « خلق آدم على صورته » فقد تأوله المتأولون ، من أهل العلم ، على وجوه كثيرة ، سنذكرها ، ثم نزيد فيها ما وقع لنا في تأويله ، مما يوافق تأويلهم ، ويبين خطأ من ذهب عن وجهه الصواب في تأويله ، وأظهر وجوه التأويل في ذلك .

ومما قيل : إن هذا الخبر خرج على سبب وذلك أن النبي ﷺمر برجل يضرب ابنه أو عبده في وجهه لطما ، ويقول : قبح الله وجهك ؛ ووجه من أشبه وجهك .

فقال ﷺ :

« إذا ضرب أحدكم عبده فليتق الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته »[1] .

والمعنى : « رأيت ربي بالمشاهدة العينية التي لم يحتمل الكليم أدنى شيء منها ، او القلبية بمعنى التجلي التام ، فقد روي عنه عليه السلام : « إني مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل » والارجح ان الله جمع له بين الرؤية البصرية والجنانية ولا يعارضه قول الله لكليمه :

﴿ لن تراني ﴾ إذ لا يلزم من نفيها عن موسى عليه السلام نفيها عن محمدﷺ ، والله سبحانه حي موجود فلا يمتنع رؤيته عقلا وحاسية العين غير ركن للرؤية ولولا حجب النفس والهدى لرات العين في الدنيا ما يراه القلب وعكسه .

وهذا الحديث رواه الدارقطني وغيره عن أنس .

قال صاحب فيض القدير :

« وهذا إن حمل على رؤ ية المنام فلا إشكال أو اليقظة فقد سئل عنه الكمال بن الهمام فأجاب بأن هذا حجاب الصورة » اهـ .

(١) أخرجه الامام البخاري ، والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، إلا أن رواية الامام البخاري (إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه) .

وقد نقل الناقلون هذه القصة مع هذه اللفظة من الطرق الصحيحة ، وإنما ترك بعض الرواة بعض الخبر اختصاراً ، على ما يذكر منه للدلالة على ما يحذف إذا كانت القصة عنده مشهورة مضبوطة ، بنقل الإثبات ، لأن أكثر الغرض عندهم الأسانيد دون المتون ، فلذلك ترك بعضهم ذكر السبب فيه .

فالأولى أن يحمل المختصر من ذلك على المفسر ، حتى يزول الإشكال ، وإنما قال النبي ﷺ له ذلك ، لأنه سمعه يقول :

« قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك » وذلك سب للأنبياء[١] وللمؤمنين فزجره عن ذلك[٢] .

وخص آدم بالذكر لأنه هو الذي ابتدئت خلقة وجهه على الحد الذي يحتذى عليها من بعده ، كأنه ينبهه على أنك قد سببت آدم ومن ولد ، مبالغة في الردع له عن مثله ، وإذا كان كذلك فهذا وجه ظاهر ، والهاء كناية عن الضرب في وجهه ولا شبهة فيه .

وقال السخاوي : رواه البخاري ، والنسائي ، عن أبي هريرة مرفوعا ، ورواه ابو داود : فليتق الوجه ، والطبراني عن أبي هريرة بلفظ (إذا ضربتم فاتقوا الوجه فان الله خلق آدم على صورته) ، وابن منيع عن أبي هريرة بلفظ : (إذا ضربتم المملوكين فلا تضربوهم على وجوههم) .

وخص الوجه بالذكر : لأنه شين ، ومثله له للطافته وتشريفه على جميع الأعضاء الظاهرة ، لأنه الأصل في خلقة الانسان ، وغيره من الأعضاء خادم ، لأنه الجامع للحواس التي بها تحصل الادراكات المشتركة بين الأنواع المختلفة ، ولأنه أول الأعضاء في الشخوص والمقابلة والتحدث . والقصد . ولأنه مدخل الروح ومخرجه ومقر الجمال والحسن . وبه قوام الحيوان كله ناطقة وصامتة . فلما كان بهذه المثابة إحترمه الشرع وأمر بعدم التعرض له في عدة أخبار بضرب أو إهانة أو تقبيح أو تشويه .

(١) إذ أنه خلق وجه الانسان على وجه آدم كما نص على ذلك الحديث « فإنه خلق آدم على صورته » وآدم نبي من الأنبياء وهذا معنى سب للانبياء والمرسلين .

(٢) وللبخاري في الادب المفرد . وأحمد من طريق ابن عجلان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « لا يقولن قبح الله وجهك . ووجه من أشبه وجهك . فإن الله خلق آدم على صورته » أي صورة المدعو عليه

والوجه الآخر مما تأوله عليه الناس أن الكناية في قوله : صورته ترجع إلى آدم[1] ، وذلك ينقسم إلى وجوه :

أحدها : أن يكون معناه وفائدة تعريفنا نعمة الله تعالى على أبينا آدم عليه السلام ، أن فضله بأن خلقه بيده ، وأسكنه جنته ، وأسجد له ملائكته وعلمه ما لم يعلمه أحداً قبله من الأسماء والأوصاف[2] ، ثم عصاه وخالفه فلم يعاقبه على ذلك

بهذه المقالة .

وهو ظاهر في عود الضمير على المقول له ذلك ، وهو المدعو عليه .

(١) يقول القسطلاني :

« والضمير يعود لآدم . أي أن الله أوجده على الهيئة التي خلقها الله عليها . ولم ينتقل في النشاة أحوالا . ولا تردد في الأرحام أطواراً . كما هو الحال في خلق بني آدم . بل خلقه كاملا مسويا » اهـ .

ثم استطرد قائلا :

« الضمير عائد على آدم . أي خلقه تاما مستويا . لم يتغير عن حاله . ولا كان من نطفة . ثم علقه . ثم من مضغة . ثم جنينا . ثم طفلا . ثم رجلا . حتى تم . ولم ينتقل في هذه الأطوار كذريته . وقيل : الضمير لله تعالى . لما في بعض الطرق (خلقه على صورة الرحمن) أي على صفته تعالى من العلم والحياة . والسمع . والبصر . وغير ذلك . وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء » .

ثم يقول التوربشتي :

« وأهل الحق في ذلك على طبقتين : إحداهما المتنزهون عن التأويل مع نفي التشبيه . وإحاطة ذلك إلى علم الله تعالى : الذي أحاط بكل شيء علما ، وهذا أسلم الطريقتين .

والطبقة الاخرى : يرون الاضافة فيها إضافة تكريم وتشريف . وذلك أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورة لم يشاكلها شيء من الصور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجليلة .

ثم يعقب الطيبي على هذا فيقول :

« التأويل في هذا المقام حسن يجب المصير اليه . لأن قوله (طوله) بيان لقوله (على صورته) فكأنه قال : خلق آدم على ما عرف عليه . من صورته الحسنة . وهيئته من الجمال والكمال . وطول القامة . وخص الطول منها : لأنه لم يكن بين الناس » القسطلاني .

(٢) وفي سورة البقرة ما يبين ذلك كله :

يقول سبحانه :

بسائر ما عاقب به المخالفين له في نحوه ، وذلك أنه روي في الخبر أنه : أخرج آدم من الجنة ، وأخرج معه الحية والطاووس فعاقب الحية بأن شوه خلقها وسلبها قوائمها ، وجعل أكلها من التراب[1] وشوه رجلي الطاووس ولم يشوه خلقة آدم ، بل أبقى له حسن الصورة ، ولم يجعل عقوبته في ذلك .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ . فقال : أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ .
قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمَ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِنَ ﴾ سورة البقرة آية : ٣١ ـ ٣٥ .

(١) أخرج عبد الرزاق عن وهب بن منبه :
« دخل ـ إبليس ـ الجنة في فم الحية ، وهي ذات أربع كالبختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية ، فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها الى حواء فقال : أنظري الى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها ، فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها » .
زاد القرطبي في رواية :
ثم أغوى آدم ، وقالت له حواء : كل فإني قد أكلت فلم يضرني ، فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما ، وحصلا في حكم الذنب ، فدخل آدم في جوف الشجرة ، فناداه ربه : أين أنت ؟
فقال : أنا هذا يا رب ، قال : ألا تخرج ؟ قال استحي منك يا رب ، قال : أهبط الى الارض التي خلقت منها ، ولعنت الحية وردت قوائمها في جوفها ، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم ، ولذلك أمرنا بقتلها ، وقيل لحواء : كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر ، وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا .
ثم يستطرد القرطبي فيقول :
« يذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فخانته بأن مكنت عدو الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ، فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب ، وقيل لها ، أنت عدو بني آدم وهم أعداؤك وحيث لقيهم منهم أحد شدخ رأسك » اهـ .
روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « خمس يقتلهم المحرم » فذكر الحية فيهن .

فعرفنا ﷺ بذلك أن أباكم آدم عليه السلام ، كان في الجنة على الصورة التي كان عليها في الدنيا ، لم يغير الله خلقته ، وتكون فائـدة ذلك : تعريفنا الفرق بينه وبين سائر من أخرجه من الجنة معه ، وإبانته منهم في الرتبة والدرجة ، وهذه فائدة لا يمكن الوقوف عليها إلا بخبر الصادق .

والوجه الثاني من ذلك : إذا قلنا : إن الهاء يرجع إلى آدم ، فسبيله أن النبي عليه السلام ، أفادنا إبطال قول أهل الذمة : أنه لم يكن إنسان إلا من نطفة ولا نطفة إلا من إنسان فيما مضى ويأتي ، ليس لذلك أول ولا آخر ، وأن الناس إنما ينتقلون من نشوء ، على ترتيب معتاد ، وإن كـان ذلك أبـداً كان كـذلك[1] ، فعـرفنا ﷺ بتكذيبهم ، وأن أول البشر آدم عليه السلام ، خلق على صورته التي كان عليها وعلى الهيئة التي شوهد عليها من غير أن كان من نطفة قبله ، أو عن تناسل ، أو تنقل من صغر إلى كبر ، كالمعهود من أحوال أولاده ، فأما[2] ما دلت عليه دلائل العقول ، من كون هذا العالم ذا ابتداء وإنتهاء .

وأفاد به ما لا يوصل إليه إلا بالسمع ، إلا أن الأصل الذي هو منه توالدنا لم يكن عن توالد قبله ـ بل خلق كما كان عليه ـ وهو آدم عليه السلام ، خلقه الله عز وجل من صلصال كالفخار ، ثم خلق فيه الروح ، ولم يكن قط في صلب ولا رحم ، ولا كان علقة ولا مضغة ، ولا مراهقاً ، ولا طفلا بل خلق ابتداء بشرا سويا كما شوهد

---

(١) يقول القسطلاني :

(الضمير عائد على آدم ، أي خلقه تاماً مستويا ، لم يتغير عن حاله ، ولا كان من نطفة ، ثم علقه ، ثم من مضغة ، ثم جنينا ، ثم طفلا ، ثم رجلا ، حتى تم ، ولم ينتقل في هذه الأطوار كذريته . وفيه إبطال لقول الدهرية : إنه لم يكن قط إنسان إلا من نطفة ، ولا نطفة إلا من إنسان ذكر ذلك ابن بطال) اهـ كتاب الاستئذان جـ٩ ص ١٣٠ .

(٢) وفي نسخة أخرى : فأبان وهو الاصح ليستقيم المعنى .

وعهد[1] .

والوجه الثالث من وجوه هذا التأويل : في الرجوع بالهاء إلى آدم عليه السلام ، على ما ذهب إليه بعضهم في تأويله ، وهو أنه أفادنا ﷺ ، أن الله عز وجل خلق آدم على الصورة التي كان عليها ، من غير أن كان ذلك حادثاً أو شيئاً منه ، عن توليد عنصر أو تأثير طبع ، أو فلك ، أو ليل ، أو نهار ، إبطالا لقول الطبائعيين :

إن بعض ما عليه آدم عليه السلام ، من هيئة وصورة لم يخلقه الله عز وجل وإنما كان ذلك من فعل الطبع ، أو تأثير الفلك[2] .

---

(١) أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما ، وابن حبان ، والبزار ، والترمذي ، والنسائي من حديث سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً :

« إن الله خلق آدم من تراب ، فجعله طينا ، ثم تركه حتى إذا كان حماً مسنونا خلقه وصوره ، ثم تركه حتى إذا صار صلصالا كالفخار ـ كان إبليس يمر به فيقول : (خلقت لأمر عظيم) ـ ثم نفخ فيه من روحه ، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فقال : الحمد لله ، فقال الله : يرحمك ربك » الحديث .

وفي حديث ابي موسى مما أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان مرفوعاً : « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الارض » ففي هذا أن الله تعالى لما أراد خلق آدم وإبرازه من العدم الى الوجود قلبه في الستة الأطوار : طور التراب ، وطور الطين اللازب ، وطور الحمأ المسنون ، وطور الصلصال وطور التسوية ، وهي جعل الخزفة ، التي هي الصلصال عظما ولحما ودما ، ثم نفخ فيه الروح » . اهـ .

(٢) أخرج عبد الرزاق عن معمر قال :

« خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً » .

ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني :

(إن الضمير لآدم) والمعنى : أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالا ولا تردد في الأرحام أطواراً كذريته ، بل خلقه الله رجلا كاملا سوياً من أول ما نفخ فيه الروح ، ثم عقب ذلك بقوله (وطوله ستون ذراعاً) فعاد الضمير أيضا على آدم ، وقيل : معنى قوله على صورته ، أي لم يشاركه في خلقه أحد إبطالا لقول أهل الطبائع اهـ .

فنبه بذلك على أن الله تعالى ، هو الخالق لآدم عليه السلام ، على ما كان فيه من الصورة والتراكيب والهيئات ، لم يشاركه في خلق صورة من صوره أو هيئة من هيئاته أحد سواه ، فاستفدنا بذلك بطلان قول من قال : بتوليد الطبع وإيجابه ، وتأثير الفلك وتغييره .

وخص آدم عليه السلام ، بالذكر تنبيها على أن من شاركه من المخلوقات في معناه ، وهذه طريقة للعرب في التفهيم تذكراً على ما في هذا الباب ، للدلالة على الأدنى[1] .

فإذا عرف أن صورة آدم وتركيبه وهيئته ، لم يخلقها أحد إلا الله عز وجل علم سائر المصورات من أولاده وغيرهم ، فحكمها كذلك[2] .

وقال بعضهم : الهاء يرجع إلى بعض المشاهير من الناس ، والفائدة في الخبر ، يعرفنا أن صورة آدم عليه السلام ، كانت كهذه الصورة ، إبطالا لقول من زعم أنها

ثم يعقب القسطلاني على ذلك فيقول :

وعورض هذا التفسير بقوله في حديث آخر « خلق الله ادم على صورة الرحمن » .

وأجيب عن ذلك بان هذه الاضافة إضافة تشريف وتكريم ، لأن الله تعالى خلقه على صورة لم يشكلها شيء من الصور في الكمال والجمال » اهـ .

(١) يقول ابن حجر العسقلاني :

(وخص ـ آدم ـ بالذكر : تنبيها بالأعلى على الادنى) اهـ .

(٢) إذ هم فرع الأصل لآدم ، والفرع يتبع الأصل بداهة في البدء إذ منه نبع ونشأ والقرآن الكريم يوضح هذا في سهولة ويسر فيقول :

﴿ يا أيها الناس آتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ﴾ .

يقول الفخر الرازي :

« إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال حكمته وجلاله » .

كانت على هيئة أخرى ، كما روي في بعض الروايات ، من ذكر طوله وقامته ، وذلك مما لا يوثق به ، إذ ليس في ذلك خبر صحيح ، وإنما المعول في مثله على كعب ، أو وهب ، من أحاديث التوراة ، ولا ثقة بشيء من ذلك ، ولم يثبت من وجهة أخرى أنه قد كانت خلقة آدم عليه السلام على خلاف هذه الخلقة ، على الحد الزائد الذي يخرج عن المعهود من متفاوت البشر .

والطريقة الثانية في تأويل ذلك أن يكون الهاء كناية عن الله ، وهذا أضعف الوجهين ، من قبل أن الظاهر ، أن الهاء ترجع إلى أقرب المذكور اليه إلا أن تدل دلالة على خلاف ذلك .

وإذا قلنا هذا احتمل وجوها :

أحدها : أن يكون معنى الصورة على هذا ، معنى الصفة ، كما يقال عرفني صورة هذا الأمر ، أي صفته ، ولا صورة للأمر على الحقيقة إلا على معنى الصفة ؛ ويكون تقدير التأويل فيه : أن الله عز وجل ، خلق آدم على صفته ، وذلك أن المخلوقات قسمان :

جماد ونام .

والنامي نوعان : حيوان وما ليس بحيوان .

والحيوان على نوعين ناس وبهائم ، ثم سوى الجن والملك ، ثم لم يشرف من الحيوان والجماد شيء سوى الإنسان[1] للإضافة إلى النامي والبهائم ، ولم يشرف من

---

(١) ولعل أبرز ما شرف الله به الانسان العقل والخلق وحسن الصورة ، فزينة المرء عقله وكماله خلقه وجماله في تقويمه ، يقول سبحانه :
﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .
والآية الجامعة لتكريم الله لبني ادم :

نوع الحيوان الناطق ، أحد سوى الأنبياء[1] ، وذلك أن نوعاً من العقلاء من الحيوان كالجن والملك والإنس ، خص بالعقل والنطق وشرف به ، وذلك من خصال كمال التعالي ، ثم لما كان أكمل الأشياء نعتاً وأتمها رفعة وتعظيمًا هو الله عز وجل ، وكان الحي العالم القادر السميع البصير المتكلم المريد ، وذلك نعوت عظمة وعزة وجلالة ، خلق آدم على صفته ، مما هي صفة التعالي حياً عالماً قديراً سميعاً بصيراً متكلمًا مختاراً مريداً .

فميزه[2] من الجماد والنامي بما نفخ فيه من الروح[3] .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ .

(١) يقول صاحب الجوهرة في التوحيد :

وأفضل الخلق على الاطلاق　　نبينا فمل عن الشقاق
والأنبيا يلونه في الفضل　　وبعدهم ملائكة ذي الفضل

والمعنى كما يقول الشيخ البيجوري :

« أفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خصال الخير وأوصاف الكمال نبينا محمد ﷺ .

وإذا عرفت هذا الحكم المجمع عليه ، فاعدل عن المنازعة فيه ، لأنه لا تجوز المنازعة في الحكم المجمع عليه ، إذلا لا يجوز خرق الاجماع .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتبعون نبينا محمداً ﷺ في الفضل ، فمرتبتهم بعد مرتبته ﷺ فيه ، وإن تفاوتوا فيها ، فيليه سيدنا إبراهيم ، فسيدنا موسى ، فسيدنا عيسى ، فسيدنا نوح ، وهؤلاء هم أولوا العزم وتحمل المشاق .

ويلي أولى العزم بقية الرسل ، ثم الانبياء غير الرسل مع تفاوت مراتبهم عند الله تعالى ، فالواجب اعتقاد أفضلية الافضل على طبق ما ورد به الحكم تفصيلا في التفصيلي ، وإجمالا في الاجمالي ، ويمتنع الهجوم فيما لم يرد فيه توقيف .

وبعد الانبياء ملائكة الله ذي الفضل ، فمرتبتهم تلي مرتبة الانبياء في الجملة .

(٢) وفي نسخة أخرى : مميزاً عن الجماد والنامي بما نفخ فيه من روح .

(٣) ويشهد له قوله سبحانه : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

وميزه[1] من البهائم بما ركب فيه من العقل والنطق[2] .

وميزه من جنسه[3] من وقته بأن نبأه وأرسله .

وميزه من الملائكة بأن قدمه عليهم وأسجدهم له[4] ، وجعلهم تلاميذه ، وأمرهم أن يتعلموا منه[5] ، فحصلت له رتبة الجلال والعظمة ، مما نوعه الله عز وجل ، بأن حصل سجوداً[6] له مختصاً بالعلم بما لا يشاركه فيه في حالة غيره ، فتميز بهذه الصفات ، وهي صفات التعالي من سائر العالمين والمخلوقين في وقته ، فعرفنا

---

(١) بمعنى عن أي ميزة عن البهائم .

(٢) فالعقل أس الفضائل وينبوع الآداب ، وهو الذي جعله الله تعالى للدين أصلا ، وللدنيا عماداً ، فأوجب سبحانه التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه مع اختلاف همهم ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم .

ومن هنا كان قول سيدنا رسول الله ﷺ :

« ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردي »

وقال عمر رضي الله عنه : (أصل الرجل عقله ، وحسبه دينه ، ومروءته خلقه) .

وما أجمل ما أنشد به إبراهيم بن حسان في قصيدة طويلة له :

يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه ... على العقل يجري علمه وتجاربه

وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فليس من الاشياء شيء يقاربه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

(٣) أي ميزه عن سائر بني البشر إذ ليس كل بشر يوحى اليه .

(٤) وذلك حيث أمرهم بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ .

(٥) وذلك لما علمه الأسماء كلها عرضهم على الملائكة فقال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قالُوا سُبْحانك لا عِلْم لنا إلاّ ما [illegible] ٱلْعليمُ ٱلْحكيمُ ، قال يا ادمُ أنْبِئْهُمْ بِأسْمائِهِمْ ، فلمّا أنْبأهُمْ بِأسْمائِهِمْ قال ألمْ أقُلْ لكُمْ إِنِّي أعْلَمُ غيب ٱلسّموات وٱلأرْض واعْلمُ ما تبْدُون وما كُنْتُم تكْتُمُون ﴾ . سورة البقرة : الايات (٣١ ـ ٣٣) .

(٦) أي استجاب الملائكة للأمر الالهي وسجدوا له .

عليه السلام بذلك إسباغ نعم الله عز وجل عليه ، وتشريفه إياه بخصال التعالي وهي صفات مما في صفات الله على الاختصاص .

والوجه الثاني : من قولنا أن الهاء راجعة إلى الله ، وهو أن يعلم من طرق الإضافات إلى الله عز وجل ، وطرق التخصيص فيها ، وذلك أن من الأشياء ما يضاف إلى الله عز وجل من طريق أنه فعله ، كما يقال : « خلق الله »[1] « وأرض الله » « وسماء الله » .

وقد يضاف مثل هذه الإضافة على معنى الملك[2] فيقال : رزق الله وعبد الله ، وقد يقال على معنى الإختصاص من طريق التنويه بذكر المضاف ، إذا خص بالإضافة إليه ، وذلك نحو قوله « ناقة الله » فإنها إضافة تخصيص وتشريف ، يفيد التحذير والورع عن التعرض لها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[3] .

وقول المسلمين للكعبة بيت الله تخصيصاً بالذكر في الإضافة إليه تشريفاً ، وهو كقوله أيضاً في إضافة المؤمنين إلى نفسه بلفظ العبودية في قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾ إلى آخر صفاتهم[4] .

---

(١) أي إضافة الفعل وإسناده حقيقة للفاعل الحقيقي وهو الله تعالى .

(٢) بمعنى أن ملك ذلك له وحده سبحانه وتعالى :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الحجر .

(٤) الآية ٦٣ من سورة الفرقان ، ، وصفاتهم كما ذكرت الآيات التالية :

وقوله :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ ﴾[1] .

والوجه الآخر من الإضافة : نحو قولك ، كلام الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، وفي إضافة اختصاص من طريق القيام به ، كما يقال في إضافة الأرض إلى المحل ، وما لا يقوم بنفسه إلى ما يقوم بنفسه ، وليس ذلك من جهة الملك والفعل والتشريف بل ذلك على معنى أن ذاته غير منعوتة منه قياماً بها وقعوداً ووجوداً ، ثم نظرنا في إضافة الصورة إلى الله عز وجل ، فلم يصح أن يكون وجه إضافتها إليه على نحو إضافة

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاماً ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَها كَانَ غَرَاماً ، إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ، وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَناتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ، وَمَنْ تَابَ وعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلى اللهِ مَتاباً ، وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْها صُمّاً وعُمْياناً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً ﴾ .

فصفات المؤمنين كما ذكرت هذه الآيات :

يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .

٢ ـ تضرعهم الى الله تعالى والدعاء له .

٣ ـ إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا .

٤ ـ التوحيد فلا يدعون مع الله إلهاً آخر .

٥ ـ لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق .

٦ ـ لا يزنون .

٧ ـ لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما .

٨ التذكر والاتعاظ بآيات الله تعالى .

(١) الآية : ٤٢ من سورة الحجر ، والآية ٦٥ من سورة الإسراء .

الصفة إلى الموصوف بها ، من حيث تقوم به لاستحالة أن يقوم بذاته عز وجل حادث[١] بوجه ، ولا صورة ولا تأليف ، ولا غيره ، لأن ما قام بذات من تأليف وصورة لم يألف غير ما لم يقم به ، وبذلك يمنع أن يكون غيره قد تصور بها ، وذلك محال ، فبقي من وجوه الإضافات كذا الملك والفعل والتشريف ، فأما الملك والفعل فوجهه عام ، ويبطل فائدة التخصيص ، فبقي أنها إضافة تشريف[٢] .

وطريق ذلك ، أن الله عز وجل هو الذي ابتدأ تصوير آدم ، لا على مثال[٣] بل اخترعه اختراعاً ثم اخترع من بعده على مثاله ، فتشرفت صورته بالإضافة إليه ، من حيث كانت مخصوصة بها على هذا الوجه ، ثم سائر وجوه التشريف ، مما خص بها آدم عليه السلام ، من فضائله مما ذكرنا بعضه .

واعلم أنا إذا قلنا : إن الهاء يرجع إلى الله عز وجل ، في قولهم في صورته ، على بعض المعاني التي ذكرنا ، فإن تأويل ما يروى من هذا الخبر ، على إظهار الرحمن بعد ذكر الصورة على ما فيه من الضعف ، والعلة عند أهل النقل ، وأنه يكون محمولا على ما ذكرناه .

إذا قلنا إن الهاء ترجع إلى الله عز وجل ، وقد أنكر بعض أصحابنا صحة هذه اللفظة ، من طريق العربية ، وقال : لا يجوز في اللغة أن يقال مثله ، ولو كان المراد ذلك ، لكان يقول :

إن آدم خلق على صورة الرحمن ، دون أن يقال إن الله خلق آدم على صورته ، لأن تقدم ذكره باسم الظاهر ، فإذا أعيد ذكره لكني عنه بالهاء ، من غير إعادة اسمه بالظاهر ، كقولك :

(١) لأنه سبحانه وتعالى قديم إذ أن من صفاته القدم ، والذي يقوم بذات القديم قديم مثله .

(٢) كإضافة الكعبة في التعبير : أنها بيت الله .

(٣) لأعلى مثال سبق فيكون مشبهاًبه ، كلا .

إن زيداً ضرب عبده ، ولا يقال : إن زيداً ضرب عبد زيد ، والمراد بزيد الثاني هو المراد بالأول .

قالوا : وإذا لم يكن ذلك سائغاً[١] من جهة العربية ، ولا ثابتاً من جهة النقل ، لم يكن للاستعمال به وجه .

ومن أصحابنا من قال :

إن هذا ليس مما يمكن أن يدفع به هذا الخبر ، على هذا الوجه ، وإنما طريق دفع ذلك من جهة النقل ، وتعليل أمر رواته ، لأن مثله قد يصح في العربية ، وقد وردت بذلك أشعار العرب ، فمن ذلك قول عدي بن زيد :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء   نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فأعاد ذكر[٢] الموت بلفظه ولم يكن عنه بالهاء ، ولم يقل لا أرى الموت يسبقه شيء ، ومثله في القرآن :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾[٣] .

ولم يقل إلينا وإليه ، فإذا كان مثله سائغاً لم يكن لإنكاره من هذا الوجه ،

---

(١) وفي نسخة أخرى : « وإذا لم يكن ذلك شائعاً من جهة العربية ، وفرق بين كونه شائعاً وسائغاً إذ أن الشيوع هو من الزيوع والشهرة ، فالشهرة وضوح الأمر.
أما سائغ فهو من سائغ أي صار مقبولا .

(٢) وفي نسخة أخرى : « فإنما ذكر الموت بلفظ » .

(٣) الآية : ٨٥ من سورة مريم ، ويقول الفخر الرازي في هذه الآية :
« قال القاضي : هذه الآية أحد ما يدل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين ، لأن المتقين من الابتداء يحشرون على هذا النوع من الكرامة ، فهم آمنون من الخوف ، فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال ؟ » .

معنى ، دون أن يقال : إن الإثبات من أهل النقل ، لم يرووه على هذا الوجه ، بل كلهم أجمعوا على نقل قوله على صورته بالهاء ، كناية لا إظهاراً ، وذلك محتمل للوجوه التي ذكرناها ، إن رجع به إلى آدم ، فيحتمل وهو الأقرب ؛ وإن رجع به إلى المضروب ؛ على ما روى في السبب فيه معه فظاهر أيضاً ؛ وإن رجع به إلى الله عز وجل وهو الأبعد ؛ كان طريق تأويله ما بيناه لأنه أريد به إثبات صورة الله تعالى ، على التحقيق وهو بها مصوراً ومتصوراً ؛ لأن صورته هي التأليف والهيئة ؛ وذلك لا يصح إلا على الأجزاء المتألفة والأجسام المركبة ، وقد تعالى الله عز ذكره عن أن يكون جسمًا أو جوهراً أو مؤلفاً مركباً[1] .

ومن أصحابنا من قال :

إن الهاء ترجع إلى آدم ، ويكون معناه وفائدته تكذيب القهرية لما زعمت أن من صورة آدم وصفاته ما لم يخلقه الله عز وجل .

وذلك أن القدرية على أن صفات آدم على نوعين :

منها ما خلقه الله ؛ ومنها ما خلقها آدم لنفسه ؛ فأخبر النبي ﷺ ؛ بتكذيبهم ؛

---

(١) يقول أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي نقلا عن ابن عقيل :

« الصورة على الحقيقة تقع على التخاطيط والأشكال ، وذلك من صفات الاجسام والذي صرفنا عن كونه جسما من الادلة القطعية قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

ومن الادلة العقلية : أنه لو كان جسما كانت صورته عرضاً ، ولو كان حامل الأعراض جاز عليه ما يجوز على الأجسام وافتقر الى صانع ، ولو كان جسما مع قدمه جاز قدم أحدنا فأحوجتنا الأدلة الى تأويل صورة يليق إضافتها اليه ، وما ذلك إلا الحال الذي يوقع عليها أهل اللغة إسم صورة فيقولون : كيف صورتك مع فلان ، وفلان على صورة من الفقر ، والحال التي أنكروها العسف والتي يعرفونها اللطف . فيكشف عن الشدة والتغير إنما يليق بفعلة . فاما ذاته فتعالت عن التغير . نعوذ بالله أن يحمل الحديث على ما قالته المجسمة أن الصورة ترجع الى ذاته . وأن ذلك تجويز التغير على صفاته فخرجوه في صورة إن كانت حقيقة فذاك استحالة . وإن كان تخيلا فليس ذاك هو إنما يريهم غيره » اهـ .

وأن الله تعالى خلق آدم على جميع صوره وصفاته ومعانيه وأعراضه ، ومثله في الكلام أن يقال : عرفني هذا الأمر على صورته إذا أردت أن يعرفك على الإستيفاء والإستقصاء ، دون الإستبقاء .

وكما أفادنا ﷺ، بذلك : تكذيب الطبائعيين في كون بعض هيئات البشر من توليد الطبع وإيجابه ، كذلك أفادنا تكذيب القدرية[1] حيث زعمت أن من معاني آدم عليه السلام وأعراضه وكثير من هيئاته لم يخلقه الله عز وجل ، وإنما خلقه آدم وأبدعه هو من دون الله عز وجل .

ووجه آخر مما يحمل عليه تأويل هذا الخبر ، إذا قلنا إن الهاء ترجع إلى آدم ، وهو أن يكون معناه إشارة إلى ما نقول على أصولنا : إن الله عز وجل خلق السعيد سعيداً والشقي شقيا ، فلما خلق آدم وقد علم أنه يعصي ويخالف أمره وكتب ذلك عليه ، وأنه عز ذكره هكذا خلقه ، على ما علم ، وأراد أن يكون عليه ، وشهد لذلك حديث محاجة موسى لآدم عليهما السلام ، لما قال موسى لآدم لما التقيا في السماء .

ألست الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم عصيته وخالفت أمره ؟

فقال آدم عليه السلام :

أكان ذلك شيء مني ، أو أمر كتبه الله عز وجل علي ، قبل أن يخلقني ؟

فقال موسى : ذلك مما كتبه عليك قبل خلقك ، قال ﷺ :

---

(١) وهم الذين ينكرون القدر ويقولون : « لا قدر والأمر آنف . يعني أن الله تعالى يعلم بالحوادث بعد وقوعها ويعلم بالموجودات بعد خلقها » .

« فحـج آدم موسى ثلاثا »[1] .

فدلنا ﷺبقوله :

« إن الله خلق آدم على صورته » على مثل هذا المعنى ؛ وإنه خلق ممن سبق العلم بحاله ، أنه يعصي ثم يتوب فيتوب الله ، تنبيها على وجوب جريان قضاء الله على خلقه ، وأنه إنما يحدث الأمور ويغير الأحوال على حسب ما يخلق عليه المرء ويتيسر له ، وهذا ايضاً تأييد لمذهبنا في إضافة تقدير الأمور كلها إلى الله عز وجل[2] .

---

(١) ذكر البيجوري على الجوهرة قال :

« ففي الحديث الصحيح أن روح آدم التقت مع روح موسى عليهما الصلاة والسلام فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر . الذي كنت سبباً لإخراج أولادك من الجنة بأكلك من الشجرة ؟

فقال آدم : يا موسى فأنت الذي اصطفاك الله بكلامه . وخط لك التوراة بيده . تلومني على أمر قد قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين ألف سنة ؟ .

قال النبي ﷺ : فحج آدم موسى « أي غلبه بالحجة » اهـ .

والحديث أخرجه البخاري وأصحاب السنة والطبراني في المعجم الكبير .

(٢) ويلخص صاحب المنحة الالهية في شرح العقيدة الواسطية المسألة فيقول :

« وتؤمن الفرقة من أهل السنة والجماعة بالقدر . خيره وشره . والايمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الاولى : الايمان بان الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبداً . وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي . والارزاق والآجال . ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق .

فأول ما خلق الله القلم قال له أكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : أكتب ما هو كائن الى يوم القيامة فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه . وما أخطأه لم يكن ليصيبه . جفت الأقلام وطويت الصحف . كما قال تعالى :

﴿ألَمْ تعْلَمْ أنَّ آللهَ يعْلَمُ ما فِي آلسَّماءِ وآلأرْضِ . إنَّ ذلِك فِي كِتابٍ إنَّ ذلِك على آللهِ يسِيرٌ﴾ سورة الحج الاية (٧٠) .

وقال :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي آلأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إنَّ ذَلِكَ عَلَى آللهِ

يَسِيرٌ ﴾ . سورة الحديد آية (٢٢)

وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا . فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء . وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث اليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له : أكتب رزقه . وأجله . وعمله . وشقي أم سعيد . ونحو ذلك .

والدرجة الاولى من القدر : أن الله تعالى يعلم أزلا كل ما هو مقدر على العبد ، فيجب على العبد أن يؤمن بان الله تعالى يعلم أزلا كل ما هو مقدر على العبد ، وأن كل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ أزلا ، ولذلك كان القدر على العبد له حالان :

الاول : أن الله تعالى عالم بعلمه الازلي ما يعلمه الخلق من الطاعات والمعاصي أو الكفر والايمان ، ويعلم حال البار والفاجر والمؤمن والكافر ، ويعلم آجالهم وأرزاقهم وسعادتهم وشقاءهم .

كما يجب أن يؤمن بأن الله تعالى كتب كل شيء في اللوح المحفوظ وأنه كتب مقادير الأشياء أزلا وأنه أول ما خلق الله القلم قال له : أكتب .

(قال ما أكتب ؟ قال تعالى له : أكتب ما هو كائن الى يوم القيامة ، وقد ورد في القرآن ما يؤيد هذا ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ آللهَ يَعْلَمُ مَا فِي آلسَّمَاءِ وَآلْأَرْضِ . إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى آللهِ يَسِيرٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي آلْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى آللهِ يَسِيرٌ ﴾ .

(وهناك تقدير آخر ، وهو الذي يكون عند خلق جسد الجنين وقبل وضع الروح حيث يرسل الله تعالى ملكا يأمره بأن يكتب أربع كلمات هي : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد .

وهذه الدرجة هي الدرجة الاولى من درجات القدر .

أما الدرجة الثانية : فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الايمان بان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه ما لا يريد وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق في الارض ولا في السماء إلا الله خالقه لا خالق غيره ولا رب سواه ، وقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد .

الدرجة الثانية : وهو أن تؤمن بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن كل شيء بقدره ومشيئته ،

وأنه لا خالق سواه فكل موجود أو معدوم في هذا الكون بقدرته ، وهذه الارادة تعرف عند أهل السنة والجماعة بالارادة الكونية ، وهذه الارادة يجب وجود مرادها وكل ما في الكون لا يكون الا بهذه الارادة وما لا يريده الله بهذه الارادة لا يكون ، وأما الارادة الاخرى فهي الارادة الشرعية وهذه لا يلزم وجود مرادها فإن الله تعالى يريد بهذه الارادة الايمان من الكافر ثم لا يكون الا الكفر فهذه الارادة تساوي الامر الشرعي وهي تخالف المحبة ، فقد أمر الله تعالى الكافر بالطاعة ثم لا يحب أن تكون منه وقد تجتمع الارادة الكونية والشرعية في إيمان المؤمن وقد تنفرد الارادة الكونية عن الإرادة الشرعية في كفر الكافر وإذاً تكون الإرادة الكونية أعم من الارادة الشرعية) اه .

فصل

واعلم أن بعض أصحابنا المتكلمين[1] في تأويل هذا الخبر حاد على وجه الصواب ، وسلك طريق الخطأ والمحال فيه ، وهو ابن قتيبة[2] توهماً أنه مستمسك بظاهره غير تارك له ، فقال :

« إن لله عز وجل صورة لا كالصور كما أنه شيء لا كالأشياء » .

فأثبت لله تعالى صورة قديمة ، زعم أنها لا كالصور ، وأن الله خلق آدم على تلك الصورة ، وهذا جهل من قائله . وتوغل في تشبيه الله تعالى بخلقه[3] .

---

(١) وفي نسخة أخرى (من المتكلمين) .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري ، وقيل المروزي ، الامام النحوي اللغوي ، صاحب كتاب المعارف ، وأدب الكاتب ، وغريب القرآن ، ومشكل الحديث ، وطبقات الشعراء ، وإعراب القرآن وكتاب الميسر والقداح وغيرها .

وكان فاضلا ثقة ، سكن بغداد وحدث بها عن ابن راهويه وطبقته .

ولد ببغداد ، وقيل بالكوفة سنة ٢١٣هـ ، وأقام بالدنيور قاضيا مدة ، فنسب اليها ، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ، ثم أغمي عليه الى وقت الظهر ، ثم اضطرب ساعة ثم هدأ ، فما يزال يتشهد الى وقت السحر ثم مات سنة ٢٧٦هـ رحمه الله رحمة واسعة . أنظر شذرات الذهب لابن العماد جـ٢ .

(٣) ويرد هذا القول الامام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه : (دفع شبه التشبيه) فيقول :

« وقد ذهب أبو محمد بن قتيبة في هذا الحديث الى مذهب قبيح فقال :

«لله تعالى صورة لا كالصور ، فخلق آدم عليها » .

وهذا تخليط وتهافت ، لأن معنى كلامه : أن صورة آدم كصورة الحق تعالى .

وقال القاضي أبو يعلى :

يطلق على الحق تعالى تسمية الصورة لا كالصور ، كما أطلقنا اسم ذاته ، وهذا تخليط لأن الذات بمعنى شيء ، وأما الصورة فهي هيئة وتخاطيط وتأليف ، ويفتقر الى مصور ومؤلف .

والعجب منه : أنه تأول الخبر ثم زعم أن الله صورة لا كالصور ، ثم قال :

إن آدم مخلوق على تلك الصورة ، وهذا كلام متناقض متهافت يدفع أوله آخره ، وذلك :

أن قوله لا كالصور ينقض قوله : إن الله خلق آدم عليها ، لأن المفهوم من قول القائل ، فعلت هذا على صورة هذا ، أي ماثلته به ، واحتذيت في فعله به ، وهذا يوجب أن صورة آدم عليه السلام ، كصورته جل ثناؤه ، ويمنع تأويله أن له صورة لا كالصور ، وليت شعري ، إلى أي وجه ذهب في إضافة الصورة إلى الله عز وجل ؟

أراد به إثبات الرب تعالى مصوراً بصورة لا تشبه الصور ؟

أم اثباته مصوراً بأمثال هذه الصور ؟

أم اراد به أن له هيئة مخصوصة ، وصورة معينة معلومة ؟

أم رجع بذلك الى اثبات صفة له سماها صورة ، لا على معنى وجه الهيئة والتأليف ؟

وليس يخلو ما ذهب إليه ، من هذه الأقسام ؛ وكل ذلك فاسد لا يليق بالله عز وجل ؛ لاقتضائه[1] أن يكون مؤلفاً مركبا ذا حد ونهاية ؛ وبعض وغاية ؛ وكل ذلك يؤدي إلى القول بنفيه تعالى ؛ وقد بينا وجه ذلك قبل ؛ ولا معنى لحمل ذلك على صفة طريقها السمع على نحو ما قلنا في اليد والعين ؛ لخلو الكلام من فائدة لو حمل على ذلك ؛ فإذا لم يخرجوه من الوجوه ؛ التي ينقسم إليها مذهب هذا القائل ؛ فقد بان خطاؤه وعدوله عن وجه الصواب في تأويله .

وقول القائل لا كالصور نقض لما قاله وصار بمثابة من يقول جسم لا كالأجسام ، فان الجسم ما كان مؤلفا . فإذا قال : لا كالأجسام نقض ما قال » ص ٦٠ .

(١) وفي نسخة أخرى : (لاقتضاء أن يكون مؤلفاً) ولعل الأصح لأقتضائه كما ذكره المصنف .

فصل

فأما ماروي في غير هذا الخبر من ذكر الصورة ، كنحو حديث ابن عباس ، وأم الطفيل أن النبي ﷺ قال :

« رأيت ربي في أحسن صورة »[1] .

فإن طريق مخرج ذلك على الوجه الذي يصح لا يخلو من أحد وجهين .

---

(١) ذكر ابن الجوزي في كتابه « دفع شبه التشبيه » هذا الحديث فقال :

(روت أم الطفيل امرأة ابي أنها سمعت رسول الله ﷺ : يذكر أنه رأى ربه عز وجل في المنام في أحسن صورة شابا منوراً في خضر في رجليه نعلان من ذهب ، وعلى وجهه فراش من ذهب) .

هذا الحديث يرويه نعيم بن حماد قال ابن عدي كان يضع الحديث ، وسئل الامام أحمد فأعرض بوجهه عنه ، وقال حديثه منكر مجهول .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال :

« رأيت ربي جعداً أمرد عليه حلة خضراء ، وهذا مروى عن طريق حماد بن سلمة ، وكان ابن ابي العوجاء الزنديق ربيب حماد ، وكان يدس في كتبه ، وهذه الاحاديث لا ثبوت لها ، ولا يحسن أن يحتج بهـا » .

ثم يعقب ابن عقيل على هذا فيقول :

« هذا الحديث نجزم بأنه كذب ، ثم لا تنفع ثقة الرواة إذا كان المتن مستحيلا وصار هذا كما لو أخبرنا جماعة من المعدلين بأن جمل البزاز دخل في خرم إبرة الخياط ، فإنه لا حكم لصدق الرواة مع استحالة خبرهم » اهـ .

وروى عن عبد الرحمن بن عياش عن النبي ﷺ أنه قال :

« رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟ »

قلت : أنت أعلم يا رب ، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات والأرض .

قال الامام أحمد :

أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة .

أحدهما : أن يكون قوله في أحسن صورة يرجع إلى النبيﷺ ، ويكون المعنى رأيت أبي وأنا في أحسن صورة . كما يقول القائل :

رأيت الأمير في أحسن زي ، ومراده وأنا في أحسن زي ، ويكون فائدة ذلك تعريفنا أن الله عز وجل زين خلقته وجمل صورته عند رؤيته ، زيادة إكرام وتعظيم ، ويحتمل أن يكون معنى الصورة ، معنى الصفة[١] كقول القائل صورة الأمر كذا وكذا ، أي صفته كذا ، فتكون الفائدة على هذا الوجه فيه الإخبار عن حسن حاله عند الله عز وجل ، وتوقير الرب بانعامه عليه وإعظامه ، وذلك أن الرائي قد يرى المرئي ويكون حال الرائي عن المرئي محمودة مقبولة ، فيتلقاه المرئي بالإكرام والإجلال ، وقد يخالف ذلك فيتلقاه بخلافه .

فعرفناﷺ ، وجود زوائده ، وحصول فوائده عند لقاء الله عز وجل ، وأنه كان عنده في أحسن صورة وأجمل حال .

والوجه الثاني : أن تكون الصورة بمعنى الصفة ، ويرجع ذلك الى الله ، وذلك أن[٢] قولك رأيت الأمير راكباً يحتمل معنيين :

أحدهما أن يكون الركوب حال الرائي .

والثاني أن يكون الركوب حال المرئي .

---

(١) يقول صاحب كتاب (دفع شبه التشبيه) :

(فالصورة إن قلنا ترجع الى الله تعالى ، فالمعنى : رأيته على أحسن صفاته من الإقبال علي ، والرضى عني ، وإن قلنا ترجع الى رسول الله ﷺ، فالمعنى : رأيته وأنا على أحسن صورة .

ذكر القاضي أبو يعلى في كتابه الكناية :

(رأيت ربي في أحسن صورة) أي في أحسن موضع .

(٢) وفي نسخة أخرى : (وذلك قولك رأيت الأمير . .)

وكلا الوجهين سائغ محتمل .

فإذا قلنا : إن قوله في احسن صورة ، يرجع الى الله تعالى ، فإن فائدته ـ على نحو ما ذكرنا أيضاً قبل ، وهو أن يفيدنا ـ أنه رأى الله عز وجل ، وهو على أحسن صفاته معه في إنعامه عليه ، والاقبال والافضال إليه ، والإجلال ، ويكون حسن الصفة يرجع الى حسن الإحسان والإكرام ، وما تلقاه به من الرحمة والرضوان والجود والامتنان .

وقد يقال في صفة الله تعالى ، أنه جميل ، وأن له جمالا وجلالا ، والمراد بوصفنا أنه جميل أنه مجمل في أفعاله ، والاجمال في الفعل ، هو فعل الجمال ، لمن يجملهم به ، وذلك نوع الإحسان والإكرام ، فكذلك حسن صفة الله تعالى ، يرجع إلى ما يظهر من فعل النعم ، والابتداء بالمنن .

وقد يكون حسن الصورة وجمالها ، مما يرجع إلى الرب عزّ ذكره ، من نفي التناهي في العظمة[1] والكبرياء ، والعلو والرفعة ، حتى لا منتهى ولا غاية وراءه .

ويكون معنى الخبر على ذلك تعريفنا ما تزايدت من معارفه عليه الصلاة والسلام ، وعند رؤيته لربه ، عز ذكره ، لعظمته وكبريائه ، وبهائه ، وبعده من شبه خلقه ، وتنزيهه من صفات النقص وتعريه[2] من كل عيب .

فإذا كان[3] كذلك فحمل الخبر على أحد هذه الوجوه هو الأليق بتوحيد الله ، والأولى بصفاته ، وبقوله عز وجل :

---

(١) أي لا نهاية لجلاله وعظمته سبحانه وتعالى .

(٢) أي وتنزيهه وتقديسه من كل عيب .

(٣) وفي نسخة أخرى : (فإذا كان ذلك كذلك) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[1] .

فصل آخر

وقد ذكر بعض المتأولين لهذه الأخبار ، في تأويل ما روي عنه عليه الصلاة والسلام ، في قوله :

« رأيت ربي في أحسن صورة » أن ذلك كان رؤ يا منام ، وقد ذكر في حديث أم الطفيل ، حديث المنام نصا ، وفي بعض أحاديث ابن عباس رضـي الله عنه قال :

وإذا كان كذلك منصوصاً ، فقد زال الشك فيه ، وإن لم يكن منصوصاً ، فإن الأمر فيه محمول على ذلك ، وهو أن الجميع من مثبتي الرؤ ية ونفاتها ، قد قالوا بجواز رؤ ية الله عز وجل في المنام[2] ، وقالوا :

إن رؤ يا النوم وهم « قد جعله الله تعالى دلالة للرائي على أمر يكون ، أوكان ، من طريق التعبير والأوهام ، قد يتعلق بالموهَوم على خلاف ما عليه الموهوم ؛ فلا ينكر أن يقال مثله فيه من طريق الرؤيا ، إلا أنه سبحانه ببعض تلك الأوصاف التي تعلقت بها الرؤ يا متحقق ، وذلك معهود مثله في أحوال الرؤ يا .

إن الرائي قد يرى في المنام ما لا يكون على ما يراه .

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) وقد ذكر صاحب الجوهرة في علم التوحيد ما يفيد جواز رؤ ية الله عز وجل في المنام ، وأيد ذلك بما روي أن الامام أحمد بن حنبل أنه رأى المولى سبحانه وتعالى في المنام تسعا وتسعين مرة ، وقال وعزته إن رأيته تمام المائة لأسألنه ، فرآه فقال سيدي ومولاي، ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامي ، فقال بفهم أو بغير فهم ؟ فقال يا أحمد : بفهم وبغير فهم » .
ونقل عن القاضي عياض أنه لا نزاع في وقوعها وصحتها ، فان الشيطان لا يتمثل به تعالى ، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

كمن يرى في المنام كأنه يطير ، أو كأنه انقلب حماراً ، وهو في موضع آخر غير الموضع الذي هو فيه ، فيكون ذلك توهما منه ، لا رؤ ية حقيقة ، وقد يصح مثله على الأنبياء والأولياء ، إذ قد وردت الأخبار برؤ يا الأنبياء والصالحين أنهم رأوا في منامهم أشياء كانت أحكامها بخلاف ما رآها ، وصح ذلك ، لأنها أوهام تجري مجرى الدلالات بإختلاف طريق التأويلات(١) .

وقد ذكر بعض أصحاب التعبير ذلك في كتبهم الموضوعة لذلك ، وعبروا ذلك بتأويله ، كما عبروا أيضاً ، من يرى النبي ﷺ ، في المنام ، أو يرى القيامة ، أو الجنة والنار ، في سائر ما يرى في المنام مما له تعبير قال :

وإذا كان ذلك سائغاً ـ وقد ذكره نصا بعض الرواة ـ وجب أن يكون التأويل محمولا عليه ، لاستحالة كون الباري مصوراً بالصورة والهيئة والتركيب والحد والنهاية .

---

(١) ويؤيد هذا الرأي الامام ابن الجوزي في كتابه « دفع شبه التشبيه » فيقول :

روى من حديث ثوبان قال : خرج علينا رسول الله ﷺ بعد صلاة الصبح فقال :

« إن ربي أتاني الليلة في أحسن صورة ، فقال لي : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أعلم يا رب ، فوضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري فتجلى لي ما بين السماء والأرض » .

وروى من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« أتاني آت في أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ! فقلت لا أدري ، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي ، فعرفت كل شيء يسألني عنه » .

وهذه أحاديث مختلفة وأحسن طرقها يدل على أن ذلك كان في النوم ، ورؤ يا المنام وهم والاوهام لا تكون حقائق ، وإن الانسان يرى كانه يطير أو كأنه قد صار بهيمة ، وقد رأى أقوام في منامهم الحق سبحانه على ما ذكرنا . ثم يعقب الحافظ ابن حجر على هذا فيقول :

(ولا التفات الى من تعقب كلامه بقوله : في الحديث الصحيح « إن رؤ يا الانبياء وحي » فلا يحتاج الى تعبير ، لأنه كلام من لم يمعن النظر في هذا المحل ، جاء في كتاب التعبير أن بعض رؤ ى الأنبياء يقبل التعبير) اهـ .

وقد تهور بعض المتكلمين في ذلك أيضا فغير اللفظ المسموع إلى ما لم يضبط ، ولم ينقل تعسفا في التأويل ، فقال :

إنما هو ربي بكسر الراء ؛ وهو اسم عبد كان لعثمان رضي الله عنه رآه ﷺ؛ في النوم على تلك الصفات ، وهذا غلط .

لأن التأويل والتخريج ؛ إنما يكون لمسموع مضبوط منقول ، ولم يثبت سماع ذلك على هذا الوجه ، ولا حاجة إلى مثل هذا التعسف ، مع إتساع طرق التأويل في بعض الوجوه التي ذكرنا .

وذكر بعضهم أيضا أنه أراد بذلك رئي فنقل ربي على التصحيف والرائي هو التابع من[1] الجن .

قال :فلا ينكر أن يكون الجن متصوراً ببعض هذه الصور ، وهذا ايضاً تعسف ، لأجل أن القول بالتصحيف ، إنما يكون المعتمد عليه ، إذا روى بعض الإثبات ذلك على هذا الحد مسموعامضبوطاً ،ولم يمكن أن يحمل على ضربين وعلى حالين مختلفين .

كيف ولم ينقل على هذا الوجه ، ولم يثبت أنه كان الأصل على هذا الحد ، وإنما وقع التصحيف من جهة التأويل ، ولا حاجة تدعو إلى دعوى[2] تصحيف ، على

---

(١) يؤكد هذا حديث قصة عتبة بن ربيعة ، الطويل ، والذي قال فيه لرسول الله ﷺ:

« . . يا ابن اخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان الذي يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه » اهـ .

(٢) وفي نسخة أخرى : (إلى دعوى التصحيف) .

من ضبط ما سمع ، فنقل لأجل ما توهم أو تعذر في تخريج معناه على الوجه الصحيح ، فبطل ذلك أيضاً وجميع ما ذكرناه من تلك الوجوه أقرب الى الصواب وأليق لحكم الباب ، مما ذكرها هؤلاء المتعسفون[1] .

---

(١) وناسب هنا أن نذكر ما قاله ابن الجوزي في كتابه « دفع شبه التشبيه » لما له من فائدة ، إنه يقول :

« اعلم أن في الاحاديث ـ أحاديث خلق آدم على صورته ـ دقائق وآفات لا يعرفها الا العلماء الفقهاء تارة في نقلها ، وتارة في كشف معناها :

روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام على صورته** » .

للناس في هذا مذهبان أحدهما السكوت عن تفسيره ، والثاني الكلام في معناه .

واختلف أرباب هذا المذهب في الهاء الى من تعود على ثلاثة أقوال :

أحدها : تعود الى بعض بني آدم ، وذلك أن النبي ﷺ مر برجل يضرب رجلا وهو يقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، قال ﷺ :

« **إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته** »

وإنما خص آدم بالذكر ، لأنه هو الذي ابتدئت **خلقة وجهه** على هذه الصورة التي احتذى عليها من بعده ، وكانه نبه على أنك سببت آدم وأنت من ولده ، وذلك مبالغة في زجره ، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب .

ومن الخطأ الفاحش أن ترجع إلى الله عز وجل ، لقوله ووجه من أشبه وجهك ، فإنه نسبه اليه سبحانه كان تشبيها صريحاً .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

« **إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته** »

القول الثاني :

أن الهاء كناية عن اسمين ظاهرين ، فلا يصلح أن تصرف الى الله عز وجل لقيام الدليل أنه تعالى ليس بذي صورة ، فعادت الى آدم .

ومعنى الحديث : أن الله تعالى خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تاما لم ينقله من نطفة الى علقة كبنيه . وهذا مذهب أبي سليمان الخطابي ، وقد ذكره ثعلب في أماليه .

القول الثالث : أنها تعود الى الله تعالى وفي معنى ذلك قولان :

أحدهما : أن تكون صورة ملك لأنها فعله وخلقه فتكون إضافتها اليه من وجهين :

أحدهما : التشريف بالاضافة كقوله تعالى ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ والثاني ابتدعها لاعلى مثال سبق .

والقول الثاني : أن تكون الصورة بمعنى الصفة تقول : هذه صورة هذا الامر ، أي صفته ويكون خلق آدم على صفته من الحياة والعلم والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والارادة ، فميزه بذلك عن جميع الحيوانات ثم ميزه عن الملائكة بصفة التعالي حين أسجدهم له ، والصورة ههنا معنوية لا صورة تخاطيط » اهـ .

ويعقب الراغب الأصفهاني على ذلك فيقول :

« الصورة أراد بها ما خص الانسان بها من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة ، وبها فضله على كثير من خلقه وإضافته الى الله سبحانه على سبيل الملك لا سبيل البعضية ، والتشبيه تعالى عن ذلك ، وذلك على سبيل التشريف له » اهـ .

ذكر خبر آخر في مثل هذا المعنى

مما فيه ذكر الصورة ـ وهو ما روى بعض الرواة ، وأظنه ثوبان مولى رسول الله ، ﷺ ، أن النبي ﷺ قال :

« أتاني ربي في أحسن صورة » .

قال : محمد بن شجاع البلخي في تخريج هذا الحديث :

إن هذا الحديث أولاً : معلول من طريق الرواية ، وذلك أنه رواه أبو يحيى عن أبي يزيد عن أبي سلام ، وأبو يحيى ضعيف قال :

وإن صح معناه ، احتمل أن يكون أريد به : أتاني ربي بأحسن صورة ، ويكون الفاء بمعنى الباء ، وعلى هذا قد روى ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يأْتِيَهُمُ ٱللهُ في ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[1] .

معناه بظلل من الغمام ، يعني تعجيل العقوبة لهم .

وإذا كان ذلك سائغا في اللغة ، فيمكن أن يكون المعنى فيه .

إن الله عز وجل أراه ملكا من الملائكة ، في أحسن صورة ، ويكون قوله :

« أتاني ربي في أحسن صورة » محمولا على أن المعنى : أتاني ربي بأحسن صورة ؛ ويكون تأويل الإتيان به فعله به ، وإظهاره له حتى رآه .

ونظير ذلك قوله تعالى : .

---

(١) الآية : ٢١٠ من سورة البقرة .

﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[1] .

ذلك بإظهار فعل ، واتخاذ تدبير ، لا على معنى نقلة وتحول .

قال محمد بن شجاع :

ويحتمل تأويلا آخر وهو يعني : أتاني ربي في الصورة مدبراً لها ، والصورة ملك والله عز وجل فيها بمعنى التدبير لها .

واعلم أن هذا ايضاً غلط من محمد بن شجاع[2] ، وإنما تأول ذلك على مذهبه في قوله : « إن الله عز وجل في كل مكان » على معنى أنه مدبر لكل مكان .

ونحن نأبى هذا القول ، ونحيد أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه في كل مكان ، هل معنى أنه مدبر له فلا يسوغ على أصلنا هذا التأويل من الوجه الذي ذكرنا .

فأما احاديث ابن عباس ، ففي بعضها زيادات الفاظ يقتضي تأويلا وتخريجا ، وذلك أن في بعض أخبار ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال :

« رأيت ربي في أحسن صورة » . **فقال يا محمد :**

فقلت : « لبيك وسعديك » .

قال : « فيم يختصم الملأ الأعلى » .

(١) الآية : ٢٦ من سورة النحل .

(٢) هو محمد بن شجاع بن الثلجي فقيه العراق . وشيخ الحنفية ، سمع من اسماعيل بن علية وتفقه بالحسن ابن زياد اللؤلؤي ، وصنف واشتغل ، وهو متروك الحديث ، توفي ساجداً في صلاة العصر ، وله نحو من تسعين سنة وذلك سنة ست وستين ومائتين قاله في العبر وقال في المغني : محمد بن شجاع بن الثلجي الفقيه قال ابن عدي . كان يضع الاحاديث في التشبيه ينسبها الى أصحاب الحديث يثلبهم بذلك » اهـ أنظر الشذرات لابن العماد .

« قلت : ربي لا أدري » ؟

قال : « فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما بين المشرق والمغرب » ثم قال :

« يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى » ؟ .

قلت : « ربي لا أدري » .

قال « في الكفارات والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في الشتوات ، وإنتظار الصلاة بعد الصلاة ، فمن حافظ عليهن عاش بخير ، ومات بخير ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[1] .

واعلم أن الذي يقتضي التأويل من هذا الخبر ، قوله ﷺ، « فوضع كفه بين كتفي » ، وقد روي كنفي .

فأما تأويل الكف ، فقد تأوله الناس على وجهين :

أحدهما : أن يكون بمعنى القدرة كما قال القائل :

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

يعني في قدرته تقديرها ، تدبيرها[2] .

والوجه الثاني : أن يكون المراد بالكف النعمة والمنة والرحمة ، وقد استعملت العرب لفظ اليد والإصبع والكف في معنى النعمة ، وذلك سائغ كثيراً في اللغة ، وذلك أنهم يقولون :

(١) الكلام فيه مر قريبا فانظره ذلك بصفحات قليلة والحديث سبق تخريجه كذلك .

(٢) وفي نسخة أخرى : تقديرها وتدبيرها .

لفلان عندي أصبع حسن ، ولي عند فلان يد بيضاء ، أي منة كاملة ، فيكون استعمال الكف على معنى اليد ، إذ كان بمعنى النعمة ، فعلى هذا يكون تأويل الخبر :

الأخبار عن نعمة الله عز وجل ، وفضله ، ولطفه ، وإقباله عليه ، بأن شرح صدره ونور قلبه ، وعرفه ما لم يعرف ، وعلم[1] ما لم يعلم[2] .

وإذا قلنا : إن المراد به القدرة ، احتمل أن يكون المعنى : اعترافه بالعجز ، وإقراره بقدرة الله على ما فعل به من اللطف والعطف ، حتى عرف كثيراً مما لم يعرفه .

وأما قوله : « **بين كنفي** » فإن كان صحيحاً[3] ، فالمراد به ما أوصل إلى قلبه من لطفه وبره ، وزوائده ، وفوائده ، لأن القلب بين الكتفين ، وهو محل الأنوار ، والعلوم ، والمعارف .

وقد روي « **بين كنفي** » والمراد بذلك ما يقال في قول القائل :

أنا في كنف فلان ، وفي جانبه وفنائه ، إذا اراد بذلك أنه في ظل نعمته ورحمته ، فكأنه قال :

---

(١) وفي نسخة أخرى : وعلمه ما لم يعلم .

(٢) وعلى هذا القول ايضاً الفخر الرازي الذي يقول في كتابه النفيس « أساس التقديس » : « وأما قوله : وضع يده بين كتفي » ففيه وجهان :

الاول : المراد منه المبالغة في الاهتمام بحاله والاعتناء بشأنه .

الثاني : أن يكون المراد من اليد النعمة .

وأما قوله : « **بين كتفي** » فإن صح فالمراد منه أنه أوصل إلى قلبه من أنواع اللطف والرحمة .

وأما قوله : « **فوجدت بردها** » فيحتمل أن المعنى برد النعمة وروحها وراحتها ، من قولهم : عيش بارد إذا كان رغداً ، والذي يدل على أن المراد منه كمال المعارف ، قوله عليه الصلاة والسلام ، في آخر الحديث : « **فعلمت ما بين المشرق والمغرب** » اهـ .

(٣) وقول المصنف « فإن كان صحيحا » وكذلك قول الفخر الرازي ، يفيد هذا القول : أن الحديث لم يقطع بصحته .

أفادني الرب تعالى من رحمته وإنعامه ، بملكه وقدرته حتى علمت ما لم اعلمه .

وأما قوله : « فوجدت بردها »[١] ، فإنه يحتمل ان يكون المراد بذلك برد النعمة ؛ بمعنى روحها وأثرها ؛ من قولهم : عيش بارد ، إذا كان رغداً في رفاهية وسعة ، والذي يدل على أن تلك الفوائد زوائد معارف قوله على إثر ذلك .

فعلمت ما بين المشرق والمغرب ؛ لما نور قلبه وشرح صدره ؛ فكان ذلك بإظهار آثاره وتدبيره عن رحمته فيه .

وإنما حملناه على ذلك[٢] لإستحالة وصف الله تعالى بالجوارح والآلة ، وذلك لإستحالة أن يكون ذا بعض وعضو ، وهذا هو ثمرة توحيد ذاته ووقوع المعرفة بكون ذاته شيئاً واحداً .

وأما ما روى ثوبان رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ؛ في هذا الخبر بعد قوله ، « فوضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله[٣] في صدري » فإن تأويل الأنامل على معنى تأويل الأصابع .

---

(١) يقول الامام ابن الجوزي في رفع شبه التشبيه :

« أما حديث البرد في الحديث ، فإن البرد عرض لا يجوز أن ينسب الى الله عز وجل .

ويقول الامام أحمد عن الحديث :

« أصل الحديث وطرقه مضطربة . ثم يعقب ابن الجوزي على ذلك فيقول :

وهذه أحاديث مختلفة ، وأحسن طرقها يدل على أن ذلك كان في النوم ، ورؤ يا المنام وهم والأوهام لا تكون حقائق ، يقول الحافظ ابن حجر في مثل هذا المقام :

« ولا التفات الى من تعقب كلامه بقوله ، في الحديث الصحيح : « إن رؤ يا الأنبياء وحي » ، فلا يحتاج الى تعبير ، لأنه كلام من لم يمعن النظر في هذا المحل ، فإن بعض رؤ ى الأنبياء يقبل التعبير » اهـ .

(٢) أي على تأويل « بردها » بالنعمة ، لأن الله سبحانه وتعالى يستحيل أن يوصف بالجوارح ، أوالآلة فليس كمثله شيء ، فهو واحد في ذاته ، كما أنه واحد في صفاته .

(٣) الأنامل : رؤوس الأصابع .

وقد انتشر في كلام اهل اللغة : لفلان على فلان أصبع[١] حسن .

وقال بعض اهل اللغة :

إن العرب تقول لفلان على سابقة أنملة ؛ أي اصبع حسن ؛ وفي نسخة تقول العرب : لفلان على إبله أصبع حسن إذا اسمنها وأحسن[٢] إليها ؛ قال الشاعر :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له　　عليها إذا ما اجدب الناس اصبعا

آي أثراً حسناً .

وإذا كان كذلك احتمل أن يكون تأويل الخبر ، حتى وجدت آثار إحسانه وامتنانه ورحمته في صدري ، فتجلى له عند ذلك علم ما بين السماء والأرض برحمة الله وفضل نعمته ، وسوقه الخير إليه في ذلك .

وإذا كان ذلك سائغاً في اللغة ، ولا يجوز وصف الله تعالى بالجوارح والأبعاض ، كان طريق التأويل فيه ما ذكرنا[٣] .

فأما ما ذكر في هذا الخبر من قوله عليه الصلاة والسلام ـ مجيباً لربه عز وجل لما قال له :

---

(١) أي نعمة أو واجب أسداه اليه .

(٢) يقول الزمخشري في أساس البلاغة :

« ومن المجاز : أن له على ماله إصبعا ، ورأيت على نعم بني فلان إصبعا لهم . أيا يشار إليهما بالأصابع لحسنها وسمنها وحسن أثرهم فيها » اهـ .

(٣) يقول صاحب النهاية في غريب الحديث والأثر :

« الأصابع جمع أصبع ، وهي الجارحة ، وذلك من صفات الأجسام ، تعالى الله عز وجل عن ذلك وتقدس ، وإطلاقها عليه مجاز كاطلاق اليد ، واليمين ، والعين ، والسمع ، وهو جار مجرى التمثيل والكناية عن سرعة تقلب القلوب ، وإن ذلك أمر معقود بمشيئة الله تعالى :

وتخصيص ذكر الأصابع كناية عن أجزاء القدرة والبطش ، لأن ذلك باليد ، والأصابع أجزاؤها .

فيم يختصم الملأ الأعلى[1] ؟ فقال : « لا ادري ، فوضع كفه بين كتفي . . . إلى أن ذكر فعلمت ما بين السماء والأرض » ، ثم قال عليه الصلاة والسلام :

« فقال لي فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت لا ادري، بعد قوله ، فعلمت ما بين السماء والأرض » ، فوجه ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللهُ ٱلرُّسُلَ ، فَيَقُولُ : مَاذَا أُجِبْتُمْ قَـالُوا لاَ عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[2] .

فيكون ذلك منه أو منهم ، على ترك التعالم عليه ، وأن يكون مستعملا للأدب بحضرة من هو أعلم منه ، لأن الواجب من عادة ذلك حين لا يدعي العلم عند من هو أعلم منه به ، وعند من علمه ذلك العلم :

ويحتمل أن يكون قد علم ما بين المشرق والمغرب بأن أري ذلك ، كما روي في الخبر ، أنه قال ﷺ :

« زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » .

وليس ذلك مما يتعلق بالعلم بأحكام العبادات ، وما عليها من وجوه الثواب والكرامات ، جزاء على الطاعات ، وهو الذي كشف عنه عز ذكره له عليه الصلاة والسلام ، بعدما قال لا ادري .

وإن حمل على ذلك لم يتناقض الكلام ، وصح الجمع بينهما على الترتيب الذي رتبناه[3] .

---

(١) يريد الملائكة المقربين .

(٢) سورة المائدة آية : ١٠٩ .

(٣) ولبيان الصواب مما ذكر من الأقوال في هذه المسألة نذكر ما ذكره صاحب الاحاديث القدسية عن جماعة من

العلماء فيقول :

(إن الخطابي ذكر الأصبع وقال : إنه لم يقع في القرآن ، ولا في حديث مقطوع به ، وقد تقرر أن اليد ، أي المضافة الى الله ليست جارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف أطلقه الشارع فلا يكيف ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهود ، فان اليهود مشبهة :

ويعلق القسطلاني على ذلك فيقول :

(وتعقبه بعضهم بورود الأصابع في عدة أحاديث : منها ما أخرجه مسلم :

(إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن) ولكن هذا لا يرد عليه ، لأنه إنما نفى القطع .

نعم ذهب الشيخ أبو عمرو بن الصلاح الى أن ما اتفق عليه الشيخان بمنزلة المتواتر فلا ينبغي التجاسر على الطعن في ثقات الرواة ، ورد الأخبار الثابتة .

ولو كان الأمر على خلاف ما فهمه الراوي بالظن ، للزم منه أقراره ﷺ اليهودي على الباطل ، وسكوته على الأنكار على اليهودي وحاش لله من ذلك .

وقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه الامام مسلم :

(ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن) .

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ :

« **أتاني الليلة ربي في أحسن صورة** » الحديث وفيه « **فوضع يده بين كتفي** »

وفي رواية معاذ :

(فرأيته وضع كفه بين كتفي ، فوجدت برد أتأمله بين ثديي) .

فهذه روايات متضافرة على ذكر الأصابع .

وكيف يطعن في حديث أجمع على أخراجه الشيخان وغيرهما من أئمة النقد والاتقان ؟

لا سيما وقد قال ابن الصلاح :

(ما اتفق عليه الشيخان هو بمنزلة المتواتر ، وكيف يسمع النبي ﷺ وصف ربه تعالى بما لا يرضاه ، ولم ينكره اشد الأنكار حاشاه الله من ذلك .

ثم قال :

وإذا تقرر صحة ذلك فهو من المتشابه كغيره ، من الوجه واليدين ، والقدم ، والرجل ، والجنب ، في قوله تعالى :

﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ سورة الزمر آية (٥٦)

واختلف في ذلك أئمتنا :

هل نؤول المشكل، أم نفوض معناه المراد منه الى الله تعالى ؟ مع اتفاقهم على أن جهلنا بتفصيله لا يقدح في اعتقادنا المراد منه :

والتفويض مذهب السلف ، وهو أسلم ، والتأويل مذهب الخلف ، وهو أعلم ، أي أحوج الى مزيد علم ، فتؤول الأصبع هنا بالقدرة ، إذ إرادة الجارحة مستحيلة) اهـ .

أنظر مقدمة ابن الصلاح ، وشرح الأحاديث القدسية للمناوي والمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

ذكر خبر آخر مما ذكر فيه الصورة

وهو من الأخبار التي ذكرت في الصحاح رفع الحديث إلى أن قال :

فيأتيهم في صورة غير الصورة التي يعرفونها ، فيقول :

أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا ، حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه :

قال فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا فيأتونه .

وفي بعض الفاظ هذا الخبر أنه يقول لهم : أو تعرفونه إذا رأيتموه .

فيقولون : نعم .

فيقول : وبماذا تعرفونه ؟

فيقولون بيننا وبينه علامة إذا رأيناه عرفناه .

هذا الخبر مشهور وفيه طول وقصة ، ذكرنا منه ما يحتاج الى تأويل ، وتأويل ذلك وتخريجه يحتمل وجودها :

أحدها : أن تكون في ها هنا بمعنى الباء ، كما روينا عن ابن عباس في قوله عز وجل :

﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[1] .

(١) البقرة آية ٢١٠ والذي رواه المصنف عن ابن عباس هو ما أخرجه ابن جرير والديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺقال :

وإذا كان سائغاً في اللغة إبدال الباء بفي ، وفي بالباء ، لم ينكر أن يكون معنى في ها هنا معنى الباء .

وقد يسوغ ايضاً في الكلام ، ولا فرق فيه بين أن يقول الحركة في المتحرك ، والحركة بالمتحرك ، وإذا كان معنى الباء اعم ، فتقديره على هذا التخريج والتأويل :

أن الله عز وجل يأتيهم يوم القيامة بصورة غير صورته التي يعرفونها في الدنيا ، وتكون الإضافة في الصورة إليه من طريق الملك والتدبير ، كما يقال سماء الله ، وأرضه وبيت الله وناقته ، على وجهة الملك والفعل ، لا على الوجه الذي لا يليق به ، فيكون المعنى في ذلك : أن الخلق عرفوا الله سبحانه وتعالى بدلالاته ، المنصوبة ، وآياته التي ركبها في الصور[١] ، وهي الأعراض الدالة على حدوث الأجسام ، واقتضائها محدثا لها من حيث كانا محدثين .

وأما الإتيان به فعلى معنى ظهور فعله لها منه ، وهو معنى قوله تعالى :

﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[٢] .

« إن من الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفا بالملائكة ، وذلك قوله « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » اهـ الدر المنثور للسيوطي .

(١) وفي كل شيء له آية تدل أنه الواحد .

(٢) الآية ٢٦ من سورة النحل .

ولدفع إيهام التشبيه نقول:

إن الاتيان والحركة على الله تعالى محال ، فالمراد أنهم لما كفروا وأتاهم الله تعالى بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والأساس .

أو نقول : إن هذا محض التمثيل ، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى ، فجعل الله تعالى حالهم في تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين فسقط السقف عليهم ونظير ذلك قولهم :

(من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيها) .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ ٱلرَّحْمنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2] على أحد التأويل .

أو نقول : إن المراد منه ما دل عليه الظاهر ، وهو أنه تعالى أسقط عليهم . السقف وأماتهم تحته . أنظر ما قاله الفخر الرازي .

(١) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

ولدفع الايهام نقول :

ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله تعالى محال ، لأن كل ما كان كذلك كان جسما ، والجسم يستحيل أن يكون أزليا ، فلا بد فيه من التأويل ، وهو أن هذا من باب حذف المضاف، وإقامة المضاف اليه مقامه ، ثم ذلك المضاف ما هو فيه وجوه :

أحدها : وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة .

الثاني :وجاء قهر ربك ، كما يقال : جاءتنا بنو أمية ، أي قهرهم .

الثالث : وجاء جلائل آيات ربك ، لأن هذا يكون يوم القيامة ، وفي ذلك اليوم تظهر العظائم ، وجلائل الآيات ، فجعل مجيئها له تفخيما لشأن تلك الآيات .

الرابع : وجاء ظهور ربك ، وذلك لأن معرفة الله تصير في ذلك اليوم ضرورية ، فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق ، فقيل : وجاء ربك ، أي زالت الشبهة وارتفعت الشكوك .

الخامس : أن هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها .

السادس :أن الرب هو المربي ، ولعل ملكا هو أعظم الملائكة هو مرب للنبي ﷺ جاء فكان هو المراد من قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ .

(٢)الآية ٥ من سورة طه .

ولدفع ما ذكر من شبه حول تفسير هذه الآية نذكر ما قيل لرد هذه الشبه ، فنقول :

تعلقت المشبهة بهذه الآية ، في أن معبودهم جالس على العرش ، وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه :

أحدها : أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ، ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان ، بل كان غنيا

. . . .

عنه ، فهو بالصفة التي لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم ، أنه لم يزل مع الله عرش .

الثاني : أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش فيكون في نفسه مؤلفا مركبا ، وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال .

الثالث : ان الجالس على العرش أما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أولا يمكنه ذلك ، فإن كان الاول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لا محالة له ، وإن كان الثاني كان كالمربوط ، بل كان كالزمن ، بل أسوأ حالا منه ، فإن الزمن إذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم .

الرابع : هو أن معبودهم : إما أن يحصل في كل مكان او في مكان دون مكان ، فإن حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات ، وذلك لا يقوله عاقل ، وإن حصل في مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان ، فيكون محتاجاً وهو على الله محال .

الخامس : إن قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ سورة الشورى اية (١١) يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء ، فإنه يحسن أن يقال : ليس كمثله شيء الا في الجلوس ، والا في المقدار ، والا في اللون ، وصحة الاستثناء تقتضي دخول جميع هذه الأمور تحته ، فلو كان جالسا لحصل من يماثله في الجلوس ، فحينئذ يبطل معنى الاية .

السادس : قول تعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ سورة الحاقة (١٧)

فإذا كانوا حاملين للعرش ، والعرش مكان معبودهم ، فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم ، وذلك غير معقول ، لأن الخالق هو الذي يحفظ المخلوق ، أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله .

السابع : أنه لو جاز أن يكون المستقر في المكان إلها ، فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليس بإله لأن طريقنا الى نفي إلهية الشمس والقمر إنهما موصوفان بالحركة والسكون ، وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن إلها ، فإذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في إلهية الشمس والقمر .

الثامن : أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة الينا هي تحت بالنسبة الى ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس ، فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين ، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء .

التاسع : أجمعت الامة على أن قوله :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ سورة الاخلاص (١) .

أما قوله : غير الصورة التي يعرفونها ، فيحتمل أن يكون المعنى في ذلك : أنه يأتيهم[١] يوم القيامة بصورة على خلاف ذلك الشكل ، وتلك الهيئة ، التي كانت الصورة عليها في الدنيا ، ما لم يعرفوه ولم يعهدوه ، ليس ذلك منكراً ، لأن عادات اهل القيامة ، وما يظهر لهم من الأهوال وعجائب الخلق من صورة الملائكة وزبانية العذاب ، وخزنة الجنان ، مما لم يعهدوا على شكلها وهيئتها في الدنيا .

وأما قوله : فيقول « أنا ربكم » فقد قال بعض اهل العلم :

إن هذا آخر محنة المؤمن ، وأنه يظهر هذا القول فعلاً ، من الله عز وجل في بعض هذه الصور ، محنة للمكلفين في الدنيا ، من أهل الايمان فيظهر منهم ـ عن صدق توحيدهم وصحة إيمانهم ـ ما يكون إنكاراً لذلك ، وتكون الفائدة فيه : يعرفنا تأييد الله تعالى لأهل الايمان به في الدنيا والآخرة ، وتثبيته لهم ، كما قال عز وجل :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[٢] .

أي يثبتهم في الدنيا على الحق عند ظهور القول والمحن ، ويثبتهم في العقبى أيضاً في مواضع المحن[٣] .

من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره ، فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا في الحقيقة فيبطل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

العاشر : أن الخليل عليه السلام : قال : لا أحب الآفلين ، ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبداً ، غائبا أبداً ، فكان يندرج تحت قوله : لا أحب الآفلين :

فثبت بهذه الدلائل أن الاستقرار على الله تعالى محال :

أنظر كتاب : « تأسيس التقديس » والتفسير الكبير للفخر ، والكشاف للزمخشري .

(١) وفي نسخة أخرى : يأتي إليهم .

(٢) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم .

(٣) وقال عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال :

وإنما قيل للدنيا دار محنة وتكليف مطلقا ، وإن كان من نوعها قد يقع منها في العقبى ، فلا يطلق عليها أنها دار تكليف ومحنة ، بل يقال إنها دار جزاء ، لأن الغالب ذلك عليها ، وهذا كمال يقع في الدنيا جزاء ، ولا يضاف إليها ، لأنه لا يغلب عليها إذا لم يكن به[1] .

وأما قوله : « **أنهم يقولون إذا جاء ربنا عرفناه** » فيحتمل ان يكون معناه : مجيئاً بإظهار فعل يبديه في قلوبهم من زوائد يقين ، وعلم ، وبصر ، عندما يحدث لهم من إدراكه ومعانيه ، لأن سائر ما اضيف الى الله تعالى من إتيان ومجيء فهو لظهور نوع من تدبيره في فضل أو عدل .

وأما قوله :﴿ **فيأتيهم في الصورة التي يعرفونها** ﴾ فإن معنى الإتيان متأول على الوجه الذي مضى بيانه[2] ، ويكون تقدير تأويله : إنه اذا ظهر لهم نوع الصور المعهودة لهم شكلا وهيئة وخلق إدراكهم به ، وخاطبهم بأن اسمعهم كلامه ،

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) لا إله إلا الله ، « وفي الآخرة » المسألة في القبر .

ثم قال قتادة : أما الحياة الدنيا : فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ، « وفي الآخرة » في القبر ، أي عند سؤال الملائكة .

ولهذا ذكر العلماء كثيرا من الاحاديث الصحيحة التي تشهد لهذا وثبت صحته فانظرها في تفسير ابن كثير ، وتفسير الدر المنثور للسيوطي ، والطبري ، وأسباب النزول للواحدي .

(١) إذا أن الدنيا دار عمل بلا جزاء في الغالب الأعم ، والآخرة دار جزاء بلا عمل في الغالب الأعم كذلك ، ولذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقول :

« **لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن ، عليها يبلغ الخير ، وبها ينجو من الشر** » .

وهذا من كريم فضل الله تعالى بخلقه أن جعل الدنيا دار عمل و هيأ لها الأسباب ، وجعل الآخرة دار جزاء ، ولا تكليف بعمل تخفيفا منه وتفضلا ورحمة بخلقه سبحانه وتعالى .

(٢) والذي بسطنا القول في توضيحه وتعليقنا لشرح الآيات الثلاث :

قول تعالى : ﴿ **فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ** ﴾ مما جعلنا لا نبسط القول هنا .

وأفهمهم مراده ؛ تثبتوا وأيقنوا أن المكلم لهم هو ربهم عز ذكره ، وتكون الفائدة في ذلك تعريفنا ما يفعله الله عز وجل في العقبى من ألطافه بأوليائه في عصمتهم وحراستهم ، وتثبيتهم وتأييدهم ، حتى لا يستفزهم مشاهدة تلك الأهوال العظيمة ، ولا يستخفهم امر تلك الصور المنكرة التي لم يعهدوا مثلها[1] .

وأما قوله : « **إنه يقول لهم إذا رأيتموه عرفتموه ، فيقولون نعم بيننا وبينه علامة الخبر** » ، فإن معنى ذلك : أنباؤنا بحسن ثباتهم أولاً وآخراً ، وذلك بما وجده من فضله عز وجل في إدامة معرفتهم وبصيرتهم ، ، وإزالة قبول الخطأ والزيغ عنهم .

وأما تفسير العلامة وذكر ما بينها ، فمن[2] أهل العلم من قال :

إن تلك العلامة التي اشاروا اليها إنا نعرفه بها ، هو ما بينه وبين خلقه في الصور والأجسام من المخالفة والمباينة ، وأنه لا يشبه شيئا منها ولا يشبهه شيء منها[3] .

ومنهم من قال :

إن تلك العلامة ما معهم من المعرفة به ، وأنهم عبدوه في الدنيا من معرفة بمعبود

---

(١) كما عبر سبحانه وتعالى بقوله :
﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ، وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾. سورة الأنبياء (١٠٣)

(٢) وفي نسخة أخرى : فإن من أهل العلم .

(٣) إذ ليس كمثله شيء ، ولله المثل الأعلى ، وهذا المعنى عميق جدا في الاستدلال على معرفة الله تعالى يوم القيامة ، ذلك أنه واحد في ذاته ، وكذلك واحد في صفاته ، فحينما يتجلى على خلقه بهذه العظمة والجلال وبما يليق به سبحانه وتعالى من الهيبة والوقار يسعد كل من كتب الله له الحسنى وزيادة فيراه بما يقدر له أن يراه ، ولا يحيط بعلم رؤ يته سواه أنى شاء ، ومتى شاء ، وكيف شاء ، فيرى سبحانه من غير تكيف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤ ية الاجسام ومن غير إحاطة كذلك ، وهذا هو أرجح الاقوال حسبما نراه .

لا يشبه شيئاً مما عرفوه ، ولا يجوز أن يشبه شيئاً ، ولا أن يشبهه شيء ، فإذا رأوا ما عرفوه بمثل هذه المعرفة ، علموا أن الذي رأوه هو الذي عرفوه .

فكون علامتهم عن الرؤية معرفتهم ، فإذا كان مرئيهم في العقبى معروفهم في الدنيا ايقنوا أنه معبودهم[1] .

وحكي عن ابن ابي عاصم النبيل ، أنه كان يقول في تأويل الحديث :

إن ذلك تغيير يقع في عيون الرائين كنحو ما يتخيل للإنسان الشيء بخلاف ما هو به فيتوهمه الشيء على الحقيقة[2] .

واعلم أنه لا بد أن يحمل هذا الحديث على نوع مما قلنا ، لإستحالة أن يكون الله تعالى ذكره على صور كثيرة ، يجهلونه مرة ويعرفونه مرة ، أو يكون ممن يحل الصور ، فتنتقل الصورة لإستحالة أن يكون الله عز وجل حالا ومحلا صورة أو مصوراً ، وإنما إتيانه بالصورة بعد الصورة من طريق الفعل كما يحدث الشيء بعد الشيء ، ويغير الجسم من حال إلى حال بإحداث تغيير .

وإضافة الصورة إليه في هذه الأحاديث ، فهي بمعنى الملك والفعل ، لا بمعنى التصور بالشيء من الصور ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، لأن الهيئة والصورة والتركيب والتأليف ، كل ذلك إنما يصح على الأجسام المحدودة ، والجواهر

---

(١) وهذا القول لا يسلم به من يقول إن الكافر يرى ربه يوم القيامة ، ثم يحجب عنه ، ليزداد لوعة وحسرة ، واستدل على ذلك بقوله سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ سورة المطففين الاية (١٥) . وقال :

إن حجب الكافر عن رؤية الله ، بعد أن يراه تكون أشد في التحسر ،وأقسى في اللوعة وهذا من نوع العذاب والجزاء الذي أعده الله لمن كفر به وخرج عن طاعته .

(٢) يؤيد هذا القول ، من يقول حينما سئل كيف رأيت ربك ؟ ـ فقال :

« إنعكس بصري في بصيرتي ، فصرت كلي بصرا ، فرأيت من ليس كمثله شيء » .

المخلوقة ، وتعاقب الحوادث ، وتغير ما تقوم به فيها ، علامة حدث ما تقوم به .

ويحتمل أيضاً وجهاً آخر ، وهو أن الصورة ها هنا بمعنى الصفة ، فيكون تقدير المعنى فيه ما يظهر لهم من بطشه وشدة بأسه يوم القيامة[١] ، وإظهار معايب الخلق ومساويهم ، وفضائحهم ، وإنما عرفوه ساتراً حليمًا ، غفاراً كريماً ، فيظهر لهم منها أن ذلك منه ، وهو معنى قوله : « فيقول : أنا ربكم » على معنى قول القائل : قالت رجلي فخذك وأذني فطنت ، على معنى ظهور ذلك فيهما ، فيقولون عند ظهور ذلك منه مستعيذين بالله :

هذا مكاننا ، أي نلبث ونصبر حتى تظهر رحمته وكرمه ، وهو إتيان الرب لهم بإظهار جوده لهم ، وعطفه عليهم ، فيأتيهم بعد ذلك عند ثباتهم وفي الصورة التي يعرفونها ، على معنى إبداء عفوه ومغفرته ، وحلمه ، على الصفة التي يعرفونه في الدنيا من ستره ومغفرته وحلمه .

وإذا كان لفظ الصورة مستعملا في معنى الصفة ـ كما ذكرنا في قول القائل ـ عرفني صورة من هذا الأمر ، أي صفته ـ لم ينكر أن تكون الفائدة في هذا الخبر ، ما قلنا وأن يكون هذه الألفاظ من متشابه الفاظ الأحاديث ، جارية مجرى متشابه الفاظ اي الكتاب ، امتحانا بها اهل العلم لاستنباط الصحيح من معانيها ، والوقوف على الحد الواجب فيها وافتتان اهل الباطن بها وخروجهم عن الهدى والرشد ، والحق فيها على النحو الذي جرى عليه حكم متشابه اي الكتاب ومحكمها[٢] .

---

(١) كما تصور الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَى ، وَمَاهُم بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ ٱللهِ شَدِيدٌ ﴾

(٢) يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ .

ذكر خبر آخر
في معنى ما تقدم ذكره

وهذا النمط في هذه الأحاديث ، ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أيضاً من قوله :

« **لا شخص أحب للغيرة من الله سبحانه** » .

وقد روي هذا الحديث على وجوه ، أثبتها عند أهل النقل ، ما روي في أنه قال :

« **لا أحد أغير من الله تعالى** » .

وروي أيضاً :

« **لا شيء أغير من الله تعالى ، ومن غيرته حرم الفواحش** »[1] .

وفي هذا الخبر مما يتأول لفظان :

أحدهما : لفظ الغيرة . والثاني : معنى الشخص .

فأما معنى الغيرة فهو الزجر والتحريم ، لأن الغيور هو الذي يزجر عما يغار عليه ، ويحظر الدنو منه ، وقد بين عقبيه بقوله : « **ومن غيرته حرم الفواحش** » أي

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده والبخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن مسعود رضي الله عنه ولفظه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن** »

وفيما رواه أبو هريرة قال : قيل يا رسول الله أنا نغار ، قال :

« **والله إني لأغار والله أغير مني ومن غيرته نهى عن الفواحش** » .

زجر عنها وحظرها[1] .

وقد روي في الخبر أن بعض أزواجه ﷺ، أهدت إليه شيء في غير يومها ، فأخبرت عائشة رضي الله عنها ، بذلك فبددته ، فقال ﷺ :

« **غارت أمكم** » أي زجرت عن إهداء ما أنفذ .

ومنه أيضاً مما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺأنه قال :

« **إن سعد بن عبادة سيدكم لغيور ، وأنا أغير منه، والله أغير مني** »[2] .

ومعنى ذلك : أنه لزجور عن المحارم ، وأنا أزجر منه ، والله أزجر من الجميع ، عما لا يحب من الأفعال .

وأن لفظ الشخص ، فغير ثابت من طريق السند ، وإن صح فالمعنى : ما بينه في الحديث الآخر ، وهو قوله : لا أحد ، واستعمل لفظ الشخص موضع أحد على أنه يحتمل أن يكون هذا من باب المستثنى من غير جنسه ، ونوعه ، وما كان من صفته ، كما قال الله تعالى :

﴿ **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ** ﴾[3] .

وليس يظن من معنى العلم بوجه ، كذلك يكون تقديره : إن الأشخاص

---

(١) يقول سبحانه :

﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ الأعراف الآية (٣٣) .

(٢) اخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن مسعود رضي الله عنه ولفظهقال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺفقال :

« **اتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا اغير من سعد ، والله اغير مني ، من اجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن** » .

(٣) الآية ١٥٧ من سورة النساء .

الموصوفة بالغيرة ، لا تبلغ غيرتها وإن تناهت غيرة الله عز وجل ، وإن لم يكن شخصاً بوجه ، وإنما منعنا من إطلاق الشخص عليه تعالى الأمور :

أحدها : أن اللفظ لم يثبت من طريق السمع .

والثاني : أن الأمة قد اجتمعت على المنع منه .

والثالث : أن معناه أن يكون أجساماً موافقة على نوع من التركيب وقد منعت الجسمية من إطلاق الشخص ، مع قولهم بالجسم ، فدل ذلك على تأكيد ما قلنا من الإجماع على منعه في صفته .

ذكر خبر آخر في معنى ما تقدم ذكره
من حديث الصورة في خلق آدم عليه السلام

روى أبو موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ، أنه قال :

« إن الله تعالى خلق آدم عليه السلام ، من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والخشن ، والخبيث والطيب ، وبين ذلك »[1] .

وروي في بعض الأخبار ، أن الملك الذي حمل إلى الله عز وجل الطين ، هو المسمى ملك الموت ، ولذلك سلط على قبض الأرواح .

واعلم أن تأويل القبضة على معنى الجارحة والعضو والبعض مستحيل ، كونه جسما أو أجساماً على ما تقدم ذكره وبيانه من قبل .

فإما أن يحمل القبضة على معنى القدرة كقول القائل : ما فلان إلا في قبضتي ، على معنى أني قادر عليه ، وعلى هذا تأولوا قوله عز وجل :

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾[2] .

أي تحت قدرته وملكه .

وقد قيل أيضاً ، إن معنى الآية من قوله « قبضته » أن ذلك في حكم الفناء ،

---

(١) اخرجه الإمام احمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي عن ابي موسى رضي الله عنه .

وقال الترمذي : حسن صحيح ، وصححه ابن حبان وغيره .

(٢) الآية : ٦٧ من سورة الزمر .

تحقيقا للمعاد ، واستشهدوا بقول القائل : قبض الله نفسي إليه أي أفناه .

فأما المراد بالقبضة في هذا الخبر فهو اجتماع جملة من أجزاء المذكور فيه من الطين شهت في اجتماعها بالجملة المجتمعة في قبضة الجارحة .

وأما تأويل قوله ﷺ : « قبضها الرحمن » فيحتمل وجوها :

أحدها : أن يكون طريق ذلك وتأويله على معنى إظهار فعل كما قال الله تعالى :

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾[1] .

وكما قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾[2] .

وليس ذلك طمسا وختما ، على تأويل معناه ومباشرة ومعالجة وممارسة ، لما يحدث فيه الفعل ، بل ذلك على سائر ما يظهر من أفعاله عز ذكره ، لأنه يفعل أفعاله إبتداء اختياراً بقدرته وإرادته وأمره له (كن فيكون)[3] .

ويحتمل ذلك وجهاً آخر ، وهو أن يكون ذلك قبض جارحه ولكنها لبعض الملائكة ، ولا يمتنع وصف الملائكة بالجارحة ، فقيل قبضها الرحمن ، على معنى أن الملك قبض على ذلك بأمر الرحمن ، ومثاله في الكلام الجاري ، وبين الناس ، ضرب الأمير اللص ، وإنما أمره لضربه ، والأصل في ذلك إضافة الحوادث إلى المالك لها باللفظ الأعم ، قد يضاف إليه باللفظ الأخص فإن كان متضمنة على التخصيص لا

(١) الآية : ٣٧ من سورة القمر .
(٢) الآية : ٦٥ من سورة يس .
(٣) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .
ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّما قَوْلُنَا لِشَيءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

يصلح له على الوجه الذي يجري على غيره فيحمل ذلك حينئذ على المتعالم[١] المشهود بين الناس ، وأهل الخطاب في نسبة الفعل باللفظ الأخص ، إلى من أمر به ، والمراد بذلك أنه حصل بما أمره وحدث بقدرته ، وليس بمنكر في العقول أن يكون الله عز وجل ، وخلق طينة آدم عليه السلام من أجزاء أنواع الطين ، وأن الأخلاق والخلق ، إختلفت وتفاوتت ، كما تفاوتت أجزاء الطين لا لأجل تفاوتها أوجب ذلك بل حدوثها على تلك الوجوه ، لكنه جعلها عبرا وعلامات ربوبيته ووحدانيته التي حدثت عليه بقدرة الله واختياره »[٢] .

---

(١) وفي نسخة : « المتعلم » .

(٢) والمعنى العام الذي يؤخذ من هذا الحديث : « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها . . . الخ :
القبضة أصلها ما يضم عليه من كل شيء ، والقبضة هنا مطابقة الآية : « والآية جميعا قبضته يوم القيامة » وفي بيان تصوير عظمة الله تعالى ، وإن كل المكونات الآفاقية والأنفسية منقادة لإرادته ومسخرة بأمره ، فليس هنا قبضة بالحقيقة ، بل هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حي لخلقه .
يقول الكمال ابن ابي شريف اخذا من كلام بعضهم :
المراد بالقبض هنا حقيقة ، لكن إنما قبضها عزرائيل عليه السلام ، ملك الموت ، فلما كان القبض بأمره تعالى نسب اليه ، ويشهد له ما رواه سعيد بن منصور وابو حاتم ، عن ابي هريرة :
إن الله تعالى لما اراد ان يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بعث ملكا من حملة العرش يأتي بتراب من الأرض فلما هوى ليأخذ منها قالت اسألك بالذي ارسلك لا تأخذ مني اليوم شيئاً يكون منه للنار نصيب فتركها ، فلما رجع الى ربه أخبره فأرسل آخر فقال مثل ذلك ، قال الذي ارسلني احق بالطاعة فأخذ من وجهها ومن طيبها ومن خبثها الحديث .

فجاء بنو آدم على على قدر الأرض ، على قدر لونها وطبعها ، فخلق من الحمراء الأحمر ، ومن البيضاء الأبيض ، ومن سهلها الخلق اللين الرقيق ، ومن حزنها ضده ، ومن ثم جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك من الألوان .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ .
قيل : خلق آدم من ستين نوعاً من أنواعها وطبائعها ، فاختلفت بنوه كذلك ، ولذا اوجب في الكفارة إطعام ستين ليكون بعدد الأنواع ليعم الكل بالصدقة والسهل ، الذي فيه رفق ولين ، والحزن الذي فيه

عنف وغلظة .

فالسهل من الأرض السهلة ، والفظ الغليظ الجافي من ضدها .

والخبيث والطيب وبين ذلك ، اي فالخبيث من الأرض السبخة والطيب من العذبة ، ومن ثم اختلفت قوى الإنسان فتقبل كل قوة منها ما يأتيها من المواد ، فيزيد لذلك وينقص ويصلح لذلك ويفسد ويطيب ويخبث ، لما ذكر من أنه انشيء من اشياء مختلفة وطبائع شتى .

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا » ذكره البيضاوي .

وقال الطيبي :

« ولما كانت الأوصاف الأربعة الأولى من الأمور الظاهرة في الانسان والأرض اجريت على حقيقتها وتركت الأربعة الأخيرة مفتقرة الى تأويل ، لأنها من الأخلاق الباطنة ، فإن المعنى بالسهل الرفق واللين ، وبالحزن الخرق والعنف وبالطيب الذي يعني به الأرض العذبة المؤمن الذي هو نفع كله ، وبالخبيث الذي يراد به الأرض السبخة الكافر الذي هو ضرر وخسار في الدارين ، والذي سبق له الكلام في الحديث هو الأمور الباطنة ، لأنها داخلة في حديث القدر من الخير والشر ، وأما الظاهرة من الألوان وإن كانت مقدرة فلا اعتبار لها » اهـ .

ذكر خبر آخر في مثل هذا المعنى
مما ذكر في خلق آدم عليه السلام

روي عن النبي ﷺ، أنه قال :

« **إن الله خمر طينة آدم أربعين صباحا[1] ثم خلطها بيده ، فخرج كل طيب بيمينه ، وخرج كل خبيث بشماله ، ومسح إحدى يديه بالأخرى** » .

تأويل ذلك :

إعلم أن قوله ﷺ : « **إن الله خمر طينة آدم عليه السلام** » . فمعناه ما ذكرنا من إضافة بعض أفعاله على اللفظ الخاص ، كما يقال عذب وأنعم وحرك وسكن ، والرجوع في ذلك إلى حدوث المعاني منه بقدرته ، ويكون ذلك محمولا على حكم سائر أفعاله ، فإنها تحدث منه لا على معاناة ومباشرة .

وتخمير الطينة إنما هو تغيرها من هيئة إلى هيئة ، وتجديد ذلك عليها حالا فحالا ، في هذه المدة المذكورة ليجعل هيئة آدم عليه السلام ، وما خلق عليها عبر للمعتبرين ، وأن آدم عليه السلام كان أصله طيناً على هذا الوجه هذه المدة المذكورة .

---

(١) الحديث اخرجه ابو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي ، وقال الترمذي حسن صحيح .
وأخرج الامام احمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ، ! وهو الصادق المصدوق :
« **إن احدكم ليجمع خلقه في بطن امه اربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر باربع كلمات : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وهل هو شقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه**

ويشبه أن يكون ما روي في هذا الخبر : أن النطفة تكون علقة أربعين[1] ، ثم تكون مضغة مثلها ، إلى أن ينفخ فيها الروح ، فكانت مدة تغير آدم عليه السلام من هيئة إلى هيئة كنحو مدة تغير النطفة ، وإن كان أمر النطفة مفارقاً لعظمة آدم عليه السلام من وجوه أخر .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « **خلطها بيده** » فإن تأويل قوله خلطها على معنى ما ذكرنا من قوله « **خمر طينة آدم** » .

وقوله : « **من قبضة قبضها**[2] **الرحمن** » وكلا الوجهين من التأويل سائغ

وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل النار فيدخلها . وإن احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل الجنة فيدخلها » .

(١) انظر حديث الإمام احمد في المسند ، وسنن الترمذي ، وأبو داود الذي سبق ان أخرجناه قريباً جداً .

(٢) في اسماء الله تعالى : « القابض » وهو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ، ويقبض الأرواح عند الممات .

ومنه الحديث : « **يقبض الله الأرض ويقبض السماء** » أي يجمعها ، وقبض المريض إذا توفي ، وإذا اشرف على الموت .

ومنه الحديث ايضاً : « **فارسلت اليه ان ابناً لي قبض** » أرادت انه في حال القبض ومعالجة النزع .

وفيه : ان سعداً قتل يوم بدر قتيلا واخذ سيفه ، فقال له : القه في القبض ، والقبض بالتحريك بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل ان تقسم .

ومنه الحديث : « **كان سلمان على قبض من قبض المهاجرين** » .

وفي حديث حنين : فاخذ قبضة من التراب « هو بمعنى المقبوض » كالغرفة بمعنى المغروف وهي بالضم الاسم : وبالفتح المرة ، والقبض : الأخذ بجميع الكف .

ومنه : حديث بلال والتمر ، « **فجعل يجيء به قبضا قبضا** » .

وحديث مجاهد : « **هي القبض التي تعطى عند الحصاد** » وقد تقدما مع الصاد المهملة .

وحديث : « **فاطمة بضعة مني ،يقبضني ما قبضها** » اي اكره ما تكرهه واتجمع مما تتجمع منه » انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير .

فيه ، إن قلنا : إن ذلك إظهار فعل وإضافة إليه باللفظ الخاص من جهة الملك والتقدير سائغ .

وإن قلنا : إن ذلك على تأويل قول القائل : قتل الأمير اللص ، على أنه أمر به ، وإن القتل حدث عن ملكه وحكمه ، كان غير منكر أيضاً .

وأعلم أنه ليس المراد باليد ، ها هنا هو المراد بقوله : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] لأن الخلق هو الإحداث عن العدم ، وخلط الشيء بالشيء بإحداث له .

فإذا قلنا ، إن إضافة هذا الفعل لله عز وجل من طريق الأمر ، وإن ذلك حدث عن أيدي بعض المخلوقين من ملائكته وخلقه ، فإنه لا ينكر أن يكون خلط مباشرة بيد جارحة ، كما روي في الخبر الآخر : أن ذلك كان ملكا من الملائكة أمره الله عز وجل بجمع أجزاء الطين من جملة الأرض وأمره أن يخلطها بيده[2] ، فخرج كل طيب بيمينه ، وكل خبيث بشماله ، فيكون اليمين والشمال للملك والخلط والتخمير مضافتين إلى الله تعالى ؛ من حيث كان عن أمره وحكمه ، وجعل كون بعضهم من يمين الملك علامة لأهل الخير منهم ، وكون بعضهم في شماله علامة لأهل الشر

وهذا كله على خلاف ما عليه الصوفية لتعريفهم للقبض .

فإن القبض عندهم هو ما يقابل البسط ، إذ انهم يقولون : القبض والبسط هما حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء .

فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف .

والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف . . » اهـ .

(١) سورة ص آية (٧٥) .

(٢) يشير بهذا الى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ سورة الحجر آية (٢٨) ، (٢٩) .

منهم[1] .

وكذلك يقال في الخبر الآخر .

إن الله خلق الطيب من ذريته في الجانب الأيمن ، من آدم والخبيث في الجانب الشمال ، وكذلك ينادون يوم القيامة بأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، على بعض ما يذكر من وجوه تأويل قوله : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال فإن رجع باليمين والشمال إلى يمين الملك وشماله ، وكان ذلك ابتداء ما أراد أن يضع العلامة ، على أهل الخير والشر[2] ؛ ثم جعلها في صلب آدم على هذا التقدير لم يكن منكراً ،

(١) اخرج ابن عبد البر في التمهيد من طريق السدي عن ابي مالك ، وعن ابي صالح عن ابن عباس وعن ابن مرة الهمدني عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ سورة الأعراف آية (١٧٢) قالوا :

لما اخرج الله آدم من الجنة قبل تهبيطه من السماء مسح صفحة ظهره اليمين فاخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال لهم :

ادخلوا الجنة برحمتي ، ومسح صفحة ظهره اليسرى فاخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال ادخلوا النار ولا ابالي ، فذلك قوله : « اصحاب اليمين واصحاب الشمال ثم اخذ منهم الميثاق فقال : الست بربكم ؟ قالوا : بلى فاعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقيه ، فقال : هو والملائكة : شهدنا ان يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، قالوا : فليس احد من ولد آدم إلا وهو يعرف الله أنه ربه وذلك قوله عز وجل :

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ سورة آل عمران آية (٨٣) وذلك قوله :

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ سورة الأنعام آية (١٤٩) .

يعني يوم اخذ الميثاق اهـ الدر المنثور للسيوطي جـ ٣ ص ١٤١ .

(٢) يقول مقاتل :

« إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر ، فقال يا آدم : هؤلاء ذريتك ، ثم قال لهم الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم اصحاب اليمين .

وقال للسود هؤلاء في النار ولا ابالي وهم اصحاب الشمال واصحاب المشأمة ، ثم اعادهم جميعاً في صلب آدم ، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج اهل الميثاق كلهم من اصلاب الرجال وارحام النساء » اهـ .

ويكون تأويل قوله ، ومسح إحدى يديه بالأخرى ، على ما ذكرنا .

إن ذلك حادث جرى على أيدي بعض الملائكة ، لم يكن ذلك منكراً ويكون إضافة اليدين اليمين والشمال ، إلى الملك على طريق ؛ أنه جارحة له وبعض ، ويكون إضافة المسح إلى الله عز وجل من طريق الأمر والحكم والفعل له التقدير ، ويكون إضافة الوجه إلى الله عز وجل على التأويل الآخر بمعنى الملك والقدرة .

ويحتمل أن يقال في قوله : « ثم خلطها بيده » أي بملكه وقدرته ، ولا يجب على ذلك ، أن يحمل قوله تعالى (خلقت بيدي) على مثل هذا التأويل لوجوه تأكد بها ذلك ، وفارق بها المذكور من اليد ها هنا :

وأحدها : أنه حمل ذلك على معنى القدرة ، كان فيه إبطال تفضيل آدم على إبليس ، وإنما ذلك كلام جرى على طريق الاحتجاج على إبليس في امتناعه من السجود لآدم عليه السلام[1] ، وفي حمله على المقدرة ما يوجب المساواة وإسقاط موضع الإحتجاج به على إبليس في تفضيله عليه .

فإذا قلنا إن تأويل قوله « ثم خلطها بيده » أي بملكه وقدرته ، فإنه يحتمل قوله : فخرج كل طيب بيمينه ، أي بما أنعم عليه من توفيقه وتسديده .

وكل خبيث بشماله ، بما حرمه من معونته ونصرته[2] .

---

(١) حينما امر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم بقوله :
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ .

(٢) روى مسلم بن يسار الجهني ان عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية :
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنَ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ﴾ .. الآية (١٧٢) فقال :
سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال :
« إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون .

والعرب قد تستعمل لفظ اليمين على معنى الجد والحظ من الخير ، قال قائل :

إذا ما راية دفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

أي بجدار وبخت وحظ في الوصول إلى المراد .

ويحتمل قوله : « مسح إحدى يديه بالأخرى » أن يكون معناه :

إن الله عز وجل ، لما خلق الذرية ؛ خلقها نوعين طيباً وخبيثاً ، وميزها ، وجعل محل الطيب جانب اليمين عند يمين السعادة والتوفيق ، وجعل محل الخبيث جانب اليسار من آدم ، أو من الملك الذي أمره بخلط الطينة ، كان ذلك متميز العين والحكم ، ثم خلطها خلطا آخر ، وهو أن يجعل الطيب في المحل الخبيث ، والخبيث في المحل الطيب ، على تأول من تأويل قوله تعالى .

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾[1] .

أن معناه تولد الكافر من المؤمن ، والمؤمن من الكافر[2] ؛ لأن ما يحصل عن مسح إحدى اليدين بالأخرى مختلط غير مميز ، فيحتمل أن يكون ذلك مثل ضربة الله

ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل اهل النار يعلمون فقال رجل يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

« إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة فيدخل الجنة » .

« وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من أعمال اهل النار فيدخله الله النار » .

(١) الآية : ١٩ من سورة الروم .

(٢) يقول الفخر الرازي :

« في تعلق إخراج الحي من الميت ، والميت من الحي بما تقدم عليه هو ان عند الاصباح ، يخرج الإنسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة الى النوم

تعالى ، لتعريفه حكم السعادة والشقاوة ، بالفريقين من ذرية آدم ، فأفادنا بتعريف ذلك أنه خلق طينة آدم عليه السلام ، من أنواع طين مختلف ، ثم خلق ذريته نوعين في محلين مختلفين من خليقته ، كما روي في الخبر على مثال الذرّ ، وكانا متميزين في المحل ، فلما حصلت في الترائب والأصلاب ، حصلت مختلطة غير مميزة ، فكذلك يختلف الأحوال في حكم الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، على التناسل والتوالد ، وإذا احتمل بعض ما ذكرنا ، وكان ذلك سائغاً في العربية وحصل منه الفوائد على التأويل الذي ذكرنا كان أولى من أن يعتقد فيها ما ينافي التوحيد ، ويؤدي إلى الكفر والتشبيه .

واختلف المفسرون في قوله : « يخرج الحي من الميت » فقال اكثرهم :
يخرج الدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان .
وقال بعضهم : المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .
ويمكن ان يقال : المراد يخرج الحي من الميت ، اي اليقظان من النائم والنائم من اليقظان ، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل ، اي احياء الميت عنده وإماتة الحي ، من تنبيه النائم وتنويم المتنبه » اهـ .

ذكر خبر آخر في مثل هذا المعنى

وقد روي في هذه القصة أيضاً ، في خبر آخر .

أن الله عز وجل ، لما قبض الذرية من ظهر آدم بكفه ، قال خذ أيهما شئت قال : ـ

« أخذت يمين ربي وكلتا يديه يمين »[1] ، ففتحها فإذا فيها صورة آدم وذريته .

قال محمد بن شجاع انفرد برواية هذا الحديث ، حاتم بن اسماعيل ، وكان ضعيفاً والمقبري وكان مدلساً ، وانتشر عنه كان يدلّس فيما يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، فلعل هذا الحديث من هذين الوجهين .

فأما إذا قيل على ما فيه أمكن أن يكون تأويله على بعض هذه الوجوه التي ذكرنا .

أما قوله : « قبض الذرية من ظهر آدم » فلعل الوجه الذي بينا تأويله : أن القبضة أضيفت إليه ملكا وفعلا وتقديراً ، أو حكمًا وأمراً[2] .

وأما الكف فقد ذكرنا فيما قبل أنه يحتمل وجوها وذكرنا شواهد ذلك .

فإن حمل على معنى القدرة والملك صح ، وإن حمل على معنى النعمة والأثر الحسن صح ؛ لأن ذلك مما حدث في ملكه بقدرته ، وعن ظهور نعمته عل بعضهم وآثاره الحسنة فيهم .

---

(١) اخرجه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، عن ابن جرير ، عن ابي محمد ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرجه الإمام احمد في مسنده .

(٢) كما سبق ان ذكرنا تأويل ذلك .

وأما قوله عليه السلام : « أخذت يمين ربي » فيحتمل وجوها :

أحدها : أن اليمين لما كان محلا للطيب[1] من ذريته ؛ اختار ما كان اختاره الله عز وجل ، وأضيف اليمين من الله تعالى ، إلى الله تعالى من طريق الملك والقدرة والفعل الذي جعله في اليمين من أهل السعادة ، وهم أولياؤه ، فقد أخذته على معنى اخترتهم وواليتهم وأحببتهم .

ويحتمل أن يكون ذلك على معنى ما ذكرنا من قولهم (تلقاها عرابة باليمين) .

ويكون اليمين من اليمن ، فأثر الله من ظهرت فيهم وجوه البركة واليمن والسعادة من الله عز وجل ، وأضيف اليمين إلى الله على معنى أنه هو الذي أسعد به .

وقوله : وقال محمد بن شجاع ، معناه أني رددت أمري في ذلك إلى ربي تعالى ، واخترت ما اختار وفوضت إليه ، لأنه قال له ، خذ أيهما شئت ، فترك أن يختار ورد الأمر إليه ، كأنه أراد اخترت ما يختار وآثرت ما يؤثره[2] .

وأما قوله ﷺ :

« وكلتا يديه يمين » فقد ذكر بعض مشايخنا في تأويل ذلك ، أنه كان يقول :

إن الله عز ذكره الموصوف بيد الصفة لا بيد الجارحة ، وإنما تكون يد الجارحة

---

(١) كما سبق ان ذكرنا ووضحته النصوص السابقة في تعليقنا في موطنه فانظر قبل ذلك بصفحات يسيرة .

(٢) وفي تأويل قوله « يمين الله » يذكر الفخر الرازي كلاما نفيسا جاء فيه :

« حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة ، وكما ان حفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرة الله بدليل قوله سبحانه :

﴿ . . . وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ سورة الزمر آية (٦٧) . فكذلك الآن » .

ويقول صاحب الكشاف : « قبضته ملكه ، ويمينه قدرته » .

يمينا وشمالا ؛ لأنهما يكونان لتبعيض وتجزيء ذي أعضاء وأغيار ، ولما لم يكن ما وصف الرب به يد جارحة ، وبين النبي ﷺ ؛ ذلك بقوله : « **وكلتا يديه يمين** » أي ليست هي يد جارحة .

وقيل أيضا في ذلك : إن المراد أن الله عز ذكره ، لما وصف باليدين ويد الجارحة تكون إحداهما يمينا والأخرى شمالا واليسرى تنقص أبداً في الغالب عن اليمين في القوة والبطش عرفنا ﷺ ، كمال صفة الله عز وجل ، وأنه لا نقص فيها ، وأن ما وصف به من اليدين ليس كما وصف به ذو الجوارح ، الذي تنقص مياسره عن ميامنه[1] .

ويحتمل أيضاً : أن يكون معنى ذلك أن آدم عليه السلام ، لما قيل له : خذ أيهما شئت ؟

فقال : « أخذت يمين ربي ، وكلتا يديه يمين » إنما أراد به بيان الشكر والنعمة ، لا بيان الحكم والاعتراف بالملك ، فذكر الفضل والنعمة ، لأن جميع ما بيديه جل وعز من منه فضل وطول ، مبتدأ ، فمن منفوع ينفعه ؛ ومن مدفوع عنه يحرسه ، فقصد قصد الشكر والتعظيم للمنة ، وأن ما اختاره هو الكل والجميع حظا مما وراءه تصغيرا لهم وتهجيناً .

وقال بعضهم معنى « كلتا يديه يمين » أراد وصف الرب تعالى بغاية الجود والكرم ، والإحسان والفضل ، وذلك لأن العرب تقول ، لمن هو كذلك : « كلتا يديه يمين » وإذا نقص حظ الرجل وبخس نصيبه ، قيل جعل سهمه في الشمال وإذا لم

---

(١) اي ان ما وصف به سبحانه وتعالى من اليدين ، ليس كما يوصف به الإنسان الذي ثبت ان يده اليمنى اقوى في البطش من يده اليسرى .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ سورة الشورى آية (١١) .

يكن عنده إجتلاب منفعة ، ولا دفع مضرة ، قيل ليس فلان باليمين ؛ولا بالشمال ، ولذلك قال الفرزدق يمدح .

(كلتا يديه يمين غير مختلفة)[1] .

---

(١) يقول صاحب مفاتيح الغيب .

« لا شك ان لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح إلا أن الدلائل العقلية قامت على اقناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى ، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز فنقول :

إنه يقال : فلان في قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره ، قال تعالى :

﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ سورة المؤمنون آية (٦) . والمراد منه كونه مملوكا له .

ويقال : هذه الدار في يد فلان ، وفلان صاحب اليد ، والمراد من الكل القدرة .

والفقهاء يقولون في الشروط : وقبض فلان كذا وصار في قبضته ، ولا يريدون إلا خلوص ملكه ، وإذا ثبت تعذر هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونا لهذه النصوص عن التعطيل فهذا هو الكلام الحقيقي في هذا الباب » جـ ٧ ص ١٨٩ .

ذكر خبر آخر في هذا المعنى

وروي في خبر آخر أن يمين الله سبحانه سحاء لا يغيضها شيء[1] .

معناه : عطايا الله كثيرة لا ينقصها شيء ، وإلى هذا المعنى ذهب المرار الشاعر حيث يقول :

وإن على الأوايد من عقيل ... فهل كلتا يديه له يمين

والعبر تعبر عن النعم والأفضال باليد واليمين كلتيهما .

وروي في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ ، قال ذات يوم لنسائه : « **أطولكن يدا أسرعكن موتاً** »[2] .

فكن يتذارعن ، فكانت سودة أطولهن يداً ، فلما توفي رسول الله ﷺ كانت زينب أولهن موتا بعده .

فقلن : كيف قال رسول الله ﷺ ما قال ثم ذكرن أنها كانت أطولهن يداً في

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، وأخرجه الإمام البخاري أيضاً في صحيحه باب وكان عرشه على الماء ، كتاب التفسير وذكره القسطلاني أيضاً بلفظ أطول ، وأخرجه ابن ماجه في سننه جـ ١ ص ٧١ .

ومعنى : (لا يغيضها) لا ينقصها ، من غاض الماء ، أي قل ونضب .

ومعنى : (سحاء) أي دائمة الصب بالعطاء .

والمعنى المراد : أن يد الله تعالى كناية عن خزائنه سبحانه ، وأنها لا تنفد بالعطاء ، ولا تنقص بالنفقة المستمرة طوال الليل والنهار ، وقد وصفها الحديث بالامتلاء لكثرة عطائها ، فجعلها كالعين التي لا ينقصها كثرة الاستقاء منها .

(٢) أخرجه الإمام مسلم ، والنسائي ، وقد ورد بعدة روايات مختلفة الألفاظ في كنز العمال جـ ٦ ص ٣٤٢ باب السخاء والصدقة والترغيب فيهما .

الخير .

فبان أن العرب ، تعبر عن النعم والأفضل باليد واليمين[1] .

---

(١) يقول المازري :

« وهذا مما يجب تأويله ، لأنها تتضمن إثبات الشمال ، فيقتضي ذلك التحديد والتجسيم ، ويتقدس الله عن ذلك .

وإنما خاطبهم الله تعالى بما هو شائع في الاعطاء وأراد أنه لا ينقصه الانفاق خشية الاملاق ، وعبر عن توالي النعم بسح العين ، لأن الباذل منا يفعل ذلك بيمينه .

ولما كانت اليدان مظهر التصرف فينا ، عبر عن القدرة بتصرف اليدين على سبيل المجاز » اهـ .

ويقول البغوي في شرح السنة :

« كل ما جاء في الكتاب والسنة من هذا القبيل في صفاته تعالى ، كالنفس والوجه والعين والإصبع واليد والرجل ، والإتيان والمجيء ، والنزول الى السماء والاستواء على العرش والضحك والفرح ، فهذه ونظائرها صفات الله تعالى عز وجل ، ورد بها السمع ، فيجب الإيمان بها وإبقاؤ ها على ظاهرها معرضا فيها عن التأويل ، مجتنبا عن التشبيه ، معتقدا ان الباري سبحانه وتعالى لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذواته ذوات الخلق ، قال تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة ، تلقوها جميعاً بالقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله تعالى ، كما اخبر سبحانه عن الراسخين في العلم ، فقال عز وجل :

﴿ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

وقال سفيان بن عيينة :

« كل ما وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه في كتابه ، فتفسيره قراءته ، والسكوت عليه ! ليس لأحد ان يفسره إلا الله عز وجل ورسله » .

وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ . كيف استوى ؟ :

فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا ضالا ، وأمر به أن يخرج من المجلس .

وقال الوليد بن مسلم :

ذكر خبر آخر في هذا المعنى

ومثل هذا الخبر ، ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن** »[1] .

وقد تأول الناس ذلك على تأولين .

فمنهم من قال : معناه عن يمين عرش الرحمن على طريقة العرب في الحذف والإضمار ، كما قال القائل : ـ

واستب بعدك يا كليب المجلس

يعني أهل المجلس ، وكما قال عز وجل :

﴿ **وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ** ﴾ أي حبه .

وقال بعضهم : معنى قوله عن يمين الرحمن ، أراد به المنزلة الرفيعة والمحل العظيم ، وهذا سائغ ،في لغة العرب ، وذلك أنهم يقولون : كان فلان عندناباليمين أي كان له عندنا المحل الجليل والرتبة العظيمة ، ولذلك قال الشاعر :

أقــول لــنــاقــتي إذ بــلغــتــني   لقـد أصبحت عنـدي بــاليمـين

أي المحل الجليل ، وإذا كان هذا معروفا في اللغة ، فيما بينهم ، واستحال

سألت الأوزاعي ، وسفيان بن عيينة ومالكا عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية ، فقال : أقروها كما جاءت بلا كيف » اهـ .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي في سننه ورجاله على شرط الصحيح .

وصف الله تعالى ، بالحد والجهة ، والبعض والغاية ، والتأليف والممارسة ، وجب أن يكون محمولا على ما قلنا[1] .

---

(١) ولصاحب الأحاديث القدسية كلام نفيس جاء فيه :

« إن أول ما يجب على المؤمن أن يعتقد تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ، قال تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ، ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾

واعتقاد غير ذلك مخل بالإيمان ، واتفق أئمة المسلمين قاطبة على أن ما ورد من الكتاب والسنة مما ظاهره يوهم تشبيه الله تعالى ببعض خلقه ، يجب الايمان بأن ظاهره غير مراد ، ولا يصح وصف الله تعالى بما يفيده هذا الظاهر من حيث عمومه .

بل يسمون مثل هذا بالمتشابه ، ولعلماء الأمة فيه مذهبان :

مذهب السلف ، ومذهب الخلف .

فمذهب السلف يعتقدون أن ظاهره غير مراد ، ويفوضون علمه الى الله تعالى مع إيمانهم بأن الله تعالى منزه عن مشابهة خلقه ، ولا يعينون معنى خاصاً ، لهذا المتشابه ، بل عقيدتهم هي التفويض الكلي في علمه الى الله تعالى ، أخذا بقول الله تعالى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ ﴾ .

ثم يبدؤون في القراءة بقوله تعالى :

﴿ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَابِ ﴾ .

ومذهب الخلف : مع اعتقادهم تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ، يؤولون اللفظ المتشابه بمعنى ليس من المستحيل إطلاقه على الله تعالى .

ذكر خبر آخر في هذا المعنى

ومثله أيضاً ما روي في خبر آخر عن ابن عباس قال :

« الحجر الأسود يمين الله في أرضه ، يصافح بها من شاء من خلقه »[1] .

وقد تأول أهل العلم ذلك على وجهين من التأويل .

أحدهما : أن المراد بذلك الحجر ، أنه من نعم الله على عباده ، بأن جعله سبباً يثابون على التقرب إلى الله تعالى بمصافحته فيؤجرون على ذلك ، وقد بينا أن العرب تعبر عن النعم باليمين واليد ، كما ذكرنا قبل .

وزعم بعضهم : أن هذا تمثيل ، وأصله أن الملك ، إذا صافح رجلا قبل الرجل يده ، فكأن الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك ليستلم ويلثم .

---

(١) رواه الطبراني في معجمه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام عن عباس رضي الله عنهما رفعه ، ومعناه كما قال المحب الطبري :

« إن كل ملك إذا قدم عليه قبلت يمينه ، ولما كان الحاج والمعتمر يسن لهما تقبيله نزل منزلة يمين الملك على سبيل التمثيل ، ولله المثل الأعلى ، ولذلك من صافحه كان له عند الله عهد كما أن الملك يعطي العهد بالمصافحة :

وفي صحيح البخاري ان عمر قبل الحجر وقال :

إني لأعلم انك لا تضر ولا تنفع ، ولولا اني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك ، فقيل : إنما قال ذلك ، لانه لم يبلغه هذا الخبر ونحوه .

وقال الطبري : إنما قاله ، لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأوثان فخاف ان يظن الجاهل ان استلامه تعظيم للأحجار ، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية فأعلمهم بان استلامه إنما هو اتباع وأنه لا يضر ولا ينفع بذلك بذاته ، بل بأمر الله ، اهـ .

وقد روي في الخبر أن الله عز وجل أخذ الميثاق من بني آدم وأشهدهم على[1] أنفسهم .

(ألست بربكم ؟ قالوا بلى)[2] .

جعل ذلك في الحجر الأسود ، فلذلك يقال عنده ، إيمانا بك ووفاء بعهدك .

---

(١) أخرج الإمام احمد بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺقال : « إن الله اخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا أمال : ﴿ الست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ » .

وأخرج ابن جرير بسنده عن جرير قال :

مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة ايام قال :

فقال يا جابر ، إذا انت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده ، فإن ابني مجلس ومسؤول ففعلت به الذي أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عما يسأل ابنك من يسأله اياه ؟

قال ويسأل عن الميثاق الذي اقر به في صلب آدم .

قلت يا ابا القاسم ، وما هذا الميثاق الذي اقربه في صلب آدم ؟

قال : حدثني ابن عباس : إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم اعادهم في صلبه ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من اعطى الميثاق يومئذ ، فمن ادرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن ادرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول .

ومن مات صغيرا قبل ان يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة .

(٢) اخرج الترمذي بسنده عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ:

« لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيضاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال :

أي رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيض ما بين عينيه ، قال اي رب من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود .

قال رب : وكم جعلت عمره ، قال ستين سنة .

قال : اي رب ، قد وهبت له من عمري اربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال ولم يبق من عمري اربعون سنة ، قال : او لم تعطها ابنك داود ، قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطيء آدم فخطئت ذريته » اهـ .

ويحتمل وجها آخر ، وهو : أن يكون قوله « الحجر يمين الله في أرضه » إنما أضافه إليه على طريق التعظيم للحجر ، وهو فعل من أفعال الله عز وجل سماه يمينا ، ونسبه إلى نفسه وأمر الناس بإستلامه ومصافحته ، ليظهر طاعتهم بالإئتمار وتقربهم إلى الله عز وجل ، فيحصل لهم بذلك البركة والسعادة[1] .

---

(١) يقول المناوي :

(الحجر الاسود بتقبيله تبيض الوجوه ، ويسعد من يؤمه ويرجوه ، هو يمين الله في بلاده يصافح بهما من امه من عباده ، عنده تسكب العبرات ، وتذهب الحسرات) ثم استطرد قائلا :

وفي هذا الحديث فوائد : منها : إمتحان إيمان الرجل ، فإن كان كاملا يقبل هذا فلا يتردد وضعيف الإيمان يتردد ، والكافر ينكر .

ومنها التخويف فكان الرجل اذا علم ان الذنوب تسود الحجر يحترز منه لئلا يسود بدنه بشؤمه .

ومنها : التحريض على التوبة .

ومنها : الترغيب في مسح الحجر لتنقل الذنوب اليه .

ويقول القاضي :

لعل هذا الحديث جار مجرى التمثيل والمبالغة في تعظيم شأن الحجر وتفظيع امر الخطايا .

والمعنى : ان الحجر لما فيه من الشرف والكرامة ، وما فيه من اليمن والبركة يشارك جواهر الجنة ، فكأنه نزل منها ، وان خطايا بني آدم تكاد تؤثر في الجماد ، فتجعل المبيض منها مسوداً ، فكيف بقلوبهم .

أو من حيث انه مكفر للخطايا ، محاء للذنوب كأنه من الجنة ، ومن كثرة تحمله اوزار بني آدم كان ذا بياض شديد ، فسودته الخطايا :

هذا وإن احتمال إرادة الظاهر غير مدفوع عقلا ، ولا سمعاً ، والله اعلم بالحقائق .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

وهو ما روي ، أن الله تعالى ، لما قضى خلقه ، إستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، ثم قال :

لا ينبغي لأحد أن يفعل مثل هذا .

وأكدوا ذلك بما روي عن كعب ، أنه نهى الأشعث بن قيس أن يضع إحدى رجليه على الأخرى ، وقال : إنها جلسة الرب تعالى .

تأويل ذلك : أعلم أن قوله ؛ « لما قضى خلقه » أي لما أتم خلقه ما أراد أن يخلق من السماوات والأرضين ، وما بينهما ؛ ومثله في اللغة ، قضى فلان دينه وصلاته ، أي أداه ، ومثله قوله تعالى :

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾[1] أي خلقهن .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ ﴾[2] أي فرغ منها وأديت .

وأما قوله « استلقى » فقد تأول أهل العلم ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد به أن الله عز وجل لما خلق ما أراد أن يخلق من السموات والأرضين وما بينهما ، ترك أن يخلق أمثالهم دائمًا أبداً ، ولو شاء لأدام ذلك لأن هذه كلمة ، تستعمل في اللغة والعادة على هذا المعنى كثيراً ، ويقال مثله لمن عمل

---

(١) الآية ١٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية : ١٠ من سورة الجمعة .

أعمالا ، ثم ترك أن يفعل مثلها ، ويديم ذلك ، وإذا قيل للإنسان ، فعل ووضع فإنه يكون بمعاناة وحركة ، وتعالى الله عن ذلك[1] ، وإنما هذا كالمثل المضروب بين الناس ، فيقال بني فلان داره وعجدها ، واستلقى على ظهره ، وإن لم يكن قد اضطجع على التمثيل بمن كان على هيئة من يفرغ من عمله ولم يرد أن يفعل مثل ما فعل .

والتأويل الثاني : أن يكون معناه لما خلق الله ما أراد أن يخلقه من هذه الجمل التي خلقها إستلقى على معنى ألقى بعضها على بعض ، فجعل السماء فوق الأرض .

﴿ وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[2] .

وجعل سماء فوق سماء إلى العرش أطباقاً بعضها فوق بعض ، ويكون دخول السين والتاء في ألقى ، ها هنا ، على معنى قول القائل ، إستدعى وإستبرأ ونحوه ، إذا أراد الدعاء والبراءة ، فلما خلق الله عز وجل ، ما خلق وأراد أن يلقي بعضه على بعض ، قيل له إستلقى على معنى ألقى شيئاً منه على شيء ، وهو على الهيئة المعروفة المعتادة .

وأما قوله ثم وضع إحدى رجليه على الأخرى : ففيه أيضاً وجهان من التأويل .

أحدهما : أن يكون المراد به أن الله عز وجل ، خلقهم فريقين وزوجين شقيا وسعيداً ، وغنياً وفقيراً ، وصحيحاً وسقيمًا ، فسمى كل صنف منها رجلا ثم وضع إحداهما على الأخرى معناه : أنه رفع قوما على قوم ، فجعل بعضهم ملوكا ، وبعضهم عبيداً ؛ وبعضهم سادة للخير والمحنة .

---

(١) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ .

(٢) الآية : ١٥ من سورة النحل .

والوجه الثاني : أن يكون الله تعالى سمى[1] الجماعتين رجلين ، لأن العرب تسمى الجماعة الكثيرة رجلا ، ولذلك يقولون مر بنا رجل من جراد ، أي جماعة كثيرة .

وأما معنى النسبة إليه ، فمن طريق الفعل والملك كما نسب روح آدم إليه .

وأما ما روي عن كعب في نهيه الأشعث عن وضع إحدى رجليه على الأخرى ، فقد قيل : إن كعبا كان يأخذ العلم من الكتب وفي الكتب تحريف ، لما أخبرنا الصادق بأنهم حرفوه وبدلوه على أن كعبا لم يقل أيضا : أي رب هو ، وذلك لفظ مشترك .

ويحتمل أن يخرج ذلك أيضا ، على أن معناه :إن هذا جلسة الجبابرة فزجروه عن التشبيه بهم ، لأن العرب تقول للمعظم الشأن : الرب ، وتحقيق ذلك ، ما قال الحكم بن عتيبة عن أبي مجلز ، قال :

سألته عن الرجل يجلس ويضع إحدى رجليه على الأخرى ، قال لا بأس ، إنما كره ذلك أهل الكتاب ، زعموا أن الله سبحانه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم إستوى على العرش يوم السبت ، فجلس تلك الجلسة[2]، وأنزل الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[3] وبلغ الحسن ذلك ، فقال :

إنما ذلك شيء كانت اليهود تقوله ، فلما جاء المسلمون أنكروا ذلك[4] .

---

(١) وفي نسخة اخرى : « أن يكون الله تعالى قد سمى الجماعتين » .

(٢) اخرجه الخطيب في تاريخه عن العوام بن حوش .

(٣) الآية : ٣٨ من سورة ق .

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السموات والأرض فقال :

« خلق الله تعالى الأرض في يوم الأحد والأثنين ، وخلق الجبال والشجر في يومين ، وخلق في يوم

وروى الزهري عن عباد بن تميم المازني عن عمه عبد الله بن زيد ؛ قال :

رأيت رسول الله ﷺ ، مستلقيا في المسجد واضعا إحدى رجليه على الأخرى ، وكان أبو بكر وعمر يفعلان ذلك رضي الله عنهما[1] .

الخميس السماء ، وخلق في يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ، ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة » .

ثم قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟

قال : « ثم استوى على العرش » ، قالوا : ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺفنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ .

وأعلم انه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال ذلك تقدير العزيز العليم إشارة الى كمال القدرة ، والعليم إشارة الى كمال العلم ، وما احسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

(١) ويوضح الفخر الرازي هذا المعنى توضيحا واضحا فيقول :

إن الاحسان ثلاثة اجناس :

أحدها : السموات ثم حركها وخصصها بأمور ومواضع ، وكذلك الأرض خلقها ثم دحاها ، وكذلك ما بينهما خلق اعيانها واصنافها في ستة ايام إشارة الى ستة اطوار ، والذي يدل عليه ويقرره هو ان المراد من الأيام لا يمكن ان يكون هو المفهوم في وضع اللغة ، لأن اليوم عبارة في اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع الى الغروب وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر ، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت ، يقال يوم يولد الملك يكون سرور عظيم ، ويوم يموت فلان يكون حزن شديد ، وان اتفقت الولادة او الموت ليلا ، ولا يتعين ذلك ويدخل في مراد العاقل ، لأنه اراد باليوم مجرد الحين والوقت اذا علمت الحال من إضافة اليوم الى الأفعال فافهم ما عند إطلاق اليوم في قوله ستة ايام .

وقال بعض المفسرين :

المراد من الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الرد على اليهود حيث قالوا :

بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه في ستة ايام آخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على عرشه فقال تعالى :

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنَ لُّغُوبٍ ﴾ رداً عليهم .

والظاهر ان المراد الرد على الشرك ، والاستدلال بخلق السموات والأرض . وما بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول ، حتى لا نقدر على الاعادة ثانيا ، والخلق الجديد كما قال تعالى :

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ سورة ق آية (١٥) .

وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله ، وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات ابتديء يوم الأحد لكان الزمان متحققاً قبل الأجسام ، والزمان لا ينفك عن الأجسام ، فيكون قبل خلق الأجسام اجسام أخر ، فيلزم القول بقدم العالم ، وهو مذهب الفلاسفة .

ومن العجب ان بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف .

فإن الفلسفي لا يثبت الله تعالى صفة اصلا ، ويقول بأن الله تعالى لا يقبل صفة ، بل هو واحد من جميع الوجوه ، فعلمه ، وقدرته وحياته ، هو حقيقته وعينه وذاته .

والمشبهي يثبت لله صفة الأجسام ، من الحركة ، والسكون ، والاستواء والجلوس ، والصعود ، والنزول ، فبينهما منافاة .

ثم إن اليهود في هذا الكلام جمعوا بين المسألتين .

فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسألة التي هي اخص المسائل بهم ، وهي : القدم ، حيث اثبتوا قبل خلق الأجسام اياما معدودة ، وأزمنة محدودة .

وأخذوا بمذهب المشبهة في المسألة التي هي اخص المسائل بهم ، وهي الإستواء على العرش ، فأخطؤوا وأضلوا في الزمان والمكان جميعاً » اهـ .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

وهو من الأحاديث الصحيحة عن أهل النقل .

روى قتادة عن أنس ، وابن سيرين عن أبي هريرة ،عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إن جهنم لن تمتلىء حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول قط قط »(١) .

---

(١) وقد ورد هذا الحديث بعدة روايات نذكر منها ما يلي :

أخرج الإمام احمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن انس قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ،حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها الى بعض وتقول : قط ، قط ، وعزتك وكرمك .

ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنة » .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابي هريرة رفعه .

يقال لجهنم : هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، فيضع الرب قدمه عليها فتقول ، قط ، قط .

واخرج ابن ابي شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين .

وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي .

وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فتقول قط ، قط فهناك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض . ولا يظلم الله من خلقه أحداً . وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً » .

وأخرج احمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ قال : **« افتخرت الجنة والنار فقالت النار»**:

وقد روي من وجه غير ثابت عن أهل النقل حتى يضع الجبار رجله فيها فتنزوي فيقول قط قط .

اعلم أن هذا الخبر مما طلب أهل العلم قديما وحديثا تأويله وتخريجه بحسن طريقه وصحة سنده ، وقد حمل كل فريق منهم ذلك على تأويل رأوه صوابا ، فمن ذلك ما يحكى عن الفضل بن شميل أنه كان يقول :

إن معنى القدم ها هنا ، هم الكفار الذي سبق في علم الله تعالى أنهم من أهل النار .

وحمل معنى القدم ، على أنه هو المتقدم ، لأن العرب تقول للشيء المتقدم ، قدم وقدم ، وعلى ذلك تأويل المتأولون قوله عز وجل :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[1] .

أي سابقة صدق .

وقال ابن الأعرابي :

القدم هو المتقدم في الشرف والفضل خصوصا ، والقدم هو المتقدم وإن لم يكن فيه شرف .

«يا رب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف .

وقالت الجنة : اي رب يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين .

فيقول الله للنار : انت عذابي اصيب بك من اشاء . وقال للجنة انت رحمتي وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها : فيلقي فيها اهلها فتقول هل من مزيد . ويلقي فيها وتقول : هل من مزيد . حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليها فتزوى ، وتقول : قدني . قدني .

وأما الجنة فيلقى فيها ما شاء الله فينشيء لها خلقاً ما يشاء » اهـ .

(١) الآية رقم ٢ من سورة يونس .

وقال وضاح اليمين :

صـــل لـــربـــك واتخـــذ قـــدمـــا   ينجيـــك يـــوم العثـــار والـــزلـــل

الصواب صل لمولاك ؛ أراد بذلك معنى من الفضل يتقدم ربه .

وقال آخر : ـ

فقدت به قدم الفخار فأصبحت أنسا به منقضة من حالق .

أراد بذلك ما تقدم من الشرف وما يفتخر به ؛ أنه عدم ذلك وفقده .

وقال العجاج : ـ

ذل بنـــو العـــوام عن آل الحكم   ونـشـــأ الملك بمـلك ذي قـــدم

أي متقدم في الشرف والملك .

وقال بعضهم : القدم خلق من خلق الله ؛ يخلقه يوم القيامة ، فيسميه قدما ، ويضيفه إليه من طريق الفعل والملك يضعه في النار فتمتلىء منه .

وقال بعضهم : إن المراد ها هنا قدم بعض خلقه فأضيف إليه كما يقال ضرب الأمير اللص ، فيضاف الضرب إليه على معنى أنه من أمره وحكمه[1] .

---

(١) يقول صاحب التفسير الكبير :

« قوله « قدم » فيه اقوال لأهل اللغة ، واقوال للمفسرين .

أما اقوال اهل اللغة فقد نقل الواحدي في البسيط منها وجوها :

قال الليث وأبو الهيثم : القدم السابقة ، والمعنى : انهم قد سبق لهم عند الله خير ، قال ذو الرمة :

وانت امـــرؤ من اهـل بيت ذؤابـــة   لهـــم قـــدم مـعـــروفـــة ومـفـــاخـــر

وقال احمد بن يحيي : القدم كل ما قدمت من خير .

وقال ابن الأنباري : القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه ولا يقع فيه تأخير ، ولا إبطاء .

وقال بعضهم : إن الجبار ها هنا يحتمل أن يكون أريد به الموصوف بالتجبر من الخلق ، لأن ذلك من الأوصاف المشتركة وليست هي من الأوصاف الخاصة لله تعالى ؛ وذلك من وصف الكفار ، ألا تسمع قوله عز وجل :

﴿ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[1] .

في وصف الكفار ؟

فإذا كان كذلك ، احتمل أن يريد بقوله ، الجبار جنسا من الجبارين ، وهم الكفرة المعاندون ، أراد[2] يعرفنا إمتلاء النار بهم ، وإن جهنم لن تمتلىء إلا بهم .

وقال بعضهم : الجبار ههنا إبليس وشيعته ، ذلك أنه أول من استكبر على الله سبحانه في وصفه .

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾[3] .

واعلم ان السبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم ، فسمي المسبب باسم السبب ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد .

فإن قيل : فما الفائدة في إضافة القدم إلى الصدق في قوله سبحانه : « قدم صدق » ؟

قلنا : الفائدة التنبيه على زيادة الفضل ، وأنه من السوابق العظيمة .

وقال بعضهم : المراد مقام صدق .

وأما المفسرون : فلهم اقوال :

فبعضهم حمل قدم صدق على الأعمال الصالحة .

وبعضهم : حمله على الثواب .

ومنهم : من حمله على شفاعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

واختار ابن الأنباري هذا الثاني وأنشد :

صــل لــذي العــرش واتخـذ قــدمـا ينجيــك يـوم العثــار والـزلــل اهـ

(١) الآية ١٥ من سورة إبراهيم .

(٢) وفي نسخة اخرى : اراد ان يعرفنا .

(٣) الآية : ٣٤ من سورة البقرة .

والتجبر والإستكبار بمعنى واحد ، وجهنم تمتلىء به وبشيعته وأتباعه ، ولا ينكر وصفهم بالجوارح والأعضاء ، وإذا احتمل لفظ القدم هذه المعاني ، فكذلك يحتمل لفظ الجبار[1] أن يراد به غير الله عز وجل من المتجبرين لم يكن لحمله على ما لا يليق بالله عز وجل مَن إضافة الجوارح والأبعاض إلـ ه و- .

فأما من روى هذا الحديث على لفظ الرجل ، فقد قلنا إن هذا غير ثابت عند أهل النقل[2] ، وإن ثبت فمعناه لا يخلو من الوجوه التي ذكرناها .

أما أن يريد به رجل بعض خلقه ، وأضيف إليه ملكا وفعلا ، أو يراد به ، رجل

---

(١) ويقول صاحب كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر :

« في اسماء الله تعالى « الجبار » ومعناه الذي يقهر العباد على ما اراد من امر ونهي ، يقال : جبر الخلق وأجبرهم ، وأجبر أكثر ، وقيل هو العالي فوق خلقه ، وفعال من ابنية المبالغة ، ومنه قولهم : نخلة جبارة ، وهي العظيمة التي تفوت يد المتناول .

ومنه حديث ابي هريرة رضي الله عنه : « يا امة الجبار » إنما اضافها الى الجبار دون باقي اسماء الله تعالى ، لاختصاص الحال التي كانت عليها من إظهار العطر والبخور ، والتباهي به ، والتبختر في المشي .

ومنه الحديث في ذكر النار « حتى يضع الجبار فيها قدمه » .

المشهور في تأويله : أن المراد بالجبار الله تعالى ، ويشهد له قوله في الحديث الآخر :

« **حتى يضع رب العزة فيها قدمه** » .

والمراد بالقدم : اهل النار الذين قدمهم الله تعالى لها من شرار خلقه ، كما ان المؤمنين قدمه الذين قدمهم للجنة .

وقيل : اراد بالجبار ها هنا المتمرد العاتي ، ويشهد له قوله في الحديث الآخر :

« إن النار قالت : وكانت بثلاثة : بمن جعل مع الله إلها آخر ، وبكل جبار عنيد وبالمصورين » اهـ .

(٢) ويقول صاحب الأحاديث القدسية نقلا عن شرح مسلم للإمام النووي ، وهامش القسطلاني رداً على هذا الزعم :

« وأما الرواية التي فيها : « حتى يضع الله فيها رجله » فقد زعم الإمام ابو بكر بن فورك انها غير ثابتة عند اهل النقل ، ولكن قد رواها مسلم وغيره ، فهي « حيحة ، وتأويلها كما سبق في القدم » ونحن مع ذلك على ضوء ما ذكرنا من قبل .

المتجبر المتكبر من خلقه ، أما أولهم وهو إبليس أو من بعده من أتباعه .

وقيل أيضا : إن الرجل في اللغة يقال للجماعة الكبيرة تشبيها برجل الجراد ؛ لأن العرب تقول :

مر بنا رجل من جراد ، أي قطعة منه ، فيكون معنى الخبر حتى يدخلها خلق كثيرون ، ويشبهون من الكثرة الجماعات برجل الجراد[1] ، وفي ذلك أنشد قول القائل :

متى انزوى إليهم من الحي اليمانين أرجل .

أي جماعات كثيرة .

وإذا كان هذا معروفا في اللغة ، فحمل الخبر على مثله ، أهدى إلى الحق ، وأولى في وصف الرب الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأما قوله تقول : قط قط . أي حسبي كما يقول العرب :

امتلأ الحوض وقال قطني ... مهلا رويدا قد ملأت بطني

ويقال أيضا : إن ذلك حكاية صوت جهنم .

---

(١) يقول ابن الأثير الجزري في النهاية .

« وفي حديث ايوب عليه السلام :

(أنه كان يغتسل عريانا ، فخر عليه رجل من جراد ذهب) الرجل بالكسرة الجراد الكثير ومنه الحديث :

(كأن نبلهم رجل جراد) .

وحديث ابن عباس :

(أنه دخل مكة رجل من جراد ، فجعل غلمان مكة يأخذون منه ، فقال :

أما انهم لو علموا لم يأخذوه) كره ذلك في الحرم لأنه صيد اهـ .

وقد روي في نحو ذلك عن النبي ﷺ، أنه قال :

« كثافة جلد الكافر في النار تبلغ أربعين ذراعاً بذراع الجبار »[1] .

وهذا مما يبين لك أن لفظ الجبار ليس مما لا يستعمل إلا في صفة الله عز وجل ، لأن المراد بالجبار ههنا الموصوف بطول الذراع ، وعظم الجسم ، والعرب تقول نخلة جبارة ، إذا كانت طويلة ، يفوت اليد طولها ، وكذا قال عز وجل .

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾[2] .

وإذا كان لفظ الجبار محتملا لما قلنا ، ولا يسوغ وصف الله سبحانه بالأبعاض والأجزاء ، وكان حملنا له على ذلك ، يفيد فائدة متجددة ، لم يكن لحمله على ما لا يليق بالله سبحانه وجه من توهم الجارحة والأداة والعضو والآلات في صفته .

---

(١) يقول صاحب النهاية في غريب الحديث والأثر :

ومنه الحديث (كثافة جلد الكافر اربعون ذراعا بذراع الجبار) ، اراد به ها هنا الطويل ، وقيل : الملك ، كما يقال بذراع الملك .

قال القتيبي : وأحسبه ملكا من ملوك الأعاجم ، كان تام الذراع » اهـ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة ق .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

مما ذكره الناس في هٰذا الباب مما يدخل في معناه ، هو ما روي عن عبيد بن عمير أنه قال : إن الله تعالى : يقول لداود عليه السلام يوم القيامة .

مر بين يدي ، فيقول : إني أخاف أن تدحضني خطيئتي في النار .

فيقول : مر خلفي .

فيقول : إني أخاف أن تدحضني[1] خطيئتي .

فيقول : خذ بقدمي ، فيأخذ بقدمه فيمر .

قال : فتلك الزلفى التي قال الله سبحانه .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[2] .

ذكر تأويل ذلك

اعلم أولا أن عبيد بن عمير ، ليس بحجة ؛ ولا هو ممن يجوز أن يعتقد في الله ، أنه محدود بقوله ، على أنا نذكر لكلامه وجها صحيحاً وتأويلاً قريباً ، فنقول : -

---

(١) الدحض : جمع داحض ، وهم الذين لا ثبات لهم ولا عزيمة في الأمور .

(٢) الآية ٢٥ من سورة ص .

والحديث اخرجه ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ .

وأخرجه جلال الدين السيوطي في كتاب الدر المنثور في التفسير بالمأمور جـ ٥ ص ٣٠٦ بعدة روايات .

يحتمل أن يكون معنى قوله عز وجل لداود مر بين يدي ، أي حاسب نفسك قبل أن أسألك ، فتكون محاسبتك لنفسك ، أجدى عليك ، منها قبل أن أسألك عنها ؛ وتصديق ذلك قوله عز ذكره .

﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

أي لا تسبقوا قبل حكم الرحمن عليكم في الشيء فكذلك قوله لداود عليه السلام .

مرّ بين يدي ، أي خذ في محاسبتك لنفسك قبل مسألتي لك .

فيقول داود عليه السلام :

أخاف أن تدحضني خطيئتي : أي إذا حاسبت نفسي ؛ ولم تصفح عني ، في محاسبتي لنفسي بأن تستر علي وتعفو عني .

وكذلك في خلف تأويله مثل ذلك ، لما قال مر من خلفي فقال أخاف أن تدحضني خطيئتي ، إنما أخاف أن يبتدىء بمحاسبة نفسه .

فقال : ما تبدي بالمسألة ، ليكون جوابك بعد ما أسألك ؛ فخاف مثل ذلك .

فقال خذ بقدمي ، أي بما قدمت لك من العفو والغفران والرحمة ، فقد صفحت عنك ، وغفرت لك ، وتقدم حكمي بذلك سابق علمي .

ومما يبين ذلك أن مثل هذا اللفظ قد يستعمل ، فيما ليس بمحدود أيضاً ولا متناه ، ولا ذي جوارح كقوله عز وجل :

(١) الآية ١ من سورة الحجرات .

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بين يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[1] .

ولم يرد الأمكنة بل أراد فيما تقدم من قول الكافرين ، ولا الباطل الذي يأتي من بعده .

وقوله : خذ بقدمي إليك ، كما يقال ، فيما بيننا ، خذ بإحساني إليك ، ودع ما أسأت إلي ، ولا تأخذ به ، والذي يؤيد جميع ذلك ، قوله في آخر القصة ، فتلك الزلفى قال عز وجل :

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

يكشف لك عن المراد أنه أريد به ما ذكرناه ، من تقدم الرحمة له ، لا قدم جارحة على النحو الذي تأولنا عليه :

قوله « حتى يضع الجبار فيها قدمه » .

وفسر المفسرون قوله (إن لهم قدم صدق) إن ذلك ليس يرجع الى الجارحة والآلة ، وإذا احتمل من طريقة العربية ما ذكرنا ، وكان مثله في الخطاب مستعملا والعرف فيه جارياً ، كان ما حملناه عليه أولى ؛ مما يتوهمه المشبهون من إثبات الجوارح والأبعاض لله تعالى ، وأولى مما ذهب إليه المعطلة من مبطلي هذه الأحاديث لما بينا من الفوائد التي تتعلق بها ، ما يشهد بمثله القرآن[2] .

---

(١) الآية : ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) وقد فصلنا القول في ذلك من قبل وذكرنا ما ورد من قول أهل السلف والخلف فارجع إليه إن شئت ، وعلى سبيل التذكير لا الحصر نذكر هنا التأويل الذي ذكره صاحب النهاية في غريب الحديث والأثر الذي قال فيه :

« الأصابع جمع أصبع وهي الجارحة ، وذلك من صفات الأجسام ، تعالى الله عز وجل عن ذلك وتقدس .

وإطلاقها عليه مجاز كإطلاق اليد ، واليمين ، والعين ، والسمع ، وهو جار مجرى التمثيل والكناية ، عن سرعة تقلب القلوب ، وإن ذلك معقود بمشيئة الله تعالى وتخصيص ذكر الأصابع كناية عن أجزاء القدرة والبطش ، لأن ذلك باليد ، والأصابع أجزاؤها » اهـ .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

فمن ذلك ما روى مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال :

« إن الله يضحك تبارك وتعالى ، إلى رجلين ، يقتل احدهما الآخر ، كلاهما دخل الجنة ، يقاتل هذا ، في سبيل الله فيستشهد ثم يتوب الله على قاتله فيسلم ، في سبيل الله فيستشهد » [1] .

وكذلك ما روى الفضل بن دكين[2] أبو نعيم عن إسماعيل بن عبد الملك ، عن علي بن ربيعة ، قال :

حملني امير المؤمنين علي رضي الله عنه خلفه ، حتى مر بنا إلى جبانة الكوفة ، ثم رفع رأسه الى السماء فقال :

«اللهم اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك » ثم التفت إلي يضحك ، فقلت :

يا امير المؤمنين ، إستغفارك لذنبك والتفاتك إلي ضاحكاً ، لماذا ؟ .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ، وقد سبق القول في تأويل يضحك بالنسبة لله سبحانه وتعالى من قبل فارجع إليه إن شئت .

(٢) الفضل بن دكين الحافظ أبو نعيم الملائي مولى آل طلحة روى عن الأعمش وزكريا بن أبي زائدة وأمم ، وروى عنه البخاري ، وعبد بن حميد ، وأبو زرعه ، وأمم ، مات سنة ٢١٩ في سلخ شعبان بالكوفة ، وثقه يعقوب بن شيبة ، وأحمد وابن معين ، وابن المديني وغيرهم . أنظر الكاشف للذهبي تحقيقنا طبعة دار الكتب الحديثة جـ ٢ ص ٣٨١ ص٣٨٢ .

فقال : حملني رسول الله ﷺخلفه إلى موضع ذكره ، ثم رفع رأسه الى السماء فقال :

« اللهم اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب احد غيرك » ثم التفت إلي يضحك فسألته عن ذلك فقال : **« ضحكت لضحك ربي يعجب لعبده ، إنه يعلم أنه لا يغفر الذنوب أحد غيره »** .

وحديث عطية العوفي[1] عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺقال : **﴿ إن الله سبحانه ليضحك إلى ثلاث** :

«رجل قام في جوف الليل وأحسن الطهور ثم صلى ، ورجل نام ساجداً ، ورجل نجا كتيبة منهزمة ، وهو على فرس جواد ولو شاء أن يذهب لذهب » وما روي عن عدي بن عميرة[2] ، أن الله يضحك في كل يوم وليلة مرتين .

وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال :

« يضحك ربنا من قنوط عباده » .

قال ابو رزين[3] : قلت يا رسول الله ، أيضحك الرب؟ قال : **« لن نعدم من رب يضحك خيراً »** .

---

(١) هو عطية بن سعد العوفي أبو الحسن ، روى عن أبي سعيد ، والشعبيَ ، وروى عنه ، أبناء عمرو والحسن ومسعر ، وقره ، ضعفوه ، مات سنة ١١١ هـ أنظر الكاشف للذهبي جـ ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) هو عدي بن عدي بن عميرة ، أبو فروة الكندي ، سيد أهل الجزيرة ، روى عن أبيه وعمه العرسي بن عميرة الكندي ، والصنابجي أبو عبد الله عبد الرحمن بن عسيلة المرادي ، وروى عنه أيوب ، وعطاء الخراساني ، ثقة ، ناسك ، فقيه ، مات سنة ١٢٠ هـ .

(٣) أبو رزين الأسدي ، مسعود بن مالك ، روى عن علي ، وروى عنه أبو الخير مرثد ، وفي تهذيب ابن حجر : صوابه أبو زرير ، وهو عبد الله بن زرير ، أبو رزين الأسدي : مسعود بن مالك .

تأويل ذلك

إعلم أن هذا الحديث من الأخبار المشهورة ، عن اهل النقل ، وبعضها يبين معنى بعض ، فمن ذلك : أن لفظ الضحك مشترك المعنى في اللغة[1] ، ويختلف أحكامه باختلاف من يضاف إليه ذلك ، ويوصف به ، وليس هو من الألفاظ التي تختص بمعنى واحد ، حتى لا يليق به غيره ، فمن ذلك أن العرب تقول : في تكشير اسنان الإنسان وثغر فيه ، إذا وقع على وجه مخصوص ضحك ، وكذلك تقول : ضحكت الأرض بالنبات ، إذا ظهر فيها النبات ، وانفتق عن زهره ، وكذلك قالت العرب لطلع النخل ، إذا انفتق عنه كافوره الضحك ، لأجل أن ذلك ، يبدو منه مع البياض الظاهر ، كبياض الثغر ، يقولون ضحك الطلعة ، إذا ظهر منها ، ما كان مستتراً ، وكذلك قال القائل : (يضاحك الشمس منها كوكب شرق) .

وقال ابن الاعرابي ينشد في الربيع :

أما ترى الأرض قد اعطتك زهرتها ... مخضرة فاكتسى بالنور عاليها
للسماء بكاء في جوانبها ... وللربيع ابتسام في نواحيها

يريد الابتسام ظهور النبات[2] فيها ، وطلوع النور عليها وأنشد بعضهم في معنى ذلك :

كل يوم باقحوان جديد ... يضحك الروض من بكاء السماء

---

(١) أنظر اللسان ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ، والقاموس المحيط ومختار الصحاح ، والمصباح المنير .

(٢) يقول صاحب النهاية في غريب الحديث والأثر :

« ضحكْ » فيه « يبعث الله تعالى السحاب ، فيضحك أحسن الضحك » جعل انجلاءه عن البرق ضحكا ، استعارة ومجازاً ، كما يفتر الضاحك عن الثغر ، وكقولهم ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرتها » اهـ .

وكذلك (وضحك المزن بها) يريد بالمزن السحاب ، ويضحك البرق الذي ظهر منه وببكائه المطر .

وحكى عن بعضهم ، أن العرب تقول للطريق الواضح البين : هذا طريق ضاحك ، وهذا طريق لاحب ، إذا ارادوا وصفه بالظهور .

واعلم ان معنى مرجع الضحك في جميع هذا الذي ذكرنا الى البيان والظهور .

وأن كل من ابدى أمراً كان يستره ، فانه يقال له ضحك .

وكذلك يقال لمن ابرز المكتوم وأظهر المستور ذلك .

فعلى هذا معنى الخبر في قوله عليه الصلاة والسلام : « **يضحك الله** » اي يبدي عز وجل من فضله ونعمه وتوفيقه ، لهذين المقتولين المتقولين في سبيل الله ، اللذين قتل أحدهما صاحبه ، ثم قتل قاتله بالشهادة ثانياً من بعد توبته من قتله وبين من ثوابهما وأظهر من كرامته لهما[1] .

وكذلك معنى ما روي عن النبي ﷺ في الخبر الآخر أنه قال :

---

(١) يقول صاحب أساس البلاغة :

ومن المجاز : ضحكت الأرض عن النبات ، وضحكت الرياض عن الزهر ، وضحك العارض برق ، وسحاب ضاحك ، وطريق ضحوك وضحاك المطالع : واضح ، والنور يضاحك الشمس ، قال الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل

وله رأي ضاحك : ظاهر لا لبس فيه ، وإن رأيك ليضاحك المشكلات ، وعنده ضحكات القلوب وهي الخيار ، من الأموال والأولاد التي تفرح القلوب .

وأضحك حوضه : ملأه حتى يفيض ، وتبسم الطلع وضحك تغلق ، ويقال : ما أكثر ضاحك نحلكم ، ومنه : الضحك : الطلع ، والغدير يضحك في الروضة ، يتلألأ ، وضحكت الأرض : حاضت .

« **ضحكت لضحك ربي** » ، اي اظهرت انا عن أسناني بفتح فمي ، لإظهار ربي سبحانه فضله وكرمه ، لمن قال هذا القول ، وهو قوله : « **اللهم اغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب احد غيرك** » .

وإذا كان الضحك مما استعمل في اللغة على وجوه مخصوصة .

منها : تكشير الأسنان وفتح الفم .

ومنها ظهور المكتوم من الأمور ، وبروز المستور من الفعل ، وكان يستحيل وصف الله عز وجل بالجوارح ، والعينين لحلول الحوادث في ذاته ، وجب أن يكون محمولا على ما يصح ويجوز في وصفه ، وذلك هو الإبانة عن فضله والإظهار لنعمه ، وكذلك قال ﷺ، لأبي رزين العقيلي لما قال له : يا رسول الله : ايضحك ربنا .

فقال : « **لن نعدم من رب يضحك خيراً** »[1] .

---

(١) ويوضح صاحب أساس التقديس تأويل القول في

« يضحك ربنا فيقول :

« اعلم أن حقيقة الضحك على الله تعالى محال ، ويدل عليه وجوه :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ فتبين أن اللائق به ، أن يضحك ويبكي ، فأما الضك والبكاء فلا يليقان به .

والثاني : ان الضحك سنح يحصل في جلد الوجه مع حصول الفرح في القلب ، وهو على الله تعالى محال .

والثالث : لو جاز الضحك عليه جاز البكاء عليه ، وقد التزمه بعض الحمقى ، وزعم أنه بكى على أهل طوفان نوح عليه السلام ، وهذا جهل شديد ، فإنه تعالى هو الذي خلق الطوفان ، فإن كرهه فلم خلقه ؟ وإن لم يكرهه فلم ينكر عليه ؟

الرابع : أن الضحك إنما يتولد من التعجب ، والتعجب حالة تحصل للإنسان عند الجهل بالسبب ، وذلك في حق عالم الغيب والشهادة محال .

إذا ثبت هذا فنقول : وجه التأويل فيه من وجوه :

أحدها : أن المصدر كما يحسن إضافته إلى المفعول ، فكذلك يحسن إضافته إلى الفاعل .

وهذا منه ﷺ إشارة إلى وصف الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه بالقدرة على فضل النعم وكشف الكرب والستار عن الخفيات .

والكشف عن الأمور المستورة ، فرقا بينه وبين الأصنام ، والتي لا يرجى منها خير ولا شر .

وإذا كان ذلك رجوعا إلى القدرة على الأفعال بالدفع والنفع ، فقد صح ما قلناه وبين عليه الصلاة والسلام بذلك عما إليه أشرنا .

فأما ما بين لك من الخبر المروي ، في هذا المعنى بقوله ﷺ ، لأبي رزين العقيلي .

لن نعدم من رب يضحك خيراً أي يبدي من فضله ، ويظهر منه مننه ما يبدي الضاحك ، ومما يستر عنه تشبيها في معنى إظهار ما كان مكتما ، وإبداء ما كان مخفيا .

وإذا احتمل التأويل ما ذكرنا ، واستحال وصف الله تعالى بالجوارح والأبعاض ، وجب أن يحمل ما قلنا[١] .

فقوله : ضحكت من ضحك الرب ، أي من الضحك الحاصل في ذاتي بسبب أن الرب خلق ذلك الضحك .

الثاني : أن يكون المراد أنه تعالى لو كان ممن يضحك كالملوك كان هذا القول مضحكا له .

الثالث : أن يحمل الضحك على حصول الرضى والإذن ، وهذا نوع مشهور من الاستعارة .

(١) يقول الخطابي :

(الضحك الذي يعتري البشر عند الفرج والطرب ، ومحال على الحق تقدس ، وإنما هذا مجاز عن رضاه عنهم ، وإقباله عليهم ، والكرام يوصفون بالبشر وحسن اللقاء عند القدوم عليهم .

ويقول المناوي وغيره :

(من خصائص هذه الأمة أنه تعالى يتجلى عليهم فيرونه ويسجدون له بإجماع أهل السنة) اهـ .

وذكر ابن قتيبة :

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن العجب والضحك ، ليس على ما ظنوا ، وإنما هو على حل عنده كذا

بمحل ما يعجب منه ، وبمحل ما يضحك منه .

لأن الضاحك إنما يضحك لأمر معجب له ، ولذلك قال رسول الله ﷺ للأنصاري الذي ضافه ضيف ، وليس في طعامه فضل عن كفايته ، فأمر امرأته بإطفاء السراج لياكل الضيف ، وهو لا يشعر أن المضيف له لا يأكل) اهـ .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

وهو ما روى سفيان بن عينية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال :

« خلق الله تعالى الملائكة من شعر ذراعيه وصدره أو من نورهما » .

تأويل ذلك

اعلم ان أول ما فيه أن عبد الله بن عمرو لم يرفعه إلى النبي ﷺ .

وقد قيل : إن عبد الله بن عمرو أصاب وسقين من الكتب يوم اليرموك ، فكانوا يقولون له إذا حدثهم :

حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ، ولا تحدثنا من وسقـك يوم اليرموك .

وقد بينا فيما قبل أن الذي ذهب إلى ظاهر التشبيه ، وحمل الأمر في معنى هذا الخبر ، على ما هو جوارح الإنسان وأعضاؤه ، هم اليهود ، ولذلك كان وهب بن منبه يقول :

إنما ضل من ضل بالتأويل[1] .

---

(١) ويقول إمام الحرمين الجويني في كتابه النفيس الشامل في أصول الدين :

(ومن ينتمي إلى الحق من الأئمة ومخلصي الأمة يعترف بتقديس الرب عن الجهات والمقابلات ، وليس هذا مما يسع جهلة ، إذ الترخيص في جهل ذلك يتداعى إلى حملة العقائد ، ومن أبدى في ذلك ريبا ، فليس منا ولسنا منهم .

فإذا اعترف هؤلاء بإزالة الظواهر إذ الاستواء المطلق المضاف الى الأجسام ظاهره ينبىء عما ينتحيه المشبهة ، ويبتغيه المجسمة ، والمعترف بزوال الظواهر مترق عن الوقفة ، فإنا نعلم أن الاستواء إذا لم

يروى في كتب دانيال : أنه لما علا إلى السماء السابعة ، فانتهى الى العرش رأى شخصاً ذا وفرة ، فتأول اهل التشبيه ان ذلك ربهم عز وجل جهلا منهم بالتأويل .

وإنما ذلك إبراهيم الخليل عليه السلام ، على أن هذا الحديث قد رواه أسامة ، ولم يقل فيه ذراعيه وصدره ، بل قال من نور الذراعين والصدر مطلقا غير مضاف .

فان كان ذلك لم ينكر أن يكون صدراً وذراعين لبعض خلقه .

ولم ينكر ايضا ، أن يكون الصدر والذراعان من أسماء بعض مخلوقاته ، وقد وجدوا في النجوم ما يسمى بذراعين ، وليس بمستنكر أن يسمى بهذا الإسم غيره من الخلق ، فيكون ما خلق من الملائكة ، خلق من ذلك ، وتكون الفائدة فيه : التنبيه على ما في قدرته عز وجل ، من خلق المخلوقات ، وإنشاء المحدثات ، وإنه لا يعوزه عظيم ، ما يخلقه ولا يعجزه[1] .

وقد قيل في تأويل قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ ﴾[2] :

أن الروح ملك من الأملاك ، يكون وحده صفا والملائكة كهذا بازائه صفا[3] .

يكن تمكنا بالذات ، وتخصصا ببعض الجهات ، فلا بد أن يرجع : إما إلى معنى القهر ، وإما إلى معنى علو العظمة ، وإما إلى فعل من أفعال الله عز وجل ، ولا مزيد على هذه الأقسام) اهـ .

(١) فهو سبحانه على كل شيء قدير ، وهو سبحانه خالق كل شيء ، وهو سبحانه أيضا مالك الملك ، وأمره كن فيكون .

(٢) سورة النبأ ، آية ٣٨ .

(٣) يقول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن :

(والروح : فيما ذكر المفسرون ، ملك عظيم من ملائكة الله ، يقوم وحده فيكون صفا ، وتقوم الملائكة صفا ، قال الله تعالى :

وأما ما في حديث سفيان بن عيينة من قوله شعر ذراعيه وصدره ، فيحتمل ايضا أن يتأول على أن ذلك إضافة من طريق الملك ، وشبه من طريق الفعل ، كما قال في قصة آدم عليه السلام :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1] .

وأضاف الروح إلى نفسه ، إضافة ملك وتقدير[2] ، لا إضافة بروح بها أو حلول في ذاته تعالى .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلائِكَةُ صَفّاً ﴾ وقال عز وجل :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ سورة الإسراء آية (٨٥) .

ويقال للملائكة : الروحانيون ، لأنهم أرواح ، نسبوا الى الروح لأنها نسبة الخلقة .

والروح النفخ : سمي روحا لأنه ريح تخرج عن الروح .

والمسيح : روح الله ، لأنه نفخة جبريل في درع مريم ، ونسب الروح إلى الله لأنه بأمره كان ، يقول الله تعالى :

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنا ﴾ .

وقد يجوز أن يكون سمي روح الله لأنه بكلمته كان ، قال الله تعالى : كن فكان وكلام الله روح ، لأنه حياة من الجهل وموت الكفر ، قال تعالى :

﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على من يشاءُ ﴾ سورة **غافر** آية (١٥) وقال : ﴿ وكذلِكَ أَوْحيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنا ﴾ سورة الشورى آية (٥٢) . ورحمة الله تعالى : روح ، قال الله تعالى : ﴿ **وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ **سورة المجادلة آية (٢٢)**. أي برحمة كذلك قال المفسرون » أنظر تأويل مشكل القرآن ص ٤٨٧ .

(١) الآية ٢٩ من سورة الحجر .

(٢) يقول إمام الحرمين الجويني :

(أضاف الملائكة إلى ملكه تشريفاً لهم حيث خصهم بالذكر ، وهو كإضافة الرب المؤمنين إلى نفسه تسمية العبودية في آي من كتاب الله ، منها قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلأَرْضِ هَوْناً ﴾ سورة الفرقان آية (٦٣) .

وقد اتفق أهل التوحيد على أن الكفرة عباد الله ، كالبررة من عباد الله ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمواتِ وَٱلأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَن عَبْداً ﴾

فدل أن التخصيص بالذكر قد يراد به التشريف والتعظيم ، وكذلك خصص الله تعالى الكعبة المحرمة

والذي يؤ يد ذلك ، ما كان يقوله ابن شهاب ، إذا روى هذا الخبر ومثله ، فانه كان يقول عند ذلك .

والأذرع كلها لله عز وجل ، والأصابع كلها لله عز وجل ، يشير إلى معنى الملك العام ، كسائر المملوكات .

وهذا نظير ما يحكى عن الأوزاعي عند روايته لخبر النزول ، وذلك أنه كان يقول عند ذلك .

ويفعل الله ما يشاء ، يعرفهم أن ذلك نزول فعل ، لا نزول تحول وانتقال من مكان إلى[1] مكان .

بالإضافة تشريفاً لها ، فقال : « وطهر بيتي للطائفين » .

وخص الناقة ناقة صالح بالإضافة ، وأمثلة ذلك كثير .

فهذا وجه .

والوجه الثاني ، أن يقال :

خص الله الملائكة بالإضافة ملكا ، من حيث لم يكن فيهم جاحد ومعاند يأبى سلطان الله وهو تخصيص الرب الملك باليوم الذي يصعق فيه الخلائق وتنقطع فيه ظنون الجبابرة ، وحسبان الذين قدروا أنفسهم ملوكا فقال عز من قائل مخبرا عما سيكون :

« لمن الملك اليوم ؟ » ص ٥٤٥ .

(١) يقول صاحب كتاب الشامل في أصول الدين :

« فمما يجب الإعتناء به حديث النزول ، فإنه مما روته الأئمة في الصحاح ، من الأسانيد ، وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« إن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة جمعة الحديث » ، وروى كل ليلة ، ثم استطرد يقول :

« ولو التزمنا التأويل ، فمسلكه سهل المدرك ، قريب المتناول في ذلك ، لأن النزول ليس من ضرورة معناه ومقتضاه أن ينبىء عن التحول والانتقال ، وشغل الجهات والزوال عن أمثالها .

إذ قد يطلق النزول فيما يستحيل فيه الزوال والانتقال ، فيقال :

نزل بالناس نازلة ، ولا يراد بذلك انتقال شيء إليهم من قطر إلى قطر .

والآيات المشتملة على إنزال القرآن تجري هذا المجرى ، وليس المراد بانزاله نقله من موضع إلى

موضع .

وهذا ما صار إليه أهل التحصيل ، ولا اكتراث بقول الجهلة الحشوية في اعتقادهم أن الكلام ينتقل من جهة إلى جهة ، فإن أهل التحصيل على مذهبين :

فمنهم من حكم بقدم الكلام ، وهم الذين صاروا إلى أنه صفه قديمة ، قائمة بذات الرب ، يستحيل عليها الزوال والانفصال .

ومن حكم بحدث الكلام منع إنتقاله أيضاً من حيث كان عرضا .

فقد وضح أن النزول يطلق فيما يستحيل فيه الانتقال والزوال ، وقد قامت الدلالة القاطعة على استحالة الانتقال على القديم ، وأقرب الناس إلى التزام الكفر الصراح من جوز على الرب الانتقال .

فإن من أوضح دلالات حدث الجواهر ، جواز انتقالها ، فإذا حمل النزول فيما قامت الدلالة على استحالة انتقاله كالأغراض على غير انتقال ، فيجب حمل النزول في الحديث على غير الانتقال .

ثم السبيل فيه أن يقال :

المعنى بالنزول ظهور أحكام الله تعالى في السماء الدنيا ، واستيفاضة آيات الرحمة .

كما أن المعنى بنزول القرآن إلى أهل السموات والأرض تثبيت الإفهام لهم ، وتخصيصهم بالعلم والذي يحقق ذلك أن المقصد من الحديث : اختصاص بعض ساعات الليل وآناته برحمة الله ورأفته ، وتوقع إجابة الدعوات فيه ، فهذا مقصد الحديث ومساقه .

والرب سبحانه وتعالى موصوف بالاقتدار على ذلك من غير تقدير انتقال ، ولو قدر زائغ انتقالا ، فلا أثر له فيما هو مقصد الحديث ، والملتمس من مساقه .

والذي يوضح ما قلناه : اتفاق المسلمون على أن المعنى بقوله ﷺ:

« إن الله تعالى يقول :

إِذَا تَقَرَبَ العَبْدُ مِني ذِرَاعاً ، تَقَرَبْتُ مِنْهُ بَاعاً ، وإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » .

محمول على غير الانتقال والزوال ، وإنما المراد به إزلاف الدرجات ، والتمسك بما فيه مرضاة الله من الطاعات .

والمراد بقرب الله إحسانه ، وتفضله ، وقبوله الطاعات من أجل أوليائه ، ولم يحمل أحد من أهل التحصيل هذا الحديث على ظاهره ، فسبيل التأويل في النزول يداني ذلك ، بل ما قلناه في النزول أظهر منه في المشي والهرولة ، والقرب المقيد بالذراع والباع .

فهذه أوجه ظاهرة في تأويل النزول .

وقال بعض أهل التأويل : المعنى بنزول الله نزول ملائكته المقربين الحافين حول العرش وتضمن الحديث

هذا يبين لك صحة ما أومينا إليه ، من أن هذه الإضافة ، من طريق الفعل والملك ، لأن سائر ما يضاف اليه عز ذكره ، لا يخرج عن مثل هذا المعنى ، إذا لم تكن الإضافة على طريق إضافة الصفة إلى الموصوف بها من جهة القيام بذاته على الوجه الذي يوجب له اشتقاق الإسم والحكم .

فان قيل : فاذا أجزتم هذه الطريقة ، فكيف أنكرتم قول النصارى، حيث قالت : إن عيسى ابن الله على طريق الكرامة ، وعلى طريق الملك والفعل ؟

قيل الأصل في سائر هذه الإضافات بهذه الأوصاف الخاصة التي تجري من طريق الملك والفعل ، على من يضاف إليه ويوصف به السمع ، ولا يجوز إطلاق شيء من ذلك على الوجه الخاص ، إلا بأن يتقدمه سمع ، ولذلك يكون الأمر فيه مقصوراً عليه ، ولا يتعداه ، ونحن فلم[1] نجد في شريعتنا إطلاق ذلك ، بل وجدنا في الشريعة ما يحظر ذلك ، ولا يجوز إطلاقه بوجه .

واعلم أنه قد يصح معنى الوصف والإضافة ، في ذكر الله مع شيء من أفعاله من طريق المعنى من حيث إجازة العقول له ثم لا يسوغ إطلاق الإسم والوصف والإضافة في ذلك من حيث حظرت الشريعة منه ، ومن حيث لم يرد به سمع لقيام

بتضمنهم من حيث ذكر اسم الله تعالى ، وحذف ذكر الملائكة .

وهذا الوجه حسن في التأويل .

وذكر بعض المحصلين وجهاً آخر في التأويل فقال : المراد بالنزول انبساط رحمة الله في هذا الوقت المعلوم ، وتعظيم أقدار عبيده ، وتنفيذه النعمة فيهم ، وتخصيصه إياهم بالطاعة .

ولو أطلق النزول في حقوقنا ، لأنبا عن التواضع والانسلال عن التكبر والاغترار ، إذ قد يقول القائل : إذا تواسع الملك : قد نزل إلى الدرجة الدنيا ، والمراد تواضعه .

وإذا ذكر ذلك في صفات الله عز وجل : فالمراد بذلك ألطافه ورأفته .

وهذا واضح أيضا جار في مذاهب الكلام » اهـ .

(١) وفي نسخة أخرى « ونحن لم نجد » الخ .

الدلالة على أن هذا الباب مقصور على السمع فقط ، ولا مجال للعقول فيه ، فلذلك كان إطلاقه موقفا على ما خصه السمع به ، دون ما لم يرد به سمع ، وهذا جواب عن سائر ما يمكن أن يسأل عنه في هذا الباب من ذكر تخصيص بعض الأسماء والإضافات الى الله تعالى دون بعض ، ما يملكه ويفعله ، وكل من حاد عن مثل هذه الطريقة في هذا الباب لم يجد فصلا بين الأمرين من جهة العقول ، فتفهمه إن شاء الله تعالى .

ذكر خبر آخر مما يوهم التشبيه وتأويله

روى أبو رافع عن ابي هريرة أن النبي ﷺ قال :

يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة :

يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .

فيقول : أي رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

فيقول : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟

أما علمت أنه لوعدته لوجدتني عنده ؟

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ؟

قال : يا رب ، وكيف اطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان ، فلم تطعمه ؟

أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا ابن آدم ، استسقيتك ، فلم تسقني ؟

قال : يا رب كيف اسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ؟

أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي[1] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باب فضل عيادة المريض من كتاب البر والصلة والأدب جـ ٩ ص ٤٦٣ هامش القسطلاني .

واعلم أن الذي يجب ان يبين من هذا الخبر قوله :

« أما إنك لوعدته لوجدتني عنده »[1] .

وأما قوله : « مرضت » فقد فسره النبي ﷺ، وبين معنى ذلك إشارة إلى مرض وليه ، فأضاف إلى نفسه . إكراماً لوليه ورفعا لقدره .

وهذه طريقة معتادة في الخطاب ، عربية وعجمية ، وذلك أن يخبر السيد عن نفسه ، ويريد عبده إكراما له وتعظيما ، حتى كأنه هو تـوهم من جلالته وعظم منزلته ، مساواته له ، في المنزلة والجلالة .

وعلى هذه الطريقة يحمل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[2] .

وقوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[3] .

وقوله :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾[4] .

---

(١) يقول الامام النووي : « قوله عز وجل » : مرضت فلم تعدني قال : يا رب ، وكيف أعودك وأنت رب العالمين الخ . قال العلماء : إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى : والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريباً له ، قالوا : ومعنى (وجدتني عنده) أي وجدت ثوابي عنده ، وكرامتي ورحمتي ، ويدل عليه قوله في تمام الحديث : لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، ولو أسقيته لوجدت ذلك عندي ، أي ثوابه وجزاءه .

(٢) الآية رقم ٢٠ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ٥٧ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٧ من سورة محمد .

وما جرى هذا المجرى من الآي والأخبار التي ذكر فيها نفسه وأراد وأولياءه وأنبياءه ـ وعلى مثله يحمل قوله :

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[1] .

أي آسفوا أولياءنا ، وأغضبوا أنبياءنا ، والناصرين لديننا .

ولمن كان عليه مقيما لإستحالة أن يغضب الله تعالى ، وأن يؤذي ويحارب .

وأما قوله : « أما إنك لوعدته لوجدتني عنده » ، معناه أي وجدت رحمتي وفضلي وثوابي وكرامتي في عيادتك له ، وهذا ايضاً ، كالأول في باب أنه ذكر الشيء بأسمه وأيد غيره ، كقوله تعالى :

﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[2] .

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[3] .

وهذه طريقة معتادة غير مستنكرة ، وإذا كان كذلك ، فالأولى أن يحمل الخبر عليه ، وعلى مثله يتأول قوله عز وجل :

﴿ وَوَجَدَ ٱللهَ عِنْدَهُ ﴾[4] .

على معنى أنه وجد عقابه وحسابه ، فذكر الله تعالى وأضيف الفعل اليه ، والمراد فعله على النحو الذي بيناه ، ونظائره في كلام العرب ، ومثاله ايضاً قوله عليه الصلاة

---

(١) الآية ٥٥ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٨٢ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٩٣ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٣٩ من سورة النور .

والسلام في أحد :

« هذا جبل يحبنا ونحبه »[1]

ومعنى ذلك اهله ، أي يحب الساكنون بفنائه ، والمقيمون في ساحته ، ونحبهم ، وإذا احتمل الخبر ما ذكرناه ولا يجوز على الله تعالى الحلول في الأماكن ، لاستحالة كونه محدوداً ومتناهيا ، وذلك لاستحالة كونه محدثاً وجب أن يكون محمولا على ما قلناه[2] .

(١) أخرجه الامام البخاري عن سهل بن سعد ، وأخرجه الترمذي في سننه عن أنس .

(٢) وحديث (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . . . الخ يقول فيه الامام النووي :

(والحديث دليل على فضل عيادة المريض ، وعلى فضل إطعام المحتاج ، وعلى فضل سقي الماء ، ولا شك أن ذلك كله من مكارم الاخلاق ، التي يدعو اليها الاسلام ، وبعث النبي ﷺ ليتمم مكارم الاخلاق).

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

ويوهم ظاهره التشبيه وتأويله ومعناه

روى صفوان بن محرز أنه كان يماشي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ، كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ .

قال سمعته عليه الصلاة والسلام يقول :

« يدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع الجبار كنفه عليه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف » ؟

فيقول : رب أعرف .

فيقول له : هل تعرف ؟

فيقول : رب أعرف .

فيقول عز ذكره : إني سترتها عليك في الدنيا وإني اغفرها لك فيعطي صحيفة حسناته .

وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الأشهاد .

﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾[1] .

(١) أخرجه الامام البخاري في صحيحه في كتاب التفسير سورة هود، وأخرجه البخاري أيضا في المظالم والادب والتوحيد ، وأخرجه مسلم في التوبة ، وأخرجه النسائي في التفسير والرقائق ، وأخرجه ابن ماجه في السنة .

ولاختلاف قليل في ألفاظ هذا الحديث بين رواية المنصف ، وبين أصحاب الصحاح والسنن رأيناأن نذكر رواية الامام البخاري الذي أجمع عليها الامام مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه وهاك نصها :

« حدثنا مسدد ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد وهشام قالا حدثنا قتادة ، عن صفوان بن محرز

ذكر تأويله

أما قوله عليه الصلاة والسلام : « يدنى العبد من ربه يوم القيامة » ، فمعناه أنه يقرب من رحمته وكراماته وعطفه ولطفه ، هذا سائغ في اللغة ، أن يقال فلان قريب من فلان ويراد به قرب المنزلة ، وعلو الدرجة عنده ، وعلى هذا يقال :

إن أولياء الله قريبون من الله ، كما أن اعداءه بعيدون منه ، ويعني بذلك قرب الدرجة وعلو المرتبة ، ويراد ببعد اعداء الله منهم بعدهم من رحمته وكرامته .

وكذلك يقال : إن الله عز وجل قريب من أوليائه بعيد من اعدائه ، ويقال ايضاً ، هو قريب من خلقه والمعنى فيه قربه منهم علما بظواهرهم وبواطنهم ، وقدرته على أوائل أمورهم وأواخرها[1] ، وعليه يتأول قوله تعالى :

قال :

بينا ابن عمر يطوف ، إذ عرض له رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أوقال : يا ابن عمر : هل سمعت فقال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« يدنى المؤمن من ربه » ـ وقال هشام : يدنو المؤمن ، أي من ربه ، « حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه ، تعرف ذهب كذا ؟ يقول : أعرف ، يقول : رب ، أعرف مرتين ، فيقولُ : سترتها في الدنيا ، وأغفر لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته » .

وأما الآخرون : أو الكفار ، فينادى على رؤوس الأشهاد :

﴿ هَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ اهـ .

(١) يقول صاحب الأحاديث القدسية نقلا عن القسطلاني من كتاب المظالم :

وفي الحديث دليل على أن ستر الله في الآخرة لمن لم يتجاهر بالمعاصي في الدنيا ، وكانت ستر الله تعالى ، أما من جهر وتجاهر بالمعصية ، فليس أهلا لستر الله عليه في الآخرة .

ثم استطر ضارعا الى الله قائلا :

(اللهم إنا نسألك أن تستر علينا في الدنيا والآخرة بحبك وفضلك يا كريم آمين) ونحن نرجو من الله هذا ونقول آمين آمين يا رب العالمين .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾[2] .

لأن ذلك يرجع إلى القرب بمعنى العلم والقدرة والسمع والبصر .

فأما الذي هو قرب بمعنى الكرامة ، فهو كقوله تعالى :

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[3] .

في[4] أن المراد به قرب المنزلة وتوفيره الكرامة .

فأما قوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » فتوسع ، لأن الرحمة لا توصف بالعلم والقدرة ولا بالإكرام والفضل .

وإذا كان سائغاً في اللغة ، كان قوله يدنى العبد من ربه يوم القيامة محمولا على مثله ، لاستحالة المساحة ، والمسافة ، وبعد المكان . والنهاية ، على الله عز وجل .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « فيضع الجبار كنفه عليه » فانه يبين ما أشرنا اليه في معنى الدنو ، وإنه على تأويل قرب المنزلة والدرجة ، وذلك أن اللفظ في الكنف إنما يستعمل على مثل هذا المعنى ، ألا ترى أنه يقال : أنا في كنف فلان وفلان في كنفي ، إذا اراد أن يعرف اسباغ فضله ، وعطفه وتوفيره عليه .

---

(١) الآية ١٦ من سورة ق .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

(٣) الآية ٩ من سورة النجم .

(٤) وفي نسخة أخرى : فإن المراد به قرب المنزلة .

فأما ما رواه بعض الرواة ، « حتى يضع الجبار كنفه عليه ، فقد ذكر جمع من أهل العلم أن ذلك تصحيف من الراوي ، لأن الإثبات قد ضبطوا هذا الحرف على الوجه الذي ذكرنا بالنون ، وإذا كان ذلك مضبوطا ، والمعنى الذي حملنا عليه مشهورا كان اولى مما قالوا ، مع أنه إن صح فانه يؤول الى معنى ما ذكرنا ، مع أنه غير جار في الخطاب ، ولا مستعمل في اللسان ، مثله أن يقال : وضعت كنفي علي والأثر الحسن والكرامة ، كان طريقاً ، ويكون استعمال ذلك فيه مجازاً ، هذا إذا صح أنه قد ضبط ذلك بالتاء على الوجه الذي قالوا مع أنه غير معروف ولا مضبوط[1] فاعلم .

---

(١) ومعنى الحديث أن المقصود من جملة « ما قال في النجوى » : أي النجوى التي تكون في القيامة بين الله تعالى ، وبين المؤمنين حين حسابهم .

« فيضع عليه كنفه » بفتح الكاف والنون : جانبه ، والدنو ، والكنف . مجازان ، والمراد الستر والرحمة ، أي ستره له .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

ويوهم ظاهره التشبيه

وهو من الأخبار المشهورة عند أهل النقل ، وذلك مما يتعلق بذكر المكان ، وقد روي في معناه أخبار سنذكرها ، أولا فاولا فمن ذلك :

ما روي في الخبر أن جارية عرضت على رسول الله ﷺ، ممن اريد عتقها في الكفارة . فقال رسول الله ﷺ لها : « أين الله » ؟ فأشارت الى السماء ، فقال رسول الله ﷺ : « اعتقها فانها مؤمنة »[1] .

اعلم ان الكلام في ذلك من وجهين .

أحدهما : في تأويل قوله ﷺ: « أين الله » ؟ مع استحالة كونه في مكان .

والثاني : قوله أنها مؤمنة من غير ظهور عمل منها .

فأما الكلام فيما يتضمن قوله ﷺ: « أين الله » ؟ فان ظاهر اللغة تدل من لفظ أين انها موضوعة للسؤال عن المكان ، ويستخبر بها عن مكان المسؤول عنه، بأين ، إذا قيل اين هو ، وذلك أن اهل اللغة قالوا :

---

(١) أخرج في الصحيح عن عمر بن الحكم أنه قال :

كنت عند النبي ﷺفقلت يا رسول الله ، إن لي جارية كانت ترعى غنما ، فجئتها ففقدت شاة فسألتها فقالت: أكلها الذئب ، فاسفت عليها فلطمت وجهها ، وعلي رقبة أفاعتقها ؟

فقال لها رسول الله ﷺ: ﴿ أين الله ﴾ ؟

فقالت في السماء ، فقال : « من أنا » ؟ قالت أنت رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام :« أعتقها فإنها مؤمنة » .

لما ثقل على أهل اللسان في الاستفهام عن المكان أن يقولوا :

أهو في البيت ؟ أم في المسجد ؟ أم في السوق ؟ أم في بقعة كذا وكذا ؟ وضعوا لفظة تجمع لجمع الأمكنة ، يستفهمون بها عن مكان المسؤول عنه بأين ، وهذا هو أصل هذه الكلمة ، غير أنهم قد[1] استعملوها عن مكان المسئول عنه في غير هذا المعنى توسعاً أيضاً تشبيهاً بما وضع له ، وذلك أنهم يقولون :

عند استعلام منزلة المستعلم عند من يستعلمه ، أين منزلة فلان منك ، وأين فلان من الأمير ، واستعملوه في استعلام الفرق بين الرتبتين ، بأن يقولوا : أين فلان من فلان ، وليس يريدون المكان والمحل من طريق التجاوز في البقاع ، بل يريدون الاستفهام عن التربة والمنزلة ، وكذلك يقولون : لفلان عند فلان مكان ومنزلة ، ومكان فلان في قلب فلان حسن ، ويريدون بذلك المرتبة[2] والدرجة في التقريب والتبعيد والإكرام والإهانة فاذا كان ذلك مشهوراً في اللغة احتمل ان يقال .

إن معنى قوله ﷺ :

« أين الله » ! استعلام لمنزلته وقدره عندها وفي قلبها ، وأشارت الى السماء ودلت باشارتها على أنه في السماء عندها على قول القائل :

إذا اراد أن يخبر عن رفعة وعلو منزلة فلان في السماء .

أي هو رفيع الشأن عظيم المقدار .

كذلك قولها في السماء على طريق الإشارة اليها ، تنبيها عن محله في قلبها

---

(١) وفي نسخة أخرى : « غير أنهم إستعملوها » .

(٢) وفي نسخة أخرى بذلك الرتبة .

ومعرفتها به[١] .

وإنما أشارت إلى السماء لأنها كانت خرساء ، فدلت باشارتها على مثل دلالة العبارة ، على نحو هذا المعنى ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يحمل على غيره مما يقتضي الحد والتشبيه والتمكين في المكان والتكييف .

ومن أصحابنا من قال :

إن القائل إذا قال :

إن الله في السماء ويريد بذلك أنه فوقها من طريق الصفة لا من طريق الجهة على نحو قوله سبحانه :

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ ؟ لم ينكر ذلك .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « **اعتقها فانهامؤمنة** » ، فيحتمل أن يكون قد عرف إيمانها بوحي ، فأخبر بذلك عن ظهور إشارتها التي هي علامة من علامات الإيمان .

ويحتمل أن يكون سماها مؤمنة على الظاهر من حالها ، وأن ذلك القدر يكفي من المطلوب من إيمان من يراد عتقه ، وأنه لا يعتبر بعد ذلك ظهور الأعمال والوفاء

---

(١) فقد ثبت بالدليل على أنه تعالى غير مستقر في السماء ، لأنه تعالى بين بقوله تعالى :
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ ، وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ بين سبحانه بهذه الآية أن نسبته الى السماء ، لألهيته ، كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلها للأرض مع أنه غير مستقر فيها ، فكذلك يجب أن يكون إلها للسماء ، مع أنه لا يكون مستقرا فيها » أنظر ما قاله الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية .

بالعبادات[1] .

---

(١) وللفخر الرازي بحث دقيق في بيان أنه يمتنع أن يكون الله تعالى مختصا بالحيز والجهة يقول فيه :

« في بيان أنه يمتنع أن يكون مختصا بالحيز والجهة .

أنه لو كان مختصا بالحيز والجهة لكان محتاجاً في وجوده الى ذلك الحيز وتلك الجهة ، وهذا محال ، فكونه في الحيز والجهة محال .

بيان الملازمة أن الحيز والجهة أمر موجود ، والدليل عليه من وجوه :

الاول : هو أن الأحياز الفوقانية مخالفة في الحقيقة ؟ والماهية للاحياز التحتانية بدليل أنهم قالوا يجب أن يكون الله تعالى مختصا بجهة فوق ويمتنع حصوله في سائر الجهات والاحياز ، يعني التحت واليمين واليسار ولولا كونها مختلفة في الحقائق والماهيات لا متنع القول بانه يجب حصوله تعالى في جهة فوق ويمتنع حصوله في سائر الجهات ، وإذا ثبت أن هذه الأحياز مختلفة في الماهية وجب كونها أمورا موجودة لأن العدم المحض يمتنع كونه كذلك .

الثاني : هو أن الجهات مختلفة بحسب الأشارات ، فإن جهة الفوق متميزة عن جهة التحت في الأشارة ، والعدم المحض ، والنفي الصرف يمتنع تمييز بعضه عن بعض في الاشارة الحسية .

الثالث : أن الجوهر إذا انتقل من حيز الى حيز فالمتروك مغاير لا محالة للمطلوب والمتنقل عنه مغاير للمنتقل اليه ، فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن الحيز والجهة أمر موجود . ثم إن المسمى بالحيز والجهة أمر مستغن في وجوده عما يتمكن ويستقر فيه ، وأما الذي يكون مختصا بالحيز والجهة ، فإنه يكون مفتقرا الى الحيز والجهة ، فان الشيء يمكن حصوله في الحيز مستحيل عقلا حصوله لا مختصابالجهة ، فثبت أنه تعالى لو كان مختصا بالحيز والجهة لكان مفتقرا في وجوده الى الغير ، وإنما قلنا أن ذلك محال لوجوه :

الاول : أن المفتقر في وجوده الى الغير يكون بحيث يلزم من عدم ذلك الغير عدمه ، وكل ما كان كذلك كان ممكنا لذاته ، وذلك في حق واجب الوجود لذاته محال .

الثاني : أن المسمى بالحيز والجهة أمر متركب من الاجزاء والأبعاض لما بينا أنه يمكن تقديره بالذراع والشبر ويمكن وصفه بالزائد والناقص وكل ما كان كذلك كان مفتقرا الى غيره والمفتقر الى غيره ممكن لذاته ، فالشيء المسمى بالحيز والجهة ممكن لذاته ، فلو كان الله تعالى مفتقرا اليه لكان مفتقرا الى الممكن والمفتقر الى الممكن أولى أن يكون ممكنا لذاته فالواجب لذاته ممكن لذاته ، وهو محال .

الثالث : لو كان الباري تعالى أزلا وأبدا مختصا بالحيز والجهة لكان الحيز والجهة موجودين في الازل ، فيلزم إثبات قديم غير الله تعالى ، وذلك محال باجماع المسلمين ، فثبت بهذه الوجوه أنه لو كان في الحيز والجهة يلزم هذه المحذورات فيلزم امتناع كونه تعالى في الحيز والجهة .

فإن قيل لا معنى لكونه تعالى مختصا بالحيز والجهة الا كونه تعالى مباينا عن العالم منفردا عنه ممتازا عنه

. . . .

وكونه تعالى كذلك لا يقتضي أمرا آخر سوى ذات الله تعالى ، فبطل قولكم : لو كان تعالى في الجهة لكان مفتقرا الى الغير.

والذي يدل على صحة ما ذكرناه .

أن العالم لا نزاع في أنه مختص بالحيز والجهة وكونه مختصا بالحيز والجهة لا معنى له إلا كون البعض منفردا عن البعض ممتازا عنه ، فإذا قلنا هذا المعنى ههنا فلم لا يجوز مثله في كون الباري تعالى مختصا بالجهة والحيز ؟ والجواب أما قوله : الحيز والجهة ليس أمرا موجودا فجوابه أنا بينا بالبراهين القاطعة أنها أشياء موجودة ، وبعد قيام البراهين على صحته لا يبقى في صحته شك ، وأما قوله المراد من كونه مختصا بالحيز والجهة كونه تعالى منفردا عن العالم أو ممتازا عنه أو مباينا عنه ، قلنا هذه الألفاظ كلها مجملة ، فإن الانفراد والامتياز والمباينة قد تذكر ويراد بها المخالفة في الحقيقة والماهية ، وذلك مما لا نزاع فيه ، ولكنه لا يقتضي الجهة ، والدليل على ذلك هو أن حقيقة ذات الله تعالى مخالفة لحقيقة الحيز والجهة ، وهذه المخالفة والمباينة ليست بالجهة ، فإن امتياز ذات الله تعالى عن الجهة لا تكون بجهة أخرى وإلا لزم التسلسل ، وقد تذكر هذه الألفاظ ويراد بها الأمتياز في الجهة ، وهو كون الشيء بحيث يصح أن يشار اليه بانه ههنا أو هناك، وهذا هو مراد الخصم من قوله أنه مباين عن العالم أو منفرد عنه إلا أنا بينا بالبراهين القاطعة أن هذا يقتضي كون ذلك الحيز أمرا موجودا ويقتضي أن المتحيز محتاج الى الحيز قوله الأجسام حاصلة في الأحياز فنقول غاية ما في الباب أن يقال الاجسام تحتاج الى شيء آخر ، وهذا غير ممتنع ، أما كونه تعالى محتاجاً في وجوده الى شيء آخر فممتنع ، فظهر الفرق وبالله التوفيق .

البرهان الثالث : في بيان أنه يمتنع أن يكون تعالى مختصاً بالجهة والحيز : هو أنه لو كان مختصا بحيز وجهة لكان لا يخلو إما أن يقال أنه غير متناه من جميع الجوانب أو يقال إنه غير متناه من بعض الجوانب ، ومتناه من سائر الجوانب أو يقال أنه متناه من كل الجوانب والأقسام الثلاثة باطلة فالقول بكونه مختصاً بجهة وحيز باطل ، إما قولنا أنه يمتنع أن يكون غير متناه من جميع الجوانب فيدل عليه وجوه :

الاول : أن وجود بعد لا نهاية له محال ، والدليل عليه أن فرض بعد غير متناه يفضي الى المحال ، فوجب أن يكون محالا ، وإنما قلنا أنه يفضي الى المحال لأنا إذا فرضنا بعداً غير متناه وفرضنا بعداً آخر متناهيا موازياً له ثم زال الخط المتناهي الموازي من الموازاة الى المسامتة ، فنقول هذا يقتضي أن يحصل في الخط الاول الذي هو غير متناه نقطة هي أول نقطة المسامتة : وذلك الخط المتناهي ما كان مسامتا للخط الغير المتناهي ثم صار مسامتا له ، فكانت هذه المسامتة في أول أوان حدوثها لا بد وأن تكون مع نقطة معينة ، فتكون تلك النقطة هي أول نقطة المسامتة لكن كون ذلك الخط غير متناه يمنع من ذلك ، لأن المسامتة مع النقطة الفوقانية يحصل قبل المسامتة مع النقطة التحتانية ، فإذا كان الخط غير متناه فلا نقطة فيها إلا

وفوقها نقطة أخرى ، وذلك يمنع من حصول المسامتة في المرة الاولى مع نقطة معينة ، فثبت أن هذا يقتضي أن يحصل في خط الغير المتناهي نقطة هي أول نقط المسامتة ، وأن لا يحصل ، وهذا المحال إنما لزم من فرضنا أن ذلك الخط غير متناه ، فوجب أن يكون ذلك محالا ، فثبت أن القول بوجود بعد غير متناه محال .

الوجه الثاني : هو أنه إذا كان القول بوجود بعد غير متناه ليس محالا فعند هذا لا يمكن إقامة الدليل على أن العالم متناه بكليته ، وذلك باطل بالاجماع .

الوجه الثالث : أنه تعالى لو كان غير متناه من جميع الجوانب وجب أن لا يخلو شيء من الجهات والاحياز عن ذاته فحينئذ يلزم أن يكون مخالطا لاجزاء ذاته . وأن تكون القاذورات والنجاسات كذلك ، وهذا لا يقوله عاقل .

أما القسم الثاني : وهو أن يقال أنه غير متناه من بعض الجوانب ، ومتناه من سائر الجوانب ، فهو أيضا باطل لوجهين :

الاول : أن البرهان الذي ذكرناه على امتناع بعد غير متناه قائم سواء قيل أنه غير متناه من كل الجوانب أو من بعض الجوانب .

الثاني : أن الجانب الذي فرض أنه غير متناه والجانب الذي فرض أنه متناه إما أن يكونا متساويين في الحقيقة والماهية ، وإما أن لا يكونا كذلك .

أما القسم الاول : فإنه يقتضي أن يصح على كل واحد من هذين الجانبين ما صح على الجانب الآخر ، وذلك يقتضي أن ينقلب الجانب المتناهي غير متناه والجانب الغير المتناهي متناهيا ، وذلك يقتضي جواز الفصل والوصل والزيادة والنقصان في ذات الله تعالى ، وهو محال .

وأما القسم الثاني : وهو القول بأن أحد الجانبين مخالف للجانب الثاني في الحقيقة والماهية فنقول : إن هذا محال من وجوه :

الاول : أن هذا يقتضي كون ذاته مركبا وهو باطل لمابينا .

الثاني : إنا بينا أنه لا معنى للمتحيز إلا الشيء الممتد في الجهات المختص بالأحياز وبينا أن المقدار يمتنع أن يكون صفة ، بل يجب أن يكون ذاتا وبينا أنه متى كان الأمر كذلك كان جميع المتحيزات متساوية ، وإذا كان كذلك امتنع القول بأن أحد جانبي ذلك الشيء مخالف للجانب الآخر في الحقيقة والماهية .

وأما القسم الثالث : وهو أن يقال أنه متناه من كل الجوانب فهذا أيضا باطل من وجهين :

الاول : أن كل ما كان متناهيا من جميع الجوانب كانت حقيقته قابلة للزيادة والنقصان ، وكل ما كان كذلك كان محدثا على ما بيناه .

. . . .

الثاني : أنه لما كان متناهيا من جميع الجوانب فحينئذ يفرض فوقه احياز خالية وجهات فارغة فلا يكون الله تعالى فوق جميع الأشياء ، بل تكون الأحياز أشد فوقية من الله تعالى ، وأيضا فهو تعالى قادر على خلق الجسم في الحيز الفارغ فلو فرض حيز خال لكان قادرا على أن يخلق فيه جسما وعلى هذا التقدير يكون ذلك الجسم فوق الله تعالى تعالى ، وذلك عند الخصم محال . فثبت أنه تعالى لو كان في جهة لم يخل الأمر عن أحد هذه الأقسام الثلاثة وثبت أن كل واحد منها باطل محال فكان القول بأن الله تعالى في الحيز والجهة محال . فان قيل الستم تقولون أنه تعالى غير متناه في ذاته فيلزمكم جميع ما ألزمتموه علينا ، قلنا الشيء الذي يقال له أنه غير متناه على وجهين :

أحدهما : أنه غير مختص بحيز وجهة ، ومتى كان كذلك امتنع أن يكون له طرف ونهاية وحد .

والثاني : أنه مختص بجهة وحيز إلا أنه مع ذلك ليس لذاته مقطع وحد فنحن قلنا أنه لا نهاية لذات الله تعالى عنينا به التفسير الاول ، فإن كان مرادكم ذلك فقد ارتفع الخلاف بيننا ، وإن كان مرادكم هذا الوجه الثاني فحينئذ يتوجه عليكم ما ذكرناه من الدليل ، ولا ينقلب ذلك علينا لأنا لا نقول أنه تعالى غير متناه بهذا التفسير حتى يلزمنا ذلك الالزام فظهر الفرق والله أعلم .

البرهان الرابع : على أنه يمتنع أن يحصل في الجهة والحيز هو أنه لو حصل في شيء من الجهات والأحياز لكان أما أن يحصل مع وجوب أنه يحصل فيه أولا مع وجوب أن يحصل فيه والقسمان باطلان ، فكان القول بأنه تعالى حاصل في الجهة محالا ، وإنما قلنا أنه يمتنع أن يحصل فيه مع الوجوب لوجوه :

الاول : أن ذاته مساوية لذوات سائر الاجسام في كونه حاصلا في الحيز ممتداً في الجهة ، وإذا ثبت التساوي من هذا الوجه ثبت التساوي في تمام الذات على ما بيناه في البرهان الاول في نفي كونه تعالى جسما ، وإذا ثبت التساوي مطلقا فكل ما صح على أحد المتساويين وجب أن يصح على الآخر ، ولما لم يجب في سائر الذوات حصولها في ذلك الحيز وجب أن لا يجب في تلك الذات حصولها في ذلك الحيز وهو المطلوب .

الثاني : أنه لو وجب حصوله في تلك الجهة وامتنع حصوله في سائر الجهات لكانت تلك الجهة مخالفة في الماهية لسائر الجهات فحينئذ تكون الجهات شيئا موجوداً ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى واجب الحصول في الجهة أزلا وأبداً التزموا قديماً آخر مع الله تعالى في الازل ، وذلك محال .

الثالث : لو جاز في شيء مختص بجهة معينة أن يقال أن اختصاصه بتلك الجهة واجب جاز أيضا ادعاء

أن بعض الأجسام حصل في حيز معين على سبيل الوجوب بحيث يمتنع خروجه عنه ، وعلى هذا التقدير لا يتمشى دليل حدوث الاجسام في ذلك ، فثبت أن ،سائل بهذا القول لا يمكنه الجزم بحدوث كل

الأجسام بل يلزمه تجويز أن يكون بعضها قديما .

الرابع : وهو أنا نعلم بالضرورة أن الأحياز بأسرها متساوية لأنها فراغ محض وخلاء صرف ، وإذا كانت بأسرها متساوية يكون حكمها واحداً ، وذلك يمنع من القول بأنه تعالى واجب الاختصاص ببعض الأحياز على التعيين فإن قالوا لم لا يجوز أن يكون اختصاصه بجهة فوق أولى ؟ قلنا هذا باطل لوجهين :

أحدهما : أن قبل خلق العالم ما كان إلا الخلاء الصرف المحض ، فلم يكن هناك فوق ولا تحت ، فبطل قولكم .

الثاني : أنه لو كان الفوق متميزاً عن التحت بالتمييز الذاتي لكانت الجهات أموراً وجودية ممتدة قابلة للانقسام ، وذلك يقتضي تقديم الجسم لأنه لا معنى للجسم الا ذلك .

الثالث : هو أنه لو جاز أن يختص ذات الاله تعالى ببعض الجهات على سبيل الوجوب مع كون الأحياز متساوية في العقل لجاز اختصاص بعض الحوادث المعينة ببعض الاوقات دون البعض على سبيل الوجوب

عدم القديم ببعض الاوقات على سبيل الوجوب ، وعلى هذا التقدير ينسد باب إثبات الصانع وباب إثبات وجوبه وقدمه .

الخامس : أنه لو حصل في حيز معين مع أنه لا يمكنه الخروج لكان كالمفلوج الذي لا يمكنه أن يتحرك أو كالمربوط الممنوع عن الحركة وكل ذلك نقص والنقص على الله تعالى محال . وأما القسم الثاني : وهو أن يقال أنه تعالى لو حصل في الحيز مع جواز كونه حاصلا فيه فنقول هذا محال لأنه لو كان كذلك لما ترجح وجود ذلك الاختصاص إلا بفعل فاعل وتخصيص مخصص ، وكل ما كان كذلك فالفاعل يتقدم عليه فيلزم أن لا يكون حصول ذات الله تعالى في الحيز أزليا لان ما تأخر عن الغير لا يكون أزليا ، وإذا كان الازلي مبرأ عن الوضع والحيز امتنع أن يصير بعد ذلك مختصا بالحيز ، وإلا لزم وقوع الانقلاب في ذاته تعالى وأنه محال ، وبالله التوفيق .

البرهان الخامس : هو أن الأرض كرة ، وإذا كان كذلك امتنع كونه تعالى في الحيز والجهة . بيان الاول : أنه إذا حصل خسوف قمري ، فإذا سألنا سكان أقصى المشرق عن إبتدائه قالوا أنه حصل في أول الليل ، وإذا سألنا سكان أقصى المغرب قالوا إنه حصل في آخر الليل ، فعلمنا أن أول الليل في أقصى الشرق هو بعينه آخر الليل في أقصى المغرب ، وذلك يوجب كون الأرض كرة ، وإنما قلنا أن الارض لو كانت كرة امتنع كون الخالق في شيء من الأحياز ، وذلك لأن الارض إذا كانت كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة الى سكان أهل المشرق هي تحت بالنسبة الى سكان أهل المغرب ، وعلى العكس فلو اختص الباري تعالى بشيء من الجهات لكان تعالى في جهة التحت بالنسبة الى بعض الناس وعلى

. . . .

العكس ، وذلك باطل بالاتفاق بيننا وبين الخصم ، فثبت أنه يمتنع كونه تعالى مختصا بالجهة .

البرهان السادس : لو كان تعالى مختصاً بشيء من الأحياز والجهات لكان مساوياً للمتحيزات ، وهذا محال ، فذلك محال ، بيان الملازمة أنه تعالى لو كان مختصا بحيز لكان معنى كونه شاغلا لذلك الحيز كونه بحيث يمنع غيره عن أن يكون بحيث هو ، ولو كان كذلك لكان متحيزا ، وقد بينا في الفصل المتقدم أن المتحيزات بأسرها متماثلة في تمام الماهية فثبت أنه تعالى لو كان متحيزا لكان مثلا كسائر المتحيزات ، وإنما قلنا أن ذلك محال لأن المثلين يجب تساويهما في جميع اللوازم ، فيلزم إما قدم الكل وإما حدوث الكل وذلك محال ، فإن قيل حصول الشيء في الحيز وكونه مانعا لغيره عن ان يحصل بحيث هو حكم من أحكام الذات ، ولا يلزم من الاستواء في الاحكام واللوازم الاستواء في الماهية والجواب عنه من وجهين :

الاول : أن المتحيز له أحكام ثلاثة .

أحدها : أنه حصل في الحيز شاغل له .

والثاني : كونه مانعا لغيره من أن يحصل بحيث هو .

والثالث : كونه بحال لو ضم إليه أمثاله حصل له حجم كبير ومقدار عظيم ولا شك أن كل ما يحصل في حيز ، فقد حصل له هذه الأمور الثلاثة الا أن الذات الموصوفة بهذه الاحكام الثلاثة لابد وأن يكون له في نفسه الحجمية والمقدار في نفسه ، وهذا المعنى معقول مشترك بين كل الأحجام ، ثم إنا دللنا على أن هذا المفهوم المشترك يمتنع أن يكون صفة لشيء آخر بل لا بد وأن يكون ذاتا . وإذا كان كذلك فالمتحيزات في ذواتها متماثلة ، والاختلاف إنما وقع في الصفات وحينئذ يحصل التقريب المذكور .

والوجه الثاني : أن السؤال الذي ذكرتم إن صح ، فحينئذ لا يمكنكم القطع بتماثل الجواهر لاحتمال أن يقال الجواهر وإن اشتركت في الحصول في الحيز الا أن هذا الاشتراك في حكم من الأحكام والاشتراك في الحكم لا يقتضي الاشتراك في الماهية ، وإذا لم يثبت الجواهر متماثلة فحينئذ لا يبعد في العقل وجود جواهر مختصة باحيازها على سبيل الوجوب بحيث يمتنع خروجها عن تلك الأحياز ، وحينئذ لا يطرد ليل حدوث الأجسام في تلك الأشياء ، وعلى هذا التقدير لا يمكنكم القطع بحدوث كل الأجسام والله أعلم .

البرهان السابع : أنه تعالى لو كان مختصا بالجهة والحيز عظيما لأنه ليس في العقلاء من يقول إنه مختص بجهة ، ومع ذلك فإنه في الحقارة مثل النقطة التي لا تنقسم ، ومثل الجزء الذي لا يتجزأ ، بل كل من قال إنه مختص بالجهة والحيز قال أنه عظيم في الذات ، وإذا كان كذلك فنقول : ـ الجانب الذي منه يحاذي يمين العرش ، إما أن يكون هو الجانب الذي منه يحاذي يسار العرش أو غيره والاول باطل لأنه إن

. . . .

عقل ذلك فلما لا يعقل أن يقال أن يمين العرش يسار العرش حتى يقال العرش على عظمته مثل الجوهر الفرد والجزء الذي لا يتجزأ ، وذلك لا يقوله عاقل . والثاني أيضا باطل لان على هذا التقدير تكون ذات الله تعالى مركبة من الاجزاء ثم تلك الاجزاء إما أن تكون متماثلة الماهية أو مختلفة الماهية والاول محال ، لأن على هذا التقدير يكون بعض تلك الاجزاء المتماثلة متباعدة وبعضها متلاقية ، والمثلان صح على كل واحد منهما ما يصح على الاجزاء فعلى هذا يلزم القطع بأنه يصح على المتلاقين أن يصيرا متباعدين ، وعلى المتباعدين أن يصيرا متلاقيين ، وذلك يقتضي جواز الاجتماع والافتراق على ذات الله تعالى ، وهو محال .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال أن تلك الاجزاء مختلفة في الماهية فنقول : كل جسم مركب من أجزاء مختلفة في الماهية فلا بد وأن ينتهي تحليل تركيبه الى أجزاء يكون كل واحد منها مبرأ عن التركيب ، لأن التركيب عبارة عن اجتماع الوحدات ، فلولا حصول الوحدات لما عقل اجتماعها . إذا ثبت هذا فنقول : إن كل واحد من تلك الاجزاء البسيطة لا بد وأن يماس كل واحد منها بيمينه شيئا وبيساره شيئا آخر لكن يمينه مثل يساره وإلا لكان هو في نفسه مركبا ، وقد فرضناه غير مركب ، هذا خلف . وإذا ثبت أن يمينه مثل يساره وثبت أن المثلين لا بد وأن يشتركا في جميع اللوازم لزم القطع بأن ممسوس يمينه يصح أن يصير ممسوس يساره وبالعكس ، ومتى صح ذلك فقد صح التفرق والانحلال على تلك الاجزاء فحينئذ يعود الأمر الى جواز الاجتماع والافتراق على ذات الله تعالى وهو محال . فثبت أن القول بكونه في جهة من الجهات يفضي الى هذه المحالات فيكون القول به محالا وبالله التوفيق .

البرهان الثامن : لو كان علو الباري تعالى على العالم بالحيز والجهة لكان علو تلك الجهة أكمل من علو الباري تعالى ، وذلك لأن بتقدير أن يحصل ذات الله تعالى في يمين العالم أو يساره لم يكن موصوفا بالعلو على العالم أما تلك الجهة التي في العلو فلا يمكن فرض وجودها خاليا عن هذا العلو فثبت أن تلك الجهة عالية عن العالم لذاتها ، وثبت أن الحاصل في تلك الجهة يكون عاليا لا لذاته لكن تبعا لكونه حاصلا في تلك الجهة العالية على العالم ، وإذا كان كذلك فحينئذ يلزم أن يكون الباري تعالى ناقصا لذاته مستكملا بغيره وذلك محال ، فثبت أن يمتنع أن يكون علوه على العالم بالجهة والحيز ، وذلك هو المطلوب اهـ .

ذكر خبر آخر
في هذا المعنى وتأويله ومعناه

ونظير هذا الخبر في باب السؤال عن المكان ، ما روي أن سائلا سأل رسول الله ﷺ، فقال :

أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء ؟

فقال ، ﷺ : **« كان في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء »** .

ففي هذا الخبر إنما سأل النبي ﷺ، أين الله ؟

وهذا اقرب من أن يكون سؤالا عن المكان ، على أن قوله ﷺ : في عماء يحتمل أن يكون في بمعنى فوق كما قال الله عز وجل :

﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1] أي على الأرض .

وكما قيل في تأويل قوله :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾[2] أنه اراد من فوقها .

وقد روي هذا الخبر على وجهين :

أحدهما : بالمد وهو أن يقال في عماء ممدود والعماء في اللغة هو السحاب الرقيق ، وروي مقصوراً وهو أن يقال في عما .

---

(١) الآية ٢ من سورة التوبة .

(٢) الآية : ١٧ من سورة الملك .

فاذا روي مقصوراً احتمل أن يكون المعنى أنه كان وحده ولم يكن سواه ، فشبه العدم بالعمى توسعاً لاستحالة أن يرى ما هو عدم كما يستحيل ان يرى بالعمى فكأنه قال :

أنه لم يكن شيء سواه ولا فوق ولا تحت ولا هواء .

فاذا قيل : إنه كان في عماء بالمد كان سبيل تأويله على نحو ما تأولنا عليه قوله جل وعلا :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ وذلك بمعنى القهر والتدبير والمفارقة له بالنعت والصفة دون التحيز في المكان والمحل والجهة .

وإذا احتمل ما قلنا ولم يكن اللفظ مما يخص معنى واحداً ، كان جملة على ما قلناه أولى ، لأنه لا يؤدي الى التشبيه[1] والتعطيل ، وتحديد ما لا يجوز أن يكون محدودا ، فاعلمه ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) ومعنى التشبيه يقول إمام الحرمين الجويني :

« إن التشبيه قد يطلق والمراد به اعتقاد المشابهة ، فيقال لمعتقده مشبه ، كما يقال لمعتقد الوحدانية موحد .
وقد يطلق التشبيه والمراد به الاخبار عن تشابه المتشابهين ، وقد يطلق والمراد به إثبات فعل على مثال فعل ، فيقال للذي رام فعلا يشبه فعلا ، قصد تشبيه فعله بفعل غيره ، وقصد تشبيه فعله اللاحق بفعله السابق .

ثم يستطرد قائلا :

« القول في نفي التشبيه :

إن من أعظم أركان الدين نفي التشبيه ، وقد افتتن فيه فتتان ، وابتلي على طائفتان فغلت طائفة ، ونفت جملة صفات الإثبات ، ظناً منهم أن المصير إلى إثباتها مفض إلى التشبيه ، وإلى ذلك صار من أثبت الصانع من الفلاسفة ، وإليه مال بعض الباطنية ، فزعموا أن القديم لا يوصف بالوجود ، ولكن يقال : إنه ليس بمعدوم ، وكذلك لا يوصف بكونه حياً ، عالماً ، قادراً ، بل يقال : ليس بميت ولا عاجز ولا جاهل ، وطردوا ذلك في جملة صفات الإثبات التي ثبتت للمحدثات أسماؤها وقالوا : لو وصفنا الرب بشيء منها مع اتصاف الحوادث بها اقتضى ذلك تشبيها » ا . هـ .

ذكر خبر آخر

في هذا المعنى وتأويله ومعناه

وما يشاكل هذا الخبر ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

كان جبريل عليه السلام عند النبي ﷺوأتاه ملك ، فقال اين تركت ربنا ؟

قال : « في سبع أرضين » .

فجاءه آخر ، فقال : أين تركت ربنا ؟

قال : « في سبع سموات » .

فجاءه آخر فسأله مثل ذلك فقال « في المشرق » .

وجاء آخر فسأله ، فقال أين تركت ربنا ، فقال « في المغرب »[١] .

بيان تأويل ذلك

اعلم أن الثلجي حمل ذلك على ما يذهبون إليه من القول بأن الله تعالى في كل مكان ، وزعم أنه نظير ما دلت عليه الآية في قوله عز ذكره :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾[٢] .

(١) والله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ . . . ﴾ . الآية . وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

(٢) سورة الزخرف آية : ٨٤

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

وكان يذهب مذهب النجار في القول بأن الله في كل مكان وهو مذهب المعتزلة وهذا التأويل عندنا منكر ، من أجل أنه لا يجوز أن يقال : إن الله تعالى في مكان أو في كل مكان من قبل أن ظاهر معني في ، وما وضع في اللغة له ، هو الوعاء والظرف وذلك لا يصلح إلا في الأجسام والجواهر .

فأما قوله عز ذكره :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فان معناه عند أصحابنا :

أن الله جل ذكره يعلم سركم وجهركم ، الواقعين في محل السموات والأرض والسموات والأرض هي محال السر والجهر الواقعين في محل الله عز وجل ، ولا يصح الوقوف على معنى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـوَاتِ وَفِـي ٱلْأَرْضِ ﴾ دون أن يوصـل بقولـه تعالى :

﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾[2] .

---

(١) الآية : ٣ من سورة الأنعام .

(٢) سورة الانعام آية ٣

ويقول صاحب التفسير الكبير .

القائلون بأن الله تعالى مختص بالمكان تمسكوا بهذه الآية وهو قوله :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وذلك يدل على أن الإله مستقر في السماء ، قالوا : ويتأكد هذا أيضاً بقوله تعالى :

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ .

قالوا : ولا يلزمنا أن يقال : فيلزم أن يكون في الأرض لقوله تعالى في هذه الآية :

فان قال قائل : فما معنى الخبر ، إذا لم يذكر فيه العلم ، بل أطلقوا القول ، فقالوا في الشرق ، وفي الغرب ، وفي السموات ، وفي الأرض ؟

قيل إن صح هذا فمعناه أنه فوقها ، واستعمال في بمعنى فوق ظاهر في اللغة منتشر ، منه قوله عز وجل :

﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي فوقها .

ومنه قوله :

﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[1] .

قال المفسرون[2] : معناه على جذوع النخل وعليه يتأول قوله :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ أن المراد بذلك من فوقها ، وإذا كان ظاهرا في اللغة

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .
وذلك يقتضي حصوله تعالى في المكانين معا ، وهو محال ، لأنا نقول : أجمعنا على أنه ليس بموجود في الأرض ، ولا يلزم من ترك العمل بأحد الظاهرين ، ترك العمل بالظاهر الآخر ، من غير دليل ، فوجب أن يبقى ظاهر قوله : وهو الله في السموات ، على ذلك الظاهر ، ولأن من القراء من وقف عند قوله وهو الله في السموات « ثم يبتديء فيقول : وفي الأرض يعلم سركم ، والمعنى أنه سبحانه يعلم سرائركم الموجودة في الأرض فيكون قوله : في الأرض صلة لقوله : سركم ، هذا تمام كلامهم » أ . هـ .

(١) الآية ٧١ من سورة طه .

(٢) وممن ذكر ذلك أبو جعفر الطبري في تفسيره قال :
« ولأصلبنكم على جذوع النخل » كما قال الشاعر :
هم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا
يعني على جذع نخلة ، وإنما قيل : في جذوع ، لأن المصلوب على الخشبة يرفع في طولها ثم يصير عليها ، فيقال : صلب عليها » جـ ١٧ ص ١٨٨

استعمال في بمعنى فوق ، وقد قال تبارك وتعالى .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[1] .

وقال :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[2] .

وأطلق المسلمون أن الله تعالى فوق خلقه كان حمله على أولى ، وعليه يتأول أيضاً قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ .

أي هو فوق السماء إله ، وفوق الأرض إله .

أنشد بعضهم « هم صلبوا العبدى في جذع نخلة » معناه على جذع نخلة .

واعلم أنا إذا قلنا : إن الله عز وجل فوق ما خلق لم يرجع به إلى فوقية المكان والإرتفاع على الأمكنة بالمسافة ، والاشراف عليها بالممارسة لشيء منها ، بل قولنا : إنه فوقها يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه يراد به أنه قاهر لها ، مستول عليها إثباتاً لإحاطة قدرته ، بها ، وشمول قهره لها ، وكونها تحت تدبيره جارية على حسب علمه ومشيئته .

والوجه الثاني : أن يراد أنه فوقها على معنى أنه مباين[3] لها بالصفة والنعت ، وأن ما يجوز على المحدثات من العيب والنقص والعجز والآفة والحاجة لا يصح شيء

---

(١) الآية ٦١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٥٠ من سورة النحل .

(٣) أي مغاير ومخالف إذ ليس كمثله شيء .

من ذلك عليه ، ولا يجوز وصفه به وهذا ايضاً متعارف في اللغة أن يقال: فلان فوق فلان ويراد بذلك رفعة المرتبة والمنزلة والله عز وجل فوق خلقه على الوجهين جميعاً .

وإنما يمتنع الوجه الثالث : وهو أن يكون على معنى التحيز في جهة الإختصاص ببقعة دون بقعة، وإذا قلنا أنه فوق الأشياء على هذا الوجه قلنا ايضاً في تأويل إطلاق القول بأنه فيها على مثل هذا المعنى ، وقد رأينا في اللغة تعاقب هذين الحرفين على الوجه الذي ذكرنا شواهده من آي القرآن والشعر .

سؤال : فان قال قائل : فاذا اجزتم أن يقال : أنه في السماء وفي الأرض ، على معنى أنه فوقها ، أفتجيزون أن يقال : إنه في كل على مثل هذا المعنى ؟

قيل : إنما يطلق من ذلك ما ورد[1] به أثر ونطق به سمع وليس للقياس عندنا في ذلك مدخل بوجه من الوجوه .

قلنا : إن صح هذا الخبر كان طريق تأويله على نحو تأويل الآية في قوله عز وجل :

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ إنما زعم مخالفونا أنه واجب أن يقال :

إن الله تعالى في كل مكان ورد به خبر ، أو لم يرد ، سوى من وافقنا منهم في أخذ أسمائه عن التوقيف خصوصاً ، ولا توقيف على هذا المعنى بوجه ، بأن الله تعالى في كل مكان ، فمتى رجعوا في معنى إطلاق ذلك إلى العلم والتدبير ، كان معناهم صحيحاً ، واللفظ ممنوعاً .

ألا ترى أنه لا يسوغ أن يقال : إن الله تعالى مجاور لكل مكان ، أو مماس له ، أو حال أو متمكن فيه ، على معنى أنه عالم بذلك مدبر له .

(١) وفي نسخة أخرى : ما ورد فيه اثر ونطق . . . الخ .

فأما قولهم : إن هذا على سبيل قولهم : فلان في بناء داره وفي صلاته وعمله على معنى أنه[1] يدبره ؟

قيل هذا خطأ لأن ما ذكرتم هو من الكلام المقلوب ، كقولهم :

أدخلت القلنسوة في رأسي وأدخلت القبر زيدا ، وأدخلت الخف في رجلي ، وإنما تدخل الرجل في الخف وزيد في القبر ، والرأس في القلنسوة .

كذلك العمل في فلان ، والبناء فيه ، لا أنه هو في العمل ، ومثل هذا في الكلام لا يقاس ، ولا يصلح أن يجعل اصلا لأنه نوع من المجاز ، وإنما يجعل الحقائق أصولا ، ويستخرج معانيها ، إذا كان لاستعمال القياس في ذلك مدخل .

وهذا القدر يكفي في الإشارة إلى فساد قول الثلجي ، ومن ذهب مذهبه في إطلاق القوف بأن الله تعالى في كل مكان ، وحمل هذا الخبر على مثل مذهبه فيه فاعلمه إن شاء الله تعالى[2] .

---

(١) وفي نسخة أخرى : أنه يدبر له .

(٢) ولصاحب كتاب « أساس التقديس » كلام نفيس يقول فيه :

تمسكوا في إثبات الجهة لله تعالى بالقرآن والأخبار . أما القرآن فمن عشرة أوجه :

الأول : التمسك بالآيات الست الواردة بلفظ الاستواء على العرش .

الثاني : التمسك بالآيات المشتملة على لفظ الفوق ، وقد قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ .

وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ .

الثالث : الآيات المشتملة على لفظ العلو كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ . وقوله : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ سورة الأعلى آية ١

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَى ﴾ . سورة الليل آية ٢٠

وأيضاً تواتر النقل في قوله تعالى : ﴿ سبحان ربي الأعلى ﴾ .

. . . .

الرابع : الآيات المشتملة على لفظ العروج إليه والصعود قال تعالى .

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ سورة المعارج آية (٤) .

وقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ .

الخامس : الآيات المشتملة على لفظ الإنزال والتنزيل . قالوا : وهي كثيرة تزيد على المئتين في حق القرآن المبين ، والروح ، والملائكة المقربين ، والتوراة ، والإنجيل .

السادس : الآيات المقرونة بحرف (إلى) مع أنها لانتهاء الغاية ، منها قوله تعالى :

﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ـ سورة القيامة آية ٢٣ وذلك يقتضي انتهاء النظر إليه .

وقوله : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

وقوله : ﴿ ثم إلي المصير ﴾ـ وقوله ـ ﴿ ٱرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ .

السابع : قوله تعالى : سورة المطففين آية ١٥ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ـ والحجاب إنما يصح في حق من يكون جسماً ، وفي جهة حتى يصير محجوباً بسبب شيء آخر .

الثامن : الآيات الدالة على أنه في السماء قال ـ ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ .

وقال : ﴿ قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ . سورة النمل آية ٦٥

التاسع : الآيات المشتملة على الرفع إليه قال تعالى في حق عيسى عليه السلام .

سورة آل عمران آية ٥٥ . ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ـ وقوله ـ ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ . سورة النساء آية ١٥٧ ـ ١٥٨

العاشر : الآيات المشتملة على العندية كقوله ـ ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ .

وقوله ـ سورة القمر آية ٥٥ ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ وقوله ـ ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ . سورة التحريم آية ١١ وقوله ـ ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ . سورة فصلت آية ٣٨

وقوله : ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ﴾ ـ فهذا بيان وجوه تمسكاتهم من القرآن في إثبات الجهة لله تعالى قالوا :

والذي يدل على أنها محكمة غير متشابهة أنها في غاية الكثرة وقوة الدلالة ، فلو كانت من المتشابهات لتكلم فيها أحد من الصحابة والتابعين وذكروا تأويلاتها ، وحيث لم ينقل عن أحد منهم ذلك علمنا أنها محكمة لا متشابهة .

وأما الأخبار فكثيرة :

الخبر الأول : ما رواه أبو داود في باب الرد على الجهمية والمعتزلة عن حسن بن محمد بن مطعم عن أبيه عن جده قال :

. . . .

جاء أعرابي الى النبي ﷺفقال : يا رسول الله هلكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال فاستسق لنا ربك فإننا نستشفع بالله عليك وبك على الله فقال عليه السلام .

سبحان الله سبحان الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال ويحك أتدري ما الله ؟ شأنه أعظم من ذلك أنه لا يستشفع به على أحد ، إنه لفوق سمواته على عرشه وأنه عليه لهكذا وأشار وقبب بيده مثل القبة عليه ، وأشار أبو الأزهر أيضاً يئط به أطيط المرجل بالراكب .

الخبر الثاني : ما روى صاحب شرح السنة في باب سعة رحمه الله تعالى عن أبي هريرة عن النبيﷺ :

« لما قضى الله الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي » .

الثالث : ما أخرج في الصحيح عن عمر بن الحكم أنه قال :

(كنت عند النبي ﷺ فقلت يا رسول الله أن لي جارية كانت ترعى غنما فجئتها ففقدت شاة فسألتها فقالت أكلها الذئب فاسفت عليها فلطمت وجهها ، وعلي رقبة أفعتقها ؟

فقال لها رسول الله ﷺ « أين الله ؟ »

فقالت في السماء فقال « من أنا »؟ قالت أنت رسول الله فقال عليه السلام « أعتقها فانها مؤمنة » .

قالوا وهذا يدل على الصريح من رسول الله ﷺ بان الله في السماء .

وأما المعقول فقد تقدم من قولهم أنا نعلم بالضرورة أن كل موجودين فلا بد وأن يكون أحدهما حالا في الآخر أو مباينا عنه بجهة من الجهات ، وتقدم الاستقصاء في الجواب عنها وبالله التوفيق .

وأما الوجوه المركبة من السمع والعقل فوجهان :

الأول : قصة المعراج تدل على أن المعبود مختص بجهة فوق وربما تمسكوا في هذا المقام بقوله ـ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .

وهذا يدل على أن ذلك الدنو بالجهة ثم قال ـ فاوحى إلى عبده ما أوحى ـ وهذا يدل على أن ذلك الدنو إنما كان من الله تعالى ، وهذا يدل على أنه مختص بجهة فوق .

الثاني : تمسكوا بقول فرعون :

يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلع إلى اله موسى ـ ثم أن موسى عليه السلام أنكر عليه هذا الكلام فدل ذلك على أن الاله في السماء . فهذه جملة ما يتمسكون به في هذا الباب .

واعلم : أن لنا في الجواب عن هذه الكلمات نوعان عن الجواب .

النوع الأول : أن نقول للكرامية أنتم ساعدتمونا على أن ظواهر القرآن ، وإن دلت على إثبات الاعضاء والجوارح لله تعالى ، فانه يجب القطع بنفيها عن الله تعالى والجزم بانه منزه عنها وما ذاك إلا أنه لما قامت الدلائل القطعية على استحالة الأعضاء والجوارح على الله تعالى وجب القطع بتنزيه الله تعالى عنها والجزم بان

. . . .

مراد الله تعالى من تلك الظواهر شيء آخر فكذا في هذه المسألة، نحن ذكرنا الدلائل العقلية القاطعة في أنه تعالى يمتنع أن يكون مختصا بالمكان والجهة والحيز، وإذا كان الأمر كذلك وجب القطع بان مراد الله تعالى من هذه الظواهر التي تمسكتم بها شيء آخر سوى أثبات الجهة لله تعالى، وهذا الزام قاطع، وكلام قوي إلا أن نقول أن تلك الدلائل العقلية التي تمسكتم بها ليست قطعية، بل هي محتملة فنحن إذن يجب علينا أن نتكلم معهم في تقرير تلك الدلائل، ورفع وجوه الاحتمال عنها.

فثبت بهذا الطريق أنا متى بينا أن تلك الدلائل العقلية قاطعة يقينية لم تقدر الكرامية على معارضة تلك العقليات اليقينية بهذه الظواهر، وهذا كلام في غاية القوة وعند هذا نختار مذهب السلف ونقول لما عرفنا بتلك القواطع العقلية أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآيات إثبات الجهة لله تعالى فلا حاجة بنا بعد ذلك الى بيان أن مراد الله تعالى من هذه الآيات ما هي، وهذا الطريق اسلم في ذوق النظر وعن الشغب أبعد.

النوع الثاني: أن نتكلم عن كل واحد من هذه الوجوه على سبيل التفصيل أما الذي تمسكوا به أولا، وهو الايات الست الدالة على استواء الله تعالى على العرش فنقول:

أنه لا يجوز أن يكون مراد الله تعالى من ذلك الاستواء هو الاستقرار على العرش، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن ما قبل هذه الآية، وهو قوله تعالى - ﴿ تَنْزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَى ﴾ سورة طه آية ٤ وقد بينا أن هذه الآية تدل على أنه تعالى غير مختص بشيء من الأحياز والجهات.

الثاني أن ما بعد هذه الآية، وهو قوله تعالى - ﴿ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

فقد بينا أن السماء هو الذي فيه له سمووفوقية، فكل ما كان في جهة فوق سماء وإذا كان كذلك فقوله - ﴿ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ - يقتضي أن كل ما كان حاصلا في جهة فوق كان في السماء وإذا كان كذلك فقوله - ﴿ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ ﴾ - يقتضي أن كل ما كان حاصلا في جهة فوق فهو ملك الله تعالى ومملوك له، فلو كان تعالى مختصا بجهة فوق لزم كونه مملوكا لنفسه من غير محل وهو محال، فثبت أن ما قبل قوله.

﴿ ٱلرَّحْمَنُ عَلى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى ﴾ - وما بعده ينفي كونه سبحانه وتعالى مختصا بشيء من الاحياز والجهات، فإذا كان كذلك امتنع أن يكون المراد بقوله - ﴿ ٱلرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى ﴾ - هو كونه مستقرا على العرش.

الثالث: أن ما قبل هذه الآية وما بعدها مذكور لبيان كمال قدرة الله تعالى وغاية عظمته في الإلهية وكمال التصرف، لأن قوله.

﴿ تَنْزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَى ﴾ - لا شك أن المفهوم منه بيان كمال قدرة الله تعالى وكمال إلهيته.

. . . .

وقوله ـ ﴿ لَهُ ما فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْإِرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَى ﴾ ـ بيان أيضاً لكمال ملكة وإلهيته ، وإذ كان الأمر كذلك وجب أن يكون قوله ـ ﴿ ٱلرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ـ كذلك وإلا لزم أن يكون ذلك كلاماً أجنبياً عما قبله وعما بعده ، وذلك غير جائز ، فأما إذا حملنا على كمال استيلائه على العرش الذي هو أعظم المخلوقات فالموجودات المحدثة كان ذلك موافقا لما قبل هذه الآية ، ولما بعدها فكان هذا الوجه أولى .

الرابع : أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل منه في يسار العرش ، فيلزم في كونه في نفسه مؤلفا ومركبا ، وذلك على الله تعالى محال .

الخامس : أن الجالس على العرش إن قدر على الحركة والانتقال كان محدثا لأن ما لا ينفك عن الحركة والسكون كان محدثا وأن لم يقدر على الحركة كان كالمربوط ، بل كان كالزمن ، بل أسوأ حالا منهما ، فإن الزمن إذا أراد الحركة في رأسه أو حدقتيه أمكنه ذلك ، وكذلك المربوط ، وهو غير ممكن في الله تعالى :

السادس : أنه لو حصل في العرش لكان حاصلا في سائر الأحياز ، ويلزم منه كونه مخالطا للقاذورات والنجاسات ، وأن لم يكن كذلك كان له طرف ونهاية وزيادة ونقصان وكل ذلك على الله تعالى محال .

السابع : قوله تعالى ـ سورة الحاقة آية ١٧ ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ ـ فلو كان العرش مكانا لمعبودهم لكانت الملائكة الذين يحملون العرش حاملين إله العالم ، وذلك غير معقول ، لأن الخالق هو الذي يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله ، لا يقال هذا إنما يلزم إذا كان الاله معتمدا على العرش متكئا عليه ، ونحن لا نقول ذلك لأنا نقول على هذا التقدير لا يكون الله تعالى مستقرا على العرش ، لأن الاستقرار على الشيء إنما يحصل إذا كان معتمدا عليه . ألا ترى أنا إذا وضعنا جسما على الأرض قلنا : أنه مستقر على الأرض ، ولا نقول الأرض مستقرة عليه وما ذاك إلا لأن الشيء معتمد على الأرض والأرض غير معتمدة عليه ، فلو لم يكن الإله معتمدا على العرش فحينئذ لا يكون مستقرا على العـرش وعلى هذا التقدير يلزمهم ترك ظاهر الآية ، وحينئذ تخرج الآية عن كونها حجة .

الثامن : أنه تعالى كان ولا عرش ولا مكان ، فلما خلق الخلق فيستحيل أن يقال أنه تعالى صار مستقرا على العرش بعد أن لم يكن كذلك لأنه تعالى قال ـ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ـ وكلمة ثم للتراخي .

التاسع : أن ظاهر قوله تعالى ـ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ـ وقوله ـ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ ﴾ . وقوله ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ ـ ينفي كونه مستقرا على العرش ، وليس تأويل هذه الآية لنفي الآيات التي تمسكوا بها على ظاهرها أولى من العكس .

العاشر : أن الدلائل العقلية القاطعة التي قدمنا ذكرها ببطل كونه تعالى مختصا بشيء من الجهات ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه ليس المراد من الاستواء الاستقرار ، فوجب أن يكون المراد هو الاستيلاء والقهر ونفاذ القدر

. . . .

وجريان أحكام الآلهية ، وهذا مستقيم على قانون اللغة قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والذي يقرر ذلك أن الله تعالى ، إنما أنزل القرآن بحسب عرف أهل اللسان وعادتهم ، ألا ترى أنه تعالى قال : سورة النساء آية ١٤٢ ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ . وقال : سورة الروم آية ٢٧ ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ . وقال : سورة آل عمران آية ٥٤ ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ . وقال : سورة البقرة آية ١٥ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ ﴾ .

والمراد في الكل أنه تعالى يعاملهم معاملة الخادعين والماكرين والمستهزئين ، فكذا ههنا المراد من الاستواء على العرش التدبير بامر الملك والملكوت ونظيره أن القيام أصله الانتصاف ، ثم يذكر بمعنى الشروع في الأمر كما يقال قام بالملك ، فإن قيل هذا التأويل غير جائز لوجوده :

الأول : أن الاستيلاء عبارة عن حصول الغلبة بعد العجز ، وذلك في حق الله تعالى محال .

الثاني : إنه إنما يقال فلان إستوى على كذا إذا كان له منازع ينازعه ، وذلك في حق الله تعالى محال .

الثالث : أنه إنما يقال فلان استولى على كذا إذا كان المستولي عليه موجودا قبل ذلك . وهذا في حق الله تعالى محال ، لأن العرش إنما حدث بتكوينه وتخليقه .

الرابع : أن الاستيلاء بهذا المعنى حاصل بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة .

والجواب : أن مرادنا بالاستيلاء القدرة التامة الخالية عن المنازع والمعارض والمدافع وعلى هذا التقدير فقد زالت هذه المطاعن باسرها .

وأما تخصيص العرش بالذكر ففيه وجهان :

الأول : أنه أعظم المخلوقات ، فخص بالذكر لهذا السبب كما أنه خصه بالذكر في قوله ـ وهو رب العرش العظيم ـ لهذا المعنى .

الثاني : قال الشيخ الغزالي رحمه الله في كتاب « الجام العوام » : السبب في هذا التخصيص هو أنه تعالى يتصرف في جميع العالم ، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض بواسطة العرش كما لا يحدث النقاش ، والكاتب صورة البناء على البياض ما لم يحدثها في الدماغ بواسطة القلب والدماغ يدبر الروح أمر عالمه الذي هويدبر ، فكذا بواسطة العرش يدبر الله أمر كل العالم .

وأعلم : أن هذا إلكلام مبني على أصول الحكماء ، وهو أن تأثير الباري تعالى في العقل وتأثير العقل في تدبير العالم العلوي وتدبير العالم العلوى في السفلي ، وقد تكلمنا عليه في الكتب العقلية المحضة .

. . . .

أما الذي ذكروه ثانيا ، وهو التمسك بالآيات المشتملة على ذكر الفوقية .

فجوابه : إن لفظ الفوق في الرتبة والقدرة قال الله تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ . سورة يوسف آية ٧٦

﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . سورة الفتح آية ١٠

والمراد بالفوقية في هذه الآيات بالفوقية بالقهر والقدرة وقال تعالى - (بعوضة فما فوقها) - أي أزيد منها في صفة الصغر والحقارة ، وإذا كان لفظ الفوق محتملا للفوق في الجهة والفوق في الرتبة فلم حملتموه على الفوق في الجهة ؟

والذي يدل على أن المراد بلفظ الفوق ههنا الفوق بالقدرة والمملكة وجوه :

الأول : أنه قال - ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ - والفوقية المقرونة بالقهر هو الفوقية بالقدرة ، والمكنة لا بمعنى الجهة بدليل أن الحارس قد يكون فوق السلطان في الجهة ، ولا يقال فوق السلطان فقط .

الثاني : أنه تعالى وصف نفيه بأنه مع عبيده فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ . سورة النحل آية ١٢٨

وقال - ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وقال - ، ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ سورة ق آية ١٦ .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ . سورة البقرة آية ١٨٦

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ . سورة المجادلة آية ٧

فإذا جاز حمل المعية في هذه الآيات على المعية في هذه الايات على المعية بمعنى العلم والحفظ والحراسة ، فلم لا يجوز حمل الفوقية في الايات التي ذكرتم على الفوقية بالقهرة والقدرة والسلطان .

والثالث : أن الفوقية الحاصلة بسبب الجهة ليست صفة المدح ، لأن تلك الفوقية حاصلة للجهة بعينها وذاتها وحاصلة للمتمكن في ذلك الحيز بسبب ذلك الحيز ، فلو كانت الفوقية بالجهة صفة مدح لزم أن تكون الجهة أفضل وأكمل من الله تعالى ، ولا يقال يلزمكم أن تقولوا بالقدرة أفضل وأكمل من الله تعالى . لأنا نقول القدرة صفة القادر وممتنعة الوجود بدونه ، بخلاف الحيز والجهة فإنه غني عن الممكن فثبت أن الكمال والفضيلة إنما يحصل بسبب الفوقية بمعنى القدرة والسلطان . وكان حمل الاية عليه أولى . أما قوله تعالى في صفة الملائكة - ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ - ففيه جواب آخر وهو أنه يحتمل أن يكون قوله - من فوقهم - صلة لقوله - يخافون - أي يخافون من فوقهم ربهم وذلك لأنهم يخافون نزول العذاب عليهم من جانب فوقهم . وأما الذي ذكروه ثالثا وهو التمسك بالايات المشتملة على لفظ العلو ، فالجواب أن لفظ العلو كما

يستعمل في العلو بسبب الجهة فقد يستعمل أيضا العلو بسبب القدرة . فإنه يقال السلطان أعلى من غيره ويكتب في أمثلة السلاطين الديوان الأعلى ، ويقال لأوامرهم الأمر الأعلى ، ويقال لمجالسهم المجلس الأعلى والمراد في الكل العلو بمعنى القهر والقدرة ، لابسبب المكان والجهة . وأيضا قال الله تعالى لموسى ـ ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ـ سورة طه آية ٦٨ وقال ـ سورة آل عمران آية ١٣٩ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ ـ وقال سورة التوبة آية ٤٠ ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ وقال فرعون ـ (أنا ربكم الأعلى) ـ والعلو في هذه المواضع بمعنى العلو بالقدرة لا بمعنى العلو بالجهة ، والذي يدل على أن المراد ما ذكرناه وجوه :

الأول : أنه تعالى قال سبح اسم ربك الأعلى ـ فحكم بأنه تعالى أعلى من كل ما سواه والجهة شيء سواه فوجب أن يكون ذاته أعلى من الجهة . وما كان أعلى من الجهة يمتنع أن يكون علوه سبب الجهة فثبت أن علوه لنفس نطاته لا بسبب الجهة ، ولا يقال الجهة ليست بشيء موجود حتى يدخل تحت قوله ـ (سبح اسم ربك الأعلى) ـ لأنا نقول قد بينا في باب الدلائل العقلية أنها لا بد وأن يكون أمراً موجودا .

الثاني : هو أنه تعالى لو كان في جهة فوق فاما أن يكون له جهة فوق نهاية وأما أن لا يكون له في تلك الجهة نهاية ، فإن كان الأول لم يكن أعلى الأشياء ، لأن الاحياز الخالية فوقه تكون أعلى منه ، ولأنه قادر على خلق الأجسام في جميع الاحياز ، فيكون قادراً على خلق عالم في تلك الاحياز التي هي فوقه فيكون ذلك العالم على ذلك التقدير أعلى منه ، وإنما قلنا لا نهاية لذات الله تعالى من جهة فوق ، لأن هذا الجانب المتناهي منه مخالف في الماهية للجانب الذي هو غير متناه ، ولا يصح على كل واحد منهما ما صح عند الاخر وصح أن ينقلب غير المتناهي متناهياً والمتناهي غير متناه . وذلك يقتضي جواز الفصل والوصل في ذات الله تعالى وهو محال .

الثالث : أنه إذا كان غير متناه من جانب الفوق ، فلا جزء إلا وفوقه جزء آخر وكل ما فوقه غيره لم يكن أعلى الموجودات . فاذا ليس في تلك الأجزاء شيء هو أعلى الموجودات فثبت بما ذكرنا أن كل ما كان مختصاً بالجهة ، فإنه لا يمكن وصفه بانه أعلى الموجودات ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون علوه تعالى لا بالجهة والحيز وهو المطلوب .

وأما الذي تمسكوا به رابعا ، وهو الايات المشتملة على لفظ العروج كقوله تعالى ـ سورة السجدة آية ٥ ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ـ وقوله ـ سورة المعارج آية ٣ و٤ ﴿ ذِي ٱلْمَعَارِجِ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ـ فجوابه أن المعارج جمع معرج ، وهو المصعد ، ومنه قوله تعالى ـ ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ ـ سورة الزخرف آية ٣٣ وليس في هذه الايات بيان أن تلك المعارج معارج لأي شيء فسقطت حجتهم في هذا الباب بل يجوز أن تكون تلك المعارج معارج لنعم الله تعالى ، أو معارج الملائكة ، أو معارج لأهل الثواب .

وأما قوله تعالى ـ ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ـ فنقول : ليس المراد من حرف « إلى » في قوله ـ إليه ـ المكان ، بل المراد انتهاء الأمور إلى مراده ، ونظيره قوله تعالى ـ سورة هود آية ١٢٣ ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ

. . . .

كُلُّهُ ﴾ ـ والمراد انتهاء أهل الثواب إلى منازل العز والكرامة كقول إبراهيم ـ ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ سورة الصافات آية ٩٩

ـ ويكون هذا إشارة إلى أن دار الثواب أعلى الأمكنة وأرفعها بالنسبة إلى أكثر المخلوقات .

وأما الذي تمسكوا به خامساً ، وهو لفظ الإنزال والتنزيل ، فجوابه أن مذهب الخصم أن القرآن حروف وأصوات فيكون الإنتقال عليها محالا وكان إطلاق لفظ الإنزال والتنزيل عليها مجازاً بالاتفاق فلم يجز التمسك به ، وأيضاً فقد يضاف الفعل إلى الأمر به كما يضاف الى المباشر ألا ترى أنه تعالى أضاف قبض الأرواح إلى نفسه فقال تعالى ـ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ ثم أضافه الى ملك الموت فقال ـ سورة السجدة آية ١١ ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ثم أضافه إلى الملائكة فقال ـ سورة الانعام آية ٦١ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ ـ وأيضاً قال ـ ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ـ ثم قال ـ ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ وأيضاً قال تعالى ـ ﴿ يُؤْذِنُ ٱللَّهُ ﴾ ـ أي أولياءه . ثم قال ـ ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ ـ أي أولياءنا، وقال : ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ سورة البقرة آية ٩ ـ أي رسوله والمؤمنين ـ وبالله التوفيق .

وأما الذي تمسكوا به سادساً ، وهو التمسك بصيغة « إلى » في حق الله تعالى كقوله : إلى ربها ناظرة . والنظر إلى الشيء يوجب رؤ يته فجاز أن يكون المراد من النظر هو الرؤ ية على سبيل إطلاق إسم السبب عند المسبب وأيضاً حكى الله تعالى عن الخليل عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ـ وليس المراد منه القرب بالجهة ، فكذا ههنا والله أعلم .

وأما الذي تمسكوا به سابعاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ . ﴾ . فجوابه انه : : لا يمكن أجزاء هذه الاية على ظاهرها ويدل عليه وجهان :

الأول : أنه قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾، وهذا يقتضي أن يكون المراد من كونه في السماء ، ومن كونه في الارض معنى واحداً لكن كونه في الأرض ليس بمعنى الاستقرار فكذلك كونه في السماء يجب أن لا يكون بمعنى الاستقرار ، سلمنا أنه يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها لكنا لا نقول بموجبه فلم لا يجوز أن يكون المراد من ـ ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ ـ الملائكة الذين هم في السماء ، لأنه ليس في الكلام ما يدل على أن الذي في السماء هو الاله والملائكة ولا شك أن الملائكة أعداء الكفار والفساق ، سلمنا أن المراد هو الله لكن لم لا يجوز أن يكونِ المراد أم أمنتم من في السماء ملكه ، وخص السماء بالذكر إنها أعظم من الأرض تفخيما للشأن .

وأما الذي تمسكوا به ثامناً ، وهو لفظ الحجاب ، فجوابه لم لا يجوز أن يكون المراد من الحجاب عدم الرؤ ية وذلك بأن الحجاب يقتضي المنع من الرؤ ية فكان إطلاق لفظ الحجاب على المنع من الرؤ ية مجازاً من باب إطلاق إسم السبب على المسبب .

وأما الذي تمسكوا به تاسعاً ، وهو الايات المشتملة على الرفع كقوله تعالى ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فالجواب أن الله تعالى لما رفعه إلى موضع الكرامة ومكان آخر صح على سبيل المجاز أن يقال إلى الله تعالى رفعه إليه كما أن الملك إذا عظم إنساناً حسن أن يقال إنه رفعه من تلك الدرجة إلى درجة عالية وأنه يريد من نفسه ومنه قوله تعالى ـ ﴿ **والسابقون السابقون اولئك المقربون** ﴾ .

وأما الذي تمسكوا به عاشراً ، وهو الايات المشتملة على لفظ العندية فلا يجوز أن يكون المراد بالعندية الحيز ، بل المراد بها الشرف . والدليل عليه قوله عليه السلام حكاية عن رب العزة « أنا عند المنكسرة فيهم لأجلي » وقوله « أنا عند ظن عبدي بي » بل هذا أقوى ، لأن النصوص التي ذكروها تدل على أن الملائكة عند الله تعالى ـ ﴿ وَإِنَّ عِندَنَا لَزُلْفَى ﴾ وليس المراد بهذه العندية الجهة كذا هنا . فهذا هو الإشارة إلى الجواب عن الوجوه التي تمسكوا بها من القرآن في إثبات الجهة لله تعالى وبالله التوفيق .

أما الاخبار التي تمسكوا بها فيقول :

أما الخبر الاول : فأعلم أن من الناس ما روى هذا الخبر على وجه آخر فقال أنه عليه السلام قال ﴿ وضع عرشه على السموات هكذا وقبب باصبعه مثل القبة ﴾ فإن حملنا الرواية على هذا الوجه فلا إشكال فيه البتة والمقصود من هذا الكلام التقريب والتعليم وشرح عظمة الله من حيث يدركه فهم السائل .

وقوله : وأنه يئط به ، معناه أنه يعجز عن جلالته وعظمته حتى يئط به إذا كان معلولا . وذلك لأن اطيط المرجل بالراكب يكون لقوة ما فوقه ولعجزه عن احتماله فهو عليه السلام قريب بهذا النوع من عظمة الله تعالى وارتفاع عرشه لعلم المخاطب أنه تعالى أجل وأعلى من أن يجعل شبيها لأحد من خلقه . وأقول : أن ظاهر الحديث يدل على كونه جعل متناهيا في القوة وإلا حصل الأطيط وكل ذلك ينافي الالهية فعلمنا أنه لا بد من حمل اللفظ على غير ظاهره .

وأما الخبر الثاني : وهو قوله عليه السلام « **لما قضى الله الخلق كتب كتاباً** » فهو عنده فوق العرش « فالجواب عنه ما تقدم من لفظ عند في القرآن » .

وأما الخبر الثالث : فجوابه أن لفظ أين كما يجعل سؤالا عن المكان فقد يجعل سؤالا عن المنزلة والدرجة ، يقال أين فلان من فلان فلعل السؤال كان المنزلة وأشار بها الى السماء : أي هو رفيع القدر جدا : وإنما اكتفى منها بتلك الإشارة لقصور عقلها وقلة فهمها وهذا الجواب يصلح أن يكون جواباً عن تمسكهم بالخبر الثاني ، وهو لفظ عند يذكر لبيان المنزلة والدرجة . ومن هذا الباب أيضاً أن رجلا قال للنبي ﷺ : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء؟ فقال عليه السلام : « **في عماء تحته هواء وفوقه هواء** » وهذا يروى على وجهين أحدهما : بالمد ، وهو السحاب الرقيق ، والثاني : بالقصر ، فإذا روي مقصورا

. . . .

كان المعنى أنه تعالى كان وحده ولم يكن معه غيره . شبه العدم بالعمى ، فكأنه قال لم يكن شيء سواه لا فوق ، ولا تحت ، ولا شمال ولا يمين ، فإذا قيل ذلك كان في عمى معناه أنه تعالى كان فيه بمعنى القدرة والتدبير ، والرواية الأولى أولى لما روي عن عمران بن حصين قال (قال أخبرنا عن أول هذا الأمر قال (كان الله ولم يكن معه شيء) وهذا يدل على أن رواية العمى بالقصر أولى من المد ومن هذا الباب ما روى أنس رضي الله عنه قال (جبريل عند النبي ﷺ فأتاه ملك قال أين تركت ربنا ؟ فقال « في الأرضين » ، فجاء آخر فقال : أين تركت ربنا ؟ فقال « في سبع سموات » فجاءن آخر فسأله عغنه فقال ﴿ في المشرق ﴾ ،وآخر ﴿ في المغرب ﴾ والتأويل أنه على وفق قوله تعالى) - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ وقوله - ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وقوله - ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أي هو تعالى في كل مكان بالحفظ والتدبير والإلهية .

وأما قصة المعراج فالمقصود أنه يريد الله تعالى أنواع مخلوقاته في العالم العلوي والعالم السفلي لتكون مشاهدته للدلائل أكثر فتصير نفسه أقوى وأكمل كما في حق الخليل عليه السلام .

وأما قوله ـ ثم دنا فتدلى : أي جبريل دنا من محمد عليهما السلام ، والدليل عليه قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ . ثم لما دنا جبريل من محمد عليهما السلام حصل الوحي من الله تعالى إليه فلهذا قال ـ (فاوحى إلى عبده ما أوحى) ـ .

وأما الجواب عن التمسك بقول فرعون ـ يا هامان ابن لي صرحاً ـ فهو أن هذا الكلام لفرعون ، وهو معارض بأن موسى عليه السلام لم يقل الرب في السماء بل قال رب السماء ثم إن فرعون كان ظن فيه إن الإله مستقرا في السماء فهذا هو الجواب عن هذه الشبهة اهـ .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

ويوهم ظاهره التشبيه

وهو ما رواه سماك بن حرب عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه قال :

« الله أفرح بتوبة العبد من العبد إذا ضلت راحلته في أرض فلاة من يوم قائظ ، وراحلته عليها زاده ومزاده ، إذا ضلت أيقن بالهلاك وإذا وجدها فرح بذلك ، فالله اشد فرحاً بتوبة عبده من هذا العبد بوجود راحلته »[1] .

وتطيره أيضاً ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ : أنه قال :

« لا يطأ الرجل المساجد للصلاة والذكر إلا يتبشبش الله تعالى به حين يخرج كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم » .

تأويله

اعلم أن الفرح في كلام العرب على وجوه :

منها الفرح بمعنى السرور من ذلك قوله عز وجل :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾[2] .

أي سروا بها ، فهذا المعنى لا يليق بالله عز وجل ، لأنه يقضي جواز الشهوة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ورقم الحديث ٤٢٤٧ وأخرجه أيضاً ابن ماجه رواية أخرى رقم ٤٢٤٩ .

(٢) الآية ٢٢ من سورة يونس .

والحاجة وعليه نيل المنفعة .

ومنها الفرح بمعنى البطر والأشر من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا أَتَاكُمْ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾[3] .

يعني بذلك فرح البطر والاشر ، ومنه قول الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب

أي لست ببطر ولا أشر ، وإن وافقني الدهر وساعدني .

والوجه الثالث من الفرح : أن يكون بمعنى الرضا من قوله عز وجل :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[4] أي راضون .

ولما كان من يسر بالشيء قد رضيه ، قيل إنه فرح على أنه هو به راض .

ومعنى الخبر يحمل على ذلك ، لأن البطر والسرور لا يليقان بالله ، ويكون معنى ذلك ، أن الله تعالى : أرضى بتوبة العبد ، من رضا من وجد ضالته .

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٧٦ من سورة القصص .

(٣) الآية : ١٠ من سورة هود .

الآية ٣٢ من سورة الروم .

واعلم أن اصل الرضا على أصولنا إنما يتعلق بمن في المعلوم ، أنه يوافي ربه على الإيمان والطاعة ، وأن من وفقه الله تعالى للتوبة من معاصيه فقد رضي أن يكون مثابا على الخير ، متبولا منه الطاعة والعبادة ، ولم يزل الله عندنا راضيا عمن يعلم أنه يموت على الإيمان مزكياً مادحا مثنيا عليه بالإيمان والخير والبر .

وتكون فائدة الخبر على ما ذكرنا : تعريفنا أن الله عز وجل ، هو التائب على العبد ليتوب كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ﴾[1] .

ويدل على صحة ما نقول :

أن الله عز وجل هو الخالق لأعمال العبادة ، والموفق للخير منها ، وأن ما يستعمل في الخير منها لا يصلح أن يستعمل في الشر ، وإذا كان كذلك أفاد هذا الخبر تعريف صحة ما نقول في الرضا ، وأن الطاعة عن رضا الله تعالى تحصل للعبد لا عن العبد ، وأنه هو الذي يعينه عليه ، ويوفقه له ، وأن من علمه أهلا لذلك يسر له طريق ذلك ، كما أن من يسر بالشيء ، ييسر له الطريق ، وكذلك تثبت هذه الصفة بتلك الحالة .

وعلى نحو ذلك ما ذكرنا ايضاً : يتأول قوله عليه الصلاة والسلام في البشبشة ، وذلك أن معناه يقارب معنى الفرح والرضا بما يحصل في التبشبش لما يبش منه ، والعرب تقول :

رأيت لفلان بشاشة وهشاشة ، أي فرحا ، وتقول فلان هش بش[2] ، فرح ،

---

(١) الآية ١١٨ من سورة التوبة .

(٢) وفي اللسان والناموس :

هش الورق خبطه بعصا ليحات وبابه رد، ومنه قوله تعالى : «وأهش بها على غنمي » والهشاشة بفتح

إذا كان منطلقا فيما يحدث له رضا به ، وعلى هذه الطريقة يكون معنى الخبر : إن الله عز وجل قد رضي وطء الواطئين للمساجد للذكر والصلاة وأعانهم عليه ، ويسر لهم التقرب به إليه ، وسهل عليهم طريق الإخلاص فيه ، كمن يقدم عليه غائبه ، إذا ابتدأ في تيسير الأمور التي يرضاها له ، ويحلها به فيقال له عند ذلك تبشبش له .

واعلم ان للعرب كلامهم ، استعادات ألا ترى إلى قوله عز وجل :

﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾[1] .

بمعنى الإبتلاء والاختبار ، وإن كان اصل الذوق بالفم ، ولذلك تقول العرب :

ناظر فلانا ذق ما عنده .

ويقولون ذق القوس بالنزع ليعلم لينها وصلابتها .

كذلك قوله « تبشبش الله والله أفرح » يرجع معناه في التحقيق إلى إظهار الأفعال المرضية ، فيمن يتوب عليه من المعاصي ويوفقه للطاعة ، تشبيها بحال أحدنا إذا ظهر له ما يسره ويؤنسه ، وإن لم يكن لائقاً بالله عز وجل ، وإنما أريد به التقريب على الإفهام بالخطاب المعتاد الجاري بين أهله .

ويحتمل أن يكون ﷺ قصد بذكر هذه الألفاظ في التوبة والطاعة والعبادة وحضور المساجد والذكر ترغيباً في التوبة وحثاً على فعلها ، إذا دعا إليها بأقرب ما يدعى إلى مثله من الألفاظ لتكثر الدواعي إلى فعلها والمبادرة اليها ، إذا خاطب أهلها

الارتياح والخفة للمعروف وقد هش به يهش بالفتح ، (هشاشة) إذا خف اليه وارتاح له . ورجل هش بشيء ، وشيء هش وهشيش ، أي رخو لين » اهـ .

---

(١) الآية ١١٢ من سورة النحل .

بأبلغ الألفاظ فيها .

ثم إن وجوه الاستعارات وتحقيق المعاني صحيح ثابت عند أهل المعرفة بها ، فلا تلبس عليهم ولا تخيل ، أن المراد هو المعنى الصحيح الذي يجوز عليه جل ذكره ، دون ما لا يجوز ، وهذا كسائر ما وصف الله جل ذكره به من أوصاف ذاته وفعله ، مما يقع مشتركا بينه ، وبين خلقه ، فيكون له منه معناه الذي يصح في وصفه ، ويليق بحكمه ولغيره ، إذا جرى عليه نحو ما يجوز عليه ، ولا يجوز أن يستوحش من إطلاق مثل هذا اللفظ ، إذا ورد به سمع لأن النظر يكشف عن الصحيح من المعنيين والجائز من الحكمين عليه ، واللغة لا يمكن دفعها ، والسمع لا سبيل إلى رده إذا صح .

والنظر الحكم الفاصل بين الخطأ والصواب فيه كسائر الألفاظ المطلقة المشتركة ، وما ذكرنا مما قيل في معنى ما ورد من إطلاق لفظ الضحك هو قريب من هذا المعنى[1] .

---

(١) وقد سبق أن أوضحنا الرأي في تأويل الضحك بالنسبة لله تعالى .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

ويوهم ظاهره التشبيه

ومما يشاكل هذا الباب مما يقتضي التأويل ايضاً الفاظ رويت في اخبار مختلفة عن النبي ﷺأنه قال :

« عجب ربكم من شاب ليست له صبوة »[1] .

وفي خبر آخر « عجب ربكم من إياسكم وقنوطكم »[2] .

وقد قرأ بعض القراء (بل عجبت) بضم التاء .

وروي ايضا عن النبي ﷺ :

« عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل »[3] .

وروي أنه قال ﷺ :

ثلاثة يعجب الله اليهم :

« القوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا اصطفوا لقتال المشركين ، ورجل يقوم إلى الصلاة في جوف الليل »[4] .

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ، وأبو يعلى في مسنده بسند حسن ، وأخرجه تمام في فوائده والقصاعي في مسنده من حديث ابن الصيعة عن عقبة بن عامر رفعه .

(٢) رواه الإمام احمد في مسنده ، وأبو داود في سننه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في صحيحه ، وأبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الامام أحمد في مسنده وأبو يعلى عن أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ « ثلاثة ضحك الله اليهم : الرجل الذي قام من الليل يصلي ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم اذا صفوا للقتال .

وروى أبو هريرة أن رجلا نزل ضيفاً برجل من الأنصار ، فقال لامرأته :

« تعالي حتى انطوى الليل لضيفنا ، فاذا وضعت الطعام بين يديه ، فأطفئي المصباح ، حتى يأكل وحده ، قال ففعلت ذلك ، وغدوت على رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« لقد عجب الله من صنيعكما البارحة »[٢] ، فأنزل الله عز وجل فيهما :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١] .

معنى ذلك أن اصل التعجب إذا استعمل في أحدنا فالمراد أن يدهمه أمر يستعظمه مما لم يعلم ، وذلك مما لا يليق بالله سبحانه .

وإذا قيل في صفة الله تعالى عجب أو يتعجب ، فالمراد به أحد شيئين :

إما أن يكون يراد به أنه مما عظم قدر ذلك وكبر ، لأن المتعجب معظم لما يتعجب منه ، ولكن الله سبحانه ، لما كان عالما بما كان ويكون لم يلق به أحد الوجهين الذي يقتضي استدراك عالم ما لم يكن به عالما فبقي أمر التعظيم له والتكبير في القلوب عند أهله ، إذ يراد بذلك الرضا والقبول ، لأجل أن من أعجبه الشيء ، فقد رضيه وقبله ولا يصح أن يعجب مما يسخطه ويكرهه ، فلما أراد النبي ﷺ، تعظيم أقدار هذه الأفعال في القلوب أخبر عنها باللفظ الذي يقتضي التعظيم حثا على فعلها ، وترغيباً في المبادرة اليها .

وأما قوله تعالى من قراءة من قرأ « بل عجبت » بضم التاء فتأويله على أحد وجهين :

---

(١) سورة الحشر آية ٩

(٢) أخرجه الامام البخاري في صحيحه عن مسدد عن عبد الله بن داود ، وأخرجه الامام مسلم في صحيحه عن أبي كريب عن وكيع ، وكلاهما عن فضيل بن غزوان .

إما أن يراد به أنه جازاهم على عجبهم ، لما أخبر عنهم أنهم تعجبوا من الحق لما جاءهم :

﴿ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[1] .

وهذه طريقة للعرب معروفة في تسمية جزاء الشيء باسمه ، كما قال القائل :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

وكما قال تعالى :

﴿ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[2] .

وكما قال :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[3] .

فسمى الثاني باسمها .

والوجه الثاني أن يراد به النبي ﷺوطريقة ذلك على نحو ما مضى بيانه قبل في أنه يذكر وليه وخصيصه ، ويكون الخبر عن نفسه ، والمراد به هو كما قيل مرضت فلم تعدني ، وكقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[4] .

وكقوله :

---

(١) الآية ٥ سورة « ص » .

(٢) الآية : ١٩٤ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٤٠ من سورة الشورى .

(٤) الآية : ٥٧ من سورة الأحزاب .

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[1] .

والمعنى أنهم اغضبوا أولياءنا ، وقد أنكر منكرون هذه القراءة .

قال سفيان : قرأت عند شريح بل عجبت ، فقال :

إن الله لا يعجب من شيء ، إنما يعجب من لا يعلم .

قال : فذكرت ذلك لإبراهيم فقال :

إن شريحاً شاعر يعجبه علمه ، وعبد الله بن مسعود أعلم منه ، وكان يقرأ « بل عجبت » بضم التاء .

وقال بعض أهل اللغة : إن تقدير معناه :

قل يا محمد بل عجبت أنا من قدرة الله تعالى فأضمر القدرة لدلالة الكلام ، ومثله ما قال الشاعر :

قد أصبحت أم الخيار تدعى ... علي ذنب كله لم أصنع

لما رأيت رأسي كرأس الأقرع ... من الليالي أبطيء وأسرعي

أراد أن يقال لها لا تبطيء وأسرعي ، فأضمر لدلالة الكلام عليه .

---

(١) الآية : ٥٥ من سورة الزخرف .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

ويوهم ظاهره التشبيه

وذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« لا تسبوا الريح فانها من نفس الرحمن »[1] .

وروي لفظ آخر : وهو ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال :

« إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن » .

وروي في خبر آخر أنه قال :

« هذا نفس ربي أجده بين كتفي أتاكم الساعة » .

تأويل ذلك

اعلم أن النفس في كلام العرب يستعمل على معنى النفس ويستعمل ايضاً على معنى التنفيس ، فهو من قولهم : نفس منفوسة ، إذا كان مجوفاً يتنفس ، يخرج منه النفس شيئاً بعد شيء[2] ، وليس المراد بالخبر ذلك ، لاستحالة التنفس على الله عز وجل من قبل أنه ليس بأجزاء متبعضة ، ولا أجسام متغيرة .

وكيف يدعى الجسمية المشبهة ، إن ذلك على معنى التنفس ، وعندهم أن تأويل الصمد المصمد ، الذي ليس بأجوف ، وإنما التنفس يجيء من أجوف ، فاذا لم يكن النفس بمعنى التنفس فهو بمعنى التنفيس ، وذلك معروف من قولهم : نفست عن

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أنظر اللسان والقاموس ، ومختار الصحاح .

فلان أي فرجت عنه ، وكلمت زيداً في التنفيس عن غريمه ، ويقال نفس الله عن فلان كربه ، أي فرج عنه .

وفي الخبر : « من نفس عن مكروب كربة من المؤمنين »[1] ، نفس الله عنه كربة يوم القيامة .

فأما معنى قوله عليه الصلاة والسلام : **« الريح من نفس الرحمن »** فمعناه على هذا الوجه :

أن الريح مما يفرج الله عز وجل بها عن المكروب والمغموم .

وقد روي في الخبر أن الله سبحانه فرج عن نبيه عليه الصلاة والسلام بالريح يوم الأحزاب ، فقال سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوهَا ﴾[2] .

ومن الكلام المتداول في العرف والعادة ، بل تدافع بين أهل اللسان قولهم .

« اعمل وأنت في نفس من أمرك »[3] .

(١) حديث صحيح متفق عليه ولفظه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة .

ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة .

والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً الى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » رواه مسلم .

(٢) الآية ٩ سورة الأحزاب .

(١) أنظر أساس البلاغة للزمخشري ، والقاموس المحيط .

أي وأنت في فسحة قبل الهرم والمرض ، وأشباه ذلك من الحوادث .

والريح مما يفرج بها الكرب ، ومن نفس الريح أنها إذا ذهبت في البلد الحار والهواجر ، أذهبت الوباء وأطالت للمسافر السير ، وإذا هبت في بعض الأوقات ، أنشأت السحاب ، وإذا هبت في بعضها ، ألقحت الأشجار باذن الله عز وجل وذلك قوله عز ذكره :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[1] .

وكانت العرب تقول :

إذا كثرت الرياح كثر الخصب والخير ، وإذا تنسم الريح عليل أو محزون وجد لنسيمها خفة وفرجاً ، مما يجد ، وينشدون في ذلك قول الشاعر :

فان الصبـــا ريح اذا ما تنسمت على نفسي محزون تجلت همومها

وقال بعض العرب :

هجمت على بطن واد بين جبلين فما رأيت واديا اخصب منه ، وإذا وجوه اهله بهيجة وألوانهم مصفرة ، فقلت لهم :

واديكم اخصب واد ، وأنتم لا تشبهون اهل الخصب[2] .

فقال لي شيخ منهم : ليس لنا ريح .

وهذا مما يبين أن الله عز وجل ، جعل في مهب الريح نفساً ، على معنى التنفيس والتفريج عن المكروب والهعوم المشتملة على القلوب وقرن بمهب بعضها الخير

---

(١) الآية : ٢٢ من سورة الحجر .

(٢) أنظر اللسان ومختار الصحاح .

والصلاح للأجساد والأبدان .

فعلى هذا يتأول قوله : « **إن الريح من نفس الرحمن** » .

أي هي مما خلق الله فيها التفريج والتنفيس والترويح والإضافة من طرق الفعل .

والمعنى أن الله عز وجل ، جعلها كذلك ، وقرن التنفيس بها .

وأما قوله : « **إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن** » .

فمعناه : إني لأجد تفريج الله عني وتنفيسه عن كربتي بنصرته إياي من قبل اهل اليمن ، وذلك لما نصره المهاجرون والأنصار : نفس الله عن نبيه عليه الصلاة والسلام ، ما كان فيه من أذى المشركين ، وقتلهم الله على ايدي المهاجرين من اهل اليمن والأنصار ، وكان ﷺ ، كثيراً ما كان يمدح اهل اليمن ،وروي عنه ﷺأنه قال :

«**الإيمان والحكمة يمانية** »[1] .

وأما قوله ﷺ :

« **هذا نفس ربي اجده بين كتفي أتاكم الساعة** » .

فمعناه أن هذا هو الذي فرج الله ربي عني بما يوحيه إلي الساعة ، فصرف به همومي وغمومي ، وكشف عن قلبي وستري عن فؤادي ، وذلك ما كان يجده ﷺ، في مستقبل اوقاته من زوائد روح اليقين ، وفوائد التعريف والألطاف التي يجدد الله له ﷺ، فسمي ذلك نفس الرب ، لأنه هو الذي نفس عنه والإضافة من طريق الملك والتدبير .

---

(١) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وإذا احتمل لفظ النفس والتنفيس والتنفس وكان التنفس من صفات الأجوف ، والأجوف لا يكون إلا اجساماً متلاصقة وأجزاء ملتمة على وجه مخصوص ، وذلك لا يليق بالله سبحانه ، وجب ان يحمل على معنى التنفيس الذي هو التفريج عن الكروب والهموم فاعلمه ان شاء الله .

ذكر خبر آخر يقتضي التأويل

ويوهم ظاهره التشبيه

وذلك ما رواه الجمع الكثير من الأثبات والثقات ، وهو من مشاهير الحديث في هذا الباب ، كالمجتمع على صحته ، عند اهل النقل ، وذلك ماروي عن رسول الله ﷺ ، بألفاظ متغايرة في اخبار متفرقة يؤول جمع ذلك الى معنى واحد ، وهو ما روي عنه ﷺ ، أنه قال :

« **إن الله تعالى ينزل الى السماء الدنيا** » .

وفي بعض الأخبار : « **في كل ليلة** » .

وفي بعضها : « **في ليلة النصف من شعبان** » فيقول :

« **هل من مستغفر فأغفر له ، وهل من سائل فأعطيه** » . الخبر[1] .

ذكر تأويله

اعلم ان أول ما يجب في ذلك قبل شروعنا في تأويله ، هو ان يعلم ان جميع أوصاف الله تعالى ، مما لا يخرج من أحد وجهين :

---

(١) والحديث برواياته المتعددة متفق على صحته وقد أخرجه البخاري ومسلم والامام أحمد في مسنده وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها .

إما أن يكون استحقه لنفسه ، أو لصفة قامت به ، أو لفعل يفعله ، وأنه لا يطلق شيء من الألفاظ في أوصافه وأسمائه المتفرعة عن هذين الأصلين ، الا بعد ورود التوقيف من الكتاب والسنة ، وعن اتفاق الأمة ، ولا مجال للقياس ، وذلك بوجه من الوجوه ، وأدلة هذا الباب ، وشرح وجوهه مما قد ذكر في الكتب وليس هذا موضع ذكرها ، إذا كان الغرض التنبيه على معاني هذه الألفاظ المشكلة التي وردت في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ ، مما يوهم التشبيه ويجحدها اهل البدع لتوهمهم أن ذلك مما لا يمكن ان يحمل على تأويل صحيح ، من غير أن يكون فيه تشبيه أو تحديد أو تكييف ، ووصف للرب عز وجل ، بما لا يليق به .

واعلم انه قلما يرد في هذه الأخبار من امثال هذه الألفاظ ، إلا ونظائرها موجودة في الكتاب .

وهي إذا وردت في الكتاب محمولة عندهم على التأويل الصحيح ، مخرجة على الوجه الذي يليق بصفاته تعالى .

وإذا وردت في الأخبار ، أبطلوها مناقضة منهم لأصولهم كسائر مناقضاتهم في مذاهبهم المبنية على آرائهم الفاسدة ، مما لم يشهد بها كتاب ولا سنة ولا بان فيها اتفاق الأمة ، وذلك لجحدهم سنن رسول الله ﷺ ، واستخفافهم بأهل النقل واستهاناتهم برواياتهم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ، ويظهر مخازيهم ومناقضاتهم .

فما ورد في هذا الباب ، والمعنى من آي الكتاب قوله تعالى :

﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ ﴾[1]

وقوله :

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة النحل .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلملائِكَةُ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[2] .

واعلم أنه لا فرق بين الإتيان والمجيء والنزول إذا اضيف جميع ذلك الى الأجسام التي تتحرك وتنتقل وتحازي مكاناً ، إن جميع ذلك يعقل من ظاهرها .

والمعنى الذي هو الحركة والنقلة ، التي هي تفريغ مكان وشغل مكان .

وإذا اضيف الى ما لا يليق به الانتقال من مكان إلى مكان لإستحالة وصفه كان معنى ما يضاف اليه من الإتيان والمجيء على حسب ما يليق بنعمته وصفته ، إذا ورد به الكتاب ، وكذلك إذا اضيف النزول اليه ، وورد به الخبر الصحيح الموثق بروايته ونقله وصحته ، في باب أنه يحمل على نحو ما حمل عليه معنى المجيء والإتيان إذا ذكرا في أوصافه في الكتاب .

وإذا كان كذلك تأملنا معنى ما ورد في هذا الخبر من لفظ النزول ، ونزلناه على الوجه الذي يليق بوصفه ، وعلى المعنى الذي لا ينكر استعمال مثله في اللسان في مثل معناه ولا أن يرد الخبر بمثله .

فمن ذلك أنا وجدنا لقطة النزول في اللغة مستعملة على معان مختلفة ، ولم تكن هذه اللقطة مما يخص امراً واحداً ، حتى لا يمكن العدول عنه الى غيره بل وجدناه مشترك المعنى ، واحتمل التأويل والتخريج والترتيب .

---

(١) الآية : ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ٢٢ من سورة الفجر .

فمن ذلك : النزول بمعنى الانتقال وذلك في قوله سبحانه .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾[1] على معنى النقلة والتحويل .

ومن ذلك النزول بمعنى الإعلام ، كقوله عز وجل :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾[2] .

أي أعلم به الروح الأمين محمداً ﷺ .

والنزول أيضاً بمعنى القول والعبادة وذلك في قوله عز وجل .

﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[3] .

والنزول ايضا بمعنى الإقبال على الشيء وذلك هو المستعمل في قولهم والجاري في عرفهم ، وهو أنهم يقولون : إن فلانا أخذ بمكارم الأخلاق ثم نزل منها إلى سفافها ، أي أقبل منها الى رديئها .

ومثله في نقصان الدرجة والمرقبة لأنهم يقولون :

نزلت منزلة فلان عن فلان عما كانت عليه إلى ما دونها إذا انحط قدره عنده .

ومن ذلك ايضا النزول بمعنى نزول الحكم ، من ذلك قول الناس قد كنا في عدل وخير ، حتى نزل بنا بنو فلان الى حكمهم ، وكل ذلك في معنى النزول متعارف بين اهل اللغة غير مرفوع عندهم اشتراك معناه .

فأما قوله :

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٨ .

(٢) الآية : ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء .

(٣) الآية : ٩٣ من سورة الأنعام .

﴿ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾[1] .

فمن اهل التأويل من قال : معناه وخلقنا الحديد .

ومنهم من قال : إن الحديد أنزلناه على معنى النقل من علو الى اسفل .

فأما قوله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾[2] فان انزال القرآن ليس هو على معنى النقل والتحويل لإستحالة الانتقال على الكلام ، وإنما هو بمعنى الإعلام والإسماع والإفهام .

وقوله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

يكشف ايضاً على انه ليس كل نزول وإنزال ، نقل وتحويل ، بل ذلك لفظ مشترك المعنى ، قد يكون نقلا وتحويلا ، ويكون على غير هذا الوجه ايضاً ، على المتعارف والمعهود بين اهل اللغة ، وإذا كان اللفظ مشترك المعنى ، وجب الترتيب وإضافة ما يليق في المذكور والمضاف اليه على حسب ما يليق به ، ألا ترى أنه إذا اضيف الى السكينة لم يكن حركة ولا نقلة وإذا اضيف الى الكلام لم يكن ايضا تفريغ مكان وشغل مكان ، وإذا اريد به الحكم وتغير المرتبة فكذلك ، وإذا كان ما وصف به الرب جل ذكره من النزول محمولا على بعض هذه المعاني التي لا تقتضي له ما لا يليق بنعته من إيجاب حدث يحدث في ذاته وتغيير يلحقه أو نقص تمثيلا أو تحديداً ، وهو أن

(١) الآية : ٢٥ من سورة الحديد .

(٢) الآية : ٣ من سورة الدخان .

(٣) الآية : ٤ من سورة الفتح .

يكون على احد وجوه من المعاني .

أما ان يراد به إقباله على اهل الأرض بالرحمة والاستعطاف بالتذكير والتنبيه الذي يلقى في قلوب أهل الخير ، منهم من اسعده بتوفيقه لطاعته حتى يزعجهم الى الجد والانكماش في التوبة والإنابة والإقبال على الطاعة ، ووجدنا الله عز وجل قد خص بالمدح المستغفرين بالأسحار وقال في وصفهم ايضاً :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[2] .

فيحتمل أن يكون ذلك هو المراد به ، وهو الأخبار عما يظهر من الطافه ومعونته وتأييده ولأهل ولايته في مثل هذا الوقت بالزواجر التي يقيمها في نفوسهم والمواعظ التي تنبههم بقوة الترغيب[3] والترهيب .

ويحتمل ان يكون ذلك فعلا يظهره بأمره فيضاف اليه ، كما يقال ضرب الأمير اللص ، ونادى الأمير في البلد اليوم ، وإنما أمر بذلك فيضاف اليه على معنى انه عن أمره ظهر وبأمره حصل ، وإذا كان ذلك محتملا في اللغة لم ينكر ان يكون لله عز وجل ملائكة يأمرهم بالنزول الى السماء الدنيا بهذا النداء والدعاء ، فيضاف ذلك الى الله عز وجل ، على الوجه الذي يقال ضرب الأمير اللص ، ونادى في البلاد .

وقد روى لنا بعض اهل النقل هذا الخبر عن النبي ﷺ ، بما يؤيد هذا الباب ،

---

(١) الآية : ١٧ ، ١٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآية : ١٧ من سورة آل عمران .

(٣) الترغيب في عمل الخير وثواب الجنة ، والترهيب من عمل الشر لأن الشر جزاؤه جهنم .

وهو بضم الياء « من ينزل » وذكر أنه قد ضبطه عمن سمعه عنه من الثقات الضابطين ، وإذا كان ذلك محفوظاً مضبوطاً كما قال فوجهه ظاهر ، ولما ذكرناه مما يحتمله من التأويل مؤيد شاهد .

ويحتمل ايضاً ان يكون على معنى أنهم يقولون .

ما زلنا في خير حتى نزل بنا بنو فلان على معنى نزول حكمهم وأمرهم ، فيكون تقدير التأويل ما قلنا فيه من الأخبار عما يفعله الله تعالى في كل ليلة من أفعاله التي هي ترغيب لأهل الخير في الخير ، وزيادة في الدواعي الى الطاعة ، والإستعطاف لأهل العطف ، مع إنه إذا لم يحل ما اطلق عليه من هذا الوصف من أن يكون مما يلزم الذات لأجل فعل ، أو يكون مما يجب لأجل إفعال ، وبطل أن يكون ذلك مما يلزم الذات ، وجب أن يكون ذلك مما يوصف به من اجل فعل يفعله .

وقد روي لنا عن الأوزاعي رحمه الله ، انه سئل عن هذا الخبر فقال :

يفعل ما يشاء .

وهذا إشارة منه الى ان ذلك فعل يظهر منه عز ذكره .

وروي عن مالك بن انس انه قال في هذا الخبـر .

ينزل امره في كل شيء ، وأما هو جل ذكره فهو دائم لا يزول ، ولسنا ننكر تسمية الله تعالى بأسماء افعاله إذا ورد بها التوقيف بها كسائر ما يسمى لأجل الفعل مثل قوله :

﴿ وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ ﴾[1] .

وقوله :

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الذاريات .

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾[2] .

وقد ورد الخبر الصحيح الذي لا يمكن دفعه وكان حجة في إطلاق التسمية والنظر شاهدة تميز بين المعنيين يقتضي نفي ما لا يليق به فوجب حمله عليها على ما يصح في وصفه من بعض الوجوه التي ذكرناها[3] .

---

(١) الآية : ١٤ من سورة الشمس .

(٢) الآية : ١٣٧ من سورة الاعراف .

(٣) ويجمل صاحب الفيض القدير القول في هذه المسألة فيقول :

« ينزل أمره ، أو رحمته على ما تقرر ، قال القاضي :

لما ثبت بالقواطع العقلية أنه تعالى منزه عن الجسمية ، والتحيز ، والحلول امتنع عليه النزول ، على معنى الانتقال من موضع أعلا إلى أخفض منه ، بل المعنى به على ما ذكره أهل الحق دنو رحمته ، ومزيد لطفه على العباد ، وأجابة دعوتهم ، وقبول معذرتهم كما هو دين الملوك والسادة الرحماء إذا نزلوا بقرب قوم محتاجين ملهوفين مستضعفين » .

فقوله (الى سماء الدنيا) اي ينتقل من مقتضى صفات الجلال المقتضية للانفة من الأرذال وعدم المبالاة وقهر العداوة والانتقام من العصاة الى مقتضى صفات الاكرام المقتضية للرحمة والرأفة وقبول المعذرة ، والتلطف بالمحتاج واستعراض الحوائج والمساهلة والتخفيف في الأوامر والنواهي والأغضاء عما يبدو من المعاصي » اهـ .

فصل آخر في ذلك

فان قال قائل : فاذا حملتم ما روي من النزول في الخبر على ما ذكرتم فعلام تحملون .

قوله : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ .

وقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلاَئِكَةُ ﴾ . قيل هذا تأويل أهل العلم ، هذه الآي في وجوه كثيرة ، فمن ذلك أنهم تأولوا قوله عز وجل : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ ﴾ .

أن معناه الاستئصال في الهلاك والدمار ، بارسال العذاب ، كما يقول الناس : أي السلطان بلد كذا فقلبه ظهراً لبطن ، أي استأصله ، وليس يريدون حضوره البلد بنفسه ، ولا شهوده ، بل يريدون الهلاك والتدمير .

وقال بعضهم : إنما أراد بذلك ظهور فعل من جهته في البنيان سماه إتياناً ، ولله أن يسمي أفعاله بما شاء ، وأن يصف نفسه من ذلك بما أراد[1] .

---

(١) ويقول صاحب تفسير مفاتيح الغيب :

« إن الاتيان والحركة على الله محال ، فالمراد : أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والأساس .

وفي قوله : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ قولان :

الاول : أن هذا محض التمثيل ، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى ، فجعل الله تعالى حالهم في تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فانهدم ذلك البناء وضعفت

وأما قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفاً صَفّاً ﴾ ، فمنهم من قال :

إن معناه ، جاء ربك بالملك صفاً ، وزعم أن الواو هنا بمعنى الباء .

ومنهم من قال : جاء ربك والملك أمر ربك وحكمه ، يريد أمر القيامة وما يختص به ذلك الوقت ، من أمره المخصوص ، وحكمه الذي لا يقع الشركة فيه بالدعاء والنداء .

وقد بينا فيما قبل أنه لا تدافع بين أهل اللغة في قولهم : ضرب الأمير اللص ، ونادى الأمير في البلد بكذا ، وإنما يراد بذلك أن ذلك الفعل وقع بأمره وعن حكمه ، فيضاف الفعل إليه باللفظ الذي يضاف إلى من فعله وتولاه ، ونظير ذلك قوله عز وجل في قصة قوم لوط :

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ وكان الطمس للأعين من الملائكة بأمر الله عز وجل .

وإذا كان مثله متعارف في اللغة ، وإنما ورد الخطاب في القرآن على المتعارف في اللغة ، والمعهود فيما بين أهلها لم ينكر أن يحمل على ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[٢] .

تلك الأساطين فسقط السقف عليهم ، ونظيره قولهم :

« من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه » .

والقول الثاني : أن المراد منه ما دل عليه الظاهر ، وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته ، والاول أقرب الى المعنى » اهـ .

وأما قوله سبحانه :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلاَئِكَةُ ﴾ .

فقد قال بعض أهل التفسير .

إن معناه ، هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بالعذاب في ظلل من الغمام ، وهذا سائغ في اللغة ، أن يعبر عن الشيء بفعله إذا وقع عن أمره وتدبيره ، كقولهم : أتى الأمير بلد فلان . إذا وصل إليه جيشه ، ودخل السلطان بلد كذا إذا نفذ فيه أمره وحكمه[1] .

وقال بعضهم إن قوله :

﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ يراد به بظلل[2] من الغمام ، وأن في بمعنى الباء ، وقد روي ذلك في التفسير عن ابن عباس[3] .

---

(١) وقد سبق أن بينا المراد من الاتيان في حق الله سبحانه وتعالى وهو على معنى أنه يأتيهم بالعذاب أو بالعقوبة أو أمره الخ فارجع اليه إن أردت .

(٢) فالفاء في قوله في ظلل بمعنى الباء ، ومعنى الظلل : طاقات من الغمام والملائكة حوله .

(٣) انظر تفسير الطبري ، وتفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي . ثم يعلق أبو جعفر الطبري على ذلك فيقول :

« اختلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى ذكره في قوله :﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ ﴾ .

فقال بعضهم :

لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجيء والاتيان والنزول ، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جل جلاله ، أو من رسول مرسل :

فاما القول في صفات الله وأسمائه ، فغير جائز لأحد من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا .

وقال آخرون :

إتيانه عز وجل نظير ما يعرف من مجيء الجائي من موضع الى موضع ، وانتقاله من مكان الى مكان .

وقال آخرون : معنى قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ ﴾ يعني به ، هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر

وقال بعض أهل العلم في الاستشهاد بإبدال الباء من في أن أعرابياً كان يقرأ :

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾ فصير الباء في مكان في ، لما كان عنده أن ذلك سواء ، مما يبدل أحدهما صاحبه من غير اختلاف المعنى .

ويحكى أيضاً أنه سمع من بعض الأعراب وهو يقول لصاحبه :

ارفع بالسماء ، يريد ارفع في السماء .

وقال بعضهم من أهل التأويل في قوله تعالى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾[1] . أن معناه عن عذاب واقع ، وحروف الصفات تدخل بعضها في بعض ، ويبدل بعضها من بعض ، إذا تقاربت معانيها ولم تختلف .

وروى ابن أبي نجيح عند مجاهد في قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ .

قال يأتيهم بوعده ووعيده ، وأن الله عز وجل يكشف لهم يوم القيامة عن أمور كانت مستورة عنهم[2] .

الله ، كما يقال : قد خشينا أن يأتينا بنو أمية ، يراد به حكمهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : هل ينظرون إلا أن يأتيهم ثوابه وحسابه وعذابه ، كما قال عز وجل ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ سورة سبأ آية ٣٣ ، وكما يقال قطع الوالي اللص أو ضربه ، وإنما قطعه أعوانه » اهـ .

(١) سورة المعارج آية ١ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٤٩ ثم زاد فيه وقال : هو غير السحاب ، ولم يكن قط الا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا » .

وقد روي مثل قول ابن عباس عن الحسن .

واعلــم أنــه إذا كان ما حملنــاه عليه تأويل الخبــر والآية منقــولا عن الصحابة والتابعين ، كان ذلك مما يؤيد ما قلناه ، ويؤنس المستعلم التأويل ما ذكرنا .

ويكشف للناظر أن الألفاظ الواردة في الأخبار كتأويل الألفاظ الواردة في القرآن ، وأن طريق التخريج فيها واحد ، إذا وجب أن يحمل ما ورد في الكتاب من ألفاظ المجيء والإتيان على غير معنى النزول والانتقال الذي هو صفة الجسم المحدود ، والمتحرك المتنقل المتمكن في مكان بعد مكان .

بل هو على معنى ما ورد به الكتاب من الإتيان والمجيء .

ولا فرق بين أن يرد ذلك من طريق صحيح من جهة الأثر والسنة ، وبين أن يرد ذلك في الكتاب في باب ما يحمل عليه من التأويل على الوجه الذي يليق بالله تعالى ، فعلى هذا ترتيب الباب فآعلم .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه

روي عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله ﷺبأربع فقال :

« إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، بيده الميزان ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه » [1] .

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه ، وابن ماجه في سننه .

ومعنى الحديث :

أنه يستحيل على الله تعالى النوم : لأن النوم أنغمار وغلبة على العقل ، يسقط به الاحساس ، لاستراحة القوى والحواس ، وهو منزه عنه ، ومن كان بريئا من ذلك لا يشغله شأن عن شأن .

يقول الأشرفي :

لما كانت الكلمة الاولى ـ إن الله تعالى لا ينام ـ تدل بظاهرها على عدم صدور النوم منه سبحانه أكدها بالثانية ـ لا ينبغي له أن ينام ـ الدالة على نفي جواز صدوره عنه ، إذ لا يلزم من عدم الصدور عدم جواز الصدور وذلك لأنه تعالى لو نام لم تستمسك السماء والأرض » .

هكذا علله به في حديث رواه الموصلي عن أبي هريرة مرفوعاً :

وقع في نفس موسى عليه الصلاة والسلام ، هل ينام الله عز وجل ؟

فأرسل الله اليه ملكا أعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يستحفظ بهما ، فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى ، حتى نام نومة فاصطكت يداه فانكسرت القارورتان ، فضرب الله مثله :

إن الله عز وجل لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » اهـ .

ومعنى : « يخفض القسط ويرفعه » :

(وفي بعض الأخبار : لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ، كل شيء أدركه بصره)[1] .

تأويل ذلك

اعلم أن كل ما ذكر فيه الحجاب من أمثال هذا الخبر فانما يرجع معناه إلى الخلق ، لأنهم هم المحجوبون عنه بحجاب يخلقه فيهم ، لا يجوز أن يكون الله عز وجل محتجباً ، ولا محجوباً لإستحالة كونه جوهراً ، أو جسماً محدوداً ، لأن ما يستره الحجاب أكبر منه ، ويكون متناهياً محاذياً جائزاً عليه المماسة والمفارقة ، وما كان

ينقص الرزق باعتبار ما كان يمنحه قبل ذلك ، ويزيد بالنظر اليه بمقتضى قدره الذي هو تفصيل لقضائه الاول ، فمحصوله . يقلل لمن يشاء ويكثر لمن يشاء بالقسط . أو أراد بالقسط العدل الذي يرفعه بعدله الطائع ، ويخفض العاصي وهو إشارة الى آثار القدرة الكاملة التي لا يقاس عليها غيرها فهو إخبار بأن بيده تصاريف الأمور وتكوينها على ما يشاء ، وأي زمن شاء .

وأشار بنوعي الرفع والخفض الى أن قدرته لا تتعلق بشيء واحد ، بل يظهر عنها المتضادات والمختلفات والمتماثلات .

وقال التوربشتي :

فسر بعضهم القسط بالرزق ، أي يقتره ويوسعه ، عبر به عنه ، لأنه قسط كل مخلوق .

وبعضهم : بالميزان ، ويسمى قسطا لما يقع به من المعدلة في القسمة ، وهو أولى ، لخبر : يرفع الميزان ويخفضه .

ويحتمل أن المراد من رفع الميزان ما يوزن من أرزاق العباد النازلة من عنده ، وأعمالهم المرتفعة اليه .

ويحتمل أنه إشارة الى أنه تعالى كل يوم هو في شأن ، وأنه يحكم في خلقه بميزان العدل وبين المعنى بما شوهد وزن الوزان فيخفض يده ويرفعها .

وهذا يناسب قوله : « ولا ينبغي له أن ينام » ، أي كيف يجوز عليه ذلك وهو الذي يتصرف أبداً في ملكه بميزان العدل .

(١) في الاصل المخطوط لا يوجد ما بين القوسين » وعدم ذكره أولى ، والذي يدل على عدم ذكره أن صاحب كتاب : فيض القدير يقول :

« لو كشفه » بتذكير الضمير ، أي النور ، هذه هي الرواية ، وفي بعض النسخ كشفها وهو تحريف النساخ » اهـ .

كذلك كانت علامات الحدث[1] فيه قائمة ، وذلك أن الموحدين إنما توصلوا إلى العلم بحدث[2] الأجسام ، من حيث وجدوها متناهية محدودة ، محلا للحوادث ، فكان تعاقبها عليها دليلا على حدثها ، ولن يجوز أن تقوم دلالة الحدث على القديم الذي لم يزل موجوداً ، وإذا كان هذا الأصل صحيحاً بما كشفنا عنه ، وجب أن يحمل ذلك على النوع الذي بيناه وقررناه . ويشهد لذلك ويؤيده قوله عز وجل :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3] .

فجعل الكفار محجوبين عن رؤيته بما خلق فيهم من الحجاب والمنع منها ، ولم يصف نفسه بالاحتجاب ، ولا بأنه هو المحجوب .

وأعلم أن أصل معنى الاحتجاب ، والحجاب في اللغة هو المنع[4] ولذلك يقال لمن يمنع عن الأمير من قد دخل إليه إلا بإذنه ، حاجب ، ولذلك قيل للحاجبين اللذين يمنعان عن العينين ، لإحاطتها بهما .

وإذا قلنا : أن الكافر محجوب عن ربه[5] : فالمعنى فيه : أنه ممنوع عن رؤيته ، والمنع من الرؤية معنى يضاد الرؤية ، إذا وجد امتنعت الرؤية لوجوده .

والذي يحقق ويؤيد ما عليه تأويلنا ، ما روي عن علي رضي الله عنه ، وروى عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى :

---

(١) أي علامة الحدوث التي تدل عليه أنه حادث لا قديم .

(٢) وفي نسخة : « بحدوث الأجسام » .

(٣) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٤) انظر أساس البلاغة للزمخشري ، واللسان ، والقاموس المحيط .

(٥) بنص الآية : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .

عن علي : أنه مر بقصاب وهو يقول : « لا والذي احتجب بسبعة أطباق » .

فقال له علي رضي الله عنه .

ويحك يا قصاب ، « إن الله لا يحتجب عن خلقه » .

وفي بعض هذه الأخبار أن عليا علاه بالدرة فقال :

« يا لكع إن الله لا يحتجب عن خلقه بشيء ولكن حجب خلقه عنه »[1] .

وفي بعض هذه الأخبار أنه قال القصاب لعلي :

(أو لا أكفر عن يميني يا أمير المؤمنين ؟) .

فقال : (لا لأنك حلفت بغير الله)[2] .

وروى عن عاصم عن عطاء عن أبي البختري مثله عن علي فأما قوله عليه الصلاة والسلام :

« لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه » .

فقد تأول أهل العلم ذلك منهم أبو عبيد ، ذكر أن معنى لو كشفها فقال :

أي لو كشف رحمته عن النار لأحرقت سبحات وجهه ، أي لأحرقت وجه المحجوب عنه بالنار[3] .

---

(١) نعم : فإن حجبهم به عنه فهو القادر والقاهر وما دونه عاجز ومقهور ، فهو الذي يحجب ويمنع، ولا يحجب ولا يمنع وهو على كل شيء قدير .

(٢) ولعل الامام علي رضي الله عنه يستمسك بقوله ﷺ:
« من كان منكم حالفا ، فليحلف بالله أو ليذر » .

(٣) أنظر ما قاله في هذه المسألة فيض القدير جـ ٢ .

والهاء عائدة في سبحات وجهه ، إلى المحجوب ، لا إلى الله عز وجل ، لأن هذا الوصف لا يليق به سبحانه ، لما ذكرنا أنه يستحيل أن يكون محجوباً أو محتجباً

وقال بعضهم : معنى قوله : « حجابه النار » أي جعل خلقه محجوباً بهذا.

وروي في بعض الأخبار أن حجابه النور ، وليس بتفاوت معنى النار والنور[1] ، ومعنى الإضافة في الحجاب إليه من طريق الجعل والخلق ، وهو أن جعل الخلق محجوبا به ، لأنه يحتجب به .

فان قالوا : فعلى ماذا تحملون ما روي عن ابن عمر أنه قال :

احتجب الله من خلقه بأربع : بنار ، وظلمة ، ونور ، وظلمة ؟ .

قيل قد ذكر بعض أهل العلم في ذلك تأويل ، أن معناه أن الله عرفنا نفسه بآياته ودلائله ، فقال له آيات لو ظهرت للخلق كانت معرفتهم به كمعرفة العيان ، كما ذكر في قوله سبحانـــه :

﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[2] .

وقال محمد بن شجاع الثلجي :

معنى قوله احتجب بالنار أي خلقها دون تلك الدلالات التي تبهر العقول ، وتدل على معرفته ، حتى تصير كمعرفة العيان .

وهذا الخبر إذا حمل تأويله على ما ذكر الثلجي كان معنى الاحتجاب عن الخلق ، أنه جعل دلالة فوق دلالة ، ودلالة أظهر من دلالة ، ويرجع في التحقيق إلى

---

(١) إذ أن النور قد يكون من النار ، إذا كان محسوسا .

(٢) الآية ٤ من سورة الشعراء .

ما قلنا أنه يحجب الخلق بما يخلقه فيهم من موانع المعرفة والربوبية ، لا أنه يحتجب احتجاب استتار كالإستتار بالأجسام الحاوية لما يحيط بها ويكتنفها .

واعلم أن الأجسام ليست تحجب على الحقيقة في المحدثات أيضا ، لأنها في الحقيقة غير مانعة رؤ ية المحجوب المستور المغطى ، ولا مانعة للمعرفة على الأصل الصحيح من مذاهبنا .

وذلك أن المانع من معرفة الشيء ورؤ يته ومعاينة ما يمنع من وجود معرفته ومعاينته : وما يمنع من ذلك ، فهو الذي يضاد وجوده ، وذلك لا يصح إلا في العرضين المتضادين المتعاقبين ، ولا يصح أن يكون الجسم منعا ولا مانعا من عرض أصلا لأجل أنه لا يصح أن يكون بين العرض والجسم تناف وتضاد على وجه من الوجوه .

فبان بهذا أن الذي يحجب عن المعاينة والمعرفة في القديم والمحدث هو المنع الذي هو بمعنى موجود تعاقب العلم والرؤ ية لمن هو ممنوع به ، فعلى ذلك لا يصح أن يكون المحدث ولا القديم محجوبا بالشيء من سائر الأجسام المغطية والمكتنفة المحيطة .

وإنما يقال لهذه الأجسام الساترة أنها حجاب عن رؤ ية المحجوب ، لما وراءه ، من أجل أن المنع من الرؤ ية يحدث عنده ، فسمى باسم ما يحدث عنده ولذلك عطلت المعتزلة في قولهم :

إن الباريء سبحانه لا يرى لأجل أنه لو كان مرئياً لرأيناه الساعة لإرتفاع الحجاب والبعد واللطافة والرقة ، وذلك أن ما قالوا أنه حجاب ومنع فليس بحجاب ولا منع على الحقيقة وإنما يطلق عليه مجازاً لأجل أن المنع يحدث عنده .

فعلى ذلك ترتيب تأويل هذه الأخبار الواردة بلفظ الحجاب ، ويحقق أن الله عز وجل ، لا يصح أن يكون محجوبا ولا محجوباً على الحقيقة ، وإنما هو مانع خالق للحجاب ، فيضاف الحجاب إليه ، على معنى أنه جعله حجابا لمن حجبه به من طريق الفعل ، لا من طريق الاستتار والاحتواء عليه .

ذكر خبر آخر
مما يقتضي التأويل

وهو ما رواه الجم الغفير ، والجمع الكثير ، عن النبي ﷺ، بألفاظ مفترقة ، ومعان متفقة ، في مواطن مختلفة ، وهو أن قال :

« ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضادون في رؤيته »[1] .

وفي بعضها « لا تضامون من رؤ يته » بتشديد الميم من تضامون الذي هو بمعنى المضامة .

وقد روي ايضاً مخففاً على معنى نفي الضيم عنهم ، والذي يجب أن يوقف عليه من هذا الخبر ، معنى المضارة والمضامة المنفية عن الرائين له .

ووجه تشبيه رؤ يته برؤ ية القمر ليلة البدر : أن ذلك لا يرجع الى الرائي ، بل يرجع الى الرؤ ية .

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده والبخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن عن جرير ولفظه :

« إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤ يته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا »

وروي في خبر آخر لفظ اشكل من هذا ، وهو أنه :

روي « **أن الله تعالى يبرز كل جمعة لأهل الجنة** » .

وروى « على كثيب من كافور فيكونون في القرب على قدر تكبيرهم[1] الى الجمعة ألا فسارعوا في الخيرات » .

تأويله

أعلم ان قوله : « **ترون ربكم كما ترون القمر** » لم يقصد به إلا تحقيق رؤية العيان لا تشبيه المرىء بالمرىء ، بل تحصيل ذلك تشبيه الرؤية بالرؤية ، حتى كأنه قال :

« **رؤيتكم الله تعالى يوم القيامة كرؤيتكم القمر ليلة البدر** » .

أي كما أنكم لا تشكون ليلة البدر في رؤ ية القمر، أنه هو البدر ، ولا يتخالجكم

(١) أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ، والبيهقي ، والترمذي ، والنسائي من طريق مالك ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **من راح الى الجمعة في الساعة الاولى فكانما قرب** بدنة ، **ومن راح في الساعة الثانية فكانما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكانما قرب كبشا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة ، فكانما أهدى دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكانما أهدى بيضة ، فإذا خرج الامام طويت الصحف ، ورفعت الأقلام ، واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر ، فمن جاء بعد ذلك فإنما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شيء** » اهـ .

ثم يعلق الامام الغزالي على هذا الحديث فيقول :

والساعة الاولى الى طلوع الشمس ، والثانية الى إرتفاعها ، والثالثة إنبساطها حين ترمض الاقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الاعلى الى الزوال ، وفضلها قليل ، ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه .

ويقول صاحب القوت :

(لا فضل لمن صلى الجماعة بعد الساعة الخامسة ، لأن الامام يخرج من آخرها فلا يبقى إلا فريضة الجمعة) اهـ .

فيه ريب وظن ، كذلك ترون الله جل ذكره ، يوم القيامة معاينة يحصل معها اليقين ، بأن ما ترونه هو المعبود الإله الذي ليس كمثله شيء ، وحقق ذلك قوله : « **لا تضامون في رؤيته** » [١] .

فأما معنى قوله ﷺ ، « **لا تضامون في رؤيته** » ، أي لا ينضم بعضكم الى بعض كما تنضمون في رؤ ية الهلال رأس الشهر بل ترونه جهرة من غير تكلف لطلب رؤ يته كما ترون البدر ، وهو القمر ليلة الرابع عشر ، إذا عاينه المعاين جهرة ، لم يحتج الى تكلف في طلب رؤ يته ومعاينته »[٢] .

وكذلك قوله ﷺ « **لا تضارون** » أي لا يلحقكم الضرر في رؤ يته بتكلف طلب ، كما يلحق المشقة والتعب في طلب رؤ ية ما يخفي ويدق ويغمض ، وكل ذلك المعاينة ، وأنها صفة تزيد على العلم .

وكذلك من روى تضامون مخففا ، فانما مراده الضيم ، أي لا يلحقكم فيه ضيم[٣] ، والضيم والضرر واحد في المعنى .

---

(١) يقول صاحب فيض القدير :

« إنكم سترون ربكم » يوم القيامة رؤ ية محققة ، لا تشكون فيها ولا تجهدون في تحصيلها ، فمعنى التشبيه أن ذلك محقق بلا مشقة ولا خفاء ، فهو تشبيه للرؤ ية برؤ ية القمر ليلة تمامه في الوضوح لا للمرئي بالمرئي » اهـ .

(٢) ويقول المناوي في فيض القدير :

« لا تضامون » بضم الفوقية وتخفيف الميم ، أي لا ينالكم ضيم ، أي ظلم في رؤ يته فيراه بعضكم دون بعض وبالفتح والشد من الضم ، وأصله تتضامون فيضم بعضكم الى بعض ، وتزدحمون حال النظر لخفائه • أولا تجتمعون لرؤ يته في جهة ، ولا ينضم بعضكم لأجل ذلك كما يفعل في رؤ ية شيء خفي » اهـ .

(٣) أنظر اللسان والقاموس والمعجم الوسيط .

وقد تأولت المعتزلة ذلك على معنى رؤ ية العلم ، وأن المؤمنين يعرفون الله يوم القيامة ضرورة ، وهذا خطأ ، من قبل ان الرؤ ية اذا كانت بمعنى العلم تعدت الى مفعولين ، وذلك كما قال القائل « رأيت زيداً فقيها » اي ، علمته كذلك .

فاذا رأيت زيداً منطلقاً ، فلا يفهم منه إلا رؤ ية البصر ، وقد حقق ذلك ايضا بما اكده به من تشبيهه برؤ ية القمر ليلة البدر ، وتلك رؤ ية البصر ، لا رؤ ية علم .

وعلى ان النبي ﷺ، إنما يبشر المؤمنين من اصحابه بذلك ، وذلك يوجب ان يكون معنى يختصون به .

وأما العلم به فمشترك بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، وذلك يبطل معنى بشارته للمؤمنين بالرؤ ية ، وذلك ان تلك الرؤ ية رؤ ية عيان .

وقد روى الأثبات منهم : خنيس ، عن جابر ، أن النبي ﷺقال : « **ترون ربكم يوم القيامة عياناً** »[1] وهذا يرفع الإشكال ويمنع الإحتمال .

لأن الرؤ ية وإن كانت تستعمل في معنى العلم ، فإنها اذا قرنت بلفظ العيان لم يحتمل العلم وذلك كقول القائل : رأيت زيداً معاينة وعياناً لا يحتمل معنى العلم .

كما أنه إذا قال : رأيت زيداً بقلبي لم يحتمل رؤ ية البصر .

فأما ماروي في الخبر الآخر « أن الله جل ذكره ينزل كل يوم جمعة لأهل الجنة على كثيب من كافور ، فيكونون في القرب على قدر تبكيرهم إلى الجمعة ألا فسارعوا إلى الخيرات فقال محمد بن شجاع :

إن هذا الخبر مما تفرد بروايته المنهال بن عمرو وهو ضعيف جداً ، مع أنه إن

(١) وهذا يؤ يد ما ذكره صاحب فيض القدير ، والذي رويناه عنه من قبل نقلا عنه .

صح وقيل : فإنه يحتمل أن يكون معناه أن اهل الجنة يرونه على مقادير أوقات الدنيا بحسب اعمالهم الحسنة ومسارعتهم فيها ، وكل ما قيل في ذلك ، من معنى ايام الدنيا وأوقاتها فيها كقوله « **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** » فذلك على تقدير أيام الدنيا وأوقاتها ، لا أن هنالك غدوة وعشيا ، أو جمعة أو سبتا .

فأما بروزه لأهل الجنة ، فذلك تجليه لهم ، وهو أن يخلق لهم رؤ ية له تعالى فهم على كثيب كافور .

فأما معنى قربه منهم ، فذلك راجع الى الكرامات والمنزلة ، لا إلى المكان والمسافة ، وذلك متعالم مشهور بين الناس ، أنهم يقولون : فلان قريب من فلان ، وإنما يريدون قرب المنزلة ، لا قرب المسافة[1] ، وعليه يتأول قوله :

« **من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً** »[2] .

أي تقرب بالطاعة ضعفت له الثواب وزدته كرامة .

وكذلك يقولون للفاسق في فسقه ، أنه متباعد عن الله يريدون بذلك التباعد من طاعته وعبادته ، وعلى هذا المعنى يقال :

إن الكافر بعيد عن الله ، والمؤمن قريب من الله ، والله قريب من المؤمنين ، بعيد عن الكافرين .

ومعنى ذلك قرب رحمته ، وكرامته ، ولطفه ، وفضله ، من المؤمنين ، وبُعد جميع ذلك من الكافر[3] .

---

(١) ذلك أنه سبحانه وتعالى لا يحده حد ، ولا يقيده زمان .

(٢) كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الامام البخاري في صحيحه .

(٣) وفي نسخة أخرى . من الكافرين .

فأما قرب المكان فلا يليق بوصف الله تعالى ، وعلى ذلك يتأول جميع ما في القرآن مثل قوله تعالى :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[4] .

إن جميع ذلك لا يخلو أن يكون قرباً بالطاعة من العبد ، أو قرباً بالكرامة ، وإظهار الرحمة من الله تعالى .

فعلى ذلك جميع ما يوصف به الله عز ذكره من قربه من الخلق ، ويوصف به العبد من قربه من الله ، وكذلك القول في البعد .

---

(١) الآية : ١٦ من سورة ق .

(٢) الآية : ٨٥ من سورة الواقعة .

(٣) الآية : ٩ من سورة النجم .

(٤) الآية : ١٩ من سورة العلق .

ذكر خبر آخر
مما يقتضي التأويل

وهو ما روي عن النبي ﷺأنه قال :

« **ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه يوم القيامة ويكلمه ، وليس بينه وبينه ترجمان ، فيقول : ما عملت فيما علمت** » [1] .

ذكر تأويله

إعلم أن معنى قوله « **سيخلو به ربه** » محمول على ما جرى به العرف في كلام العرب ، من قولهم : خلا فلان بعمله ، وخلا فلان بنفسه ، ومعنى ذلك إنفراده وتفرده ، لما تفرد به ويتفرد له ، فعلى ذلك يكون معنى الخبر .

أنه يكلمه بكلام لا يسمعه غيره ، بل يخص المكلم بالإسماع ، لما يكلمه به ، فيكون خالياً به على هذا الوجه حين يظن من يكلمه ويحاسبه ، أنه ليس بمكلم لأحد سواه ، ولا محاسب لغيره .

وإنما حملناه على ذلك لإستحالة وصفه عز وجل بالقرب الذي هو قرب[2] المسافة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما ولكن بلفظ :

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ:

« ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

(٢) ذلك أن المسافة والمساحة يترتب عليهما أن يكون سبحانه وتعالى محدوداً في مكان أو متناهياً في حده وهذا مستحيل في حقه سبحانه وتعالى .

والمساحة ، وذلك لإستحالة كونه محدوداً متناهياً ، لإستحالة كونه محدوداً ، وقد ذكرنا قبل مثل هذا المعنى ، في حديث النجوى ، وقد روي مفسراً .

قال ابن عمر رضي الله عنهما : سمعت رسول الله ﷺ، يقول في النجوى :

« **أما المؤمن فيدنى من ربه يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه ، فيقرره بذنوبه** » وقد بينا فيما قبل أن ذلك أدناه من طريق الكرامة ، وأن كنفه ستره وكرمه وعفوه ورحمته[1] .

كذلك معنى خلوه بالعبد يوم القيامة ، إنما هو تعريفه أعمال السالفة ، واعلامه ومواقع الجزاء من أعماله الخير والشر بالثواب والعقاب ، ذلك نظير قوله جل ذكره :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[2] .

وكقوله :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾[3] .

لأن ذلك يرجع إلى تأويل العلم به ، والقدرة عليه ، والسمع لكلامه ، والرؤية لذاته وصفاته ، تعريفاً لهم أنه هو الذي لا يخفى عليه شيء من أمور الخلق .

كذلك قوله ﷺ :

« **سيخلو الله تعالى يوم القيامة** » أي يفرده بالتعريف يوم القيامة ، حتى لا يسمع غيره ما سمعه ، ولا يعرف أحد سواه ما يعرفه رحمة بالمؤمنين من عباده ، وستراً

---

(١) وقد سبق أن استفضنا في توضيح ذلك كله .

(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

عليهم بإظهار عفوه وكرمه .

وقد قيل إنه يحاسب المؤمن عتاباً ، ويحاسب الكافر عقاباً ، ولما كان الله عز وجل هو القادر على إسماع كل واحد من المحاسبين ما يريد أن يسمعه كلامه بحيث لا يسمع غيره مثله في تلك الحال لم ينكر أن يكون ما روى أنه يخلو به حتى يظن أحدهم أنه ليس يكلم أحداً سواه .

ومعنى تكليم الله عز وجل خلقه ، إفهامه إياهم كلامه على ما يريد ، أما بإسماع عبارة تدل على مراده ، أو بابتداء فهم يخلقه في قلبه يفهم به ما يريد أن يفهمه به ، وكل ذلك سائغ جائز ، وهو معنى ما يكلم الله تعالى به العبد عند المحاسبة ، فاذا أفرده به إسماعاً وإفهاماً ما كان ذلك خلواً به[1] .

---

(١) ويعلق صاحب محاسن التأويل على هذا عند شرحه لقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ سورة النساء آية ١٦٤ فيقول :

« يعني خاطبه مخاطبة من دون واسطة ، لأن تأكيد « كلم » بالمصدر يدل على تحقيق الكلام ، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك ، لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر ، فلا يقال : أراد الحائط يسقط إرادة ، وهذا رد على من يقول : إن الله خلف كلاماً في محل ، فسمع موسى ذلك الكلام .

العرب تسمي كل ما يوصل الى الانسان كلاما ، باي طريق وصل ، لكن لا نحققه بالمصدر ، وإذا تحقق بالمصدر لم يكن الا حقيقة الكلام .

فدل قوله تعالى : « تكليما » على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة ، قال بعضهم : كما أن الله تعالى خص موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ، ولم يكن ذلك قادحا في نبوة غيره من الانبياء ، فكذلك أنزل التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحا في نبوة من أنزل عليه كتابه منجما من الانبياء » اهـ .

ذكر خبر آخر
يقتضي التأويل

وهو ما روى سعيد المقبري عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ :

« إن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ، ونفخ فيه من روحه ، عطس آدم فأذن الله له ، فشكر الله تعالى .

فقال له ربه : رحمك الله ، فسبقت له من ربه رحمته .

وقال له يا آدم : إذهب الى الملأ من الملائكة ، فقل لهم : السلام عليكم ، فقال لهم .

فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع الى ربه ، فقال له هذه تحيتك ، وتحية ذريتك بينهم » .

تأويل ذلك

اعلم ان معنى قوله : « ونفخ فيه من روحه » .

ومعنى قوله

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1] ومعنى جميع ذلك إضافة اليه من طريق الملك والفعل ، وقد بينا ان افعاله عز وجل لا تغيره ولا تحله[2] ، وإنما تحدث بقوله « كن

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الحجر .

(٢) اي لا تحله في مكان ولا زمان ، إذ أنه سبحانه وتعالى لا يقيده زمان ، ولا يحده مكان ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فيكون » وأن بعضها يضاف اليه بالوصف الخاص ، إتباعاً له فيما خص به نفسه لفائدة متجددة : إما للتنويه بشأنه والرفع من حاله ، وقد علمنا ان جملة الأرواح مخلوقة له عز وجل ، فخص بعضها بالإضافة إلى نفسه ، كما خص بعض البيوت بالإضافة الى نفسه ، وإن كان كلها ملكا له وفعلا للتنويه بذكرها ، والتشريف والدلالة على فضلها وشرف امرها[1] .

وأما قوله : « فقال له ربك رحمك الله » حين عطس آدم عليه السلام « فقد بينا معنى مخاطبة الله تعالى ، لمن يريد ان يخاطبه وأن ذلك تارة يكون بإسماع بلا واسطة ولا ترجمان ، وذلك نوع من التخصيص للدلالة على شرف المكلم على هذا الوجه ، لأنه مكلم لجميع المكلفين بالأمر والنهي ، وإنما كلمهم بوسائط الرسل والمبلغين عنه اليهم .

فأما قوله « فسبقت له من ربه رحمته » فمعنى ذلك الوعد بالرحمة ، لأن نفس

---

(١) يقول الفخر الرازي :

« إن النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر ، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح ، وإلا لما وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ . سورة الاسراء آية ٨٥ .

إنما أضاف الله سبحانه روح آدم الى نفسه تشريفا له وتكريما .

وقوله : ﴿ فقعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ سورة الحجر آية ٢٩ يدل على أنه تعالى :

كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له .

لأن قوله « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي » .

وقوله : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ، قال الخليل وسيبويه قوله« كلهم أجمعون » توكيد بعد توكيد .

وسئل المبرد عن هذه الآية فقال :

(لو قال فسجد الملائكة ، احتمل أن يكون سجد بعضهم ، فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال ، فظهر أنهم باسرهم سجدوا) اهـ .

الرحمة لا يصح فيها تأخر وتقدم ، بحد ونهاية ، لأجل انها عندنا صفة من صفات ذاته ، لم يزل موصوفاً، وإنما اراد ههنا ما هو دلالة على الرحمة التي تناوله من قبل الله جل ذكره . لأن الكائن عن الشيء والمتعلق به قد يسمى باسمه .

كما يقال لما يظهر من قدرة الله من افعاله : أنها قدرة الله ، وتحقيق ذلك أنه هو الكائن عن قدرته .

كذلك ما يبدو من النعم عن سابق الرحمة ، قد يسمى رحمة على التوسع في الكلام .

وقد روي في بعض الفاظ هذا الحديث : « **سبقت رحمتي غضبي** »[1] .

ووجه السؤال فيه على اصلنا أنا نقول : إن رحمة الله صفة من صفات ذاته ، وكذلك غضبه ورضاه ، ولا يصح فيما سبيله ذلك أن يكون مسبوقاً ، وأن يتقدم أحدهما صاحبه ، لأن ذلك يوجب حدث المتأخر منها .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، ومسلم في صحيحه ، وابن ماجه في سننه ، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والمعنى المراد : سبقت رحمتي ، أي غلبت عليه بكثرة آثارها وشمولها للخلق ، كما يقال : غلب على فلان الكرم ، أي هو أكثر خصاله ، وإلا فرحمة الله وغضبه صفتان راجعتان الى إرادة عقوبة العاصي ، وإثابة المطيع تعالى لا توصف بغلبة إحداهما الأخرى ، وإنما هو على سبيل المجاز للمبالغة .

وقال الطيبي :

«الحديث على وزن قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أي أوجب وعداً أن يرحمهم قطعا ، بخلاف ما يترتب على مقتضى الغضب من العقاب ، فان الله تعالى عفو كريم يتجاوز عنه بفضله » ثم يعلق صاحب فيض القدير على هذا فيقول :

(ألا ترى أن قسط الخلق من الرحمة أكثر من قسطهم من الغضب لنيلهم إياها بلا استحقاق)، وأن قلم

(١) عقر البعير والفرس بالسيف ، فانعقر ، أي ضرب به قوائمه ، وبابه ضرب والحديث أخرجه النسائي في السنن ، وأخرج نحوه مسلم في صحيحه .

ووجه الجواب عن ذلك يرد على النحو الذي بينا من تسمية المصادر عن الشيء باسمه، لما بينهما من التعلق ، وكذلك الظاهر من نعم الله وفضله ، الذي سبق الى الخلق في الدنيا ابتداء وأولا عن رحمته لهم في الأزل ، وكذلك ما يظهر من نقمه وعقوبته، وغضبهالذي لم يزل يسمى به توسعاً ، لأنها عنه تكون وتحدث ، فلما كان ذلك سائغاً في اللغة لم ينكر أن يكون معناه : أن الله عز وجل ابتدأ الخلق بنعمته ، ومنه ، وعفوه ، وستره ، وأخر العقوبة والجزاء على السيئات إلى العقبى والدار الآخرة .

فسمى ما سبق ظهوره من فعله النعم لهم في الدنيا رحمة ، وما أخره عنهم الى العقبى من العقوبة غضبا ، على معنى ما ذكرنا من تسمية الشيء باسم ما يحدث عنه ، ويظهر منه .

وقد بينا فيما قبل تأويل الرحمة والغضب[1] والرضا على اصولنا . وأن حقيقة ذلك ، يرجع على اصولنا وقواعد مذاهبنا الى ما سبق وجوده ، لا بمدة ، وتقدم كونه لائقاً به كون سائر المكونات من إرادة الله جل ذكره الانعام على من علم أنه ينعم عليه إذا خلقه ، والانتقام ممن علم انه اهل لأن ينتقم منه ، وما يظهر من النعم والنقم فيما لا يزال عن الرحمة والرضا والغضب فيما لم يزل بذلك ، بما بينهما من التعلق ، وأن احدهما يسمى باسم صاحبه لأنه عنه يقع ، وعلى حسب تعلقه فيما سبق يحدث ، وعلى ذلك تتأول الألفاظ في الدعاء ، إذا قيل :

اللهم ارحمنا وارض عنا .

من قبل أن ما هو من صفات الذات لا يصح فيها الطلب والسؤال . وإنما يصح الطلب والسؤال فيما طريقه طريق الفعل ، فيسأل أن يفعل ذلك .

---

(١) وكما بينا معنى ذلك نقلا عن فيض القدير شرح الجامع الصغير .

وعلى هذا الوجه يتأول معنى الدعاء : فيقال : إن المسؤول بهذا الدعـاء هو المرجو أن يحدث عن رحمته ورضاه ، لا نفس الرحمة والرضا .

ونظير ذلك ايضا في الدعاء قولهم :

« اللهم اغفر لنا علمك فينا وشهادتك علينا » .

ونفس العلم لا يغفر وكذلك نفس الشهادة ، وإنما تتعلق المغفرة بالمعلوم والمشهود .

وعلى ذلك يتأول قولهم : رضي الله عن فلان ورحمه ، لأن ذلك ليس بخبر عن تقدم الرضا والرحمة له ، وإنما معنى ذلك الدعاء والطلب ، لأن يفعل ما إذا فعله كان عن رضاه ورحمته ، فاختصر اللفظ في الدعاء اختصاراً ، والمعنى غير مشكل ولا ملبس .

وأما معنى قوله عليه السلام : « **ثم رجع آدم عليه السلام فقال له : هذه تحيتك** » .

فمعنى ذلك : أنه رجع الى مسألته ومخاطبته ، وقد فسره بقوله ، فقال له ، وبين أن ذلك يرجع الى السؤال والخطاب ، وليس كل رجوع رجوعاً الى المكان في المكان ، بل قد يكون ذلك رجوعاً عن فعل الى فعل ، وأخذاً في شيء بعد[1] شيء ، وعوداً الى مثل ما كان فيه بدأ من طريق الفعل ، والحكم لا من طريق التنقل والتحول من مكان الى مكان .

---

(١) أنظر القاموس ، واللسان ، ومختار الصحاح .

ذكر خبر آخر
مما يقتضي التأويل

روى معاوية بن صالح عن راشد بن سعد ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يطوي المظالم يوم القيامة فيجعلها تحت قدمه ، إلا ما كان من أجر الأجير وعقر[1] البهيمة وفض الخاتم » .

وتأويل ذلك

اعلم أنا قدمنا معنى القدم وذكرنا ما فيه من الاشتراك في استعمالهم له في المعاني المختلفة ، وليس كل ذلك هو الجارحة والبعض والعضو فقط .

وبينا أن ما سمي قدما من الجارحة فلمعنى وهو تقدمه على البدن ، وأن اصل معناه مأخوذ من التقدم من غير ان مثل هذا اللفظ قد اعتيد استعماله في اللغة في الأمر الذي لا تناقض فيه ولا تطالب به يبطله ، ولا يجعل له حكمًا ، وكذلك يقال في مثل هذا الأمر الذي صفته ما ذكرنا ، قد جعلته تحت قدمي على تلك المنافسة عليه ، والمطالبة له .

فكأنه عليه الصلاة والسلام : أراد ان يعرفنا مراتب الأعمال وامتداد الجزاء عليها ، وأن منها ما يكون الى العفو عنه اقرب من غيره .

فخص بعض الأعمال بالذكر ، تنويها بها انه عز ذكره ، لا يبطل امره ، ولا يدع المطالبة بها ، زجراً عن فعلها ، وتأكيداً للحث على تركها ، لأنه اراد بذلك اثبات

(١) عقر البعير والفرس بالسيف ، فانعقر ، أي ضرب به قوائمه ، وبابه ضرب والحديث أخرجه النسائي في السنن ، وأخرج نحوه مسلم في صحيحه .

عضو وجارحة لمن يستحيل ذلك في وصفه[1] ، وإنما يخاطبهم على المعهود ، من لغتهم ، والمتعارف فيما بينهم ، وذلك من المتعالم المشهود في خطاب العرب والعجم ، أنهم يعبرون بمثله عن مثل هذا المراد ، فيقولون : جعلت هذا الأمر تحت قدمي ، أي اعرض عنه ولم يطلبه ، ولا يطالب به .

وقد روي مثله عن النبي ﷺ : أنه لما فتح مكة قام على باب الكعبة فقال :

« **كل دم كان في الجاهلية قد جعلته تحت قدمي** »[2] .

على معنى اني اعرضت عن المنافسة فيه ، والمطالبة به .

وإذا كان ذلك مستعملا في اللغة على الوجه الذي بينا ، كان معنى قوله :

« **إن الله يجعل المظالم تحت قدمه يوم القيامة** »[3] محمولا عليه .

---

(١) وهو الله سبحانه وتعالى ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك .

(٢) وهذا الحديث هو من نص خطبة الرسول ﷺ ، والحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه والنسائي في سننه ولفظه :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا : **ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا : دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع وأول ربا اضع ربانا : ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إناعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسالون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فقال باصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس : اللهم أشهد ، اللهم اشهد ثلاث مرات** » .

(٣) والذي يستفاد من الحديث أن الله سبحانه وتعالى يغفر للانسان ما شاء من الذنوب الا ما كان من أجر الاجير ، أو عقر البهيمة .

وليس هذا الخبر مما يشكل معناه على من يعرف عادة العرب في الخطاب حتى يسبق وهمه الى خلاف هذا المراد الذي يتوهم أنه قدم جارحة وطيء بها وطء الجارحة .

فإذا كان كذلك بان لك وجه هذا الخبر في إضافة القدم اليه تعالى .

ويحتمل ان يكون هذا تمثيلا بالأمر الذي يوطأ بالقدم ، لأنه إذا اريد ستره والإعراض عنه ، وترك كشفه ، والتوقيف عليه ، عمل ذلك .

ثم يقال للذي شبه به على هذا المعنى : اجعله تحت قدمك ، وجعلته تحت قدمي ، توسعاً وتمثيلاً بما ذكرنا ، فاعلمه ان شاء الله تعالى .

والذي يؤيد مغفرة الله سبحانه لذنوب عباده ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه فيما أخرجه الامام مسلم في صحيحه :

عن النبي ﷺ - فيما يحكي عن ربه عز وجل - قال :

« أذنب عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي .

فقال تبارك وتعالى :

أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، ثم عاد فأذنب فقال : اي رب اغفر لي ذنبي ،

فقال تبارك وتعالى :

عبدي أذنب ذنبا ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به . ثم عاد فاذنب فقال : أي رب ، اغفر لي ذنبي .

فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنبا ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ما شئت ، فقد غفرت لك ».

ذكر خبر آخر

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال :

« إن احدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ يجعل الله ذلك في كفه فيربيها كما يربي احدكم فلوه أو فصيله ، حتى يبلغ بالتمرة مثل احد »[1] .

تأويل ذلك

اعلم أن معنى الكف ههنا معنى الملك والسلطان ، كما قال الأخطل :

اعاذل ان النفس في كف مالك إذا ما دعا يوماً اجابت بها الرسلا

ومعنى الخبر على هذا التأويل : ان الله عز وجل يجازي المتصدق بما بيناه ـ من الجزاء اضعافاً مضاعفة[2] .

وفائدته : الترغيب في الصدقة ، وانها يجب ان يقصد بها الطيب من المال ، ويخص بالانفاق ويعلم ان ذلك يجري بعلم الله وقدرته وإراداته ومشيئته ، اي قد علموا ان الله عز وجل هو المطلع الشاهد ، وللصدقات قابل ، لأنها تقع في ملكه وسلطانه على حسب علمه ومشيئته .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، والبيهقي ، والحاكم في المستدرك .

(٢) وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحث على ذلك ، وتبين الجزاء المضاعف للمنفق ، منها قوله سبحانه وتعالى :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ، وَٱللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ . سورة البقرة آية ٢٦١ .

وقد روي أن عمر بن الخطاب كان كثيراً ما ينشد هذين البيتين :

هـون عليك فـإن الأمـور ... بـكـف الإلـه مـقـاديـرهـا

فـليس بـآتيـك منهيـهـا ... ولا قـاصـر عنك مـأمـورهـا

ومعنى قوله : « بكف[1] الإله » أي في سلطانه وملكه وقدرته ، وهذا ايضا جائز في كلام الناس في معاملاتهم وتعارفهم ، لأنهم يقولون : ما فلان إلا في كفي يريدون بذلك ، انه ممن يجري عليه امر ملكه ففي ذلك دليل لنا على خلاف قول القدرية ، لأن الصدقة فعل المصدق ، وقد اخبر انها في كف الله ، على معنى انها في ملكه وتحت قدرته ، وهذا يوجب ان يكون مقدور الله مخلوقاً له .

وقد تؤول هذا الخبر على وجوه أخر :

فقيل : إن الكف المراد به ههنا الأثر والنعمة ، فإذا كان كذلك كان معنى الخبر محمول على احد وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد بالأصابع ههنا ، الملك والقدرة ، ويكون فائدته : ان قلوبهم في قبضته[2] جارية قدرته عليها ، وذلك ان الله تعالى خلق القلوب محلا

(١) لا كف الجارحة كما زعم ذلك أهل التجسيم والتشبيه لله تعالى عن ذلك .

(٢) يقول ابن قتيبة :

إن هذا الحديث ـ قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله . . . الخ ـ صحيح ، وإن الذي ذهبوا اليه في تأويل الاصبع لا يشبه الحديث ، لأنه عليه الصلاة والسلام قال في دعائه :

« **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** »

فقالت له إحدى أزواجه : أو تخاف يا رسول الله على نفسك ؟ فقال :

« **إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل** » .

فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم ، فهو محفوظ بتينك النعمتين ، فلاي شيء دعا بالتثبيت ، ولم احتج على المرأة التي قالت له : أتخاف على نفسك ، بما يؤكد قولها ، وكان ينبغي أن لا يخاف إذا كان

للخواطر ، والإرادات ، والعزوم والنيات ، وهي مقدمات الأفعال وفواتح الحوادث ، ثم جعل سائر الجوارح تابعة لها من الحركات والسكنات ، حتى تقع حركاتها بحسب إرادات القلوب لها إذا كانت اختيارية كسبية .

ثم اخبر ان القلوب جارية على حسب إرادة الله تعالى ، إذ كانت تحت سلطانه وقدرته ليستفاد بذلك ان من كانت فواتح الأمور جارية تحت قدرته فكذلك غاياتها ونهاياتها ، وهذا ايضا يدل على صحة ما نقول ، أن افعال الحيوان مقدرة لله تعالى مخلوقة له ، وأنها لا تحدث الا على حسب سابق إرادة الله ومشيئته فيها ، فدل ﷺ بذكر القلب ، وكونه تحت القدرة جارياً على المراد ، على ان ما عداه اولى به ، لأنه هو الذي تصدر افعال الجوارح عن تقلبه وإراداته .

أحدهما : أن يكون معناه أن ذلك يقع منكم بنعمة من الله عز وجل في توفيقه إياكم لفعلها ، ويكون معنى قوله : « في كف الرحمن » أي به يقع ، وبحسن إنعامه وألطافه يكون ويحدث ، ثم انه يجازي من فضله من شاء بما[1] شاء ، ومنه قول ذي الأصبع من معنى الكف الذي يراد به النعمة :

القلب محروسا بنعمتين .

فإن قال لنا : ما الاصبع عندك ههنا ؟

قلنا : هو مثل قوله في الحديث الآخر ، يحمل الأرض على إصبع ، وكذا على أصبعين .

ولا يجوز أن تكون الاصبع ههنا نعمة .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَومَ ٱلقِيَامَةِ ،وَٱلسَّمَوَاتُ مَطوِياتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ولا يجز ذلك . سورة الزمر آية ٦٧ .

ولا نقول : أصبع كأصابعنا ، ولا يد كأيدينا ، ولا قبضة كقبضاتنا ، لأن كل شيء منه - عز وجل - لا يشبه شيئا منا » اهـ .

(١) إذ الفضل منه واليه ، لا يسأل عما يفعل .

زمــان بــه لله كف كــريمــة ... علينــا ونـعمــاه لهـن بشــير

أراد بذلك نعم ظاهرة لله فيه . .

ذكر خبر آخر

من مثل هذا المعنى وتأويله

روى انس وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **إن قلوب بني آدم بين اصبعين من اصابع الله ، يقلبها كيف يشاء** »[1] .

أعلم ان اهل العلم ، قد تأولوا ذلك على وجوه :

وإنما مثل رسـول الله ﷺ ، لأصحابـه قدرة القـديم بأوضـح ما يفعلـون من أنفسهم ، لأن الرجل منهم لا يكون على شيء اقدر منه ، إذا كان بين اصبعيه ، ولذلك يضرب المثل به ، فيقولون .

(ما فلان إلا في يدي وخنصري)[2] .

يريدون بذلك انه عليه مسلط ، وانه لا يعتذر عليه ان يكون على ما يريده .

وقال بعض اهل العلم : الأصبعين ههنا بمعنى النعمتين .

وقد ذكرنا فيما قبل ان العرب يقولون لفلان على اصبع حسن ، إذا انعم عليه نعمة حسنة[3] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن رقم ٣٨٣٤ ، ١٩٩ .

(٢) أنظر المعجم الوسيط ، والقاموس المحيط ، واللسان ، وأساس البلاغة .

(٣) ومن قال ذلك ذهب في تأويل الأصابع الى أنه النعم لقول العرب :

وذكرنا قول الراعي في ذلك :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له　　　عليها اذا ما اجدب الناس اصبعا

أي اذا وقع الناس في الجدب والقحط ترى له علينا أثراً حسنا .

فإن قيل : وما تفصيل ما بين النعمتين اللتين يتصرف القلب بينهما ؟

قيل : يحتمل ان يكون بمعنى النفع[1] والرفع ، وذلك يشتمل جميع النعم ، لأن النعم على ضربين : ظاهرة وباطنة : فالظاهرة منها ما نفع المنتفعين بها ، والباطنة ما دفع من وجوه الشر وصرف عوارض المحن .

فاذا كان كذلك احتمل ان يكون معنى الخبر أفاد به إفادتنا ، إظهار نعمة الله علينا ، وأنها قد سبقت وشملت باطنا وظاهراً .

وخص القلوب بالذكر لأنها معظم ما في الأبدان وبفسادها يفسد الجمل .

وقال بعضهم : معناه مبين أثرين من إرادة الله عز وجل ، وفعلين من افعاله في الفضل والعدل ، وقد روي في بعض الفاظ هذا الخبر ما يدل على ذلك وهو ان بعضهم قال :

إذا شاء أزاغه ، وإذا شاء اقامه[2] فأخبر ان القلوب في زيغها واستقامتها جارية

(ما أحسن إصبع فلان على ماله) ، يريدون أثره .

وقال الراعي في وصف إبله :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له . عليها إذا ما أمحل الناس أصبعا أي ترى له عليها أثرا حسنا » اهـ

ذكره ابن قتيبة .

(١) النفع ضد الضر ، يقال : نفعه بكذا فانتفع به ، والاسم المنفعة ، وبابه قطع ودفع اليه شيئا دفعه فاندفع ، وبابها قطع ، وإندفع الفرس أي أسرع في سيره وإندفعوا في الحديث .

(٢) وهذا يؤيد معنى الحديث : « **إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء** » .

تحت قدرة الله وقبضته ، وفي ملكه وسلطانه ، وتحقيق ذلك انه قد روى فيه ، انه قال ﷺ بعده :

« يا مقلب القلوب ثبت قلبي » .

فدل على صحة تأويلنا على ان معناه التوفيق والخذلان ، وفيه دليل على صحة مذهبنا ، لأنه عرفنا ان الإزاغة والإقامة مما يجريان على حسب القدرة ونفاذ المشيئة .

واعلم ان لفظ الأصبع مشترك المعنى في اللغة على الوجوه التي ذكرنا ، والمعاني التي بينا ، وقد يقال للجارحة اصبع ايضا ، وليس مخصصاً به ، بل يجوز ان يقال له ولغيره على الوجوه التي ذكرناها ، وقد قامت[1] الدلالة وأوضحنا الحجة فيما قيل على إستحالة وصف الله عز وجل بالجوارح والأدوات والابعاض والآلات، فلم يجز أن يحمل ذلك على معنى الجارحة لإستحالته في صفته تعالى ، فوجب أن يحمل على احد ما ذكرنا من المعاني ، لأنها تفيد المعنى الصحيح ، ولا تفيد الكيف والتشبيه الذي يتعالى الله عز ذكره عنه[2] .

وإنما ثني لفظ الإصبعين والقدرة واحدة ، لأنه جرى على طريق المثل والمثل الجاري فيما بين الناس في مثل هذا المعنى على هذا اللفظ ، وهو انهم يقولون : ما فلان إلا بين اصبعي ، إذا اراد واضرب المثل ، بأنه مسلط عليه قادر على ما يريد منه ، فحكي على لفظ المثل ، على اللفظ الجاري المعهود .

وذلك لفظ التثنية ، فلذلك ساغ أن يقال انه بمعنى القدرة ، وهي واحدة ، وإن كان اللفظ مثنى ، إذ ليست حقيقة معنى الأصبع معنى القدرة ، فيوهم القدرتين ،

---

(١) وفي نسخة أخرى : « أقمنا الدلالة وأوضحنا الحجة » .

(٢) إذ أنه سبحانه وتعالى يستحيل في حقه أن يشبه شيء كما يستحيل في حقه أن يكون مثله شيء : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وإنما يتمثل ذلك ، والمراد به القدرة والسلطان .

ذكر خبر الإصبع أيضاً على غير هذا الوجه مما يوهم التشبيه .

روى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه :

أن رجلا من اهل الكتاب جاء الى رسول الله ﷺ . فقال :

يا ابا القاسم ، إن الله تبارك وتعالى يمسك السموات على اصبع والأرض على اصبع ، والجبال والشجر على اصبع ، والماء والثرى على اصبع ، ثم يقول أنا الجبار .

قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . ثم قرأ قوله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[1] .

ذكر تأويله

اعلم ان الخبر يحتمل في تأويله وجوهاً صحيحة لا يؤدي الى اثبات الجوارح لمن يستحيل في وصفه ذلك ، وهو الله جل ذكره لإستحالة كونه جسماً مبتعضاً متجزأ محدوداً ، فمما يمكن ان يقال في تأويله ، مما لا يؤدي الى المحال في وصف الله عز ذكره :

أن المراد به اصبع بعض خلقه ، ويشهد لصحة ذلك : أنه لم يذكر في الخبر اصبعه بل اطلق ذلك منكراً .

واحتمل ان يكون على ما قلنا انه يريد به اصبع بعض خلقه ، وليس ينكر في

---

(١) الحديث أخرجه سعيد بن منصور ، والامام أحمد ، وعبد بن حميد ، والأمام البخاري، والامام مسلم والترمذي والنسائي ، وابن المنذر ، والدارقطني في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه .
أنظر تفسير الدر المنثور للسيوطي جـ ٥ ص ٣٣٤ .

مقدور الله ان يخلق خلقاً على هذا الوجه[1] .

وقال محمد بن شجاع الثلجي في تأويل ذلك :

يحتمل ان يكون خلق من خلق الله ، يوافق اسمه اسم الأصبع ، فقال : إنه يحمل السموات على ذلك ، ويكون ذلك تسمية للمحمول عليه بما ذكر فيه .

فإن قال قائل : اليس قد ذكر في الخبر الذي رويتم قبل هذا ، أصابع الرحمن ، وأضيف اليه ؟ أفرأيتم انه لو اضاف ذلك الى نفسه فكيف يكون ؟

قيل : كان يحتمل ان يكون المراد به القدرة والملك والسلطان ، على معنى قول القائل :

ما فلان إلا بين اصبعي ، إذا اراد الإخبار عن جريان قدرته عليه ، فذكر معظم المخلوقات ، وأخبر عن قدرة الله تعالى على جميعها معظما لشأن الرب في قدرته وملكه وسلطانه .

فضحك رسول الله ﷺ كالمتعجب منه ، أنه مستعظم ذلك في قدرته ، وأن ذلك يسير في جنب ما يقدر عليه ، ولذلك قرأ عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ويقول الفخر الرازي في تفسير :

(لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشوب بهذه الأعضاء والجوارح، إلا أنت الدلائل العقلية قامت على إمتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى ، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجه المجاز ، فنقول : إنه يقال فلان في قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره ، قال تعالى :

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ سورة المؤمنون آية ٦ .

والمراد منه : كونه مملوكا ، ويقال هذا الدار في يد فلان وفلان صاحب اليد والمراد من الكل القدرة .

والفقهاء يقولون في الشروط : وقبض فلان كذا وصار في قبضته ولا يريدون إلا خلوص ملكه .

وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونا لهذه النصوص عن التعطيل ، فهذا هو الكلام الحقيقي في هذا الباب) اهـ .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[1] .

أي ليس قدره في القدرة على ما يخلق على الحد الذي ينتهي اليه الوهم ، ويحيط به العد والحصر ، وإذا كان كذلك احتمل ما ذكرنا من التأويل ، وكان صرفه اليه اولى من صرفه الى ما يستحيل في صفة الله عز وجل .

ذكر خبر آخر في مثل هذا المعنى

روى عبيد عن عمير عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال :

« يأخذ الجبار سماءه وأرضه بيده ثم يقبضها ويبسطها ويقول :

أنا الجبار ، أنا الملك ، أمين الجبابرة ، أمين المتكبرين »[2] ؟ .

ذكر تأويله

اعلم أن اخذه السماء والأرض بيده ، يرجع الى تعريفنا قدرته عليه ، وجريان سلطانه فيهما .

وقبضه لهما يحتمل ان يكون بمعنى إفنائهما كقول القائل : قبض الله روح فلان اليه ، إذا فناه ثم يبسطهما ، أي يعيدهما على الوجه الذي يريد والهيئة التي يشاء كونهما عليها ، وقد قال تعالى في كتابه :

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[3] .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن مردويه ؛ والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

فتأول بعض اهل التفسير ذلك على معنى الإفناء ، وأنه يفني السموات والأرضين بقدرته .

وقيل : يفنيها بيمينه أي بقسمه التي اقسم بها ، ثم يعيدها .

وقوله : ويقول انا الملك اين الملوك ؟ يشهد لهذا التأويل في معنى الإفناء وذلك ما ذكره في قوله :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(١) .

قال المفسرون : ذلك عند إفناء خلقه وإماتتهم ، فلا يكون له مجيب ، فيجيب نفسه بقوله تعالى :

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(٢) .

---

(١) الآية ١٦ من سورة غافر .

(٢) ويشرح صاحب التفسير الكبير القول في هذه المسألة فيقول :

« قال المفسرون : إذا هلك كل من في السموات ومن الأرض فيقول الرب تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾؟ يعني يوم القيامة ، فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

قال أهل الاصول ، هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه :

الاول ، أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاقي ، ويوم البروز ، ويوم تجزى كل نفس بما كسبت والناس في ذلك الوقت أحياء ، فبطل قولهم ، إن الله تعالى إنما ينادي بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض .

والثاني ، أن الكلام لا بد فيه من فائدة ، لأن الكلام إما أن يذكر حال حضور الغير أو حال ما لا يحضر الغير ، والاول باطل ههنا لان القوم قالوا ، أنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل ، والثاني ايضاً باطل ، لان الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده، أما لأنه يحفظ به شيئاً كالذي يكرر على الدرس وذلك على الله محال أو لأجل أنه يحصل له سرور بما يقوله وذلك أيضاً على الله محال أو لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضاً على الله محال ، فثبت أن قول من يقول ، إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له .

واعلم أن القبض والبسط في صفة الله ظاهر قد ورد به القرآن ، وذلك يرجع الى معنى الفعل ، والفعل واقع بالقدرة ، فتكون فائدة الخبر تعريفنا أنه هو القادر على القبض والبسط .

فتارة يقبض الكل ثم يبسطه ، فدلنا على قدرته على القبض والبسط جملة وتفصيلا ، ونبه بذلك على أمر المعاد ، وأنه يغني الخلق ثم يعيدهم ويميتهم ، ثم يحييهم ، وعرفنا عجزهم وضعفهم ، وزوال أملاكهم ودعاويهم ، وأنه هو الذي تفرد بالملك والقدرة ولا يزول ملكه وقدرته[1] .

ذكر خبر في التجلي مما يوهم التشبيه وتأويله

روى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قرأ قوله :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ ثم قال : هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر ، فقال .

فقلت له :

والقول الثاني : أن في يوم التلاق إذا حضر الاولون والآخرون وبرزوا لله فنادى مناد ، لمن الملك اليوم . فيقول كل الحاضرين في محفل القيامة ، لله الواحد القهار .

فالمؤمنون يقولون تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا الذكر المنزلة الرفيعة ، الكفار يقولونه ، على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على أن فاتهم هذا الذكر في الدنيا .

قال قائلون بهذا القول إن صح القول الاول عن ابن عباس وغيره لم تمنع أن يكون المراد أن هذا النداء يذكر بعد فناء البشر إلا أنه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء .

وأقول أيضاً على هذا القول لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولا يعبد أيضا أن يكون السائل جمعاً من الملائكة ، والمجيب جمعاً آخرين ، والكل ممكن وليس على التعيين دليل » اهـ .

(١) إذ أنه الدائم الباقي سبحانه وتعالى ، لا يلحقه عدم ، ولا يأتيه فناء .

أرأيت يا ابا محمد ما تريد بهذا ؟ فضرب بيده في صدري وقال :

أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول ما تريد بهذا ؟[1] .

ذكر تأويل ذلك

اعلم ان الذي يفسر من هذا الحديث معنى التجلي ومعنى الخنصر .

فأما التجلي فمعناه في كلام العرب : ظهور الشيء ، والشيء قد يظهر بمعنيين مختلفين .

يظهر جهرة وعياناً بالحس .

ويظهر بالدلالة كقول القائل : تجلى الأمر لي حتى عرفته ، وقد تجلى الله للخلق بعلاماته ودلائله ، ويتجلى للمؤمنين يوم القيامة جهرة وعياناً .

والصحيح في معنى التجلي في الآية ، أن الله عز وجل خلق رؤ ية في الجبل حتى رأى ربه[2] ، وذلك بأن احياه وجعله عالماً رائياً ثم دكه بعد الرؤ ية وجعله فرقاً قطعاً ، علامة لموسى عليه السلام في أنه لا يراه في الدنيا .

وأما قوله : وأخرج طرف الخنصر : فإن من اهل العلم من يقول :

إن معناه الشيء اليسير من آياته كإشارة المخلوقين بذلك ، فذكر الخنصر وضرب المثل به ، لا أنه جعل له خنصراً .

والعرب تقول وتضرب بالخنصر مثلا عند تقليلهم الشيء وتكون الفائدة فيه :

(١) أخرجه أبو الشيخ ، وابن مردويه من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ.

(٢) وقد استفاض الفخر الرازي في شرح هذه المسألة في تفسيره الكبير عند قوله تعالى في سورة الاعراف : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ . . . الآية : فارجع اليه إن شئت .

أنه ظهور ما أظهر من تفريق أجزاء الجبل ، الذي كان موسى عليه ، وذلك يسير بالإضافة إلى الآيات التي يظهرها الله عز وجل يوم القيامة ، وكان ذلك من النوع الذي يظهر يوم القيامة ، وكان في القلة اليه كطرف الخنصر .

فإن قيل كيف أنكر ثابت على من سأله عن تأويله ؟

قيل يحتمل أن يكون توهم فيه أنه يظن أن ذلك يرجع الى صفة الله ، أو إثبات جارحة له أو عضو ، فلذلك انكر عليه لينبهه على تأويله على غير ما يتوهمه من ذكر الخنصر على معنى الجارحة .

قال محمد بن شجاع :

وقد روى عكرمة عن ابن عباس[1] .

تجلى مثل طرف الخنصر تشبيهاً بما قلنا ، وعليه تأويلنا ان ذلك على طريق التمثيل بالشيء اليسير لا على معنى إثبات جارحة .

وقد قال الثلجي .

إن هذا الحديث ضعيف : ذكره حماد عن ثابت ولم يروه غيره عنه من اصحابه[2] .

وقد قال بعضهم :

إن حماداً كانت له خرجة الى عباذان ، وابن ابي العوجاء الزنديق[3] ، أدخل في

---

(١) أنظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وتفسير الطبري ، وابن كثير :

(٢) وضعفه أيضاً السيوطي ، وعلي ملا القاري ، والحافظ الذهبي .

(٣) وهو وضاع مشهور بالوضع ، وقد قال عنه الذهبي أنه وضاع كذاب ووهاه علي ملا القاري .

اصوله ألفاظاً وأحاديث احتملها في آخر عمره ، فرواها بغفلة ظهرت فيه .

ذكر خبر آخر مما يوهم التشبيه وتأويله

روى ابو هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قرأ قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ إلى قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[1] .

فوضع ابو هريرة إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ، وقال : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع اصبعه هكذا[2] .

---

(١) الآية : ٥٨ من سورة النساء .

(٢) أخرجه ابو داود ، وابن حبان ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم عن أبي يونس عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقد أخرجه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور جـ٢ تفسير سورة النساء .

ذكر الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية مسائل نفيسة ، نذكر منها ما يناسب ذكره هنا ، إنه يقول :

« أمر ـ الله سبحانه وتعالى ـ المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور ، سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات ، أو من باب الدنيا أو المعاملات .

وأيضاً : لما ذكر في الآية السابقة ـ وهي قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارَ ﴾ . . . الآية ـ الثواب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وكان من أجل الأعمال الصالحة الامانة ، لا جرم أمر بها في هذه الآية ، وفي الآية مسائل :

الاولى : روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح ، أغلق عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه ، فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده ، وأخذه منه ، وفتح ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين .

فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت هذه الآية ، فأمر علياً أن يرده الى عثمان ويعتذر اليه :

فقال عثمان لعلي : أكرهت وأديت ، ثم جئت ترفق ؟

فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآنا ، وقرأ عليه الآية :

فقال عثمان (أشهد ان لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله) .

فهذا فهبط جبريل عليه السلام ، وأخبر الرسول ﷺ أن السدانة في أولاد عثمان أبدا فهذا قول سعيد بن المسيب ، ومحمد بن إسحاق

وقال أبو روق : قال النبي ﷺ لعثمان :

« أعطني المفتاح » ، فقال : هاك بامانة الله فلما أراد أن يتناوله ضم يده فقال الرسول ﷺ ذلك مرة ثانية ، « إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فاعطني المفتاح »

فقال : هاك بامانة الله ، فلما أراد أن يتناوله ضم يده ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك مرة ثالثة ، فقال عثمان في الثالثة هاك بامانة الله ودفع الى النبي ﷺ ، فقام النبي ﷺ يطوف ومعه المفتاح ، وأراد أن يدفعه الى العباس ، ثم قال :

« يا عثمان ، خذ المفتاح ، على أن للعباس نصيبا معك » ، فانزل الله هذه الآية ، فقال النبي ﷺ ، لعثمان ، « هاك خالدة تالدة ، لا ينزعها منك الا ظالم » :

ثم إن عثمان هاجر ودفع المفتاح الى أخيه شيبة ، فهو في ولده الى اليوم .

الثانية : إعلم أن نزول هذه الآية عند هذه القصة لا يوجب كونها مخصوصة بهذه القضية ، بل يدخل فيه جميع أنواع الامانات .

وإعلم أن معاملة الانسان إما أن تكون مع ربه ، أو مع سائر العباد ، أو مع نفسه ، ولا بد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة :

أما رعاية الأمانة مع الرب : فهي في فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، وهذا بحر لا ساحل له قال ابن مسعود : الأمانة في كل شيء لازمة في الوضوء والجنابة والصلاة والزكاة والصوم .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما :

إنه تعالى خلق فرج الانسان وقال هذا أمانة خبأتها عندك فاحفظها الا بحقها ، واعلم أن هذا الباب واسع ، فامانة اللسان أن لا يستعمله في الكذب والغيبة النميمة والكفر والبدعة والفحش وغيرها .

وأمانة العين أن لا يستعملها في النظر الى الحرام :

وأمانة السمع أن لا يستعمله في سماع الملاهي والمناهي ، وسماع الفحش والأكاذيب وغيرها ، وكذا القول في جميع الأعضاء .

وأما القسم الثاني : وهو رعاية الامانة مع سائر الخلق ، فيدخل فيه رد الودائع ، ويدخل فيه ترك التطفيف في الكيل والوزن ، ويدخل فيه أن لا يفشي على الناس عيوبهم ويدخل فيه عدل الأمراء مع رعيتهم ، وعدل العلماء مع العوام بان لا يحملوهم على التعصبات الباطلة بل يرشدونهم الى

فزعمت المشبهة أنه اراد بهذا ان الله تعالى عيناً وأذناً جوارح ، ولهذا وضع يده على عينه وأذنه[1] .

ذكر تأويله

اعلم ان العين والأذن إذا كانا بمعنى الجارحة فلا يصح أن يكونا إلا للأجسام

إعتقادات ، وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم ، ويدخل فيه نهي اليهود عن كتمان أمر محمد ﷺ ، ونهيهم عن قولهم للكفار إن ما أنتم عليه أفضل من دين محمد ﷺ ، ويدخل فيه أمر الرسول عليه الصلاة والسلام برد المفتاح الى عثمان بن طلحة ، ويدخل فيه أمانة الزوجة للزوج في حفظ فرجها ، وفي أن لا تلحق بالزوج ولداً يولد من غيره ، وفي إخبارها عن إنقضاء عدتها .

وأما القسم الثالث : وهو أمانة الانسان مع نفسه فهو أن لا يختار لنفسه الا ما هو الانفع والأصلح له في الدين والدنيا ، وأن لا يقدم بسبب الشهوة والغضب على ما يضره في الآخرة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام :

« كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته » :

فقوله : ﴿ **يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا** ﴾ يدخل فيه الكل ، وقد عظم الله أمر الامانة في مواضع كثيرة من كتابه ، فقال :

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ** ﴾ سورة سبأ آية ٧٢ .

وقال : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾ سورة المؤمنين آية ٨ .

وقال : ﴿ **وَ لَا تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ** ﴾ سورة الانفال آية ٢٧ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **لا ايمان لمن لا أمانة له** » .

وقال ميمون بن مهران (ثلاثة يؤدين الى البر والفاجر : الامانة ، والعهد وصلة الرحم) . .

وقال القاضي : لفظ الامانة وإن كان متناولا للكل إلا أنه تعالى قال في هذه الآية :﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا** ﴾ .

فوجب أن يكون المراد بهذه الامانة ما يجري مجرى المال لانها هي التي يمكن أداؤ ها الى الغير » اهـ .

(١) وقد سبق الرد على المشبهة والمجسمة ، وتأويل معنى العين والاذن والسمع واليد . . الخ في حق الله سبحانه وتعالى ، وما ذكر في تأويل ذلك من أقوال السلف والخلق والعلماء .

المؤلفة والأجزاء المركبة ، وقد بينا فيما قبل ، أن القديم سبحانه وتعالى لا يصح أن يكون جسمًا ولا ذا أجزاء وآلة وجارحة ، واستحال ان يكون المراد به إشارة إلى العضو والجارحة وإنما اراد بذلك تحقيق السمع والبصر ، وأن الله تعالى يرى المرئيات برؤ يته ، ويسمع المسموعات بسمعه .

فأشار إلى الأذن والعين تحقيقاً للسمع والبصر ، لأجل انهما محل السمع والبصر ، وقد يسمى محل الشيء باسمه ، لما بينهما من المجاورة والقرب وهذا كما قال عز وجل :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[1] .

والمراد بذلك ما في القلوب من العلوم والعقول لما لم يستعملوها في التوصل إلى الحق ، ولم يعملوا فكرهم ونظرهم في تعريف الحق ، وكذلك ما لم يستعملوا الحق ، ولم يسمعوه سمع قبول ، صاروا كأنهم لا أسماع لهم .

وكذلك وصفهم في آية اخرى بأنهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾[2] لما تعاموا عن قبول الحق ، وتصاموا عن فهمه وسماعه .

وإذا كان الأذن والعين محل السمع والبصر فينا ، أراد ﷺ تحقيق الوصف بالإشارة عز وجل بالسمع والبصر والإشارة الى المحل ، والمراد ما فيه من السمع والبصر لا نفس المحل .

ومثل هذا في الكلام قول القائل : قبض فلان على مال فلان . فقبض يده ،

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٢) كما جاء ذلك في الآية ١٨ من سورة البقرة .

يشير الى انه حائز له لا أنه فعل ذلك ، بل يريد تحصيل المقبوض[1] .

وأيضاً فإن هذا الخبر أفادنا ان وصف الله بأنه سميع بصير ، لا على معنى صفة بأنه عليم ، كما ذهب اليه بعض اهل النظر ، فلم يثبتوا لله تعالى في وصفنا له بأنه سميع بصير ،معنى خاصا وفائدة زائدة على وصفنا له بأنه عليم ، وإذا كان كذلك ، أفادنا ﷺبذلك تحقيق معنى السمع والبصر على الوجه الزائد معناه على معنى العلم إبطالا لقول من ذهب الى هذا التأويل في معنى العلم ، ولو كان معنى الوصف فيه بأنه سميع على معنى الوصف فيه بأنه عليم ، لكان يشير الى القلب الذي هو محل العلم ، لينبه بذلك على معنى أنه : سميع بصير أنه عليم ، فلما اشار الى العين والأذن وهما محلان للسمع والبصر ، حقق الفرق بين السمع والبصر وبين العلم وبين فائدة الوصف على الإختصاص على أن العين والأذن وليس مما يبصر به ويسمع وإنما يسمع ويبصر بالسمع والبصر اللذين يكونان في الأذن والعين ، ألا ترى أنه قد يكون عين ولا يكون بصر ؟ ، وأذن صحيحة ولا يكون سمع ؟

فعلم ان المقصود ليس هو إثبات الجارحة ، التي لا مدح في إثباتها ، بل المقصود إثبات الصفة التي بها يكمل الوصف بالمدح والتعظيم . وأن الإشارة في ذلك ترجع الى المستفاد مما في العين والأذن من السمع والبصر ، لا الى العين والأذن .

والعرب قد تقول كثيراً : ما فلان إلا شمس وقمر وبدر ، وإنما يريدون بذلك التمثيل بوجه دون وجه ، وفي هذا المعنى قول النابغة :

لأنك شمس والملوك كـواكب   إذا طلعت لم يبق منهن كوكب

وكذلك قال الآخر :

---

(١) وقد استعمل ذلك أهل اللغة والمعاجم والقواميس كثيرا .

النشــر مســك والــوجــوه دنــا نــير وأطــراف الأكـف غنـم

ولم يرد بذلك أن النشر عين المسك ، وإنما شبه النشر بالمسك لطيب الرائحة ، وأطراف الأكف بالغنم لاحمراره ورطوبته بالنعمة ، لا غير ذلك[١] .

وكذلك إشارته ﷺ، إلى الأذن والعين لتحقيق كونه سميعاً بصيراً لا لإثبات جارحة لاستحالة الجوارح على الله عز وجل .

ومثل هذا الخبر ما روي من خبر آخر انه قال ﷺفي وصف الدجال وأنه يدعي الربوبية ، قال ﷺ :

« **إن الدجال أعور وإن ربكم ليس بأعور** »[٢] .

ومعنى هذا الخبر ايضاً تحقيق وصف الله تعالى بأنه بصير ، وأنه لا يصح عليه النقص والعمى ولم يرد بذلك إثبات الجارحة وإنما أراد نفي النقص لأن العور نقص ، وقد ذكرنا انه لا مدح في إثبات الجوارح . بل اثباتها لله تعالى مستحيل ، ووصفه بها يؤدي الى القول بنفيه وحدثه للوجوه التي بيناها[٣] قبل .

---

(١) ومثل ذلك كثير في أسلوب البديع والبيان والمعاني في علم البلاغة .

(٢) روى الامام مسلم من حديث عبد الله عن نافع عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ، ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال :

« **إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمني،كأن عينه عنبة طافية** »

أخرجه مسلم جـ٢ كتاب الفتن باب ذكر ابن صياد .

وفيها أخرجه الامام أيضا عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« **ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا أنه أعور ، وإن ربكم ليس باعور ، مكتوب بين عينيه ك ، ف ، ر** » ورواه البخاري من حديث شعبة بنحوه .

(٣) وفي نسخة أخرى « بيناها من قبل » .

ذكر خبر آخر

في التجلي وتأويله

روى يحيى بن ابي كثير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما :

أن الله تعالى إذا اراد أن يخوف اهل الأرض أبدى عن بعضه ، وإذا أراد ان يدمر عليهم تجلى لها[١] .

اعلم انه يحتمل أن يكون المراد بقوله « ابدى عن بعضه » أي عن بعض آياته ، وعلاماته مما تكون منذرة ومخوفة ومحذرة كما قال تعالى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾[٢] .

وقوله : « وإذا اراد ان يدمر عليهم تجلى لها » يحتمل : أن يكون المراد : أنه اراد أن يهلكهم ويستأصلهم ، فأظهر من الآيات اكثر مما اظهرها في الأولى ، حتى لا يستقر قلوبهم عليها ، وقد بينا فيما قبل ، معنى التجلي وأن ذلك ينقسم الى وجهين .

فتارة يكون تجلياً بالذات كما تجلى للجبل[٣] بأن ارى نفسه الجبل فتدكدك

---

(١) يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ . سورة الاسراء آية ١٦ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الاسراء ، وفي معنى الآية أخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : « إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون ، أو يذكرون ، أو يرجعون » .

(٣) وهو المراد بقوله تعالى :

﴿ ولَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة الأعراف آية ١٤٣ .

وتقطع .

وتارة : يتجلى بأفعاله لخلقه ، بأن يظهر آياته الناقضة للعادات وعلاماته المزعجة للقلوب والأنفس ، فيسمى إظهاره لذلك تجلياً ، وذلك سائغ في اللغة على الوجهين جميعاً ، كما قال القائل :

« تجلى لنا بالمشرفية والقنا » .

يعني بالسيوف والرماح ، وأراد ظهور القوم بالحرب عليهم وفيهم .

وأما معنى التجلي ، فهو الظهور ، ولذلك تقول : جلوت العروس إذا أظهرتها وأبرزتها ، ومنه قول القائل :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفاد أو جلاء

أي ظهور وبروز ، ومنه الانجلاء عن الأوطان بالظهور منها والخروج .

وإذا كان هذا سائغاً في اللغة كان الواجب ، أن يكون محمولا عليه لإستحالة وصف الله تعالى بالكل والبعض والجزء ؛ وذكر الشيء ، والمراد به غيره سائغ في اللغة كقول القائل : بنو فلان يطؤهم الطريق ، والمراد اهل الطريق المارون فيها .

والعرب تقول : إجتمعت اليمامة ، يريدون بذلك اهلها .

وقال الله عز وجل : ﴿ **واسأل القرية** ﴾ وأراد اهلها[1] .

وإذا ساغ ذلك كان قوله : « **أبدى عن بعضه** » محمولا على هذا النحو أنه أبدى عن بعض آياته وعلاماته من الأفعال المنذرة المخوفة .

---

(١) وغير ذلك كثير في اللغة العربية مما هو سائد في علوم البلاغة من إيراد اللفظ وإرادة غيره .

ذكر خبر آخر وتأويله

روي عن رسول الله ﷺ : أن أعرابياً جاء اليه وعليه ثياب رثة فجعل رسول الله ﷺ، يصعد النظر فيه ويصوب ، ثم قال :

« ألك مال » ؟

فقال نعم .

فقال ﷺ : « إن الله سبحانه إذا انعم على عبد يحب ان يرى اثر نعمته عليه » ، ثم جرا له حديث طويل إلى أن وصف البحيرة التي كانت العرب تجرها بشق آذانها ، فقال ﷺ :

« ساعد الله اشد من ساعدك ، وموساه احد من موساك »[1] .

---

(١) رواه ابن ابي حاتم من طريق ابي إسحاق السبيعي عن أبي الاحوص الجشمي عن أبيه مالك بن نضلة قال :

أتيت النبي ﷺ في خلقان من الثياب فقال لي :

« هل لك من مال ؟ »

فقلت : نعم .

قال : « من أي المال ؟ »

قال : فقلت من كل المال من الابل والغنم والخيل والرقيق .

قال : : « فإذا آتاك الله مالا فكثر عليك » ثم قال : « تنتج إبلك وافية آذانها ؟ » .

قال قلت : نعم . وهل تنتج الابل إلا كذلك ؟ قال : « فعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول هذه بخير ، وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه حرم ، » قلت : نعم . قال « فلا تفعل إن كل ما آتاك الله لك حل » اهـ .

ذكر تأويل ذلك

اعلم ان النبي ﷺ إنما خاطب العرب على لغاتها ، والمفهوم من خطابها على عاداتها الجارية ، فيما بينهم ، والعرب تقول عند وصف، الرجل بالقدرة والقوة : عند إنفاذ الأمر :

فعلت ذلك بساعدي وبقوة ساعدي ولا يريد بذلك إثبات الساعد ، دون الوصف بالقدرة والقوة ، ألا ترى ان الرجل ، إذا قال أجمعت هذا المال بقوة ساعدي ، وإنما يريد أنه جمع المال برأيه وتدبيره وقوته ، دون المباشرة بالساعد ، والغرض من هذا الكلام معلوم ، والخطاب به مستقيم والمعنى مفهوم .

وكذلك قصد النبي ﷺ بقوله : « **ساعد الله اشد من ساعدك** » ، أي امره أشد من امرك ، وقدرته أتم من قدرتك على العادة التي عرفت العرب في خطابها اذا تكلمت بمثل هذا الخطاب ، لا على اثبات الساعد الذي هو الجارحة[1] للقديم جل ذكره ، وهذا نظير ما ذكرنا ، فيما قيل أن العرب تسمى محل الشيء باسم ما فيه من طريق القرب ، كما سمت البصر عيناً ، والسمع أذناً فسمى القدرة ساعداً وإن كان الساعد محلا للقدرة .

فأما قوله ﷺ : « **وموساه أحد من موساك** » .

فهذا تحقيق ما ذكرنا من التأويل في أن المراد به التمثيل ، وتحقيق الوصف بالقدرة لا إثبات الجارحة ، لأن الموسى لما كانت آلة للقطع ، وكان مراده عليه الصلاة والسلام أن قطعه اسرع من قطعك ، عبر عن القطع بالموسى ، إذ كانت سبباً له على مذهب العرب في تسمية الشيء بإسم ما يجاوره، ويقرب منه ويتعلق به ، وإذا كان

---

(١) فقد سبق بيان وجه استحالة ذلك على الله سبحانه وتعالى .

كذلك كان تأويل الخبر محمولا عليه .

وليس لأحد أن يقول : هلا حملتم ما وصف نفسه به من اليدين في قوله :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[1] و ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[2] على القدرة كما حملتم الساعد عليه ، لأجل ما تقدم ذكره من البيان ، فإن حمل ذلك على القدرة يبطل وجه الفائدة فيه في الاحتجاج على إبليس من حيث انه مخلوق بالقدرة ، كآدم عليه السلام .

وإنما ذكر الله ذلك في خطابه على طريق التفضيل لآدم على إبليس في قوله :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وليس كذلك ما ذكر في هذا الخبر من الساعد لأنه إن حمل على معنى القدرة لم ينقص اصلا ، ولم تبطل فائدة ، بل أمره اظهر في انه أراد به القدرة ، ولذلك قال : « موساه احد من موساك »[3] .

ذكر خبر آخر وتأويله

روى عطاء بن ابي رباح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا قام العبد إلى الصلاة، فإنه بين عيني الرحمن ، فإذا التفت، قال له الرب

(١) من الآية : ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) من الآية : ٧٥ من سورة ص .

(٣) ولبيان هذا المعنى ذكر صاحب أساس التقديس كلاماً نفيساً جاء فيه :

« على صحة مذهب السلف التمسك باجمال الصحابة رضي الله عنهم ، أن هذه المتشابهات في القرآن والأخبار كثيرة والدواعي الى البحث عنها والوقف على حقائقها متوفرة فلو كان البحث عن تأويلها على سبيل التفصيل جائزاً لكان أولى الخلق بذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم ، ولو فعلوا ذلك لاشتهر ولنقل بالتواتر ، وحيث لم ينقل عن واحد من الصحابة والتابعين الخوض فيها علمنا أن الخوض فيها غير جائز » اهـ .

تعالى ذكره : إلى من تلفت ؟

أإلى من هو خير مني ؟ أقبل الي فإني خير لك ممن تلتفت اليه » .

تأويل ذلك

اعلم ان العين في كلام العرب تستعمل في معان كثيرة :

منها ما يراد به الرؤية والمشاهدة .

ومنها ما يراد به الحفظ والكلاءة .

ومنها ما يراد به الجودة .

ومنها ما يراد به الدلالة .

ومنها ما يراد به الجارحة .

فأما ما يراد به الرؤية والمشاهدة ، فقول القائل : أنت على عيني ، واضع هذا المتاع على عينك ، اي على مرأى منك ومشاهدتك .

وأما ما يراد به الحفظ والكلاءة فهو قولهم : أنت بعين الله ، أي انت في حفظه وكلاءته .

وقيل في قوله تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1] أي في حفظنا وكلاءتنا .

وأما الذي يراد به الدلالة ففي قوله هذا عين الروم ، أي دليلهم .

وأما عين بمعنى الجودة ، ففي قولهم هذا عين المتاع ، وهذا عين القلادة ، أي

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور .

جيده والمختار منه[١] .

فأما العين التي هي بمعنى الجارحة[٢] ، فظاهر المعنى في الإستعمال ، لأنهم يقولون : عين الركبة والحدقة عين .

وإذا كان لفظ العين مشتركا مبين هذه المعاني المختلفة ، وكان وصف الله بالجارحة مستحيلا ، وجب ان يكون محمولا على بعض هذه المعاني[٣] التي ذكرنا في معنى العين ، وذلك انه إن حمل على ان المراد به الحفظ والكلاءة ، كما قيل في قوله : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وفي قصة نوح : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ لم يكن ذلك منكراً ، وكان معناه .

أن الله عز وجل موفق للمصلي حافظ له ، وأنه يحفظه وكلاءته حين وفقه للصلاة وحرسه عن المعصية في تركها ، كان بعينه على معنى أنه تحت حفظه ورعايته .

ومما يحقق ذلك أن ما ذكر من الخبر يدل عليه من قوله : ﴿ أنا خير لك ممن تلتفت اليه ﴾ .

لأن ذلك واعظ له من نفسه تنبيها له من ربه بزجره عن الإغفال ويدعوه إلى الإقبال ، وهذه علامة الحفظ والكلاءة من قبل الله عز وجل .

وإذا قلنا : إن المراد بعين البصر ، وأنه قد يسمى البصر عيناً لأجل انه مما يتعلق به ويقوم به فينا ، كان المراد بأن المصلي بمرأى من الله ومشهد يراه ويرى حركاته ، ويسمع كلامه ويشهد قلبه ، وتكون الفائدة فيه .

---

(١) وكل هذه المعاني واردة في اللغة .

(٢) وهي التي تستحيل إطلاقها على الله تعالى .

(٣) التي ذكرها المصنف والتي سبق أو أوضحنا تأويلها من قبل .

الترغيب في الحفظ على الصلاة ، وضم الجوارح للخشوع والحضور بالقلب والنية ، على رؤية المشاهدة والهيبة والإجلال ، لمن يصلي له ويناجيه في صلاته بقراءته وذكره وتسبيحه .

وإذا قلنا المراد بالعين الجودة والخيار من الشيء فيحتمل أن يكون المعنى فيه أن المصلي ممن إختاره الله من بين خلقه لعبادته وخدمته في أن وفقه للصلاة له ، فهو عين من عيونه ، وولي من أوليائه ، ومختار من خلقه .

وقد قيل في تأويل قوله عز وجل :

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1] كلا الوجهين بحفظنا ورعياتنا وكلاءتنا وعلى مرأى منا ومشهد .

وقيل في قوله :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[2] الأمر أن جميعاً أيضاً وكل ذلك محتمل .

وأما قوله :

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[3] فقد ذكر بعض اهل التفسير ، أن المعني بأوليائنا وخيار خلقنا لأنهم كانوا هم المؤمنين في وقت نوح عليه السلام .

وقال بعضهم : أراد بذلك أعين الماء ، التي اخرجها الله تعالى من الأرض .

وقال بعضهم المعنى أنها تجري بمرأى منا ومشهد[4] من حفظنا وكلاءتنا لا

(١) من الآية : ٣٧ من سورة هود .

(٢) من الآية : ٣٩ من سورة طه .

(٣) من الآية : ١٤ من سورة القمر .

(٤) وهذا القول ذكره صاحب تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

تلحقها آفة ولا يعترضها نقص لأجل حفظ الله تعالى لها ولمن فيها .

وإعلم ان استعمال لفظ العين في البصر توسع لما ذكرنا أنه تسمية الشيء باسم محله وباسم ما هو قائم به وأن ذلك سائغ في اللغة :

وقد اختلف اصحابنا فيما ثبت لله تعالى من الوصف له بالعين .

فمنهم من قال المراد به البصر والرؤ ية .

ومنهم من قال إن طريق إثباتها صفة لله تعالى السمع وسبيل القول فيها سبيل القول في اليد والوجه وقد مضى بيان ذلك حيث ذكرنا تأويل اليد .

وإذا كان لفظ العين مشترك المعنى محتمل التأويل ولا يخص أمراً واحداً هو جارحة فقط كما ذكرنا من مذهب المشبهة فقد بان أن الصحيح في وصف الله احد ما ذكرناه لإحتمال اللفظ وله وصحة جريان ذلك في وصفه تعالى وإستحالة وصفه بالجارحة والبعض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

روى مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺرأى بصاقا في جدار القبلة فحكه ثم اقبل على الناس فقال :

« إذا كان احدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى » [1]

ومثله ما هو قريب من معناه ما روى ابن المسيب عن ابي ذر رضي عنه أن رسول الله ﷺقال :

« لا يزال الله سبحانه مقبلا على العبد ما لم يلتفت في الصلاة فإذا صرف وجهه انصرف عنه » [2] .

« ذكر تأويله »

إعلم ان معنى قوله ﷺ **« إن الله سبحانه قبل وجهه »** ، يحتمل وجوها :

أحدها أن يكون معناه أن ثواب الله لهذا المصلي ينزل عليه من قبل وجه هذا المصلي ، ومثله قوله ﷺ :

« يجيء القرآن بين يدي صاحبه يوم القيامة » .

---

(١) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وصححه .

وأخرج البزار أيضاً عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت قال : يا ابن آدم ، إلى من تلتفت ؟الى من هو خير لك مني ؟ أقبل الي فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك ، فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى وجهه عنه » اهـ .

أي يجيء ثواب قراءته القرآن .

وقد روي ايضا في خبر أنه قال :

« **من قرأ ثلث القرآن أعطي ثلث النبوة** » [١]

والمعنى فيه أنه اعطي ثلث علم النبوة .

ومثله ايضا قوله عليه الصلاة والسلام .

« **من عال ثلاث بنات كن له حجاباً من النار** » [٢] .

أي كان ثواب ذلك حجاباً له من النار .

وقال حوثرة : قدم مكة عمر بن الخطاب ، فجعل يطوف في السكك ويقول :

قموا أفنيتكم فمر بأبي سفيان فقال له ذلك فقال نعم حتى يجيء مهاننا . يعني خدمنا وأحدها ماهن وهو الخادم .

قال ثم مر به بعد ذلك فقال : ألم اقل لكم قموا أفنيتكم فقال : نعم حتى يجيء مهاننا قال فعلاه بالدرة فخرجت هند فقالت اتضربه اما والله لرب يوم لو ضربته لاقشعرت بك بطن مكة فقال صدقت ، ولكن الله عز وجل رفع بالإسلام اقواماً ووضع به اقواماً .

فقولها اقشعرت بك بطن مكة ، اي اقشعرت بك اهل بطن مكة ، وهذا لما

---

(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« **من قرأ فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى اليه ، لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله** » .

(٢) أخرجه ابو داود عن ابي سعيد ، وقال الحافظ العراقي : رجاله موثقون .

ذكرنا من قول اهل اللغة انهم يقولون جاءت تميم والأزد ، ويريدون ابناءهم ، ويقولون جاءت اليمامة ويريدون اهلها وهذه طريقة للعرب ظاهرة في خطابها .

فيحتمل على هذا الوجه أن معنى قوله ﷺ :

« **فإن الله قبل وجهه إذا صلى** » أي ثوابه وكرامته .

ويحتمل ايضا ان يكون الخبر على معنى الترغيب في إدمان الخشوع في الصلاة والحض عليها يريد ﷺبذلك أن اولى الأشياء بالمصلي أن يكون يشتغل قلبه بذكر الله ، وذكر عظمته وعزته وقدرته ، ويكون المعنى أن عظمة الله وعزته يجب ان تكون من تلقاء وجهه على معنى أنه يجب ان يكون شغله بها وبذكرها وتجديد إحضارها القلب عن غيره[1] .

ويحتمل أن يكون ذلك ضرباً من آداب الصلاة علمه المصلي حتى يكون في صلاته متحرماً بحرمتها معظمًا لأمرها وللجهة التي استقبل اليها خاصة تعظيمًا لأمر الله تعالى فكذلك لا يبصق قبل تلك الجهة .

وعلى هذا يكون تقدير قوله : « **بأن الله قبل وجهه** » أي أن امره قد وجه عليه من تعظيم الجهة التي توجه اليها فيجب أن لا يعدل عنها بشيء من جسده ولا شيء من قلبه .

فأما قوله ﷺ :

« **لا يزال الله سبحانه وتعالى مقبلا على عبده ما لم يلتفت في الصلاة** »[2] .

---

(١) وفي كتاب اتحاد السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، استفاضة تامة لهذا القول فارجع اليه إن شئت .

(٢) سبق تخريجه قريباً .

فيحتمل ان يكون المعنى فيه أنه لا يزال خيره مقبلا عليه ، كما يقول القائل أن الأمير اقبل على فلان إذا قبله وقربه وأناله خيراً .

وقوله : « **فإذا صرف وجهه إنصرف عنه** » أي إنصرف خيره وثوابه بقول القائل أن الأمير صرف وجهه عن فلان إذا قطع خيره عنه ولم يحسن اليه في المستأنف كما احسن اليه فيما قبل وهذا كقول القائل :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

أي إذا أمال بأن يقطع عطيته ونظره لا أنه يريد بذلك الخد المعروف .

ويحتمل ان يكون المعنى فيه لا يزال توفيق الله للعبد ولطفه به واصلا إليه ما لم يعرض ، فإذا أعرض فقد اعرض الله عنه بفعل الخير وإعادة اللطف عنه ، وهو معنى قوله إنصرف عنه وهذا كما قال الله عز وجل :

﴿ ثُمَّ ٱنْصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللهُ قُلُوبَهُم ﴾[1] .

والمعنى في ذلك انه لما صرف الله قلوبهم عن الخير بقطع التوفيق واللطف ، إنصرفت قلوبهم عن الخير، وهذا مبني على اصلنا في أنه لا ينصرف احد عن الطاعة إلا بصرف الله عز وجل ، وذلك بأن لا يفعل له توفيقاً يصل به الى فعل الخير وعلى ذلك يتأول قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[2] .

أي لما زاغوا في علمي وحكمي ، أزغت قلوبهم لما احدثتهم وخلقتهم .

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٥ من سورة الصف .

واعلم ان الذي اوجب ان يحمل التأويل في ذلك على معنى ما قلنا استحالة وصف الله تعالى بالكون في وجهه ومحاذاة ومقابلة لإستحالة كونه جوهرا أو جسمًا وإذا سوغت اللغة هذه الطريقة التي حملنا عليها هذا الكلام وكان مفيدا كان حمله عليه اولى من وصف الله تعالى ، بما لا يليق[1] .

---

(١) وقد بينا من قبل وجه الاستدلال على استحالة كونه تعالى جوهراً ، أو جسما .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

« **ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . شيخ زان وملك كذاب ، وعائل متكبر** »[١] .

وروى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال :

« **الذي يجر إزاره[٢] خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة** » .

ووجه السؤال في هذا الخبر هو أن قيل :

إذا كان الله تعالى لا يصح أن يوصف بالنظر فما فائدة قوله ولا ينظر إليهم[٣] ولا يزكيهم ؟ .

والجواب عن ذلك أن النظر في كلام العرب يتصرف على وجوه .

منها نظر العيان .

ومنها نظر الانتظار .

ومنها نظر الإعتبار .

ومنها نظر التعطف والرحمة .

---

(١) وفي نسخة أخرى : عالم متكبر ، والحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أي المرخي إزاره إلى اسفل الكعبين بقصد الخيلاء ، وخص الحديث الإزار بالذكر لأنه عامة لباسهم فلغيره من نحو قميص حكمه من باب أولى ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه بنحوه

(٣) لا ينظر اليهم نظرة رحمة وعطف ، ولا يزكيهم يطهرهم من الذنوب أو لا يثني عليهم .

فمعنى قوله ﷺلا ينظر الله إليهم ، أي لا يرحمهم ، والنظر من الله تعالى لعباده إنما هو رحمته لهم ورأفته بهم وعبادته عليهم ، ومنها يقول القائل لغيره : انظر إلى نظر الله إليك ، أي ارحمني رحمك الله .

ويقال أيضا أنظر إلي بمعنى تعطف علي ، ويقال في الدعاء أيضاً أنظر إلينا نظرة ترحمنا بها .

وروي في خبر آخر أن النبي ﷺقال :

« إن لله في خلقه كل يوم ثلاثمئة وستين نظرة يخفض فيها ويرفع ويعز ويذل »[1] .

والمراد بهذه النظرات ما يتجدد في كل حال من تغيير الشؤون والأحوال .

فأما وصف الله تعالى بأنه ناظر فلا يصح بمعنى الرؤية من قبل أن النظر المقرون بالوجه إلى الذي في اللغة ، وإذا كان بمعنى الرؤية والعيان فلا يسمى الله سبحانه إلا بما سمى به نفسه وسماه به رسوله واتفقت عليه الأمة ، وقد ورد الكتاب بأنه رائي بصير ، وأنه يرى ويبصر ولم يرد بأنه ينظر ، فلذلك لا يوصف بالنظر على معنى الرؤية ويوصف بالنظر على معنى التعطف والرحمة وعلى ذلك يتأول أيضاً قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ إلى قوله **﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾**[2] .

أي لا يتعطف عليهم ولا يرحمهم ، ولا يجوز أن يوصف رؤية الله بأنها نظر

(١) أنظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي .
(٢) الآية : ٧٧ من سورة آل عمران .

كما لا يوصف بأنه ناظر على معنى أنه ، رأي ، وكذلك لا يجوز أن يوصف بأن الله رؤية بعد رؤية ، كما لا يوصف بأن له علمًا بعد علم .

فما وصف به من تكرير النظرات وتكثيرها فذلك يرجع إلى معنى النظر الذي هو العطف والفضل والرحمة ، وذلك نوع الفعل ، ولا يجوز فيما طريقه طريق صفات الذات أن تعدد وتكرر وتكثر .

سؤال ، فإن قال قائل أليس قد روي في الخبر أن النبيﷺ قال :

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم »[١] .

فما معنى هذا النظر[٢] ؟

قيل هذا يحتمل معناه أن يكون الإحتساب والاعتداد ، أي أنه لا يعتد بما يظهر على ظواهركم إذا لم تكن موافقة لبواطنكم ، وهذا كما يقول القائل قصدت فلانا فما نظر إلي ، أي لم يقع قصدي عنده موقعا اعتد به وإحتسبه ، وإنما كان كذلك لأن الأعمال الظاهرة منوطة بصحة السرائر والإخلاص في النيات ، ولهذا قال النبي ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرى ما نوى »[٣] .

يريد بذلك أن النيات هي المصححة للأعمال ، وأنها مع انفرادها عنها لا تقع مواقع القبول والاجزاء .

---

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه ، وابن ماجه في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ومعنى النظر في الحديث : المجازاة على ظاهر الأعمال ، وقيل : نظر مثوبة ، أو رحمة ، أو لطف ، أو غابة .

(٣) الحديث أخرجه الامام البخاري في صحيحه ، والامام مسلم في صحيحه أيضا .

سؤال آخر

فإن قال قائل أليس قد روي أيضاً في الخبر الآخر أن الله تعالى « لم ينظر إلى الدنيا منذ خلقها » فما معنى ذلك ؟ .

قيل قد بينا فيما قبل أن النظر الذي هو بمعنى الرؤ ية لا يقع فيه الاختصاص وأنه تعالى هو الرائي لكل مرئي لا على معنى طريق الاختصاص ، ولا يوصف بالنظر على معنى الرؤ ية من طريق اللفظ والعبادة لأجل أن السمع لم يرد به .

وأما الذي يوصف به من ذلك على لفظ النظر نفياً وإثباتاً فإنما هو بمعنى التعطف والرحمة أو تركهما ، أو بمعنى القبول على الوجه الذي ذكرنا في قولهم فلان ما ينظر إلى فلان ، إذا أراد أنه لا يعتد به ، ولم يكن له عنده قدر ، وعلى ذلك يحمل معنى الخبر بأن الله تعالى لما خلق الدنيا للفناء[1] والزوال ، وحث على الزهد فيها ، وترك الإشتغال بها ، قيل في وصفه على هذا المعنى أنه لم ينظر إليها .

أي لم يجل قدرها ولا قدر من ركن إليها ، وهذا يرجع في التحقيق إلى معنى منع لطفه المشتغلين بها ، المعرضين عن حكم الآخرة ، لأن ما وصف من النظر على هذا الوجه راجع إلى معنى اللطف والرحمة والتوفيق ، وفعل الخير ، واللطف بأهله ، ويكون تحقيقه ، أن المشتغلين بها ، المعرضين عن الطاعة فيها قد حرموا من

---

(١) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾
ويقول تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلاَلِ وَالإكْرَامِ ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ . سورة يونس آية ٢٤ .

اللطف والتوفيق من عنده ما عند حرمانه أعرضوا عن الطاعة واشتغلوا بالمعصية ، وكل ذلك ترتيب أمر وصفنا الله تعالى بالنظر ، في قول القائل نظر إليه ، ولم ينظر إليه .

ذكر خبر آخر وتأويله

روي في الخبر أن رسول الله ﷺقال :

« تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا »[١] .

اعلم أن وصف الله تعالى بالجلالة على معنى السآمة والإستثقال للشيء على معنى نفور نفسه عنه محال ، لأن ذلك يقتضي تغيره ، وحلول الحوادث فيه ، وذلك غير جائز في وصفه ، ولهذا الخبر طريقان من التأويل .

أحدهما : أن يكون معناه أن الله سبحانه لا يغضب عليكم ، ولا يقطع عنكم ثوابه ، حتى تتركوا[٢] العمل ، وتزهدوا في سؤاله[٣] والرغبة إليه فسمى الفعلان مللا تشبيها بالملل وليسا بملل على الحقيقة[٤] .

---

(١) الحديث أخرجه الامام البخاري ومسلم وهو متفق على صحته ولفظه :
عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺدخل عليها وعندها امرأة قال : « من هذه » ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها ، « مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه » .

(٢) يؤيده قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ ﴾ سورة الشورى آية ٣٠ .

(٣) يؤيده أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ سورة غافر آية ٦٠ .

(٤) وهو الاولى والأصح ، يقول صاحب فيض القدير :
« لا يمل الله حتى تملوا » أي لا يترك الثواب عنكم ، حتى تتركوا عبادته ، فإن من مل شيئا تركه ، وأتى بهذا اللفظ للمشاركة كقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ .

والوجه الثاني أن يكون معناه أن الله لا يمل إذا مللتم ، ومثل هذا قولك في الكلام : أن هذا الفرس لا يفتر حتى تفتر الخيل ، وليس المراد بذلك أنه يفتر إذا فترت الخيل ، ولو كان المراد هذا ما كان له فضل عليها ، لأنه يفتر معها ، وأي فضيلة له ؟ وإنما المراد بهذا المثل أنه لا يفتر ، وإن فترت الخيل وكذلك يقول القائل للرجل في كلامه ، الألد في خصومته .

فلان لا ينقطع حتى ينقطع خصومه .

يريد بذلك أنه لا ينقطع إذا انقطع خصومه ، ولو أراد به أنه ينقطع إذا انقطعوا لم يكن له في ذلك القول فضل على غيره ، ولا وجب له مدحه ، وقد جاء مثل ذلك في كلامهم . وفي الشعر أيضاً كما قال قائلهم :

صليت مني هذيل بحرق لا يمل الشر حتى يملوا

لم يرد بأنهم يملون الشر إذا ملوه ، ولو أراد ذلك ما كان لهم فيه مدح ، لأنهم حينئذ يكونون فيه مثلهم ، بل أراد أنهم لا يملون الشر وإن مله خصومهم ، فعلى هذا يكون الخبر .

إن الله عز وجل لا يوصف بالملال على الحقيقة وإن تركوا هم طاعته وقصروا فيها ، لأن الله عز وجل لا يوصف بالملال على الحقيقة[1] .

---

(١) وهذا الحديث يدل : ـ كما قال المناوي ـ على :

« الزموا ما تطيقون الدوام عليه بلا ضرر ، ولا تحملوا أنفسكم أوراداً كثيرة لا تقدرون على أدائها ، فمنطوقه يقتضي الامر بالإقتصار على ما يطاق من العبادة .

ومفهومه يقتضي : النهي عن تكلف مالا يطاق .

وهذا وإن ورد في الصلاة ، لكن اللفظ عام وهو المعتبر .

والخطاب للرجال والنساء لكنه غلب المذكور ، قال ابن الحاج :

فليحذر أن يتكلف من العمل ما عليه فيه مشقة أو يخل باشتغاله بالعلم ، لأن اشتغاله به أفضل ، وهذا

باب كثيرا ما يدخل منه الشيطان على المشتغلين بالعلم اذا عجز عن تركهم له بأمرهم بكثرة الاوراد حتى ينقص اشتغالهم ، لأن العلم هو العدة التي يتلقى بها ويحذر منه منها ، فإذا أعجز عن الترك رجع الى باب النقص ، وهو باب غمض على كثير من طلبة العلم ، لأنه باب خير ، وعادة الشيطان أن لا يأمر بخير ، فيلتبس الأمر على الطالب فيخل بحاله ، وكان المرجاني يقول : « ينبغي لطالب العلم أن يكون عمله في علمه كالملح في العجين إذا عدم منه لم ينتفع به ، والقليل منه يصلحه .

ثم يستطرد صاحب الفيض فيقول :

« وأفاد ـ الحديث ـ أفضلية المداومة على الطاعة وإن قلت ، وشفقته على أمته ورأفته بهم وكراهة التشديد في العبادة .

والناس في العبادة على طبقات :

أعلاها وأفضلها طريقة النبي ﷺ ، وهو أنه كان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته مصلياً ولا نائماً إلا رأيته نائما .

وأصل الملال استثقال الشيء ونفور النفس عنه بعد محبته ، وهو محال عليه تعالى ، فأول بما مر .

ويقول البيضاوي

الملل فتور يعرض للنفس من كثرة مزاولة شيء فيورث الكلال في الفعل والاعراض عنه ، وأمثال ذلك إنما يصدق في حق من يعتريه التغير والانكسار ، أما من تنزه عنه فيستحيل تصوره في حقه ، فإذا أسند اليه أول بما هو منتهاه ، وغاية معناه كإسناد الرحمة والغضب والحياء والضحك اليه تعالى .

فالمعنى : اعملوا حسب وسعكم وطاقتكم ، فإنه لا يعرض عنكم إعراض الملول ولا ينقص ثواب أعمالكم ما بقي لكم نشاط ، فاذا فترتم فاقعدوا فإنكم إذا مللتم من العبادة وأتيتم بها على كلال وفتور كان معاملة الله معكم معاملة الملول عنكم » اهـ .

وقال التوربشتي :

إسناد الملال الى الله على طريق الازدواج والمشاكلة ، والعرب تذكر أحد اللفظين موافقة للأخرى ، وإن خالفتها معنى ، قال تعالى :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ اهـ .

ذكر خبر آخر وتأويله

روي أن رسول الله ﷺ قال :

« **لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر** »[1] .

اعلم أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف ، بأنه دهر ، وأنه الدهر على الحقيقة ، وإنما هذا مثل ، وأصله أن العرب في الجاهلية كانت تقول : أصابني الدهر في مالي بكذا ، ونالتني قوارع الدهر ومصائبه ، فيضيفون كل حادث يحدث مما هو جار بقضاء الله وقدره وخلقه وتقديره ، من مرض أو صحة ، أو غنى ، أو فقر ، أو حياة ، أو موت ، إلى الدهر ويقولون : لعن الله هذا الدهر والزمان ، وكذا قال قائلهم :

أمن المنـون وريبها يتـوجع والدهر ليس بمتعب من يجزع

وقد يسمى الدهر المنون والزمان أيضاً ، لأنه جالب المنون عندهم والمنون المنية .

وروى بعضهم هذا البيت :

أمن المنـون وريبه تتـوجـع والدهر ليس بمتعب من يجزع

كأنه قال أمن الدهر وريبه تتوجع .

وقد قال الله سبحانه :

---

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، باب الأدب .

﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[1] أي ريب الدهر وحوادثه .

وكانت العرب تقول : لا ألقاك آخر المنون أي آخر الدهر .

وقد أخبر سبحانه عن أهل الجاهلية بما كانوا عليه من نسبة أقدار الله وأفعاله إلى الدهر فقال :

« **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** » .

فقال ﷺ : « **لا تسبوا الدهر** » .

أي إذا أصابتكم المصائب لا تنسبوها إليه ، فإن الله هو الذي أصابكم بها لا الدهر ، وإنكم إذا سببتم الدهر ، وفاعل ذلك ليس هو الدهر ، وقع السب على فاعل ذلك ، وهو الله تعالى ، ألا ترى أن الرجل منهم إذا أصابته جائحة من مال أو ولد أو بدن سب فاعل ذلك وتوهمه الدهر ، فكان المسبوب هو الله[2] جل ذكره .

ومثاله في الكلام : أن يكون رجلا يسمى زيداً وله عبد يسمى بكر ، فأمر بكراً أن يقتل رجلاً فقتله فسب الناس بكراً ، فقال لهم قائل : لا تسبوا بكراً فإن زيداً هو بكر ، يريد أن زيداً هو القائل لأن الذي أمره كأنه هو القاتل ، كذلك

الآية : ٣٠ من سورة الطور .

والمعنى ـ كما قال ابو السعود في تفسيره :

(المنون : الموت ، وهو في الاصل فعول من منه إذا قطعه ، لأن الموت قطوع ، أي بل أيقولون ننتظر به نوائب الدهر) اهـ .

ويقول الخازن في تفسيره :

(المنون إسم للموت وللدهر ، وأصله القطع ، سميا بذلك لأنهما يقطعان الاجل) اهـ .

(٢) وهذا لا يصح ولا يؤمن من فعل ذلك عمدا ، أما من فعل ذلك خطأ وجهلا فإنه يستتاب ويستغفر ويرجع الى الله بالندم والتوبة والتضرع الى الله تعالى أن يغفر له خطأه .

الدهر تكون المصائب فيه والنوازل وهي بأقدار الله تعالى ، فيسبه الناس لكون المصائب فيه وليس للدهر صنع فيقول القائل : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر .

وزعم بعض رواة أهل العلم أن هذا الحديث قد اختصره بعض الرواة وغيروا معناه عن جهته ، لأن في الحديث كلاماً إذا ذكر بان تأويله .

وقد روى الزهري عن ابن المسيب رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

قال الله تعالى :

« يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار ، وأنا الدهر »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده والشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه :
«يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » ورواية الامام مسلم في صحيحه
عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ، عن رب العزة قال :
يؤذيني ابن آدم بقوله : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما) .
ومعنى الحديث كما يقول صاحب الاتحافات السنية ـ :
(الايذاء إيصال المكروه بأحد ضروبه ، وإيذاء الله تعالى عبارة عن فعل ما لا يرضاه ، والسب الشتم ، والشتم هو الوصف بما يقتضي النقص) والاسم الشتيمة ، والتشاتم التساب .

والدهر في الاصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده الى انقضائه ، ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة ، وهو خلاف الزمان ، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة ،
والليل والنهار معلومان ، والخيبة الحرمان والخسران .
والمراد : أن الله تعالى يخبرنا أن ابن آدم يؤذيه ويوصل اليه المكروه بأن يقول في حقه تعالى ما يكره بسبب سب الدهر ، وقد كان من شأن العرب أن تذم الدهر وتسبه عند النوازل والحوادث ويقولون : أبادهم الدهر وأصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ويكثرون ذكره بذلك في أشعارهم ، وذكر الله عنهم في كتابه=

وإذا روى هذا الحديث بهذا الشرح بان أن التأويل على ما ذكرناه وقد روي « قوله وأنا الدهر » على وجهين .

أحدهما : بفتح الراء من الدهر ويكون معناه : أنه جعل ذلك وقتاً للفعل المذكور ويرجع معناه إلى : أنا الباقي أبداً المقلب للأحوال التي يتغير بها الدهر .

وقد روي أيضاً بضم الراء وإذا روي على هذا الوجه يكون معناه ما تقدم ذكره أي أنا المغير للدهر والمحدث للحوادث فيه لا الدهر كما يتوهمون .

ويكون فائدته : تكذيب من اقتصر على الدهر والأيام والليالي في حدوث الحوادث وتغييرها من الملحدين والزنادقة ، وتحقيقاً لإثباته جل ذكره أنه الفاعل لجميع الحوادث المريد لها ، لا مرور الليالي والأيام ، وأن الأيام والليالي ظرف للحوادث ، لا أنها يحدث بها أو منها شيء[1] .

العزيز ، فقال :

﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ .

فنهاهم الله عز وجل عن ذم الدهر وسبه ، أي لاتسبوا فاعل هذه الأشياء ، فإنكم إذا سببتموه وقع السب على الله تعالى ، لأنه الفعال لما يريد لا الدهر ، بيد الله الأمر يقلب الليل والنهار ، يجددهما ويبليهما ، ويذهب بالملكوت والجبابرة ، فالزمان يذعن لأمر الله تعالى ، ولا اختيار له ، فمن ذم الدهر والزمان على ما يظهر فيه صادرا عن الله تعالى ، فقد ذم الله ، وهو الضار والنافع .

(١) ويقول المنياوي في هذا المعنى :

« إن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ، وسببه أنهم كانوا يضيفون كل حادثة تحدث الى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان » اهـ .

وقال المنذري :

معنى الحديث أن العرب كانت إذا نزل بأحدهم مكروه بسبب الدهر اعتقدوا أن الذي أصابه فعل الدهر ، فكان هذا كاللعن للفاعل ولا فاعل لكل شيء إلا الله ، فنهاهم عن ذلك .

ذكر خبر آخر يقتضي التأويل

روي في الخبر أن النبي ﷺقال عقيب كلام ذكره مما لا يقتضي تأويلاً ولا يوهم تشبيهاً .

« وأن آخر وطأة وطئها الله تبارك وتعالى بوج » .

ذكر تأويله

اعلم أن الوطأة التي هي بمعنى مماسة جارحة بجارحة أو ببعض الأجسام لا يصح في وصف الله تعالى ، لاستحالة كونه جسماً ، واستحالة الممارسة عليه ، واستحالة تغييره بما يحدث فيه من الحوادث ، وإذا كان كذلك كان محمولاً معناه على ما تقدم ذكره في أن ذلك يرجع إلى الفعل دون أن يكون معنى يتعلق بالذات مما يقتضي حدوث معنى فيها .

ومعنى الحديث على هذا التأويل : أن آخر ما أوقع الله سبحانه بالمشركين بالطائف وكان آخر غزوة غزاها النبي ﷺحنين وادي الطائف ، ووج اسم موضع فيه ، وكان سفيان بن عيينة يذهب في تأويل هذا الحديث إلى نحو ما ذكرناه ويقول إن ذلك مثل قوله ﷺ :

« **اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف** »[1] .

فتتابع القحط عليهم سبع سنين حتى أكلوا القد والعظام .

والعرب تقول في كلامها : اشتدت وطأة[2] السلطان على رعيته وليس

---

(١) أخرجه الامام البخاري ، والامام مسلم في صحيحهما .

(٢) يقول صاحب المختار :

يريدون وط ء القدم .

وكذلك يقال وطئهم السلطان وطأ ثقيلاً . ويقال وطأة المقيد إذا أرادوا وصف الوطأة بالثقل وكذلك قال قائلهم :

ووطئتنا وطأ على حنق   وط ء المقيد يابس الهرم

والمقيد أثقل شيء وطأ لأنه يرسف في قيوده فيضع رجليه معاً ، ويروى نابت الهرم ، وهو نبت ضعيف فإذا وطئه المقيد فتته .

وإذا كان هذا في الكلام سائغاً وفي العرب جائزاً وجب أن يحمل عليه معنى الخبر لاستحالة وصف الله تعالى بالجوارح والممارسة .

« وطىء الأرض ونحوها يطأ ووطؤ الموضع صار وطيئاً ، وبابه ظرف .

ووطأه توطئة ، والوطأة كالضربة موضع القدم ، هي أيضاً كالضغطة ، وفي الحديث : « **اللهم اشدد وطأتك على مضر** » .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

روى جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **اهتز العرش لموت سعد بن معاذ** » . وقد روى أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في هذا الخبر أنه قال :

« **اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ** »[(١)] .

ذكر تأويله

اعلم أن بعض أهل العلم يذهب في تأويل هذا الحديث إلى أن ذلك اهتزاز العرش على الحقيقة ، وأن العرش تحرك على الحقيقة لموت سعد ، ولسنا ننكر هذا التأويل لأجل أن العرش يجوز عليه الحركة ولكنه تبطل فائدته .

وتأوله بعضهم على أن العرش ها هنا السرير الذي كان عليه سعد وهذا أيضاً يبطل فائدة الخبر ؛ وإنما أفيد بهذا الخبر فضله لسعد ، ولا فضيلة له في تحرك سريره .

والصحيح من التأويل في ذلك أن يقال الاهتزاز هو الاستبشار والسرور ، يقال إن فلاناً يستبشر للمعروف ويهتز له ، ومنه قيل في المثل : إن فلاناً إذا دعي اهتز ، وإذا سئل ارتز ، والكلام لأبي الأسود الدؤلي .

والمعنى فيه : أنه إذا دعي إلى الطعام يأكله ارتاح له واستبشر ، وإذا دعي إلى

---

(١) أخرجه الشيخان عن جابر رضي الله عنه .

وفي ذلك يقول حسان :

وما اهتز عرش الله من أجل هالك — سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

حاجة ارتز ، أي تقبض ولم ينطلق ، ومنه قول الشاعر :

وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

فمعنى الاهتزاز في الحديث الاستبشار والسرور ، وأما العرش فعرش الرحمن على ما جاء في الخبر ، والمعنى في ذلك : أن حملة العرش الذين يحملونه[1] ويطوفون حوله ، فرحوا بقدوم روح سعد عليهم ، فأقام العرش مقام من يحمله ويطوف به من الملائكة كما قال الله تعالى :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[2] .

يرد أهل السماء وأهل الأرض .

وكما قال ﷺ في أحد :

« هذا جبل يحبنا ونحبه »[3] .

يريد يحبنا أهله ، يعني الأنصار ، ونحب أهله .

وقد جاء في هذا الحديث : أن الملائكة يستبشرون بأرواح المؤمنين وأن لكل مؤمن باباً من السماء ، يصعد فيه عمله ، وينزل منه رزقه ، وتعرج منه روحه إذا مات ، فكأن حملة العرش من الملائكة يفرحون ويستبشرون بقدوم روح سعد بن

---

(١) وهذا يؤيده قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ سورة غافر آية ٧ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ سورة الحاقة آية ١٧ .

(٢) الآية : ٢٩ من سورة الدخان .

(٣) أخرجه الامام البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد ، وأخرجه الترمذي في سننه ، والطبراني في معجمه الصغير عن أنس ، والامام أحمد في مسنده والطبراني والضياء عن سويد بن عامر الأنصاري . ورواه الطبراني في الأوسط عن ابي عبس بن جبر بلفظ : « احد هذا جبل يحبنا ونحبه » .

معاذ عليهم ، لكرمه عنه الله وحسن عمل صاحبه .

واعلم أن هذا الخبر ليس مما يرجع شيء منه إلى صفات الله تعالى ، ولكنه مشكل اللفظ فدخل في جملة ما ضمنا تأويله وتفسيره من مشكلات الأخبار .

ذكر خبر آخر وتأويله

روى عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **لو جعل القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق** »[1] .

اعلم أن الناس اختلفوا في تأويل هذا الخبر على وجوه .

فقال بعضهم : إن من منَّ الله عليه بحفظ القرآن وقاه عذاب النار[2] ، واحتج لذلك بحديث أبي أمامة ، أن الله لا يعذب قلباً وعى القرآن ، وقد روي ذلك عن الأصمعي[3] .

---

(١) أخرجه ابن حميد في مسنده ، وابن لهيعة ، وابن زنجويه ، واسحاق بن عيسى ، عن عقبه بن عامر رضي الله عنه ، وأخرجه البغوي في تفسيره أيضاً عن عقبة بن عامر .

(٢) يؤيد هذا ما أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن خزيمة ، والحاكم وقال صحيح الاسناد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن يا رب حله ، فيلبس تاج الكرامة ثم يقول : يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارض عنه ، فيرضى عنه ، فيقال له : أقرأ ، وارق ، ويزداد بكل آية حسنة** » .

ويقول البغوي في تفسيره أيضاً .

« **معنى الحديث أن من حمل القرآن وقرأه لم تمسه النار يوم القيامة** » .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ولفظه : قال رسول الله ﷺ « **اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه** » ، وأخرجه الحافظ المنذري كذلك في كتابه النفيس الترغيب والترهيب كتاب قراءة القرآن .

وقال بعضهم : معناه ، أن القرآن لو كتب في جلد ثم طرح الجلد في النار ما أحرقته النار ، وذلك في عهد رسول الله ﷺلنبوته .

وقال قوم : تأويله أن القرآن لو كتب في جلد ثم طرح الجلد في النار ما احترق ، أي ما احترق القرآن .

بمعنى أنه لم يبطل ولم يندرس ، وإنما يندرس المداد ، ويحترق الجلد دون القرآن ، وهذا مثل قوله ﷺحاكياً عن الله سبحانه :

﴿ إني منزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ﴾[١] .

ولم يرد أنه لو كتب القرآن في شيء وغسل بالماء لم يغتسل ، إنما أراد أن الماء لا يبطله ولا يفنيه ، فكذلك قوله ما احترق ، أي في حقيقة الأمر لا يبطل ولا يندرس ، ومثل هذا كثير ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثاً ﴾[٢] وهم قد كتموا الله لما قالوا :

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[٣] .

وإنما أراد ، ولا يكتمون الله في حقيقة الأمر ، لأنهم فيما كتموه لم يغب ما كتموه عن الله وإنما توهموا أنهم كتموه .

وذهب ذاهبون من أصحابنا إلى أنه لا يصح أن يكون معناه : إن من حفظ القرآن لم يعذب بالنار لأنه قد روي في الخبر عن النبي ﷺقال :

---

(١) ذكره ابن حميد في مسنده وقال : حديث حسن .

(٢) الآية : ٤٢ من سورة النساء .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الأنعام .

« **يكون فيكم قوم تحقرون صلاتكم في صلاتهم ، وأعمالكم في أعمالهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كمروق السهم من الرمية** »[1] .

فبان أنه أراد بقوله لا يعذب قلباً وعى القرآن إذا حفظ حدوده وعمل بموجبه .

واعلم أن هذا الخبر دليل على صحة ما نقول : إن القرآن مكتوب في اللوح والجلد ، غير حال ، وأنه لا يجب حلول الكلام في محل الكتابة ، كما أنه ﷺ مكتوب في التوراة ، ولم يكن حالا فيها ، وكذلك قال ﷺ : « ما احترق » ، أي إن احترق الجلد ، وبطلانه لا يؤدي إلى بطلان الكلام ؟ لأجل أنه ليس في محل كتابته .

ومثل هذا الحديث ما روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **لا ينبغي لحامل القرآن أن يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله سبحانه** »[2] .

وذلك أن معنى قوله : « **يحمل القرآن لمن حفظه ووعاه وفهمه** » .

ومعنى قوله : « **وفي جوفه كلام الله** » أي حفظ كلام الله ، وذلك أن كلام الله تعالى محفوظ في القلوب ، متلو بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، كما أن الله جل ذكره مذكور بالألسنة ، معبود بالجوارح ، ولا يجوز أن يكون في شيء من ذلك حالا ، ومثل هذا قوله تعالى :

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده والامام البخاري والترمذي في سننه ، وابن ماجه والنسائي :

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والبيهقي في السنن ، والنسائي .

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[1] والمراد حب العجل ، لأن العجل لم يحل في قلوبهم .

واعلم أنا لا نأبى أن كلام الله تعالى محفوظ على الحقيقة يحفظ في القلوب مكتوب على الحقيقة في المصحف كتابة حالة فيها ، متلو بالألسنة بتلاوة فيها ، مسموع في الأسماع ؛ غير حال في شيء من هذه المخلوقات ولا يجاوز .

ذكر خبر آخر

فإن قيل فما تقولون فيما روى أبو أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

﴿ ما تقرب العبد إلى الله سبحانه بمثل ما خرج منه يعني القرآن ﴾[2] .

قيل لهم : إن خروج الشيء من الشيء على وجهين :

أحدهما كخروج الجسم من الجسم ، وذلك بمفارقة مكانه وإستبداله مكاناً آخر ، وليس الله تعالى جسماً ولا كلامه جسم ، لأنه لو كان جسماً لاقتضى محلاً واحداً وذلك فاسد .

والوجه الثاني : من معنى الخروج : كقولك : خرج لنا من كلامك خير كثير ، وأتانا منه نفع مبين[3] ، إذا أراد أنه ظهر لهم منه منافع .

---

(١) الآية : ٩٣ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه وقال حديث غريب ، ولفظه :
عن أبي أمامة رضي الله عنه قال النبي ﷺ :
« ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما ، وإن البر ليذر على رأس العبد ما دام في صلاته » .
« وما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج منه يعني القرآن »

(٣) أي واضح ظاهر عظيم .

فأما الخروج الذي بمعنى الانتقال فلا يصح على كلام الله سبحانه ، ولا على شيء من الكلام ، لأجل أنه ليس بجسم ولا جوهر وإنما يجوز الانتقال على الجواهر والأجسام .

فأما على الوجه الثاني فيصح ، والمعنى فيه : أنه ما أنزل الله على نبيه وأفهم عباده .

وقد قال قائلون : إن الهاء في قوله خرج منه ، يعود إلى العبد ، وخروجه منه وجوده متلواً على لسانه ، محفوظاً في صدره مكتوباً بيده .

وذكر عكرمة أنه شهد جنازة مع ابن عباس رضي الله عنهما ، قال فجعل رجل يقول عند القبر :

يا رب القرآن إغفر له .

فقال ابن عباس : مه ، أما علمت أن القرآن منه ؟

فقال : فغطى الرجل رأسه ، كأنه قد أتى كبيرة .

ومعنى قوله « إن القرآن منه » أي هو صفة الله القائمة بذاته ، ولم يجز أن يكون ما كان من حكمه مربوباً محدثاً[١] :

فإن قيل ، فما معنى قول عمرو بن دينار :

أدركت مشايخنا يقولون منذ سبعين سنة :

إن القرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود ؟ .

---

(١) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قديم ، وصفته قديمة والقديم وهو الله سبحانه وتعالى منزه عن الحوادث فكذلك صفاته سبحانه .

قيل معناه عند أهل النظر :

أنه هو الذي تكلم به ، وهو الذي أمر به ونهى به ، وإليه يعود ، يعني هو الذي يسألك عما أمرك ونهاك .

ذكر خبر آخر

وقد روى عثمان بن عفان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺأنه قال :

« **فضل القرآن على الكلام كفضل الخالق على المخلوق ، وذلك أنه[1] منه** » .

واعلم أن قول القائل : إن الشيء من الشيء قد يكون على وجوه :

أحدها : أن يكون جزءاً له كقولنا اليد من الإنسان ، والواحد من العشرة .

وقد يكون الشيء من الشيء على معنى أنه فعله وظهر منه ، كقوله تعالى :

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ** ﴾[2] يعني خلقاً وتدبيراً وملكاً .

وقد يكون منه على معنى أنه صفة له ، وعليه يتأول قوله : إن كلام الله من الله .

ومن أصحابنا من قال : معنى قولنا : كلام الله من الله ، أي منه يسمع

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ولفظه :

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الرب تبارك وتعالى : ﴿ **من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه** ﴾

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٢) الآية ١٣ من سورة الجاثية .

وبتعليمه نعلم وبتفهيمه نفهم .

وذكر بعض أصحابنا أن معنى قول النبي ﷺ « **وذلك أنه منه** » معناه : أنه له ، قال : والعرب تقول : إن هذا منك على معنى أنه لك كما قال القائل :

فمنك العطاء ومنك الثناء

أي لك العطاء ولي الثناء عليك .

واعلم أن المشبهة قد تأولت الصمد على معنى أنه مصمت ليس بأجوف ، وكيف يصح أن يقال خرج منه كلامه على تقدير خروجه من الأجسام المجوفة ؟ فعلمت بذلك تناقض قولهم ، وأن معنى الخبر ما أشرنا إليه[1] .

ذكر خبر آخر

فإن قيل : فما تقولون فيما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ :

« **إن الله سبحانه قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام فلما سمعته الملائكة قالت طوبى لأمة ينزل عليها هذا** »[2] .

الجواب اعلم أن معنى قرأ ، أي أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة في ذلك الوقت .

والعرب تقول قرأت الشيء إذا تبعته ، وتقول : ما قرأت هذه الناقة من رحمها سلاقط أي ما ظهر فيها[3] ولد .

(١) وهو الاولى ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ﴾

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ، والترمذي في الشمائل .

(٣) أنظر لسان العرب ، والقاموس المحيط ، والمعجم الوسيط .

فهلى هذا يكون الكلام سائغاً وقراءته اسماعه وافهامه بعبارات يخلقها وكتابة يحدثها وهو معنى قوله : « اقرأ كلام الله » ، ومعنى قوله :

﴿ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[1] .

ومن أصحابنا من قال : معنى قوله : قرأ أي تكلم به ، وذلك مجاز كقولهم ذقت لهذا الأمر ذواقاً ، بمعنى اختبرته ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾[2] .

أي ابتلاهم به فسمى ذلك ذواقاً ، والخوف لا يذاق على الحقيقة ، لأن الذوق في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح ، وما قلنا أولاً فأوضح في تأويل هذا الخبر لأن كلام الله تعالى أزلي قديم سابق لجملة الحوادث[3] ، وإنما أسمع وأفهم لمن أراد من خلقه على ما أراد في الأوقات والأزمنة ، لا أن عبر كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان .

---

(١) الآية : ٢٠ من سورة المزمل .

(٢) الآية : ١١٢ من سورة النحل .

(٣) على أن المراد بكلام الله تعالى هنا : الصفة القديمة القائمة لذاته سبحانه وتعالى لا اللفظ المنزل المقروء .

ذكر خبر آخر

مما يقتضي التأويل

روى أبو حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺأنه قال :

« دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ، وما يسمع من نفس شيئاً من حسن تلك الحجب إلا زهقت نفسها »[١] .

وروي أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال :

(احتجب الله من خلقه بأربع : بنار وظلمة ونور وظلمة)[٢] .

اعلم أن معنى قوله « دون الله سبعون ألف حجاب » أي هو حجاب لغيره من خلقه لأنه لا يصح أن يكون محجوباً لاستحالة أن يكون محصوراً محدوداً[٣] تعالى الله عن الحد والحصر والتشبيه والتمثيل[٤] ، والخلق محجوبون ، لا رب العالمين[٥] ، والحجب لهم ، وهم المحجوبون بها ، ولا يصح أن يكون دونه حجاب يحجبه سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقد روينا فيما قبل عن علي رضي الله عنه أنه أنكر على من قال :

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ، والدارمي في مسنده .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده . وأبو بكر الهيثمي ، وذكره صاحب مجمع الزوائد .

(٣) فهو سبحانه وتعالى ، لا يقيده زمن ، ولا يحده حد ، لا أول لابتدائه ولا انتهاء لنهايته ، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

(٤) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٥) أي أن الحجب يكون في حق الخلق ، ولا يجوز أن يكون أبداً في حق الخالق ، فالحجب لهم عنه سبحانه لا هو المحجوب عنهم عنهم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

لا والذي احتجب بسبع ، فعلاه بالدرة ، وقال يا لكع : إن الله لا يحتجب من خلقه بشيء ولكن يحجب خلقه عنه .

رواه ابن عاصم عن عطاء بن السائب عن أبي البختري عن علي رضي الله عنه أنه قال ذلك .

وقال محمد بن شجاع الثلجي في معنى قوله « احتجب الله عن خلقه بأربع » أن الله عرفنا نفسه بآياته ودلائله بما خلق ، من النور والظلمة والنار ، وأن له آيات لو أظهرها للخلق كانت معرفتهم به كمعرفة العيان[١] . وذلك نحو ما ذكرنا من قوله :

﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[٢] .

ومعنى احتجب بالنار أي خلقها فوق تلك الدلالات التي تبهر العقول وتدل على معرفته .

واعلم أن الغرض من هذا أن تعلم أن الحجاب يرجع إلى المحجوب من الخلق ، وأن الخالق لا يصح أن يكون محدوداً ولا محصوراً ، فإذا علمت أنه لم يرد بالخبر هذا المعنى ، وأن الحجاب يرجع إلى المحجوب من خلقه سلمت من الغلط وأمنا من دخول التشبيه عليك . مما لا يجوز في صفة الله تعالى من إثباته محدوداً محصوراً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٣] .

---

(١) وفي كل شيء له آية تدل على أنــه الواحد

(٢) الآية : ٤ من سورة الشعراء .

(٣) وخلاصة القول كما ذكر الفخر الرازي :

« أن الحجب وهو المنع ، والمنع إنما يتحقق بالنسبة الى ما يثبت للعبد ، بالنسبة الى الله تعالى ، وهو إما العلم ، وإما الرؤية ، ولا يمكن حمله على العلم ، لأنه ثابت بالاتفاق للكفار ، فوجب حمله على الرؤية .

ذكر خبر آخر وتأويله ومعناه

روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إن الله تعالى حي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين »[1] .

وروى يعلى بن أمية عن رسول الله ﷺ أنه قال :

أما صرفه الى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل » .

ثم يستطرد الفخر استدلاله على هذا فيقول :

« ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين ـ لقوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ :

قال مقاتل : معنى الآية ، أنهم بعد العرض والحساب لا يرون ربهم والمؤمنون يرون ربهم » .

وقال الكلبي : « يقول أنهم عن النظر الى رؤية ربهم لمحجوبون ، والمؤمن لا يحتجب عن رؤية ربه »

وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال :

« لما حجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه » .

وعن الشافعي قال :

لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا » اهـ .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو داود في سننه ، والترمذي في سننه ، والحاكم في المستدرك ، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقال السيوطي : حديث حسن ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

ثم يشرح صاحب الفيض هذا الحديث فيقول :

(إن الله جواد لا ينفذ عطاؤه وهو لا يرد سائلا متذللا ، من عطائه لكرمه ، والكريم يدع ما يدعه تكرما ، ويفعل ما يفعله تفضلا ، فيعطي من لا يستحق ، ويدع عقوبة المستوجب ، والكريم المطلق هو الله ، فإذا رفع عبده يديه متذللا مفتقراً حاضر القلب ، موقنا بالاجابة ، حلال المطعم والمشرب كما يفيده قوله في خبر مسلم : فأنى يستجاب له : ومطعمه حرام ، ومشربه حرام يكره حرمانه ، وإن لم يستوجب المسؤول وقد يعطي الكافر ، ما يسأله لشدة كرمه) اهـ .

﴿ إن الله حي ستير يحب الحياء والستر : فإذا اغتسل أحدكم فليستتر ﴾[1] .

بيان تأويله

اعلم أن وصف الله بالحياء على معنى ما يوصف المخلوق من الحياء الذي هو منه انقباض وتغير وتجمع لا يجوز ، لاستحالة كونه جسماً متغيراً تحله الحوادث وأما أن يوصف بالحياء على معنى الترك ، فصحيح ، وقد عبرت العرب عن سبب الشيء باسمه ، فلما كان الحياء سبباً لترك المستحيا منه ، كان معنى ما قال : إن الله عز وجل ليستحي ، لا يترك يدي العبد خاليتين من خير إذا رفعهما إليه في الدعاء .

وعلى ذلك يتأول أيضاً قوله ﷺ :

« إن الله ليستحي أن يعذب المتورع ، قيل يا رسول الله ، ومن المتورع ؟

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو داود في سننه ، والنسائي في السنن . وسبب الحديث كما ذكر أبو داود ، أن رسول الله ﷺ ، رأى رجلا يغتسل في الفضاء الواسع ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله . . فذكر الحديث وقال الطيبي :

« وصف الله بالحياء والستر ، تهجنا لكشف العورة وحثا على تحري الحياء والستر » ثم يعلق المناوي على هذا فيقول :

فإذا اغتسل أحدكم ، فليستر عورته بمالا يصف اللون وجوبا ، إن كان بحضرته من يحرم النظر الى عورته ، وندبا في غير ذلك ، ومن ثم ندبوا أن لا يدخل الماء إلا بإزار ، وعند الشافعية من سنن الغسل ، أي يستر عورته بإزار ، وإن لم يحضر من يحرم نظره اليه ، بان كان بخلوة أو حضرة من يحل نظره إليه كحليلته .

قالوا : وأما غسله عليه الصلاة والسلام متجرداً فلبيان الجواز ، فإن حضره من يحرم نظره لعورته ، وعلم منه أنه لا يغض بصره عنه لزمه الاستتار منه ، وحرم التكشف ، كما في الروضة والمجموع ، ويجوز كشف العورة في الخلوة لأدنى غرض كالتبرد ، فالغسل أولى .

قال الذي يحاسب نفسه قبل أن يحاسب »[1] .

ومعنى ذلك ترك تعذيبه .

وعلى ذلك يتأول قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾[2] أي لا يترك .

والاستحياء من الله تعالى[1] الترك ، لأن المستحيي يترك للحياء أشياء كما يترك للايمان وينقطع بالحياء عن المعاصي كما ينقطع بالإيمان عنها ، ولهذا قال رسول الله ﷺ :

« **الحياء شعبة من الإيمان** »[2] .

وقال أبو وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

إن آخر ما حفظ من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئت[3] .

يريد إذا لم يستح الرجل ركب كل فاحشة ، وقارف كل قبيح ، ولم يحجزه عن ذلك دين ولا حياء .

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده .

(٢) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٣) الحياء في اللغة : تغير وانكسار ، يعتري الانسان من خوف ما يذم به ، وعلى هذا فهو محال على الله تحقيقه ، فلهذا يؤل بمعنى مناسب للمقام ، وهو هنا مراد منه أنه تعالى يحسن مثوبته ويجزل ثوابه وعطاءه ، ولا يرضى لعبده بالقليل .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه الامام البخاري عن أبي مسعود ، ورواه بعضهم عن حذيفة مرفوعا ، ورواها الطبراني في الأوسط عن أبي الفضل مرفوعا ، أنظر كشف الخفا جـ ١ .

فأما معنى قوله ﷺ: « إن الله حي ستير » فقد فسرنا معنى الحياء ومعنى ستير ، أي ساتر يستر على عباده كثيراً من عيوبهم ولا يظهرها عليهم ، وستير بمعنى ساتر كما جاء قدير بمعنى قادر ، وعليم بمعنى عالم ، وإذا حمل الخبر على ما ذكرنا صح المراد وبطل قول من توهم فيها التشبيه .

ذكر خبر آخر وبيان تأويله

روي عن النبي ﷺأن رجلاً قال لبنيه :

إذا أنا مت فاحرقوني ثم ذروني في البحر ، لعلي أضل الله تعالى ففعلوا ، فجمعه الله تعالى ثم قال له : ما حملك على ذلك ؟ .

فقال مخافتك يا رب[1] .

وروى حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺفي هذا الخبر لفظاً مشكلاً زائداً ، وهو أن قال إن رسول الله ﷺقال :

« إن رجلا أسرف على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال :

إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً ففعلوا به ذلك فقال ﷺ: فيقول له الرب عند البعث ما حملك على ما صنعت[2] ؟ .

فيقول خشيتك فيغفر الله عز وجل له » .

---

(١) أخرجه الامام البخاري في صحيحه .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً مع اختلاف يسير في ألفاظه .

ذكر تأويله

اعلم أن هذا الخبر وإن لم يرجع بشيء من ألفاظه ، إلى ما هو صفة من صفات الله عز وجل ، فإن لفظه مشكل ، وكان القائل له مؤمناً مغفور له ، فوجب أن توقف على معناه ليزول الإشكال ، فأما معنى قوله ﷺ﴿ أضل الله ﴾ أي أنسيه كما قال تعالى :

﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[1] .

ولما ذكره من قوله « أن تضل إحداهما » أي ينسى .

وفي بعض الوجوه في تأويل قوله سبحانه :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾[2] أي ناسياً فذكرك .

والعرب تقول ضللت كذا أو أضللته ، أي نسيته ، وإذا كان ذلك بمعنى الضلال ههنا فمراده أن الله تعالى يميتني ولا يبعثني فأستريح من عذابه .

والعرب تقول ضل الماء في اللبن إذا غاب فيه ولم يتبين ، ويكون تحقيق معنى قوله لعلي أضل الله ، أي لعل الله لا ينشرني ولا يبعثني فأستريح من عذابه، وهو إظهار الجزع والخوف والخشية على أبلغ ما يكون في بابه ، لأنه إنما كان يعتقد قائله أنه لا يجوز أن ينشر الله أحداً ولا شيئاً ، أو يمكن أن يفوته شيء . ومثل ذلك ، ما رَوي عن عمر أنه كان يقول في دعائه :

(اللهم فإن كنت كتبتني شقياً فأمحني واكتبني سعيداً)[3] .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة طه .

(٢) الآية ٧ من سورة الضحى .

(٣) يقول القرطبي في هذا :

مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد ، وإنما يؤخذ توقيفاً ، فان صح فالقول به يجب ويوقف عنده ، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء ، وهو الأظهر والله أعلم .

وهذا يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن مسعود، وابي وائل ، وكعب الأحبار ، وغيرهم ، وهو قول الكلبي .

وعن أبي عثمان النهدي ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول :

اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني واثبتني في أهل السعادة والمغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب » .

وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم ، وإن كنت كتبتني في الاشقياء فامحني من الأشقياء ، واكتبني في السعداء ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب » .

وكان أبو وائل يكثر أن يدعو :

اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء ، وان كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب » .

وقال كعب لعمر بن الخطاب :

لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن الى يوم القيامة :

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴾ سورة الرعد آية ٣٩ .

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« من سره أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه » .

وفيه تأويلان :

أحدهما معنوي : وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والاجر المتكرر ، فكأنه لم يمت .

والآخر : يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ ، والذي في علم الله ثابت لا تبدل له ، كما قال :

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴾

وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه ، فليتق الله وليصل رحمه » كيف يزاد في العمر والاجل ؟ فقال : قال الله عز وجل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ سورة الأنعام آية ٢ .

فالاجل الاول أجل العبد من حين ولادته الى حين موته ، والاجل الثاني ـ يعني المسمى عنده ـ من حين

فذكر أهل العلم أن ذلك إظهار غاية الخوف والخشية حتى يسأل ما لا يكون أن لو كان مما لا يكون ، حتى لا يفوته التضرع بكل وجه في طلب ما يكون ، ولا يكون ، إظهاراً لغاية الخوف والخشية لا تطلبا لما يعلم أنه لا يكون .

وأما معنى قوله « لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً . عذبه أحداً » فلا يصح أن يكون محمولاً على معنى القدرة ، لأن من توهم ذلك لم يكن مؤمناً بالله عز وجل ولا عارفاً به ، وإنما ذلك على معنى قوله تعالى في قصة يونس :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[1] .

وذلك يرجع إلى معنى التقدير لا إلى معنى القدرة ، لأنه لا يصح أن يخفى على نبي معصوم ذلك .

وقال الفراء في تأويل قوله :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي لن نقدر عليه ما قدرنا كما قال أبو صخر الهمداني :

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

أراد ما تقدر يكون ، فعلى ذلك يحمل قوله عليه الصلاة والسلام حكاية :

وفاته الى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله فإذا اتقى العبد ربه ، ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الاول من أجل البرزخ ما شاء ، وإذا عصى وقطع رحمه نقص الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء ، فيزيده في أجل البرزخ ، فإذا تحتم الاجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ سورة الأعراف آية ٣٤ .

فتوافق الخبر والآية ، وهذه زيادة في نفس العمر ، وذات الأجل على ظاهر اللفظ في اختيار حبر الأمة والله أعلم .

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

« لئن قدر علي ربي ليعذبني » .

أي كان قدره وحكم علي بالعقوبة ، فإنه يعاقبني دائمًا وهكذا كلام خائف جزع .

ولما قيل في الخبر « إن الله تعالى يغفر له »، وقد علم أنه لا يغفر للكافرين ، وجب أن يحمل لفظه على تأويل صحيح لا ينافي المعرفة بالله ، ولا يؤدي إلى الكفر ، وإذا حمل على ذلك ما ذكرنا بأن الغرض ، وبان وجه الإشكال فيه ، فاعلم إن شاء الله تعالى .

ذكر خبر آخر وبيان تأويله

روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **إن الرحم شجنة معلقة بمنكبي الرحمن ، يقول الله سبحانه لها من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته** »[1] .

وذكر في خبر آخر أنه قال :

« **أنا الرحمن وهذه الرحم شققتها من إسمي من وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته** » .

ذكر التأويل

اعلم أن الشجنة في كلام العرب هو الشعبة من الشيء ، والقطعة منه ، ومنه يقال شجرة متشجنة ، أي متفرعة كثيرة الأغصان ، ومنه ما حكي عنه أنه قال لإياس بن معاوية :

الحديث ذو شجون ، فقال شجونه خير منه ، ومعنى الشجون أن ينشعب من الحديث أحاديث كالوادي الذي تتشعب منه المجاري ، ويتفرع عنه الأنهار من الجهات[2] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ، وأخرجه ايضا الطبراني وأبو يعلى عن عامر بن ربيعة .

وفي رواية أخرى للامام البخاري :

« فقال الله تعالى : ﴿ **من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته** ﴾ .

(٢) ذكر المناوي قال :

« شجنه بكسر أوله وضمه ويكون ثانية ، هي في الأصل عروق الشجر المشتبكة والمراد بها هنا القرابة المشتبكة كاشتباك العروق ، شبهه بذلك مجازاً واتساعاً »

ومعنى قوله : (تعلقت بمنكبي الرحمن) أي اعتصمت بالله ، ولاذت به ، هذه كلمة تقولها العرب عند الاستظهار والاستجارة ، يقولون استظهرت بفلان واستجرت به وتعلقت بحبله ، وقال الشاعر في مثل هذا المعنى :

علقت بحبل من حبال محمد أمنت به من طارق الحدثان
تغطيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني

أي اعتصمت به والله جل ذكره يقول :

﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾[1] .

أي هو قادر على تصريفها كيف شاء ، والعربي يقول لصاحبه إذا أطاعه .

ناصيتي بيدك ، وزمامي بيدك ، وقيادي بيدك ، وليس ثم زمام ولا قياد ولا ناصية ، وإنما هو مثل للمطيع والمطاع .

وكذلك قوله فتعلقت بمنكبي الرحمن أي استجارت واعتصمت ، فالله تعالى لا يوصف بالمنكب تعالى على ذلك علواً كبيراً .

واعلم أن النبي ﷺ إنما خاطبنا على لغة العرب فإذا ورد منه الخطاب حمل على مقتضى حكم اللغة ، فإذا كان محتملا لوجهين ، أحدهما له مخرج في اللغة ، وتأويل صحيح لا يقتضي تشبيهاً ، ولا يؤدي إلى محال في وصف الله جل ذكره ، والثاني يقتضي تشبيهاً وتكييفاً وتمثيلاً ، كان أولى ما حمل عليه من الوجهين ما لا يؤدي إلى وصف الله جل ذكره بالجوارح والآلات .

على أنه ـ وإن حمل على ما يتوهمه المشبهة من منكبي الجارحة ـ لم يصح معناه

---

(١) الآية ٥٦ من سورة هود .

من قبل أن الرحم لا يصح عليها التعلق ، وإنما هو حق للقرابة من طريق النسب ، فعلم أن ذلك مثل ، والمراد به ما ذكرنا أنه إنما أراد تأكيد أمر الرحم والحث على وصلها ، والزجر عن قطعها ، فأخبر عن ذلك بأبلغ ما يكون من التأكيد .

واعلم أن مثال هذا أيضاً من آي الكتاب قوله تعالى :

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

وذلك أنه كلام محمول على نوع من التوسع في عادة العرب في المخاطبة بمثله ، يقتضي من معناه ، أن المراد به بأمره ، وقد انتشر في كلامهم أنهم يقولون :

كبر فلان في جنب فلان ، وهم يريدون بذلك في طاعته وخدمته والتقرب إليه ، كذلك معنى هذه الآية أن النفوس تظهر الحسرات يوم القيامة ، على ما وقع من التفريط منها في طاعة الله ، والذي يؤيد هذا المعنى ويوضحه ، أن التفريط لا يقع في جنب الصفة ولا في جنب الجارحة ، ولما قرب بذكره التفريط ، علم أن المراد به ما قلنا أن معناه التقصير في طاعة الله والتفريط في عبادته .

(١) الآية ٥٦ من سورة الزمر .

ذكر خبر آخر وبيان تأويله

روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« **صلة الرحم تزيد في العمر** »[١] .

وقال في خبر آخر :

« **صل رحمك يزد في عمرك** » .

وقال « **من أحب أن ينسأ له في عمره فليصل رحمه** »[٢] .

فسأل سائل عن هذا الخبر ، وقال :

كيف يجمع بينه وبين قوله جل ذكره في محكم كتابه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٣] .

وقال في موضع آخر :

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾[٤] .

فأخبر أن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر فكيف يجوز لرسول الله ﷺ، أن يقول :

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه :
من سره ان يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصل رحمه » .

(٢) أخرجه البخاري والامام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :
« من أحب أن ينسأ له في عمره فليصل رحمه » .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١١ من سورة المنافقون .

« **إن صلة الرحم تزيد في العمر** » .

تأويله وذكر الجواب عن السؤال

اعلم أنه ليس شيء من هذه الأخبار مخالفاً لما في الكتاب وكيف وقد روي عن رسول الله ﷺ في ذلك ما يؤيد ما في الكتاب وهو كنحو ما روي أن أم حبيبة قالت :

« اللهم متعني بأبي أبي سفيان وبأخي معاوية » .

فقال رسول الله ﷺ :

« **لقد سألت في آجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولا يؤخر منها شيء** » [١] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه ، حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق :

« **إن الله تعالى يبعث ملك الأرحام فيكتب أجل المولود في بطن أمه ورزقه وشقاوته وسعادته** » [٢] .

وكذلك روى ابن عمر وجابر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ ، في مثل هذا ، وهذه أخبار عن رسول الله ﷺ ، قد جاءت مجيء كتاب الله : إن لكل نفس

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن أنس رضي الله عنه .

وفي رواية أخرى فيما أخرج الامام أحمد عن أنس أيضاً ولفظها :

(إن الله تعالى وكل بالرحم ملكا يقول : أي رب ، نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها ، قال أي رب شقي أو سعيد ؟ ذكر أو أنثى ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فكتب كذلك في بطن أمه) .

أجلها لا يتقدم أجلها ولا يتأخر[٣] .

فأما معنى الزيادة في العمر ، فقد قال بعض أهل العلم :

إن معناه السعة والزيادة في الرزق[١] .

وقد قيل إن الفقر هو الموت الأكبر[٢] .

وقال بعضهم : إن الله سبحانه أعلم موسى عليه السلام ، أن يميت عدوه ، ثم رآه بعد ينسج الخوص فقال : يا رب وعدتني أن تميته ، قال قد فعلت ذلك ، فإني أفقرته ، وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش فقيراً ... كاسفاً باله قليل الرخاء[٣]

فلما جاز أن يسمى الفقراء موتاً توسعاً جاز أن يسمى الغنى حياة ، ويسميه ذو مادة في العمر ، ويريد بذلك السعة والرزق على طريق الثواب والكرامة في الدنيا .

وقال قائل : إن معنى الزيادة في العمر نفي الآفات عنهم والزيادة في أفهامهم وعقولهم وبصائرهم ، وليس ذلك زيادة في أرزاقهم ، ولا في آجالهم ، لأن الآجال مؤجلة لا زيادة فيها ، والأرزاق مقسومة لا يزاد لأحد في رزقه ولا ينقص منه شيء

---

(١) وهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ فإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

(٢) وقد سبق ان ذكرنا ما يوضح ذلك ويؤيده ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فارجع اليه إن شئت .

(٣) ومن أدق ما قيل في هذا المعنى قول من قال :

« إذا ذهب الفقر الى بلد ، قال له الكفر خذني معك » اهـ .

والمعنى أن الميت المنتقل من دار الحياة الفانية الى الدار الآخرة الباقية لا يعبر عنه بانه قد مات ، بل يقال إن الميت هو ميت الأحياء ، فيكون حيا صورة لا معنى ، شبحا لا روح فيه حي شكلا ووصفنا ، ميتا معنى وجوهرا .

لأن الله تعالى قد أخبر أنه قسم الأرزاق بين عباده فقال :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[1] .

وقال في الأجل :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[2] .

ولم يخبر عن ذكره أن غير الأجل والرزق بمنزلة الرزق والأجل ، وقد أخبر أنه يزيد من يشاء في فضله ، ولم يخبر أنه يزيد من يشاء في رزقه ، ويؤخر من يشاء في عمره .

وقال قائلون : إن الله سبحانه كتب أجل عبده مائة سنة عنده ويجعل تركيبه وهيأته وبنيته لتعميره ثمانين سنة ، فإذا وصل رحمه زاد الله في ذلك التركيب ، وفي تلك البنية ، ووصل ذلك النقص ، فعاش عشرين سنة أخرى حتى يبلغ مائة وهو الأجل الذي لا مستأخر عنه ولا مستقدم فيه .

وقال قائلون : إن معنى ذلك أن يكون السابق في المعلوم أنه إذا وصل رحمه كان عمره أكثر منه إذا لم يصل ، فيكون كله مما سبق في العلم على الحد الذي يحدث ويوجد في المستأنف . فإن قيل فما معنى قوله :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾[3] .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٤٩ من سورة يونس .

(٣) الآية : ١١ من سورة فاطر .

قيل معنى ذلك لا يعمر من معمر من ابتداء الأمر ، ولا ينقص من عمره عن الآخر في الابتداء(٤) الأجل ، ذلك في كتاب قد أبين صحته وأظهر قدره لا أنه يكون زائداً ثم ينقص أو ناقصاً ثم يزيد لأن يؤدي إلى أن لا يكون الله عز وجل عالما بالأشياء قبل كونها على حسب ما يكون ، ولا يجوز ذلك في وصفه(١) .

فعلم أنه المراد به تعريفنا أن التفاوت الواقع بين الأعمار في إختلاف مددها في الطول والقصر والزيادة والنقصان ، على ذلك في كتاب مبين على حكم واحد صدر عن علم سابق محيط .

فصل

واعلم أن الذين خالفوا من القدرية فقالوا بقطع الأجل ، ومعنى ذلك ، هو أن يكون الله عز وجل قد جعل لبعض الأحياء مدة الحياة خمسين سنة ، ثم يقتله القاتل ، فيجعل ذلك سنة ، ويقطع عنه بلوغه المدة التي قدر الله تعالى له من ذلك ، وهذا عندنا مخالفاً للكتاب والسنة أولاً ، وقول يؤدي إلى وصف الله تعالى بالقهر والغلبة ، لأنه إذا أراد أن يكون أجل زيد خمسين سنة ، ثم يقتله القاتل ، فيجعل ذلك سنة ويقطع عليه بلوغ مدة ذلك ، وأراد غيره له ، وأراد أن يبلغه وقطع عليه أجله فقد قهره في مراده وغلبه في حكمه وذلك لا يليق بوصفه تعالى .

---

(١) وفي نسخة أخرى . « عن الآخر في ابتداء الأجل » .

(٢) حيث أنه ثبت في حقه سبحانه وتعالى : « أنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكون ، أن لو كان كيف كان يكون » .

أي ثبت أنه سبق في علمه سبحانه ما كان في الزمن الماضي بالنسبة لنا ، ولغيرنا ، وما يكون بالنسبة لما سيحدث في المستقبل ، وما لا يكون ، لأنه مستحيل ، كما أنه سبق في علمه أن هذا المستحيل لو فرض وجوده لسبق في علمه سبحانه الصورة التي يكون عليها هذا المستحيل ، لو كان موجوداً .

سؤال

فإن قال قائل فما تقولون في قوله تعالى :

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴾[١] .

قيل قد تأول بعض أهل العلم ذلك على وجوه كثيرة :

فمنهم من قال : معناه أن الله ينسخ من الأحكام ما يشاء وذلك محوه ، ويثبت منها ما يشاء وهو إثباته وتقديره ، وقد يوصف جل ذكره بالنسخ للحكم وبالإثبات ولا يدعو ذلك إلى البداء ولا إلى الزيادة في العمر على خلاف ما ذكرنا .

ومنهم من قال : معناه يمحو ما سبق من الذنوب بالتوبة المعقبة لها ، ويثبت للتوبة حكمها .

ومنهم من قال : إنه يمحو بياض النهار ويثبت سواد الليل . ويثبت بياض النهار ويمحو سواد الليل .

ومنهم من قال : معنى ذلك تعريفنا أن الإيجاد والإعدام والإثبات والنفي متعلق بمشيئته على حسب ما سبق في علمه وجرى به قلمه نفياً لأن يكون ذلك إلى غيره أو من غيره[٢] .

مسألة

فإن قال قائل من القدرية :

(١) الآية ٣٩ من سورة الرعد .

(٢) وقد سبق أن أوضحناها ما قيل وما ذكر في معنى الآية : ﴿يمْحوُ ٱللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ . إلخ واثبتنا ما ورد وفي معناها من آراء للعلماء مع بيان وجه الاستدلال في كل ما قيل .

أليس قد قال الله تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه :

﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[(١)] .

وقال عز وجل في آية أخرى :

﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[(٢)] .

قيل أما معنى قول نوح عليه السلام أنه يؤخرهم إلى أجل مسمى ، يعني إن آمنوا واتبعوه ، وتكون آجالهم ولم يثبت الله لهم أجلا لم يبلغوه ، ولا قال إلى أجل فيكم مسمى ، بل لم يضف إليهم ذلك الأجل وينكره .

فبان أن المراد أجل من الآجال لو آمنوا واتبعوه كان لهم أجلا .

وأما قوله :

﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ ، فهو أجل الدنيا والآخرة ولذلك قال :

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ .

أي تشكون في البعث وهو الأجل المسمى للثواب والعقاب وأجل الدنيا هو المسمى للفناء وللتكليف فيه ، وليس في ذلك شيء يؤيد قول القدرية القائلين بقطع الأجل .

وأما قول من قال منهم بقطع الأجل وأبى جواز الزيادة فيه فيقال له ، هلا

---

(١) الآية : ٣ ، ٤ من سورة نوح .

(٢) الآية : ٢ من سورة الأنعام .

زعمت أنه يزيد في الأجل المؤجل إذا وصل رحمه[1] ، أو تجنب الآفات وتعاهد من المطعومات ما يستعين به على استجلاب الزيادة في عمره وصرف الآفة عنه .

فإن جمعوا بين الأمرين ، وقالوا جائز أن يزيد أحدنا في الأجل الذي قدره الله بنحو ما ذكرناه جاز أن ينقص منه ، فقد فارقوا قولهم ، وخرجوا عن ظاهر الكتاب والسنة والعقول ، لأنه كما نفى الإستقدام في الأجل فكذلك نفى الاستيخار وجمع بينهما في الحكم .

ومما يوضح ذلك أن المعنى في قول نوح عليه السلام ما ذكرناه عقيب ذلك .

﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

يريد بذلك مما هو لهم أجل ، فدل على ما قلناه اهـ .

---

(١) أي إذا أبر بصلة رحمه ، ولم يقطعها ، يقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ﴾سورة الرعد آية ٢١ .

(٢) الآية : ٤ من سورة نوح .

ذكر خبر آخر وتأويله

ومثل ذلك مما يجري هذا المجرى ، والسؤال فيه كالسؤال فيما ذكرنا ، ما روي أنه قال ﷺ :

« **الدعاء يرد البلاء ، والصدقة تدفع البلاء** »[1] .

وما روي أنه قال ﷺ :

« **إن القضاء والدعاء يتعالجان** »[2] .

وما روي أنه قال « **الصدقة تدفع القضاء المبرم** » .

ومعنى هذه الأخبار كلها على نحو ما ذكرنا ، وهو أن يكون السابق في العلم مما يحدث في المستأنف ، أنه إذا دعا صرف عنه البلاء ، وكذلك إذا تصدق[3] لا أنه يكون المعلوم في الأزل وصول البلاء إليه ، ثم إذا حصل الدعاء تغير المعلوم ، لأن ذلك يؤدي إلى أن لا يكون ذلك في الأزل معلوماً ولا قضاء ، وذلك محال .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ولفظه :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال ﷺ :

« **من فتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله تعالى شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية ، وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، فعليكم بالدعاء** » .

(٢) أخرجه البزار ، والطبراني ؛ والحاكم ولفظه :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« **لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة** » .

(٣) **يقول صلوات الله وسلامه عليه : « داووا مرضاكم بالصدقة »** .

وقيل أيضاً : إن المراد به العوض من الدعاء والصدقة إذا أتاهما دفع ذلك عن الفاعل بهما وزر الترك وعقوبة العصيان فيه ، ويكون معنى التخصيص بذلك الذكر : التحريض على فعله ، والحث عليه .

ذكر خبر آخر وتأويله

روى حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال :

« **إن موسى عليه السلام لطم عين ملك الموت فأعوره** »[١] .

فقال بعض أهل الإلحاد ـ على طريق الإنكار لذلك ـ إن جاز على ملك الموت العور جاز عليه العمى ، قال :

ولعل عيسى عليه السلام قد لطم عينه الأخرى فاعماه ، لأنه أشد كراهية للموت من موسى عليه السلام ، وذلك أنه قال :

« اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد فأصرفها عني » .

بيان تأويله

اعلم أن أهل النقل قد صححوا هذا الحديث ، وله تأويل صحيح لا ينكر ، وذلك أن الله عز وجل قد جعل للملائكة أن يتصوروا بما شاؤوا من الصور المختلفة ، ألا ترى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي ، ومرة في صورة أعرابي ، ومرة أخرى وقد سد بجناحيه[٢] ما بين الأفق ؟

---

(١) الحديث بتمامه أخرجه الامام البخاري في صحيحه .

(٢) ويؤيد هذا حديث ما الاسلام ؟ ما الايمان ؟ . . . الخ .

وكذلك قال الله :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُبِالرَّحْمَـٰنِ مِنْكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾[3] .

إن تقيا إسم رجل تصور جبريل بصورته لمريم عليه السلام ـ

فإن قال قائل : وكيف ساغ لنبي أن يلطم عين ملك الموت وإن كان على صورة أخرى ؟ .

قيل فقد قال بعض أصحابنا فيه : إنما ينتقل فيه من هذه الأمثلة تخييلات وأن اللطمة أذهبت العين التي هي تخييل وليست بحقيقة .

ومنهم من قال : إن معنى قوله لطم موسى عليه السلام عين ملك الموت : توسع في الكلام وهو نحو ما يحكى عن علي رضي الله عنه أنه قال :

« أنا فقأت عين الفتنة » ، يريد بذلك إلزام موسى ملك الموت الحجة حين رده في قبض روحه على حسب ما روي في الخبر .

وأعلم أن للعرب في نحو ذلك إستعارات يعرف معانيها ومجاري خطابها فيها المتوسع في إستقراء كلامهم والمتبحر في المعرفة بلغاتهم ، فإذا كانت اللطم مستعملة عندهم على أمرين :

أحدهما : أن يراد به عين الجارحة وإدخال النقص فيها .

والثاني : أن يراد به عين الشيء وذاته ، ويراد بالعور محقه ومحوه ، لم ينكر أن يكون معنى الكلام محمولا عليه على معنى التوسع .

---

(١) الآية ١٧ ، ١٨ من سورة مريم .

وقد يقول القائل : عورت عين هذا الأمر إذا رده تشبيها لمن أدخل نقصاً على العين التي هي حدقة .

ولو قال قائل : إن ذلك إن كان حقيقة من موسى عليه السلام ، وكان إدخال نقص على جارحة الملك بإذن الله عز وجل حتى يكون محنة للملطوم وعبادة للاطم ، لم يكن ذلك منكرا تدفعه العقول ، لأن لله عز وجل أن يأمر بما يشاء من ذلك ، ويأذن فيما يشاء منه ، على أن ما قلناه ، أولا له وجه في الكلام يصح فيه المعنى على طريق الإستعارة والتوسع في عادة خطاب العرب ، وإذا كان كذلك لم يكن لما توهمه الزائغ عن الحق معنى ، وبطل توهمه الطعن بذلك على أنبياء الله عليهم السلام[1] .

---

(١) وللقسطلاني كلام نفيس على هذا الحديث يقول فيه :

« أرسل الله ملك الموت الى موسى عليهما السلام في صورة آدمي اختباراً وابتلاء ، فلما جاءه ملك الموت بهذه الصورة ظنه آدمياً حقيقة ، تسور عليه منزله بغير إذنه ليوقع به مكروهاً ، فلما تسور عليه صكه ـ لطمه ـ على عينه التي ركبت في الصورة البشرية ، التي جاءه فيها ، دون الصورة الملكية » اهـ .

ويقول المازري :

« وقد انكر بعض الملاحدة هذا الحديث ، وأنكر تصوره ، قالوا : كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت ؟

وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :

أحدها : أنه لا يمتنع أن يكون موسى ﷺ قد أذن الله له في تلك اللطمة ويكون ذلك امتحاناً للملطوم ، وأن الله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء ، ويمتحنهم بما أراد .

الثاني : أن ذلك على المجاز ، والمراد أن موسى عليه السلام ناظره فغلبه بالحجة .

الثالث : أن موسى عليه السلام لم يعلم أنه ملك من عند الله تعالى ، وظن أنه رجل قصده ، يريد نفسه فدافعه عنها ، فادت المدافعة الى فقء عينه ، لا أنه قصدها بالفقء .

ويؤيد قوله (فصكه) ، وعليه الامام الحافظ ابي بكر بن خزيمة وغيره .

واختاره المازري ، والقاضي عياض ، قالوا : وليس في الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه » اهـ .

ذكر خبر آخر
وتأويله

روى ابو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال فيما يحكى عن ربه سبحانه :

« **الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار** »[١]

ومن اقترب مني شبراً اقتربت منه ذراعاً ، ومن اقترب مني ذراعاً ، اقترب منه باعاً ، ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وأطيب ، ومن جاءني يمشي جئته أهرول . ومن جاءني يهرول جئته سعياً »[٢] .

واعلم ان معنى قوله « **الكبرياء ردائي والعظمة إزاري** » أي ذلك صفة من صفاتي ، وأنا المختص به دون غيري ، فمن نازعني في ذلك ـ بأن تكبر وتعظم على الناس ـ أدخلته ، وهكذا كما تقول العرب :

إن فلاناً شعاره ودثاره الزهد والورع ، أي صفته ونعته ، وليس يريد بذلك نفس الشعار ولا عين الدثار .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو داود في سننه ، وابن ماجه في سننه أيضاً :

(٢) أما باقي الحديث : فهو من إضافة المصنف ، وهو حديث مستقل أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي وابن ماجه ولفظه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:

« **يقول الله أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكر في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب الى شبراً تقربت اليه ذراعاً ، وإن تقرب الي ذراعاً تقربت اليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** »

وأعلم ان العرب قد تعبر مرة بالرداء عن الدين ، ومرة بالرداء عن السيف ، ومرة بالرداء عن العطية فيقولون :

فلان غمر الرداء إذا كان واسع العطية ، وإن كان قصير الرداء إذا كان واسع العطية ، وإن كان قصير الرداء ، وكذلك يعبرون عن صفاته بالرداء فيقولون : رداء فلان وإزاره الفسوق والمروق عن الطاعة أي نعته وصفته قال كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً   غلقت لضحكته رقاب المال

وقد يجعلون الرداء الحسن والنضارة إذا كان ذلك ، ونعته صفته كما قال القائل :

وهذا ردائي عنده يستعيره   ليسلبني نفسي آمال بن حنظل

يعني يا مالك بن حنظلة .

وقد قيل في معنى الرداء الذي هو الدين ، ما حكى عن علي رضي الله عنه انه قال :

(من أراد البقاء ولا بقاء ، فليخففف الرداء ، وليباكر الغداء ، وليقل غشيان النساء) .

قال بعضهم : أراد به الدين أو يسمون السيف رداء لأنه يتقلد كما يرتدي بالرداء توسعاً .

فأما معنى قوله : « من تقرب مني شبراً إقتربت منه ذراعاً » فيحتمل أوجها :

أحدها ان يكون معناه الإخبار بسرعة الإجابة لمن اطاعه ودعاه ، وتقرب اليه ، وأراد بالإقتراب قرب المنزلة والخطوة لديه لا قرب المسافة والمساحة ، فيكون هذا

الكلام تشبيهاً وتمثيلاً .

ويحتمل أن يكون أراد به من أتاني مسرعاً بالطاعة أتيته بالثواب أسرع من إتيانه .

ويحتمل أن يكون معناه على معنى ما قال جل وعز :

﴿ مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[1] .

أي من أطاعني طاعة واحدة جازيته عليها عشراً ، ويكون ذلك إخباراً عن ما يفعله من تضعيف الثواب .

ويحتمل أن يكون معناه : أي أزيد إلى المتقرب إلى شكر نعمتي نعماً كما وعدت الشاكرين من الزيادة[2] .

وأما المشي والهرولة فتوسع ، وهذا كما قالت العرب : فلان موضع في الضلالة :

والإيضاع : الإسراع في السير ، وليس يراد به ههنا نفس السير ، وإنما المراد : الإسراع في الضلالة ، وعلى ذلك معنى قوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾[3] .

والسعي هو العدو والإسراع في المشي ، وليس يراد بذلك أنهم مشوا ، بل المراد بذلك استعجالهم المعاصي ومبادرتهم الى فعلها .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام «إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » فذكر

---

(١) الآية : ١٦٠ من سورة الأنعام :

(٢) وعده بذلك هو قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ سورة إبراهيم آية ٧ .

(٣) الآية : ٥١ من سورة الحج .

العبد لله تعالى في نفسه أن يكون بحيث لا يعلمه احد غيره ، ولا يطلع عليه سواه ، قال عيسى عليه السلام :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾[1] .

أي تعلم ما أخبئه وما استره وأضمره ، ولا علم لي بما في غيبك مما اخفيته عني .

واعلم أن النفس في كلام العرب على معان :

منها نفس منفوسة مركبة مجسمة ذات روح ، وتعالى الله ان يكون كذلك علواً كبيراً .

ومنها النفس بمعنى الدم ، والعرب تقول له نفس سائلة ، وليس له نفس سائلة ، وتريد بذلك الدم .

ومنه ما يقال للمرأة نفساء ، إذا سال دمها على النفاس ، وتعالى الله عن الوصف بذلك ايضا .

ومنها نفس بمعنى إثبات الذات ، وهذا كما قال العرب : هذا نفس الأمر يريدون به إثبات الأمر ، لا أن له نفساً منفوسة مجسمة ، وعلى هذا المعنى يوصف الله تعالى بأن له نفساً ، وقد اخبر الله تعالى بذلك في آي من كتابه .

ومنها قوله تعالى :

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[2] .

---

(١) الآية : ١١٦ من سورة المائدة .

(٢) الآية : ١٢ من سورة الانعام .

وقوله :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللهُ نَفْسَهُ ﴾[2] .

وقد قال اهل التأويل في ذلك قولين .

منهم من قال معناه : يحذركم الله عقوبته .

ومنهم من قال يحذركم الله إياه .

وزعم بعض اهل التأويل أن النفس بمعنى الغيب أيضا كقوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ أي في غيبي ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ أي في غيبك .

ومنهم من قال : إن معنى قوله :

﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا في نَفْسِكَ ﴾ يرجع الى نفس عيسى ، وأنه أضاف نفسه الى الله من طريق الملك والخلق ، يريد بذلك أن نفسي لك خلقاً وملكاً ، ولا اعلم ما في ملكك مما خلقته إلا ما علمتني .

ومعنى الخبر على الوجه الذي يصح من هذه التأويلات ، أن من اخلص لي في الطاعة وأخفى علمه وخلصه من النفاق والرياء أخفيت ثوابه ، وهذا كما ذكره في قوله تعالى :

---

(١) الآية : ١١٦ من سورة المائدة .

(٢) الآية : ٣٠ من سورة آل عمران

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1] .

وقوله عليه الصلاة والسلام مخبراً عن الله تعالى أنه قال :

« **أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ،ولا خطر على قلب بشر** »[2] .

فأما قوله « **من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وأطيب** » فقد قال بعض اهل العلم :

إن المراد بالملأ الملائكة ، وأنه تعالى يشهدهم على ما يفعل به من الكرامات ، ويمدحه ويثني عليه عندهم ، وقد جعل قوم هذا الخبر حجة في تفضيل الملائكة على المؤمنين من بني آدم .

ومن ذهب الى تفضيل الأنبياء والأولياء من الآدميين على الملائكة فإنه يجيب من ذلك .

بأن معنى قوله خير منه ، يرجع الى الذكر كأنه قال بذكر خير من ذكره ، وأطيب

---

(١) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه الامام أحمد والشيخان ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .
وأخرجه الطبراني في الاوسط عن أنس ، وابن جرير عن ابي سعيد ، وعن قتادة مرسلا ثم يعلق صاحب الاتحافات السنية على هذا الحديث فيقول :
« ولا شك أن نعيم الجنة وتحفها شيء لا يمكن للانسان أن يصفه ، لأنه باق لا يلحقه التغيير والانحلال ، ولا العطب والاضمحلال بخلاف ملذات الدنيا ونعيمها ، فإنها سريعة الفناء قليل الانتفاع بها » اهـ .

ويقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري :
سبب هذا الحديث أن موسى عليه السلام سأل ربه من أعظم أهل الجنة منزلة ؟ قال : غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

منه ، لأجل ان ذكر العبد لله دعاء وتضرع ، وذكر الله للعبد إظهار رحمته وكرامته ، وذلك خير للعبد وأنفع .

واعلم أنه إذا احتمل هذا الكلام ما حملناه ، وساغ في معناه ما ذكرناه ، وكان فيه تنزيه الله عن مشابهة خلقه مع إعطاء الخبر معنى صحيحاً وفائدة كثيرة كان حمله على ذلك اولى من حمله على ما لا يليق بالله جل ذكره[1] .

---

(١) ويشرح الشيخ المناوي الحديث مبيناً المراد منه فيقول :

« العز بكسر العين المهملة ضد الذل ، والعزة والقوة ، وهي حالة مانعة للانسان من أن يغلب . والازار الثوب الذي يتزر به ، والكبرياء العظمة والملك والرداء الثوب الذي يرتدي به من الحر والبرد ، والقصم كسر الشيء وإبانته ، والقذف الرمي بقوة .

وضرب الازار والرداء مثلا في انفراده جل ذكره بصفة العظمة والكبرياء ، والعزة والقوة أي ليست كسائر الصفات التي قد يتصف بها الخلق مجازاً كالرحمة والكرم وغيرهما ، شبه ما ذكر بالازار والرداء لأن المنصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء الانسان ، ولأنه لا يشاركه في إزاره وردائه أحد ، فكذلك الله تعالى لا ينبغي أن يشركه في هذه الصفات أحد من خلقه ، ولا يليق لا إنس ولا جن ، ولا ملك ولا سلطان ، ولا فقير ولا غني ، ولا صعلوك كاختصاص أحدكم بردائه وإزاره ، فإنهما يشملانه دون غيره

وهذا ضرب مثل تقريبي الى عقول البشر حسب عادتهم وعرفهم ليفهموا ويعقلوا فمن نازع المولى جل علاه في شيء من هذه الصفات المختصة به جل وعز قذفه في ناره ، وعذبه بها وقصمه .

وفيه الزجر عن إدعاء العزة والكبرياء والعظمة والقوة ، لأنها لا يوصف بها في الحقيقة على الاطلاق غير الخالق البارىء العالم الواجد من العدم ، وهي دائمة باقية لله سبحانه وتعالى » اهـ .

ذكر خبر آخر وبيان تأويله

روى مكحول عن ابي هريرة عن النبي ﷺأنه قال :

« **عليكم بالجماعة فإن يد الله تعالى مع الفسطاط** » .

اعلم ان الفسطاط ـ في كلام العرب ـ هو المدينة ، ولذلك قيل لمصر فسطاط ، ومعنى الخبر ان يد الله مع الفسطاط ، أي ان الله تعالى مع السواد الأعظم ، ومع أهل الأمصار ، وأن من شذ عنهم وفارقهم في الرأي فليس على الحق .

وأما معنى اليد ههنا فإن من اصحابنا من يقول : إنه بمعنى الذات من قوله :

﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾[1] أي مما عملنا .

وكقوله :

﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[2] أي مما ملكتم أنتم .

وكقوله :

﴿ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[3] .

والمعنى فيه : أنه هو المالك لعقدة النكاح بنفسه ، لأنا رأينا من يملك وهو أقطع اليد .

فأما معنى قوله مع الفسطاط : إذا قلنا أن معناه : أنه مع الجماعة ، فإنه يرجع

---

(١) الآية : ٧١ من سورة يس .

(٢) الآية : ٣٣ من سورة النور .

(٣) الآية : ٢٣٧ من سورة البقرة .

في التحقيق إلى ان الله سبحانه معهم بالنصرة لهم ، وهذا كما قال :

إن الأمير مع الخليفة ، أي بالنصرة لا بالذات .

وفائدة هذا الخبر :

الترغيب في لزوم الجماعة ، ومنابذة الفرقة .

وفيه دلالة على أن الجماعة من أمة محمد عليه الصلاة والسلام معصومة .

وأن الله عاصمهم من الخطأ وناصرهم .

ومثل ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« **لا تزال طائفة من امتي ظاهرين بالحق لا يضرهم من ناوأهم** »[١] .

فإذا اتفقت الجماعة على حكم علم أن تلك الجماعة المعصومة الظاهرة بالحق فيها ومن نابذها وفارقها كان كما قيل في خبر آخر .

« **من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية** »[٢] .

ومثله قوله عليه الصلاة والسلام « **عليكم بالسواد الأعظم** » .

وقوله ايضا : « **يد الله مع الجماعة** » ومعاني هذه الأخبار متقاربة .

---

(١) أخرجه الشيخان عن المغيرة ، وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الامام مسلم وأقره الذهبي .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه عن ابن عمر رضي الله عنه . ويقول ابن مسعود رضي الله عنه : (عليكم بالجماعة فإنها جل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة) .

سؤال

فإن قال قائل : فإذا حملتم اليد ههنا على معنى الذات فهلا حملتموها ايضاً في قوله ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ على الذات ؟

قيل : لا يصح ذلك ، والفرق بينهما أن الله عز ذكره إنما قال لإبليس :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾[1] محتجاً عليه ، مفضلا له عليه بهذا التخصيص مبطلا لقوله « أنا خير منه » ، ولو حمل على معنى الذات سقطت هذه الفائدة وبطل موضع الإحتجاج من الله تعالى على إبليس ، وفيه ، ولم يكن لذكره فائدة ، لأن قوله خلقت فيه اثبات الذات ولا يصح أن يلغى من كلامه سبحانه شيء ، وقد يمكن ان يكسى فائدة ، وقد بينا فيما مضى تأويل اليد على مذهبنا ، وذكرنا اقسامه ، وما يضاف الى الله جل ذكره ، فعلى اي وجه يضاف بما يغني عن إعادته ههنا .

(١) الآية : ٧٥ من سورة ص .

ذكر خبر آخر وتأويله ومعناه

روى البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال :

« **إن فلانا هجاني وهو يعلم أني لست بشاعر فأهجه ، اللهم والعنه عدد ما هجاني** »[1] .

بيان تأويله

اعلم ان معنى قوله عليه الصلاة والسلام فاهجه ، **اللهم والعنه** ، يريد بذلك جازه على الهجاء ، ومثل هذا كثير في اللغة من تسمية الجزاء بإسم الشيء ، قال الله عز وجل :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[2] .

وقال :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾[3] .

وليس الثاني اعتداء ولا سيئة في الحقيقة ، وإنما سمي باسمه لما كان جزاء ونظيره أيضا .

قوله :

﴿ يَسْتَهْزِيءُ بِهِمْ ﴾[4] .

---

(١) أخرجه الامام أحمد والبيهقي ، وابن لهيعة .

(٢) الآية : ٤٠ من صورة الشورى .

(٣) الآية : ١٩٤ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ١٥ من سورة البقرة .

وقوله :

﴿ سَخِرَ ٱللهُ مِنْهُمْ ﴾[١] .

ذكر بعض اهل التأويل أن معنى ذلك : أن يجازيهم على السخرية والإستهزاء فسمى الجزاء باسم المجازي عليه كقول القائل :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمي الجزاء على الجهل ، كذلك معنى قوله فاهجه اللهم ، أي جازه على هجائه عني بعقوبة تحلها به .

ويحتمل ان يقال : إن معنى فاهجه ، أي ذمه ، لأن الهجاء : الكلام الذي يقصد به الذم ، وقد ذم الله الكافرين على كفرهم .

فإن قال قائل : إنه هجاهم على معنى ذمهم ، كان المعنى صحيحا وأصلنا في ذلك أنا لا نجيز إطلاق لفظ في وصف الله جل ذكره إلا على الوجه الذي وصف به نفسه لا نتعداه ولا نتقدم بين يديه .

---

(١) الآية : ٧٩ من سورة التوبة .

ذكر خبر آخر مما يقتضي التأويل

روى محمد بن زياد عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال ابو القاسم ﷺ :

« عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل »[1] .

تأويل ذلك

اعلم أنا قد بينا معنى العجب المضاف الى الله تعالى ، وقدروي في إضافة التعجب الى الله قد تقدم بيانها ، وأن ذلك يرجع الى معنى الرضا والتعظيم ، وأن الله عز وجل ، يعظم من اخبر عنه ، بأنه يعجب منه ، ويرضى عنه .

فأما معنى قوله « يقادون الى الجنة بالسلاسل » فقد قيل في معناه .

إنهم يكرهون الطاعة التي يصلون بها الى الجنة ، من حيث تخالف أهواءهم وشهواتهم وتكرهها نفوسهم من حيث تشق عليهم ، وتصدهم عن الراحات ، واللذات في الحال ، ولكنها سائقة لهم الى الجنة ، وهي دار الراحات ، ومأوى الطيبات ، أي هذه النفوس تطلب الراحات واللذات في الدنيا ، وتكره الطاعات والعبادات لما فيها من المشاق ، وهي التي تسوقهم الى اللذات وتقودهم الى الدرجات .

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والامام البخاري ، وأبو داود ، عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني عن أبي أمامة وأبو نعيم عن أبي هريرة .

ذكر خبر آخر وتأويله

روي عن ابن ابي ليلى عن عطية عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **إن الله جميل يحب الجمال** »[1] .

وحكي ان بكر بن عبد الله المزني ، كان يجمل الثياب ويدهن بالغالية ، ويلبس الطيالسة الطرازية ، والقمص القوهية ، فقال له بعض جلسائه :

لو قصرت في بعض هذه الكسوة ، فقال :

ان الله تعالى جميل يحب الجمال .

معنى بيان ذلك

اعلمَ ان وصفنا الشيء بأنه جميل ، يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يراد به جمال الصورة والهيئة والتركيب ، وذلك بأن يستجمله الناظر اليه ، وذلك مستحيل في وصف الله ، منفي عنه .

فإن قال قائل : فكيف نفيتم ذلك عنه مع ما روي في خبر آخر ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **رأيت ربي في أحسن صورة** »[2] .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وعن أبي ريحانه . ومسلم والترمذي عن أبي مسعود ، وأبو يعلى عن أبي سعيد ، والطبراني عن أبي أمامة ، وابن عمر وجابر ، والبيهقي عن أبي سعيد ، وابن عدي في الكامل عن ابن عمر .

(٢) هذا الحديث رواه الدارقطني وغيره عن أنس رضي الله عنه ، ثم يعلق عليه المناوي فيقول : =

قيل : إن هذا الخبر ايضا يحتمل التأويل ، ومحمول على الوجه الصحيح مما يحتمله مما لا يقتضي التشبيه ولا يؤدي اليه ، وذلك ان يكون معناه : وأنا في احسن صورة .

أو يكون معناه كما قال بعضهم : وأنا في مكان هو أحسن صورة .

أو يكون معناه وأنا في احسن صفة عند الله عز وجل ، يخبرنا برضاه عنه عليه الصلاة والسلام وتلقيه له جل ذكره بالكرامة والبشارة .

سؤال

فإن قيل فإذا لم يجز أن يحمل على جمال الصورة لاستحالة أن يكون الله تعالى جسمًا ذا تركيب وهيئة فعلى ماذا تحملونه ؟

قيل : إن اهل اللغة قد يستعملون مثل هذا اللفظ من فعيل على معنى مفعل ، كوصفنا الله جل ذكره ، بأنه حكيم ، والمراد به محكم لما فعله ، وكذلك يجوز أن يقال : الله تعالى جميل بمعنى مجمل ، وإجماله المضاف اليه على وجهين .

أحدهما : أن يكون يحسن الصور والخلق ، أي انه يحسن خلق ما يشاء وهو هيأته وصورته ، كما يقبح خلق من يشاء بتشويه صورته وهيأته .

الوجه الثاني : من الاجمال المضاف الى الله عز وجل ، وهو بمعنى الإحسان والفضل ، أي وهو المظهر النعمة والفضل ، والمبدي من يشاء من خلقه برحمته وكرامته ، وذلك سائغ عند اهل اللسان ، ومتعارف فيما بينهم ألا ترى انهم يقولون :

= « وهذا إن حمل على رؤية المنام ، فلا إشكال أو اليقظة فقد سئل عنه الكمال بن الهمام فأجاب بأن هذا حجاب الصلاة » .

أجمل في هذا الأمر اذا وصاه بأن يأتي فيه بالجميل من الفعل ، والمذهب فيه ، والله عز وجل اعلم موصوف ، بأنه مجمل على الوجهين جميعاً ، من تحسين الصور والابتداء بالفضل والنعمة .

فأما جمال الصورة والهيئة على الوجه الذي يستجمله الناظرون على ما يستجملون من هيآت الخلق فما لا يليق بالله سبحانه[١] .

وأما قول بكر المزني فراجع الى مثل ماروي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال :

« إن الله يحب إذا انعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه »[٢] .

وهو معنى قوله :

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[٣] .

والتحديث بها إظهارها ونشرها ، فما سبيله من نعم الله أن لا يظهر للناظرين ، فإظهاره شكر الله عليها ، وما يمكن ان يظهر فإظهارها نشرها ، وعلى ذلك يحمل قول بكر المزني ، وهو احد المعنيين الذين حملنا عليه خبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) فإنه سبحانه لا يشبهه شيء ، وليس كمثله شيء ، ولله المثل الاعلى .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، والبيهقي ، وحسنه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) الآية : ١١ من سورة الضحى .

ذكر خبر آخر وتأويله ومعناه

روى علي بن ابي طالب رضي الله عنه ان النبي ﷺقال :

« **إن الله تعالى رفيق ، يحب الرفق ، ويعطي عليه ، مالا يعطـي على العنف** »[1] .

اعلم أن معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « **إن الله رفيق يحب الرفق** » أي أنه ليس بعجول ، وإنما يعجل من يخاف الفوت ، فأما من كانت الأشياء في ملكه وقبضته فليس يعجل فيها .

وقوله يحب الرفق : أي يحب ترك العجلة في الأعمال والأمور ، قال الشاعر :

لم أر مثـل الـرفق في لينـه ... أخـرج العـذراء من خـدرهـا

يريد لم أر مثل ترك العجلة ، ومعنى الرفيق معنى الحليم ، وقد يجوز ان يستعمل احدهما بدل الآخر .

وقد قيل أيضاً : إن معنى الرفيق بمعنى المرفق ، كما يكون حكيم بمعنى محكم ، وجميل بمعنى مجمل ، والمعنى في ذلك أنه الخالق للرفيق يفعل برفقه بمن يشاء[2] على معنى انه ينفع من يريد ويلطف بمن يريد .

واعلم ان هذا الخبر وإن كان من اخبار الآحاد فلم يرد به بما يستحيل في وصف

---

(١) أخرجه البخاري في الادب عن عبد الله بن مغفل ، وابن ماجه في سننه ، وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه الامام أحمد في مسنده ، والبيهقي في الشعب عن علي رضي الله عنه ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، عن أبي أمامة ، وأخرجه البزار عن أنس .

(٢) يعذب من يشاء ويرحم من يشاء .

الله تعالى ، فلم ينكر ان يتأول على الوجه الذي قلنا ، وقد ورد في بعض الأخبار ايضا مما فيها اسامي الرب : أن الله صبور ، ولم يرد به نص القرآن ولا تواترت به الأخبار ، ومعناه معنى حليم ، وقد اختلف أصحابنا في معنى وصفه بأنه حليم .

فمنهم من قال : إن معنى الحلم ترك تعجيل العقوبة لمن يستحقها .

ومنهم من قال : معناه نفي السفه عنه ، وأن الله لم يزل حليما على هذا المعنى ، وهو مذهب[1] النجار .

(١) ويشرح صاحب فيض القدير هذا الحديث شرحاً واضحاً مبيناً المراد منه فيقول :

« إن الله رفيق . . . أي لطيف بعباده ، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم بل يسامحهم ، ويلطف بهم » .

ولا يجوز إطلاق الرفيق عليه سبحانه اسما ، لأن اسماءه . سبحانه إنما تتلقى بالنقل المتواتر ، ولم يوجد .

وأصل الرفق : ضد العنف ، وهو اللطف ، وأخذ الأمر بأحسن الوجوه وأيسرها ، والظاهر انه لا يجوز إطلاقه عليه تعالى ، لأنه لم يتوار ولم يستعمل هنا عن قصد التسمية ، وإنما أخبر به عنه تمهيداً للحكم الذي بعده » اهـ .

ويقول النووي :

« الاصح جواز تسميته تعالى رفيقاً وغيره مما يثبت بخبر الواحد »

خبر آخر وتأويله

فإن قال قائلون : فما تقولون فيما رواه محمد بن كعب القرظي :

« إن الله يمشي في ظلل من الغمام والملائكة ، ويقف على أدنى أهل الجنة درجة فيسلم عليهم ويردون السلام ثم يرجع إلى مكانه »[1] ؟

قيل : إن أهل النقل قد ضعفوا هذا الخبر ، فمنهم من قال : إنه وقع إليه كتب من يهود قريظة فكان ينظر فيها ويروي عنها .

وقيل أيضاً إن الذي رواه عنه زمعة وسلمة بن وهرام وكلاهما ضعيفان ، وعكرمة أضعف منهما ، على أنه كان صحيحاً فمعناه محمول على سائر معاني أفعاله مثل قولنا :

يعدل ويحسن ويحرك ويشكر ويجيء ويأتي ، وليس ذلك بمعاناة ومعالجة ، ولا ذلك بانتقال وحركة ، كما يكون ذلك منا ، لأنه لا يفعل في نفسه .

فأما قولهم في ظلل من الغمام والملائكة ، والله فيها بمعنى مقدرها ومدبرها ، وأن ذلك على التقديم والتأخير ، وهذا على مذهب من قال من المعتزلة والنخارية أن الله في مكان ، على معنى أنه مدبر لكل مكان مقدر لما فيه ، ونحن نأبى ذلك ، ولكنا نقول على مذهب أصحابنا .

---

(١) وهذا على معنى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

وقد وردت آراء كثيرة لبعض المفسرين تفيد ذلك وتؤيده ، أنظر تفسير الدر المنثور للحافظ السيوطي رضي الله عنه .

إن الله عز وجل في السماء على معنى أنه فوقها وعليها ، كما قال عز وجل :

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] أي فوقها .

وكما قال :

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[2] أي عليها .

وأما معنى وقوفه على أهل الدرجات في الجنة ، فقد قيل معناه :

إن الله عز وجل وصف نفسه بكرامته لأهل الدرجات في الجنة ، درجة بعد درجة ، الاعلى فالأعلى .

فأما قوله : ثم يرجع إلى مكانه فليس ذلك على معنى الإنتقال إلى مكان ، لأنه ليس في مكان ، ولا يجوز عليه الإنتقال . وإنما معناه العودة الى افعاله قبل أن يحدث لهم ما أحدث ، وذلك توسع في الكلام ، كما يقال جاءك الخير يعدو عدواً والمراد سرعة الإقبال عليك .

وإذا احتمل اللفظ ما ذكرنا وكان خلافه يؤدي الى التشبيه وإلى وصفه تعالى بما لا يليق به كان أولى الأمور أن يحمل على الوجه الذي يصح معناه ويوافق معنى قوله سبحانه :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ٢ من سورة التوبة .

(٢) الآية : ٧١ من سورة طه .

(٣) الآية : ١١ من سورة الشورى .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل فما تقولون فيما روي أنه قال ﷺ :

« دخلت على ربي في جنة عدن شابا جعدا[1] في ثوبين أخضرين » .

قيل معنى قوله « دخلت على ربي » كمعنى قول المسلمين في الموسم « أتيناك ربنا شعثاً غبراً من كل فج عميق لتغفر لنا ذنوبنا » .

ويقال ايضاً في الكلام الجائز الجاري في العرف : أقبل الله على فلان بالكرامة ، وأقبل فلان على الله بالطاعة .

أي دخلت جنة ربي بتقريبه لي وبكرامته إياي ، فرأيت فيها شاباً ولياً من أوليائه ، على هذا الوصف ، دون أن يكون هذا المذكور هو الله عز وجل .

وقد يقال : دخلت في غير ما يكون في مكان أيضاً وذلك متعارف بين اهل اللغة كما يقولون : دخل في امرك البركة ، وأدخل الله في اموركم البركة ، أي بارك لهم فيها ، ويقال دخل فلان على أمري ورأيي ، ويقال ايضاً دخل على فلان في منزلي لا أنه دخل على بدنه ، وإنما المعنى : أنه دخل داره ، كذلك معنى

---

(١) الجعد : مطلقاً الكريم ، أنظر مختار الصحاح ، واللسان .

ويقول أبو عبيد الهروي في الغربيين :

« والجعد صفة الرجال يكون مدحاً ، ويكون ذماً » .

فإذا كان مدحاً فله معنيان :

أحدهما : أن يكون معصوب الخلق شديد الأسر .

والثاني : أن يكون شعره جعداً غير سبط ، لأن السبوطة أكثرها في شعور العجم .

وأما الجعد المذموم فله معنيان :

أحدهما : القصير المتردد :

والآخر : البخيل الذي لا يبض حجره ، يقال رجل جعد اليدين ، وجعد الأصابع : أي بخيل . اهـ.

دخلت على ربي ، أي دخلت دار ربي وهي الجنة ، والدار التي اعدها لأوليائه[1] .

ويحتمل أن يكون معنى وأنا في الجنة شاب جعد ، وإن ذلك كان رؤ يا في منام والشيء قد يرى في المنام على خلاف ما يكون به ، فإذا احتمل هذا الكلام ما ذكرنا كان حمله عليه اولى .

(١) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ سورة ال عمران آية ١٣٣ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺفيما أخرجه البخاري :

« إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل فما تقولون فيماروي عن مجاهد أنه قال :

يقول داود عليه السلام يوم القيامة :

« رب ذنبي فيقول : أدنه أدنه ، فيدنو حتى يمسه » قال فمس سفيان ركبته يشير الى انه مس ركبته .

قيل إن مجاهداً مأخوذ من قوله ومتروك ، ولكنه إن صح ، فيحتمل ان يقال معناه أنه أدنه بمسألتك إياي ، وتقرب إلي بذلك ، وبالخضوع لي حين يمسه عفو الله وصفحه ورحمته .

وقيل أيضاً يحتمل ان يكون ذلك على المثل ، أنه يدنو بالتضرع والخشوع اليه ، حتى يصير كهيئة المماس في المثل على الوجه الذي لا يكون بينه وبين ما يماسه حائل ، على أن مجاهداً ليس بحجة في مثل هذا، وقد قيل ايضا انه لم يذكر في الخبر ركبة .

ويحتمل ان يكون ركبته بعض خلقه أمره بالدنو منه أمر تعبد ليخضع لله جل ذكره بذلك ، حتى يناله عفوه ورحمته[1] .

(١) وهذا حسبما رأى المصنف .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل فما تقولون أيضاً فيما روي عن مجاهد أنه قال في تأويل قوله تعالى :

﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَّحْمُوداً ﴾[1] إنه يقعده معه على العرش[2] .

قيل هذا ايضا غير مأخوذ به من قوله وتأويله ، مع أنه يحتمل ان يقال : إنه معه بمعنى النصرة والمعونة كما قال :

---

(١) الآية : ٧٩ من سورة الاسراء .

(٢) واختلف العلماء في المراد من المقام المحمود فعن محمد بشار بسنده عن حذيفة قال :

« يجمع الناس في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، فيما ما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادي : يا محمد ، فيقول :

لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، عبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت » .

« فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى » اهـ .

وأخرج سعيد بسنده عن قتادة قال :

(ذكر لنا أن نبي الله ﷺ ، خير بين أن يكون نبياً عبداً ، أو ملكاً نبياً فأومأ اليه جبريل عليه السلام : أن تواضع ، فاختار نبي الله أن يكون عبداً نبياً فأعطي به نبي الله ثنتين : أنه أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع).

وكان أهل العلم يرون انه المقام المحمود الذي قال تبارك وتعالى :

﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ « شفاعة يوم القيامة » اهـ .

وقال آخرون :

بل ذلك المقام المحمود الذي وعد الله نبيه ﷺ ، أن يبعثه إياه هو أن يقاعده معه على عرشه .

وهذا القول الاخير هو الذي ذكره المصنف ، أنظر تفسير الطبري جـ ١٥ ص ١٤٥).

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] .

وكما قال

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] على معنى النصرة والمعونة ، وذلك أن : مع في الكلام يحتمل وجوها :

أحدها بمعنى الصحبة في البقعة والمجاورة لمن فيها ، وذلك لا يليق بالله سبحانه .

ويكون ايضا بمعنى العلم كما قال :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾[3] .

والمعنى فيه أنه عالم بكم ، سامع لكلامكم راء لأعمالكم ، وأشخاصكم وذلك جائز في وصفه ، ويشمل الكافر والمؤمن .

فأما اذا قيل : إنه مع المؤمن تخصيصاً بمعنى النصرة والمعونة ، فيكون معنى الخبر أن الله تعالى يكرم نبيه محمداً ﷺ، بأبلغ الكرامات حتى يقعده في ارفع المقاعد عنده ، وهو معه بالنصرة والمعونة ؛ والمقاعد المقربة من الله تعالى مقامات الطاعات ودرجات الكرامات دون ما هو من طريق الصحبة في المكان والمجاورة لمن فيه .

---

(١) الآية : ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٩٤ من سورة البقرة ، والآية : ٣٦ ، ١٢٣ من سورة التوبة .

(٣) الآية : ٤ من سورة الحديد .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قال قائل : فما تقولون فيما روى الشعبي :

(إن الله ملأ العرش حتى أن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد قائلا هكذا) ووضع احداهما على الأخرى ، قال ووضع حماد ساقه على ركبته اليسرى .

قيل معنى قوله : ملأ العرش يحتمل ان يكون المراد ملأه عظمة ورفعة ، وعزة وآلاء ، وهذا كما قال عز وجل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَىٰ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾[1] .

والأمانة ليست بجسم .

فأما معنى قوله هكذا ، فيحتمل ان يقال : أراد به التجبر والعظمة التي لا يجوز لغيره .

وأما معنى وضع حماد ساقه على ركبته اليسرى ، فليس على معنى إثبات الجارحة والإشارة الى معناها ، بل إنما أراد به أنه هو المنفرد بمثل هذه العظمة ، وأنه العالي المستوي على كل ما خلقه .

واعلم انه سائغ في الكلام أن يقال :

ملأت قلبك فرحا وغما ، وليس المراد به امتلاء من طريق شغل المكان من جهة المساحة .

---

(١) الآية : ٧٢ من سورة الاحزاب .

ويقال : ملأ فلان هذا البلد علمًا ، والمراد به ما نشر فيه من الكتب التي العلم فيها مكتوب ، وما روى وذكر فيه ، ولا يكون المراد به على نحو ملء الأواني بالأجسام التي فيها ، ولما احتمل الكلام هذين المعنيين ولم يجز احدهما على الله تعالى صح ان المراد به ما قلنا .

ذكر خبر آخر وتأويله

وكذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« إن العرش يثقل على كواهل حملته من ثقل الرحمن حتى يعرفوا غضبه بثقله على كواهلهم »[1] .

في خبر هذا معناه ، قيل أما معنى قوله « **من ثقل الرحمن** » **فليس ذلك ثقلا** كثقل الأجسام والأشباح ، وإنما هو ثقل عظمته ، كقول القائل : ثقل علي كلامك ، وليس ثقل كثقل الأجسام .

وقد يقال : الحق ثقيل مر . وليس المراد به ثقلا كثقل الأجسام ، إنما المراد به ما في تحمله من الصعوبة والمشقة على النفس ، وقد قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾[2] .

فثقل الرحمن على الملائكة ، ثقل هيبته في قلوبهم ، وما يتجدد لهم في بعض الأحوال من ذكر عظمته وعزته ، فأما ما يعرفون به غضب الرحمن جل ذكره ، فيحتمل : أن يخلق في العرش ثقلا على كواهلهم ، ويجعل ذلك أمارة لهم في بعض الأحوال ، من ذكر إنزال العقوبة بقدر ، فكلما وجدوا ذلك إزدادوا تعظيمًا وذكراً .

---

(١) أخرجه الامام أحمد ، وابن حميد في مسنده ، الطبراني في المعجم الكبير .

(٢) الآية : ٥ من سورة المزمل .

وإنما قلنا ذلك لإستحالة وصف الله تعالى بالمماسة والأعتماد على الأجسام ، وأن يكون جسماً له ثقل ، وإذا احتمل الكلام ما ذكرناه وكان سائغاً في اللغة ، وجب ان يحمل تأويله عليه دون أن يحمل على ما لا يليق بالله .

ذكر خبر آخر وتأويله ومعناه

فإن قيل فما تقولون فيما روي أن جبرائيل عليه السلام ابطأ على النبي ﷺفقال : « **إني وجدت ربي يصلي** » .

وفيما روي أن بني اسرائيل سألوا موسى عليه السلام فقالوا : ايصلي ربنا فأوحى الله تعالى اليه ان يبلغهم اني اصلي كيما تغلب رحمتي غضبي ، ولولا ذلك هلكوا .

وفيما روي ان النبي ﷺ ، لما اسري به الى السماء السابعة أتاه جبريل فقال : ويداك يا أحمد فإن ربك يصلي ، فقلت وإن ربي يصلي .

قال : نعم ، قلت وأي شيء يقول ؟ فقال يقول سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي[1] .

بيان تأويله

اعلم ان الصلاة على وجوه :

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺيقول رب العزة :

« **إني أنا الله لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتي غضبي ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فله الجنة** » .

ثم يعلق ابن عباس على هذا الحديث فيقول :

أول شيء خطه الله في الكتاب الاول .

(**إني أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي . . . الحديث**) .

وإذا اضيفت الى الله تعالى فمعناها : المدح والثناء والرحمة والبركة .

وإذا اضيفت الى الملائكة فمعناها : الإستغفار وطلب الشفاعات .

وإذا اضيفت الى المؤمنين من الآدميين فالمراد : الدعاء قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾[1] .

فصلاة الله عز وجل إظهاره رحمته ومدحه وثناؤه .

وصلاة الملائكة إستغفارهم وسؤالهم الفضل والدرجة لمن يصلون عليه .

وصلاة المؤمنين دعاؤهم ربهم بإنزال البركات والرحمة على من يصلون عليه .

ومعنى قوله تعالى : أبلغهم أني اصلي ، أي اني ارحم واغفر واستر .

ومعنى قوله : ﴿ كيما تغلب رحمتي غضبي ﴾ ، أي حتى يسبق الكائن من رحمتي وغضبي .

ورحمته في الحقيقة عندنا إرادته أن ينعم على من أراد تنعيمه .

وغضبه إرادة تعذيب من علم تعذيبه وعقوبته على الدوام .

ثم سمي الكائن عن الرحمة رحمة ، والكائن عن الغضب غضبا ، كما سمي المعلوم علمًا والمقدور قدرة ، والموهوب هبة .

وإذا كان ذلك كذلك حملنا معنى قوله : ﴿ سبقت رحمتي غضبي ﴾ .

---

(١) الآية : ٥٦ من سورة الاحزاب .

وكيما تغلب رحمتي غضبي على الكائن من رحمته وغضبه ، والمراد به إظهار بركته وكرامته لأهل البركة والرحمة ، كما ظهر تعذيبه وعقابه لأهل العقوبة .

واعلم ان معنى الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء كثير ، وبمعنى المكاء والتصدية ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾[1] .

والمكاء الصفير والتصدية التصفيق .

ويقال للصلاة الشرعية صلاة ، وهي القراءة والتسبيح والركوع والسجود ، ويعبر عن جملة هذه الأفعال : أنها صلاة من طريق الشرع ، لا من طريق اللغة ، ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بهذا النوع من الصلاة التي تتضمن هذه الحركات والهيئات لإستحالة كونه جسمًا محدوداً يتحرك ويسكن .

وجائز وصفه بالصلاة التي هي الثناء والدعاء والرحمة ، وما وصف به من ذلك فعلى هذا المعنى لا على غيره[2] .

---

(١) الآية : ٣٥ من سورة الانفال .

(٢) ويشرح الشيخ المناوي رضي الله عنه الحديث شرحاً موفياً لبيان المراد منه فيقول :

« الرحمة في الاصل رقة في القلب تقتضي الاحسان والعطف والحنان على المرحوم ، فتحركه الى قضاء حاجته والتلطف به ، وقد يستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الاحسان المجرد من الرقة نحو : رحم الله فلاناً ، فإذا وصف به الباري تباركت أسماؤه ، وتنزهت صفاته فلا يراد به الا الاحسان المجرد دون الرقة ، وعن هذا فإن الرحمة من الله تعالى : إنعام وإفضال ، ومن الآدميين : رقة وتعطف فالله سبحانه وتعالى ركز في طبائع الناس الرقة وتفرد بالاحسان .

ورحمة الله سبحانه في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين قال الله تعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُون ﴾ . سورة الأعراف آية ١٥٦ .

والغضب : صفة من صفات الله جل ذكره ، التي ليس كمثلها شيء ، وفيها وما ورد بين السلف =

ذكر خبر آخر آخر وتأويله

فإن قيل فما تقولون فيما روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في حديثه :

« أنه يتجلى للخلق فيلقاهم فيقول : من تعبدون ؟ فيقولون : ربنا . »

فيقول : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : سبحانه إذا اعترف لنا عرفناه ؟ (١)

وفي بعض الألفاظ : إذا عرفنا بنفسه عرفنا .

قال : فعند ذلك يكشف عن ساق ، ولا يبقى مؤمن إلا خر لله ساجداً .

قيل أما رؤية الله تعالى فجائزة نظرا ، وواجبة للمؤمنين خبراً وقد تقدم بيان

= والخلف .

وهو في وصف المخلوق به ثوران دم القلب إرادة الانتقام ، ولذلك قال النبي ﷺ :

﴿ اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم ، ألم تروا الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ﴾ ؟

وقد قسم في جانب المخلوق الى محمود ، ومذموم .

فالاول : ما كان في جانب الدين والحق ، والثاني : ما كان في خلافه .

المعنى : أن الله سبحانه أخبر أنه الاله المنفرد بالألوهية ، وقد سبقت رحمته وإحسانه ولطفه غضبه وانتقامه ممن أساء لنفسه وخالف مولاه واتبع شيطانه وهواه .

وأن من شهد لله جل ذكره بالوحدانية المطلقة ، ولرسوله محمد ﷺ بالرسالة والعبودية ، له الجنة يدخله الله من أي باب شاء . اهـ .

(١) أخرجه ابن جرير ، والطبراني في المعجم الكبير ، وابن حميد في مسنده ويؤيده ما أخرجه الامام البخاري في صحيحه بنسده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ان رسول الله ﷺ قال :

« يتنزل ربنا تبارك وتعالى ، كل ليلة الى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فاغفر له ؟ » .

ذلك[1] .

فأما قوله فيكشف عن ساق فلم يضف ذلك الى احد ، ومعناه ، عن شده ، لأن ثمل هذا الكلام مستعمل في اللغة على معنى شدة الأمر كما قال الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[2] أي شدة الأمر .

وقال الحسن[3] في قوله :

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾[4] أي التفت ساق الدنيا بساق الآخرة .

وقال الضحاك : معناه أمر الدنيا من الآخرة .

وقال عمر رضي الله عنه معناه : أعمال الدنيا بمحاسبة الآخرة وذلك أمر عظيم[5] .

---

(١) أخرج الامام البخاري في صحيحه « كتاب التوحيد » عن جرير البجلي رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر ، فقال :
« إنكم سترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته » .
والكلام عن الرؤيا سبق من قبل في صورة أوضح فارجع اليه إن شئت .

(٢) الآية : ٤٢ من سورة القلم .

(٣) هو الحسن البصري ، كما يفهم من إطلاقه .

(٤) الآية : ٢٩ من سورة القيامة .

(٥) ويقول جمهور العلماء في المراد من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ يكشف عن شدة ، وأنشدوا : (وقامت الحرب على ساق) .

. . . .

وقال آخر :

« وإن شمرت عن ساقها الحرب شمراً » .

وقال ابن قتيبة : وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج الى معاناة الجد فيه شمر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة ، وهذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ، وثعلب واللغويين .

وروى البخاري ومسلم في الصحيحين عن النبي ﷺ :

« إن الله عز وجل يكشف عن ساقه » .

وهذه إضافة اليه معناها يكشف عن شدته وأفعاله المضافة اليه ، ومعنى يكشف عنها يزيلها .

وقال عاصم بن كليب : رأيت سعيد بن جبير غضب وقال :

يقولون : يكشف عن ساقه ، وإنما ذلك من أمر شديد ، وقد ذكر أبو عمر الزاهد : أن الساق بمعنى النفس ، قال : ومنه قول علي رضي الله عنه لما قالت الشراة : لا حكم إلا لله تعالى فقال :

« لا بد من محاربتهم ولو أتلفت ساقي » .

فعلى هذا يكون المعنى يتجلى لهم .

وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال :

« **يكشف لهم الحجاب فينظرون الى الله عز وجل ، فيخرون لله سجداً ويبقى أقوام في ظهرهم مثل صياص البقر ، يريدون السجود فلا يستطيعون** » فذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ سورة القلم آية ٤٢ .

وقد ذهب القاضي أبو يعلى ، إلى أن الساق صفة ذاتية .

وقال مثله يضع قدمه في النار .

وحكي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

يكشف عن ساقه اليمنى فتضيء من نور ساقه الأرض .

قلت : وذكره الساق مع القدم تشبيه محض ، وما ذكره عن ابن مسعود محال ولا يثبت لله تعالى صفة بمثل هذه الخرافات ، ولا توصف ذاته بنور شعاعي تضيء به الأرض .

واحتجاجه بالاضافة ليس بشيء لأنه إذا كشف عن شدته فقد كشف عن ساقه ، وهؤلاء وقع لهم أن معنى يكشف يظهر ، وإنما المعنى يزيل ويرفع .

وقال ابن حامد : يجب الايمان بأن لله سبحانه وتعالى ساقاً صفة لذاته ، فمن جحد ذلك كفر .

قلت : لو تكلم بهذا عامي جلف كان قبيحاً ، فكيف من ينسب الى العلم ؟ فإن المتأولين اعذر منهم ، لأنهم يردون الأمر الى اللغة ، وهؤلاء أثبتوا ساقاً للذات وقدما حتى يتحقق التجسيم والصورة » اهـ .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل : فما تقولون فيما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال :

« **رأيت ربي جعداً قططاً** »[1] ؟ .

قيل هذا حديث ضعيف ، عند اهل النقل وإن صح ، معناه يرجع الى الرائي ، ويكون ذلك رؤ يا نوم ، والرائي قد يرى نفسه في النوم على خلاف ما هو به ، لأن هذه الصفات لا تليق بالله سبحانه ، ولم يرد به كتاب ولا سنة متواترة ، ولا أجمعت الأمة عليه ، فيكون ذلك من طريق الإسم ، لا من طريق المعنى ، لأن معناه مستحيل في وصفه لاستحالة كونه جسمًا محدوداً متجزئاً ، وقد مضى بيان تأويل ذلك في اول كتابنا .

ويقول الفخر الرازي :

(يوم يكشف عن ساق جهنم ، أو عن ساق العرش ، أو عن ساق ملك مهيب عظيم ، واللفظ لا يدل الا على ساق ، فأما أن ذلك الساق ساق ، أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه) .

ويقول القاسمي :

(وقال أبو سعيد الضرير : أي يوم يكشف عن أصل الأمر ، وساق الشيء أصله الذي به قوامه ، كساق الشجر ، وساق الانسان ، أي تظهر يوم القيامة حقائق الاشياء وأصولها ، فالساق بمعنى أصل الأمر وحقيقته استعارة من ساق الشجرة) اهـ .

(١) وقال صاحب أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب :

حديث موضوع ، كما في الذيل ، وكذا قال السبكي وغيره ، أنه موضوع لا أصل له .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل : فما تقولون فيما روى حماد عن أبي المهزم عن أبي هريرة رضي الله عنه :

« إن الله عز وجل خلق نفسه من عرق الخيل [1] » .

قيل هذا حديث منكر عند أهل النقل ، وأبو المهزم مجهول ، وقال في حماد عبد الرحمن بن مهدي إنه لم يكن يعرف هذه الأحاديث ، حتى خرج خرجة إلى عبادان ، فلا أحسب إلا شيطاناً دسه في كتبه ، وكان حماد ذا غفلة ، وكان لا يحفظ وابن أبي العوجاء ربيبه ، وكان زنديقاً ، وكان يتهم بأنه درس في كتبه .

وقيل : إن بعض الزنادقة أخذ في زمان المأمون ، فقيل له : تب ، فقال كيف أتوب ؟ وقد وضعت كذا وكذا في كتاب حماد حديثاً ، وسمعت الناس يتحدثون بها ، ولقد جهدنا أن نزيد في كتاب الله حرفا فلم نقدر عليه ، على أنه لو كان صحيحاً كان يمكن أن يتأول على أنهم سألوا النبي ﷺ فقالوا :

مم ربنا الذي كنا نعبده في الجاهلية من دون الله ؟ يريدون من الشياطين الذين دعتهم الى معصية الله .

واعلم أن هذا الحديث ونحوه من الأخبار المتناقضة التي لا يجوز الاشتغال بها ، وبتأويلها لظهور فسادها ، ووضوح الخلل في أمرها ، وإجماع أهل النقل في أنها موضوعة لا أصل لها .

---

(١) كان أمر المؤلف يقتضي : عدم ذكر هذا الحديث ، خاصة وأنه علم وعرف أنه حديث منكر ، ولو توسع في عبارته بالحكم على هذا الحديث لقال إنه موضوع لا أصل له ، بل هو حديث ، مولد مختلق مفترى كما ذكر ذلك صاحب الذيل ، وصاحب كتاب الأسرار المرفوعة في الاحاديث الموضوعة .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل : فما تقولون فيما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« إن بني إسرائيل سألوا موسى بما شبهت كلام الله تعالى ؟

فقال : بأشد ما يكون من الصواعق ، وليس بذلك » .

وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

«إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفوان فيقولون : ماذا قال ربنا ؟ فيقال : الحق الحق ، فيقول الملائكة الحق الحق [1] » ثم قرأ قوله :

« حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ، قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ »[2] .

تأويله

اعلم أن كلام الله تعالى ، ليس بحرف ولا صوت عندنا ، وإنما العبارات عنه تارة تكون بالصوت ، والعبارات هي الدالة عليه ، وأمارات له تظهر للخلق ،

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن ابي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام ، فإذا أتاهم جبريل عليه السلام ، فزع عن قلوبهم قالوا يا جبريل ، ماذا قال ربنا ؟ فيقول : الحق ، فينادون الحق الحق » اهـ .
وله روايات متعددة يتضمن جميعها هذا المعنى.

(٢) الآية : ٢٣ من سورة سبأ .

ويسمعون عنها كلام الله فيفهمون المراد ، فيكون ما سمع موسى عليه السلام من الأصوات مما سمع ، يسمى كلام الله عز وجل ، ويكون ذلك في نفسه غير الكلام .

ويحتمل أن يكون معناه : أن يسمى العبارة كلام الله ، كما يسمى الدلالة على الشيء بإسمه ، وكما يسمى الواقع عن القدرة قدرة ، والكائن عن الرحمة رحمة ، فيكون معنى قوله : بما شبهت كلام الله ؟

أي بما شبهت العبارة عنه ، والدلالة عليه ، مما سمعت عندها وسماعها كلام الله عز وجل لإستحالة أن يكون لكلام الله عز وجل شبيه .

ويحتمل قوله بأشد من الصواعق أن يكون أراد به ما وجد عند سماعه من التعظيم والاجلال والهيبة ، كما يستعظم الصواعق والكائن عنها ، وإذا أقامت الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون كلام الله عز وجل مخلوقا ، ولا أن يكون أصواتا تتجدد شيئاً فشيئاً وجب أن يحمل التأويل فيه على ما قلنا .

ولسنا ننكر أن يكون كلام الله تعالى عبارات هي أصوات منها أصوات مختلفة ، ومنها ما يكون علامات له عندها ، العلم ، والسمع لكلامه ، وقد تكون الدلالة في كتاب الله أيضاً بالكتاب ، ويكون الكتابة غير المكتوب ، كما تكون العبارة غير المعبر ، فعلى ذلك حمل تأويل الخبر وما ضاهاه .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قيل : فما تقولون فيم روي عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال :

« **إذا سجد أحدكم فإنما يسجد على قدم الرحمن** »[١] .

قيل قد بينا فيما قبل معنى القدم[٢] المروي في غير هذا الخبر ، مما أضيف إلى الله عز وجل ، والعجب للفرقة المشبهة ربها بالخلق في احتجاجها بذلك ، إذ من قولها :

إن الله تعالى على صورة آدم ، وأن له حدا وغاية ، وأنه في السماء وعلى العرش مستو استواء استقرار[٣] .

ثم تحتج بأن ابن آدم يسجد على قدم الرحمن ، وقد حكمت على زعمها بكفر من يقول : إن الله تعالى في الأرض ، وهذه مقالة تنقض بعضها بعضها .

---

(١) في الحديث إثبات صفة القدم لله تعالى بما يليق به ، وبكيفية لا يعلمها ، ويكذب بهذه الصفة غير أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله كما وردت في الحديث .

(٢) وذلك عند الكلام عن حديث :

« **لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله ، فينزوي بعضها الى بعض فتقول : قط ، قط** » وقد سبق شرح هذا الحديث والمراد منه من قبل .

(٣) وقد سبق إبطال قول المشبهة والمجسمة من قبل ، ولكن زيادة في التوضيح نذكر ما قاله الامام علي رضي الله عنه ، إذ في قوله هذا : دحض لأباطيل المشبهة ، وإفحام لقول المجسمة وها هو يقول :

« الحق تعالى ليس من شيء ، ولا في شيء ولا فوق شيء ، ولا تحت شيء » .

إذ لو كان من شيء لكان مخلوقاً ، ولو كان فوق شيء لكان محمولا ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان تحت شيء لكان مقهوراً ، تعالى الله من ذلك علواً كبيراً .

﴿ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ اهـ .

ومعنى الخبر إن صح : أن العبد يتوضأ للصلاة ، فيكتب بذلك الأجر ويحط الله عنه الوزر ، ثم يدخل العبد في الصلاة بالتكبير ، وبما سنه رسول الله ﷺ مما يقوله المصلي بعد تكبيرة الافتتاح للصلاة ، ثم يقرأ ويركع ويرفع رأسه ، فإذا سجد كان سجوده آخر كل ركعة على قدمه للرحمن ، فكان قوله ﷺ « **يسجد ابن آدم على قدم الرحمن** » ، يعني على ما قدم الرحمن له ، ألم تسمع قوله عز وجل : ﴿ **أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾[1] .

فهذه القدم الصدق هي ما قدمه العباد من خير مهدوا به لأنفسهم .

ويحتمل أن يكون معناه : أن المصلي يسجد على قدم الرحمن ، أي يطيع ربه على ما قدم الله جل ذكره له من الحكم بأنه يصلي ، ومما سبق له من الوعد بالجميل عليه ، كما قال الله عز وجل :

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾[2] .

وإذا احتمل الكلام ما ذكرنا واستحال وصف الله تعالى بالجوارح وجب أن يحمل على ما قلنا دون ما توهمه المشبهة لاستحالته .

روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« **إن أقرب أهل الجنة منزلة من الله عز وجل من ينظر في وجه الله تعالى كل يوم مرتين** »[3] .

---

(١) الآية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية : ١٠١ من سورة الأنبياء .

(٣) أهل السنة يثبتون لله تعالى صفة الوجه ، ويستدلون على ذلك بما ورد في القرآن الكريم وهو قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ سورة الرحمن آية ٢٧ ، وقوله سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ . سورة القصص آية ٨٨ .

وغير أهل السنة ينكرون هذه الصفة ، ويفسرون ما ورد بتأويلات فاسدة منها :

وروي أيضاً عنه ﷺ أنه قال :

« أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم »[٢] .

تأويلهم للوجه : « بالثواب » أو « بالقبلة » أو « بالذات » .

وكل هذا فاسد لا أصل له .

والوجه عند أهل السنة : صفة ذاتية ، قائمة بذات الله تعالى ، ونحن على ما عليه أهل السنة في هذا .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ، وأبو نعيم في الحلية .

ذكر خبر آخر وتأويله

اعلم أن إطلاق وصف الله عز وجل بأن له وجها قد ورد به نص الكتاب والسنة ، وذلك من الصفات التي لا سبيل إلى إثباتها إلا من جهة النقل ، ولو لم يرد بذلك خبر لم يجز إطلاقه إذ لا دلالة من جهة العقول تقتضي ذلك ، فتوجبه .

وذهبت المعتزلة في تأويل ذلك إلى أن معناه أنه هو ، وأن وجه الشيء قد يكون نفسه ، وتأولوا قوله سبحانه :

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[1] .

أي فثم الله ، وأن وجه الله هو الله ، وشبهوا ذلك بقولهم : وجه الحائط ، ووجه الثوب ، ووجه الأمر ، وهذا عندنا خطأ ، لأن القول به يؤدي إلى جواز القول بأن الله عز وجل وجه ، وأن يجوز بأن يدعى به ، فيقال يا وجه اغفر لنا ، وقد أجمعت الأمة على المنع من ذلك .

وذهب أصحابنا إلى أن الله عز وجل ذو وجه ، وأن الوجه صفة من صفاته القائمة بذاته .

وذهبت المشبهة إلى وجه الجارحة والآلة ، وقد بينا في أول هذا الكتاب أنه لا يصح وصف الله تعالى بالجوارح والآلات ، وإن ذلك يؤدي إلى نقص توحيده ، وإلى القول بأنه أجزاء مبعضة وأجسام مركبة ، وذلك محال في وصفه .

فأما الذي يجب أن يكشف عنه من تأويل هذا الخبر على أصلنا ، إذا وجه السؤال إليه ، فقيل : كيف خص النظر إلى وجهه وعلق بذكر الوجه ؟

---

(١) الآية : ١١٥ من سورة البقرة .

وكيف قال لذة النظر إلى وجهه ؟

وهل الوجه الذي هو صفة مرئي ؟ وإذا كان مرئياً ولم يكن هو الذات فما الفائدة بتخصيص النظر إليه ؟

والجواب

عن ذلك أنه قد يذكر صفة الشيء ، والمراد به الموصوف ، توسعاً كما يقولَ القائل :

رأيت علم فلان اليوم ، ونظرت إلى علمه ، وإنما يريد بذلك رأيت العالم به ، ونظرت إلى العالم .

كذلك إذا ذكر الوجه ها هنا ، فالمراد به من له الوجه ، وعلى هذا يتأول قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾[1] .

إن المراد به الله الذي له الوجه ، وكذلك قوله :

﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَى ﴾[2] .

فإن المراد به ابتغاء ربه الأعلى الذي له الوجه .

فأما ما ذهب إليه المعتزلة من تشبيه ذلك بوجه الثوب ، ووجه الحائط ، فغلط من التمثيل من قبل أن وجه الثوب والحائط ليس هو نفس الثوب والحائط ، بل هو ما واجه به ، وأقبل به ، وكذلك وجه الأمر ما ظهر منه فيه الرأي الصحيح دون ما

(١) الآية : ٩ من سورة الانسان .

(٢) الآية : ٢٠ من سورة الليل .

لم يظهر ، وإذا لم يـجز في اللغة استعمال معنى الوجه على معنى الذات على الحقيقة في موضع ـ وقد ورد إطلاق الكتاب والسنة بذلك ـ لم يكن لما ذهبت إليه المعتزلة وجه ، ووجب أن يحمل الأمر فيه على ما قلنا : أنه وجه صفته ، ولا يقال هو الذات ولا غيرها .

سؤال

فإن قال قائل : فإنه لا يعقل وجه الجارحة أو بعض ، أو نفس الشيء ، قيل في هذا جوابان :

أحدهما : أنه إثبات وجه بخلاف معقول الشاهد ، كما أن إثبات من أضيف إليه الوجه إثبات موجود بخلاف معقول الشاهد .

والثاني : أن الوجه على الحقيقة لا يكون نفس الشيء ، لما بينا أن ذلك لا يوجد في اللغة حقيقة أيضاً وأما إطلاق البعض على الوجه الذي هو جارحة فتوسع عندنا ، وإن كان حقيقة أيضاً ، فلم يكن وجهاً ، لأنه بعض ، فيجب أن لا يكون وجه إلا بعض ، وإذا لم يكن الوجه وجهاً لأنه بعض ، ولا لأنه جارحة ، ولم ينكر إثبات وجه خلافاً من الموضعين .

وأعلم أن أحد أصولنا في هذا الباب أن كلما أطلق على الله عز وجل من هذه الأوصاف والأسماء التي قد تجري على الجوارح فينا ، فإنما يجري ذلك في وصفه على طريق الصفة ، إذا لم يكن وجه آخر يحمل عليه ، مما يسوغ فيه التأويل ، وذلك لصحة قيام الصفة بذاته ، فإن قيامها مما لا يقتضي إنتقاض توحيده وخروجه عما يستحقه من القدم والإلاهية .

فأما وصفه بذلك على الحد الذي يتوهمه المشبهة الممثلة [1] لربها بالخلق في إثبات الجوارح والآلات : فخلاف الدين والتوحيد ، وحملها على ما ذهبت إليه المعتزلة فيه إبطال فائدتها ، وإخراجها عن كونها معقولة مفيدة على وجه الحق ، والحق بين هذين المذهبين من التعطيل أو التشبيه ، وأن يمسك بحكم الكتاب والسنة ، ويتبع ما ورد النص فيها لا على التعطيل ، كما ذهبت إليه المعتزلة ، ولا على التمثيل ، كما ذهبت إليه المشبهة .

وأعلم أن هذا الباب يفتح لك طريق الكلام في هذه الأوصاف والإطلاقات ، ويوقفك على صحة الحق ، وهو مذهب أصحاب الحديث فيه ، ويعرفك كيفية سلوكنا بها ، وإنا لا نسلك في ذلك مسلك من يروم نفي الصفات من الملحدة [2] والمعتزلة ، ولا مسلك من أثبتها في حكم التمثيل من المشبهة .

وهكذا طريقنا في إثبات اليدين لله عز وجل ، وكذلك القول في العين ، فافهم بما عرفتك الطريقة في هذا الباب واحمل عليه جميع ما يجري مجراه .

سؤال آخر

فإن قيل ، فلم لا تقولون على هذا الوصف : قدم صفة، وصورة صفة، لأن الإضافة قد حصلت في الخبر إليه على هذا الوجه ؟ . فقيل على صورته ، وقيل قدمه ؟

قيل : إنما لم يحمل ذلك على الصفة لإمتناع المعنى فيه ، وأن الصفة ليست مما يوصف بالوضع في الأماكن ، وقد وجدنا لذلك تأويلا صحيحاً قريباً يمنع هذه

---

(١) والله تعالى يقول في قرآنه :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

(٢) وفي نسخة أخرى : من الملاحدة والمعتزلة

الشبهة ، وهو ما ذكرنا قبل أنه قدم المتجبر على الله عز وجل ، يضعها على النار على معني استحقاق العقوبة على عتوه على الله ، وبينا ان لفظ الجبار مشترك وليس هو مما يوصف به إلا الله عز وجل بل روي في بعض الأخبار أن جلد الكافر يبلغ في النار اربعين ذراعاً بذراع الجبار ، ولأن المراد به ها هنا هذا الرجل الطويل ، ومن السائغ في اللغة هذه نخلة جبارة إذا كانت طويلة .

فأما الصورة فقد بينا أيضاً ، أنه لا يصح أن تكون صفة لما أخبر أنه خلق آدم عليها . ولا تكون الصفة مثالا لآدم ، فيخلق عليها ، فلا يصح أن يحمل على صورة بمعنى الصفة ، وإنما حملنا ما أطلق من ذكر الوجه واليدين والعين على الصفة من حيث لم يوجد في واحد منها ما يستحيل ويمتنع ، وليس كما أضيف إليه فهو عن طريق الصفة بل ذلك ينقسم على أقسام :

منها بمعنى الملك ، ومنها بمعنى الفعل ، ومنها بمعنى الصفة ، وإنما يكشف الدليل ويميز القرائن مواقعها على حسب ما بينا ورتبنا فاعلمه إن شاء الله [١] .

---

(١) ويقول ابن الجوزي في كتابه : « دفع شبه التشبيه :

« للناس في هذا رأي الصورة ، اليدين والعين . . الخ ـ مذهبان

أحدهما : السكوت عن تفسيره .

والثاني : الكلام في معناه .

واختلف أرباب هذا المذهب في الهاء ، الى من تعود على ثلاثة أقوال :

أحدها تعود الى بعض بني آدم ، قال : وذلك أن النبي مرَّ برجل يضرب رجلا وهو يقول : قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فقال ﷺ : « إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته » وإنما خص آدم بالذكر ، لأنه هو الذي ابتدئت خلقة وجهه على هذه الصورة التي احتذى عليها من بعده ، وكأنه نبه على انك سببت آدم وأنت من ولده ، وذلك مبالغة في زجره ، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب » اهـ .

ثم يعلق الرازي على هذا فيقول :

« إن المراد منه إبطال قول من يقول : إن آدم كان على صورة أخرى مثل ما يقال أنه كان عظيم الجثة

طويل القامة ، بحيث يكون رأسه قريباً من السماء ، فالنبي ﷺأشار الى إنسان معين وهو المضروب . وقال : « **إن الله خلق آدم على صورته** » اي كان شكل آدم ، مثل شكل ، هذا الانسان من غير تفاوت البته » اهـ .

ثم يستطرد ابن الجوزي معقباً فيقول :

« ومن الخطأ الفاحش أن ترجع الى الله عز وجل لقوله ووجه من أشبه وجهك ، فإنه إذا نسبه اليه سبحانه ، كان تشبيها صريحاً

وفي صحيح مسلم من حديث ابي هريرة رضي الله عنه تعالى ، عن النبي ﷺأنه قال : « **إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته** » .

القول الثاني : أن الهاء كناية عن اسمين ظاهرين ، فلا يصح أن تصرف الى الله عز وجل لقيام الدليل انه تعالى ليس بذي صورة فعادت إلى آدم .

ومعنى الحديث أن الله تعالى خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تاماً لم ينقله من نطفة الى علقه ، كبنية ، هذا مذهب ابي سليمان الخطابي ، وقد ذكره ثعلب في أماليه .

القول الثالث : انها تعود الى الله تعالى ، وفي معنى ذلك قولان :

أحدهما أن تكون صورة ملك لأنها فعله وخلقه فتكون إضافتها إليه من وجهين .

أحدهما : التشريف بالاضافة كقوله ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ** ﴾ سورة الحج اية ٢٦ .

والثاني : ابتدعها لا على مثال سبق .

والقول الثاني أن تكون الصورة بمعنى الصفة ، تقول هذا صورة هذا الأمر ، أي صفته ، ويكون خلق آدم على صفته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والارادة ، فميزه بذلك عن جميع الحيوانات ثم ميزه على الملائكة بصفة التعالي حين أسجدهم له .

والصورة ههنا معنوية لا صورة تخاطيط » اهـ .

ذكر خبر آخر وتأويله

فإن قال قائل : فما تقولون فيما روى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال :

« رأيت ربي في صورة شاب أمرد عليه حلة حمراء »[١] .

وفي بعض الأخبار : أن عبد الله بن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله ، هل كان رسول الله ﷺ ، رأى ربه ؟

فأرسل اليه عبد الله بن عباس ، فقال : نعم قد رآه في صورته على كرسي من ذهب ، محتجب بفراش من ذهب ، في صورة شاب رجل[٢] .

وفي خبر آخر عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى :

---

(١) قال السبكي :

حديث : (رأيت ربي في صورة شاب أمرد .. الخ) هو دائر على ألسنة بعض المتصوفة ، وهو موضوع مفترى على رسول الله ﷺ .

لكن في اللآلىء عن ابن عباس رفعه : «رأيت ربي في صورة شاب له وفرة» وروي في صورة شاب أمرد قال ابن صدقة عن ابي زرعه : حديث ابن عباس لا ينكره الا معتزلي ، وروي في بعضها بفؤاده .

والحديث إن حمل على رؤية المنام فلا إشكال ، وإن حمل على اليقظة ، فأجاب عنه ابن الهمام بأن حجاب الصورة .

وقال القارىء : كأنه أراد بهذا التجلي الصوري ، ولله تعالى أنواع من التجليات بحسب الذات والصفات ، ولكنه تعالى منزه عن الجسم والصورة بحسب الذات ، وأما ما قاله السبكي في الحديث فإن أراد أن في سنده ما يدل على وضعه فمسلم ، وإلا فباب التأويل واسع » انتهى أنظر كشف الخفا جـ١ ص ٥٢٧ .

(٢) أخرجه ابن إسحاق ، والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه ، عن عبد الله بن ابي سلمة ، وذكره السيوطي في الدر المنثور وقال ضعيف .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾[1] .

فقال : رأى محمد ربه بعينيه حتى تبين له التاج المخوص باللؤلؤ .

وعن الحكم بن أبان قال سمعت عكرمة يقول سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وسئل هل رأى محمد ربه ؟ قال نعم ، قلت لإبن عباس : أليس الله يقول :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ[2] ﴾ .

قال لا أم لك ذاك نوره إذا تجلى بنوره لم يدركه شيء[3] .

وعن عمارة بن عامر عن أم الطفيل أنها سمعت رسول الله ﷺ يذكر أنه رأى ربه في صورة شاب موفر ، رجلاه تصير على نعلين من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب[4] .

وعن سالم بن أبي زياد قال : خرجت من مسجد رسول الله ﷺ ، ورأيت عكرمة مولى ابن عباس ، فقال : لا تبرح حتى أشهد على هذا الرجل ، فإذا الرجل معاذ بن عفراء ، قال :

أخبرني ما أخبرك أبوك عن رسول الله ﷺ ؟

قال حدثني أبي أن رسول الله ﷺ حدثه أنه رأى رب العالمين في حصويين[5]

---

(١) الآية ١٣ من سورة النجم .

(٢) الآية : ١٠٣ من سورة الانعام .

(٣) أخرج ذلك البيهقي في الأسماء والصفات ، وضعفه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال عنه السيوطي في الدر المنثور : ضعيف .

(٤) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات وهو ضعيف جداً . قاله صاحب اللآلىء المصنوعة والسيوطي في الدر المنثور .

(٥) وفي نسخة أخرى : في حظيرة القدس ، وهو أصح .

الفردوس إلى نصف ساقيه في صورة شاب يلتمع البصر [1] .

ذكر تأويل ذلك

والكلام عن تخريجه على الوجه الذي يليق بضفة الله تعالى عز وجل مما لا ينقض التوحيد . ولا يؤدي إلى تكذيب الرسول ﷺ .

فأول ما في ذلك أن إحدى عمد التوحيد وأركانه ، توحيد ذات الله تعالى ، على المعنيين اللذين تقدم ذكرهما في أول الكتاب من نفي الإنقسام واستحالة التبعيض عليه .

---

(١) وعلى الرغم من أن المصنف استدل على رؤ ية رسول الله ﷺلربه سبحانه وتعالى بهذه الأخبار الضعيفة ، فهناك من الاخبار الصحيحة ما يثبت صحة رؤ ية رسول الله ﷺلربه ، ونذكر منها :

أخرج الامام مسلم في صحيحه ، والامام أحمد في مسنده ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله تعالى :

﴿ ما كذب ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ سورة النجم آية ١١ ولقد رآه نزلة أخرى قال : « ورأى محمد ربه بقلبه مرتين » .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال ﷺ :

« **رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال لي يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟** » .

فقلت : لا يا رب .

فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السماء والأرض ، فقلت : يا رب ، في الدرجات ، والكفارات ، ونقل الأقدام الى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؟

فقلت : يا رب ، إنك اتخذت ابراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليماً ، وفعلت وفعلت ؟

فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ؟ ألم أفعل ؟ فأفضى إلي بأشياء ، ثم لم يؤذن لي أن أحدثكموها ، فلذلك قوله :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَىٰ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾

فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت اليه بفؤادي اهـ سورة النجم آيات ٨ ـ ١١ .

والاحاديث الدالة على رؤ ية رسول الله ﷺربه سبحانه كثيرة لا تحصى هنا أنظر الدر المنثور جـ٦ ، تفسير الطبري سورة النجم .

والثاني إفراده بالتدبير في إنشاء المخترعات ، وذلك من الأصل الواجب في تصحيح عقد التوحيد ، وهو مما لا يسوغ أن يرد السمع إلا بتحقيقه وتثبيته ، ولا يجوز أن يرد بنقضه وإبطاله ، خبر صادق على وجه من الوجوه إلا أن يكون المراد به ما لا يرجع إلى وصف الله عز وجل بذلك، ويكون له طريق في التأويل مما لا يأباه عقل ، ولا ينكره سمع على النحو الذي نبينه ونرتبه بعد ، ثم بعد ذلك ، فإن حمل هذه الأحاديث التي ذكر فيها هذه الأوصاف التي ذكرنا في هذا الفصل ، مما يدور على رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد ضعف أهل العلم بالجرح والتعديل عكرمة في روايته ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال لنافع : لا تكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس [١] .

وإذا كان مداره في الآحاد عليه ، وهو عند أهل العلم بالنقل ضعيف كان ذلك أحد ما يوهنه ، ومع ذلك فإن قبله قابل ، وحكم بصحته حاكم وطلب لذلك وجهاً من التأويل ، يطلب به التخلص من التشبيه ، ليجمع بين قبول هذا الخبر ، وبين ما يعتقد في التوحيد ، كان طريق ذلك ممكناً من وجوه :

أحدهما : أن يكون معنى ذلك أنه يحتمل ان يكون أراد ﷺ به أنه ممن لا يشغله الذين في حسن الصورة والتركيب على الوجه الذي دبره الله عز وجل ، وركبه عن الله وعن رؤيته وطاعته ، لكونه معصوماً محروساً من آفات الشهوات ، وعوارض الغفلات ، معرفا لنا بذلك فضل الله عز وجل عليه فيه ، وأنه ممن لا يلهيه حسن المناظر ، وإنما يرى ربه فيها لا هي على الوجه الذي ذكرنا ، وتكون فائدته :

---

(١) أنظر كتاب الجرح والتعديل لابن ابي حاتم الرازي الجزء الاول طبعة حيدر آباد الدكن بالهند ص ١٥٣ .

أنه لما أسرى به إلى السماء ، ودخل الجنة ورأى ما فيها[1] ما يرى ، من الزين ، والآلات ، وحسن الصور ، على تلك المناظر التي وصف في الخبر ، وأن ذلك يرجع إلى ما رأى في الجنة من هذا الخلق ، وما زينت بها وأنه إنما رأى من جميع ذلك ربه ، لم يقطعه عن نظره إليها عنه .

ويحتمل أيضاً أن يقال : هذه صفات ترجع إلى النبي ﷺ لأن قول القائل : رأيت زيدا راكبا يحتمل وجهين :

أحدهما أن يكون الركوب صفة للرائي ، **والثاني** أن يكون الركوب صفة للمرئي .

وإذا احتمل الوجهان وكان ما ذكرنا من هذه الصفات مما لا يصح أن يرجع إلى الله تعالى ، وجب أن يحمل على الوجه الآخر ، وهو أن يكون الرجوع فيها إلى الرائي وإلى ذكر معانيه وصفاته .

وإذا قلنا ذلك احتمل الكلام فيه بعد ذلك وجهين :

أحدهما أن يكون ذلك رؤيا منام ، كما روي أيضاً في حديث أم الطفيل عن النبي ﷺ أنه قال « **رأيت ربي في النوم** »[2] وذكر الحديث .

ويحتمل أيضاً أن يقال : إن ذلك ـ وإن كانت رؤية عيان في حال اليقظة فإن ذلك ـ يرجع إلى النبي ﷺ ، ويكون المعنى .

---

(١) مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر :
﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة السجدة آية ١٧ .
(٢) والذي سبق تخريجه قريباً .

أنه كان في حال رؤيته لله عز وجل في باب الثبات والقوة والتمكين من حاله من حيث لم تستفزه هذه الحال ، ولا أزعجته وأوهنته ، كما يكون المذكور في الخبر على تلك الهيئة في أتم أحواله وأقواها ، وتكون الفائدة فيه : ما خصه الله عز وجل به من التمكين في تلك الحالة ، وإذا احتمل هذا الكلام هذه المعاني وكانت مفيدة إذا حمل عليها المعنى الصحيح كان حمله عليها أولى من حمله على ما لا يليق بالله عز وجل .

فإن قال قائل : فلم لا تجعلون هذه الأوصاف صفات لله عز وجل ، ثم تجرونها مجرى الصفات التي ورد بها الكتاب كاليد والعين والوجه .

قيل : لا ، لأمور :

أحدها : أن هذه أخبار لم ترد المورد الذي يقطع العذر ، ومع ذلك ففيها ما عللت طرقه من جهة الرواية في الآحاد أيضاً ، وإنما يقبل خبر الواحد فيما طريقه طريق العمل على الظاهر دون القطع على الباطن ، وما جرى هذا المجرى من الأحكام ، فإن طريقها الإعتقاد والقطع ، ولا يمكن القطع بأمثال هذه الأخبار ، وتجويز هذه الأوصاف من صفات الله عز وجل من هذه الطريقة لا يصح ، وإنما خرجناها على بعض هذه الوجوه ، التي ذكرناها ، لئلا يخلو نقلها من فائدة ، وأن لا يكون ورودها بلا ورود . وأن لا تكون مساوية لمن أبطلها وعطلها ، وإذا أمكن ترتيبها وتخريجها على ما بينا كان فيه إظهار فائدتها وإبانة معانيها على الوجوه التي تصح وتليق به ، ولذلك حملناها على ما ذكرنا دون ما قالوه .

فصل
فيما ذكره ابن خزيمة في كتاب التوحيد

ثم سألتم عند انتهائنا إلى هذا الموضع من كتابنا ، إن نتأمل مصنف الشيخ أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رضي الله عنه الذي سماه : كتاب التوحيد ، وجمع فيه نوع هذه الأخبار التي ذكرت فيها هذه الألفاظ المتشابهة ، وحمل ذلك على أنها صفات الله عز وجل ، وأنه فيها لا يشبه سائر الموصوفين بها من الخلق ، فتأملنا ذلك ، وبينا ما ذهب فيه عن الصواب في تأويله ، وأوهم خلاف الحق في تخريجه وجمعه ، بين ما يجوز أن يجري مجرى الصفة ، وما لا يجوز ذلك فيه ، وذكرنا ألفاظا ذكرها في كتابه الذي روى وجمعها فيه ، مما لم يدخل فيما أملينا قبل ورتبنا معانيها ، وإن كنا قد أومينا [1] إلى أصله ، وأشرنا إلى طريقته .

(١) أومأت اليه : أشرت ، ولا تقل : « أوميت » و « ومأت » إليه أمأ ، ومأ مثل وضعت أضع وضعا لغة . أنظر مختار الصحاح والقاموس المحيط ، واللسان .

ذكر خبر آخر من ذلك

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه »

﴿ إن رحمتي سبقت غضبي ﴾(١) .

وفي حديث آخر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

﴿ لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش :

﴿ إن رحمتي تغلب غضبي ﴾(٢) .

تأويله

اعلم أن وصف الله تعالى ، بأن له نفسا ، وإطلاق القول في ذكره بالنفس مما لا نأباه ، وقد بينا فيها قبل ، أن معنى هذا الإطلاق ، يرجع إلى أنه موجود ، لأن ذات الشيء هي نفسه ووجوده ، وقد ورد بذلك نص الكتاب والسنة ، وعلى إطلاقه أجمعت الأمة .

وأما معنى قوله عليه الصلاة والسلام « وهو وضع عنده » وقد بينا أيضاً فيما قبل أن معنى عند مما يضاف إلى الله عز وجل يحتمل وجوها .

---

(١) أخرجه الامام البخاري في صحيحه ، في كتاب التوحيد ، واللفظ للبخاري .

(٢) أخرجه الامام البخاري في صحيحه ، في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ . عن عبدان ، عن أبي حمزة عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ثم ساق الحديث .

أحدها : أن يراد بها الكرامة .

والثاني أن يراد به معنى العلم ، كما قال :

﴿ فَأُوْلَئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ﴾[1] أي في علمه .

وأما عند على معنى قرب المكان ، على معنى المسافة والمساحة ، فلا يليق به عز وجل ، والذي يليق بهذا الموضع من معنى « عند » أن يكون على معنى أنه عالم به ؛ ويكون معنى الخبر : أن ما كتبه في كتابه معلوم له ، لا يخفى عليه منه شيء ، لم يستعن بكتابته عليه ، لئلا يذهب علمه به[2] .

فأما معنى قوله ﴿ لما قضى الله الخلق ﴾ فيحتمل أن يكون معناه : لما حكم

---

(١) الآية : ١٣ سورة النور .

(٢) ويقول القسطلاني :

« قوله ﷺ : « كتب في كتاب » أي أمر القلم أن يكتب في كتابه ، وقوله : « وهو وضع » وضع فيها روايات ثلاث :

١ ـ بفتح الواو ، وسكون الضاد المعجمة ، أي موضوع .

٢ ـ بفتح الواو والضاد فعل ماض مبني للفاعل .

٣ ـ في نسخة معتمدة بكسر الضاد مع التنوين ، أي موضوع أيضاً .

« عنده » أي علم ذلك عنده على العرش مكتوباً ومستوراً عن سائر الخلق ومرفوعاً عن حيز الادراك .

والله تعالى منزه عن الحلول في المكان، وليس الكتب لئلا ينساه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وفي بدء الخلق : فوق العرش ، وفيه تنبيه على تعظيم الأمر ، وجلالة القدر فان اللوح المحفوظ تحت العرش ، والكتاب المشتمل على ذلك الحكم فوق العرش .

ولعل السر في ذلك أن ما تحت العرش عالم الأسباب والمسببات ، واللوح المحفوظ يشتمل على تفاصيل ذلك ، والمكتوب هو قوله تعالى :﴿ إن رحمتي تغلب غضبي ﴾ .

والمراد بالغضب لازمه ، وهو إيصال العذاب الى من يقع عليه الغضب ، لأن السبق والغلبة باعتبار التعلق أي التعلق الرحمة ، سابق على تعلق الغضب ، لأن الرحمة هي مقتضى ذاته المقدسة ، وأما الغضب فانه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث .

الله عز وجل بخلق ما خلق .

ويحتمل أيضاً أنه قضى بمعنى الإعلام ، كقوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْكِتَابِ ﴾[1] أي أعلمناهم ، فكأنه أراد لما سبق في علمه وحكمه أنه يخلق ما يخلق ، خلق كتابا فكتب فيه ، بمعنى أنه خلق فيه كتابة دالة على ما أراده أن يكون في المستقبل من الأوقات من الحوادث التي يحدث فيها ، وهذا كما روي في الخبر الآخر :

(**إن أول شيء خلق الله القلم ، ثم خلق اللوح ، فقال له أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة** [2]) .

وأما معنى قوله ﴿ **إن رحمتي تغلب غضبي** ﴾ فقد بينا معنى الرحمة والغضب [3] في صفات الله عز وجل ، وأن ذلك يرجع إلى صفة واحدة هي رحمة ، ويوصف بأنها إرادة لتنعيم من علم أنه ينعمه بكراماته في الجنة ، وكذلك يقال لهذه الصفة ، غضب إذا كانت إرادة لتعذيب من علم أنه يعذبه بعقوبته في النار من الكافرين .

ثم يقال للصادر عن رحمته رحمة ، كما يقال للكائن عن قدرته قدرة ، وللكائن عن أمره أمر ، وكذلك يقول للكائن عن غضبه غضب على هذا الوجه أيضاً .

وإذا حملنا ذلك على هذا الوجه ليصح فيها التسابق والتزايد والنيل والغلبة ، لأن ما هو صفة لله تعالى مما هي الرحمة والغضب على هذا المعنى كان تقدير تخريجه إفادتنا به ما يظهر من رحمته لأهل الرحمة ، ومن غضبته لأهل الغضب ، وأن من

---

(١) الآية : ٤ من سورة الاسراء .

(٢) أخرجه الامام أحمد ، والترمذي ، وصححه ، عن عبادة بن الصامت مرفوعاً .
وقد ذكره كشف الخفا أيضاً بهذا النحو .

(٣) وبينا كذلك المراد من ذلك في تعليقنا من قبل فارجع اليه إن شئت .

رحمة الله فقد غلبت رحمته عليه ، على معنى وصول الصادر عنه إليه ، وظهر ذلك عليه ظهور إبانة عما وصل إليه الكائن عن غضبه وقد ذكرنا غير ذلك من الوجوه في تأويله فيما قبل مما يغني عن إعادته [١] .

فأما قوله ﴿ كتب بيده على نفسه ﴾ فقد أوضحنا أنا لا نأبى القول بإطلاق يد صفة لا نعمة ولا قدرة ، واعتمدنا في ذلك على الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على إطلاقها ، وإضافتها إلى الله عز وجل ، والقول في ذلك مقصور على ما ورد به الخبر ، لأن الخبر إذا ورد مقيدا بذكر أشياء مخصوصة مضافة إلى الله تعالى ، فلا يجوز أن يتعدى ما ورد به الخبر لأجل أن إطلاق هذه الإضافة والصفة الخبر ، ولا مجال للعقل فيه ، فكذلك القول في تقييده في الموضع الذي قيد فيه لا طريق له غير الخبر ، وقد روي :

﴿ أنه كتب التوراة بيد وغرس شجرة طوبى بيده ﴾[٢] .

وأما خلق آدم بيده فهو نص الكتاب ، ومعنى قولنا : كتب بيده أي خلق كتابه فيما خلق فيه من اللوح أو غيره مضافة اليه بذكر اليد ، ووصفها

---

(١) وذكر القسطلاني في كتاب بدء الخلق قال :

« وقال التوربشتي : وفي سبق الرحمة بيان أن قسط الخلق منها أكثر من قسطهم من العذاب ، وأنها تنالهم من غير استحقاق ، وأن الغضب لا ينالهم إلا باستحقاق ، ألا ترى أن الرحمة تشمل الانسان جنيناً ورضيعاً ، وفطيمًا ، وناشئا من غير أن يصدر منه شيء من الطاعة ، ولا يلحقه الغضب إلا بعد أن يصدر عنه من المخالفات ما يستحقه .

وقال في المصابيح : الغضب إرادة العقاب ، والرحمة إرادة الثواب ، والصفات لا توصف بالغلبة ، ولا يسبق بعضها بعضاً ، لكن جاء هذا على سبيل الاستعارة .

ولا يمتنع أن يجعل الرحمة والغضب من صفات الفعل ، لا الذات ، فالرحمة هي الثواب والاحسان ، والغضب هو الانتقام والعقاب : فتكون الغلبة على بابها ، أي إن رحمتي أكثر من غضبي اهـ .

(٢) أخرجه الامام أحمد ، والبيهقي في الأسماء والصفات .

تخصيصاً وتبييناً وتمييزاً من جهة التفصيل ، وقد تكلمنا على المعتزلة قبل ذلك في نفيهم لذلك وحملهم ما أطلق من ذكر اليد في الكتاب والسنة على معنى الذات ، أو على معنى القدرة أو النعمة بما يغني عن ذكره ههنا [1] .

---

(١) ويقول الطيبي :

« قوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي « أوجب وعداً منه أن يرحمهم » اهـ .

ذكر خبر آخر

مما ذكره صاحب التصنيف بزيادة لفظ لم يجر فيما تقدم ذكره مع تفسيرنا لمعظم ما روي فيه وكشفنا عن أصله من ذكر إضافة الوجه إلى الله عز وجل .

روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« **إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان فأقرب ما تكون من وجه ربها وهي قعر بيتها** »[1] .

وفي حديث آخر في هذا الباب أنه قال :

« **ما التمست المرأة وجه الله بمثل أن تقر في بيتها وتعبد ربها** »[2] .

ومما ذكره أيضاً : روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ في الدعاء عند الخروج إلى الصلاة [**وأقبل الله عليه بوجهه**] .

وذكر أيضاً : عن النبي ﷺ ، أنه قال في صفة أهل الجنة :

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الاوسط ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وفيما أخرجه الترمذي في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **المرأة عورة فإذا خرجت ، استشرفها الشيطان** » دون باقي الحديث .

(٢) أخرجه البزار ، والطبراني في المعجم الصغير ، وله شاهد يقويه ، وهو : أخرج البزار عن أنس رضي الله عنه ، قال :

جاء النساء الى رسول الله ﷺ، فقلن يا رسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله ، فما لنا عمل ندرك فضل المجاهدين في سبيل الله ؟

فقال : « من قعد منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله » .

« ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم في جنة عدن إلا رداء الكبرياء على وجهه »[1] .

ثم ذكر هذا اللفظ القائل في ترجمة باب في هذا النوع زيادة لفظة توهمها معنى الخبر وليس في ذلك نص وهو أن قال (باب ذكر[2] وجه ربنا) وذكر فيه سبحات الوجه ، متوهما أن ذلك يرجع إلى الضوء .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والطبراني في المعجم الاوسط ، والبيهقي في الأسماء والصفات .

(٢) وفي نسخة أخرى : ضوء وجه ربنا .

باب ذكر بيان ذلك

وما زيد فيه على ما ذكرنا وإبانة خطأ هذا المتوهم ، وأما قوله عليه الصلاة والسلام :

« فأقرب ما تكون من وجه ربها وهي في قعر بيتها »[1] .

فالمراد بذلك أحد وجهين :

أحدهما أن يكون معناه : أقرب ما تكون في طاعة ربها الذي الوجه صفة من صفاته[2] .

والثاني : أن يكون المعنى فيه وأقرب ما تكون من وجه ربها ، أي من قصدها وجه ربها وطلبها للاخلاص في طاعته ، ويكون الوجه بمعنى الاتجاه والتوجيه نحو المشي والقصد له ، ومثله في الخبر الآخر :

« ما التمست المرأة وجه الله بمثل أن تقر في بيتها » .

والتأويل فيه على وجهين أيضاً :

وأما قوله عليه الصلاة والسلام في صفة أهل الجنة ، وما بين القوم وبين أن ينظروا الى وجه ربهم في جنة عدن إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فمعناه النظر الى .

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

(٢) وهذا المعنى المراد يؤيده قوله صلوات الله وسلامه عليه فيما أخرجه الامام مسلم ، وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه :

(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا فيه الدعاء) .

يقول المناوي :

« أي أقرب ما يكون العبد من رحمة ربه ، حاصل في كونه ساجداً كذا قرره بعض العلماء .

الله عز وجل الذي له الوجه على ما قلنا ، في قوله : تبتغي وجه الله .

وقوله في جنة عدن ، فإن ذلك يرجع الى الناظر لا الى المنظور اليه ، لان الكائن في المكان هو الرائي ، والمرئي لا يصح أن يكون في مكان لما تقدم ذكره .

فأما قوله إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فيحتمل أن يكون المراد به إلا ماله من صفة الكبرياء ونعت العظمة من حيث له أن يمنعهم المنظر ولا يتفضل عليهم معرفا لهم بذلك أن النظر الى الله تعالى ابتداء نعمة وفضل وله أن لا يتفضل به ، لأنه المتصف بالكبرياء ، والمنعوت بالعظمة ، وله أن يتفضل وأن لا يتفضل ، وقد تقدم تأويل قوله : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، والمراد به أن ذلك صفة من صفاته ؛ ونعت من نعوته[1] .

وأما قول هذا المصنف في باب الترجمة ذكر ضوء وجه ربنا عز وجل ، فغلط منه ونقض لأصله في أن هذا الباب لا يتعدى به المقول والمنقول ، وأنه لا يجوز أن يزاد فيه ما لم يرد به نص خبر ، ولم يذكر في شيء من هذه الأخبار التي ذكر فيها الوجه هذه اللفظة ، بل إنما توهم هذا القائل من طريق التأويل أن معنى سبحات وجهه ، من طريق الضوء ، فرأى في وصفه ما لم يرد به نص ، ولا يجوز الزيادة في وصف الله تعالى بما لم يرد به نص ، وقد ذكرنا تأويل السبحات ، وتأويل قوله حجابه النور وحجابه النار على حسب ما روي ، ولا يجوز أن يقدر فيه ما يجوز فيه وصفه بالضوء لا لفظا ولا معنى ، لما ذكرنا فيما قبل ، ولذلك تأولنا قوله تبارك وتعالى .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ[2] ﴾ ، على الوجه الذي يصح في وصفه

---

(١) وقد سبق بيان المراد منه من قبل فارجع اليه إن شئت .

(٢) الآية : ٣٥ من سورة النور .

أنه نور لا على معنى إثباته نوراً مضيئاً ذا شعاع[١] .

---

(١) وفي إطلاق اسم النور على الله تعالى يقول الفخر الرازي في تفسيره :

« إن لفظ النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس ، والقمر ، والنار ، على الأرض والجدران وغيرهما . وهذه الكيفية يستحيل أن تكون إلها لوجوه :

أحدها : أن هذه الكيفية إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها ، وإن كانت عرضا فمتى ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به ، ولكن هذه المقدمة إنما تثبت بعد إقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال .

وثانيها : أنا سواء قلنا النور جسم ، أو أمر حال في الجسم ، فهو منقسم لأنه إن كان جسما فلا شك في أنه منقسم ، وإن كان حالا فيه ، فالحال في المنقسم منقسم ، وعلى التقديرين فالنور منقسم ، وكل منقسم فإنه مفتقر في تحققه الى تحقق أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره ، وكل مفتقر فهو في تحققه مفتقر الى غيره ، والمفتقر الى الغير ممكن لذاته فحدث بغيره ، فالنور محدث فلا يكون إلها .

وثالثها : أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور ، لامتناع الزوال على الله تعالى .

ورابعها : أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب ، وذلك على الله محال .

وخامسها : أن هذه الأنوار لو كانت أزلية لكانت إما أن تكون متحركة أو ساكنه . لا جائز أن تكون متحركة ، لأن الحركة معناها الانتقال من مكان الى مكان ، فالحركة مسبوقة بالحصول في المكان الاول ، والأزلي يمتنع أن يكون مسبوقا بالغير ، فالحركة الأزلية محال ولا جائز أن تكون ساكنة لان السكون لو كان أزلياً لكان ممتنع الزوال ، لكن السكون جائز الزوال ، لأنا نرى الأنوار تنتقل من مكان الى مكان فدل ذلك على حدوث الأنوار .

وسادسها : أن النور إما أن يكون جسما أو كيفية قائمة بالجسم ، والاول محال ، لأنا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيرا ، ولا الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلما ، فثبت الثاني ، لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجةالى الجسم ، والمحتاج الى الغير لا يكون إلها .

وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الاله سبحانه هو النور الأعظم .

وأما المجسمة المعترفون بصحة القرآن ، فيحتج على فساد قولهم بوجهين:

الاول قوله : ليس كمثله شيء .

ولو كان نوراً لبطل ذلك ، لأن الأنوار كلها متماثلة .

الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ صريح في أنه ليس ذاته نفس النور ، بل النور مضاف اليه .

ذكر زيادة لفظ آخر

ذكرها هذا القائل في باب إثبات اليد ، روي عن الشعبي قال : سمعت المغيرة بن شعبة على منبره قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن موسى سأل ربه ، فقال : يا رب أخبرني بأدنى أهل الجنة منزلة .

قال هو عبد يأتي بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فقال له : أدخل ، فيقول : كيف أدخل وقد سكن أهل الجنة الجنة ، وأخذوا منازلهم[1] ؟

فيقال له افترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ ومثل ما كان للملكيين » ؟

وقيل : « مثل ما كان لثلاثة ملوك من ملوك الدنيا » ؟ .

قال : رب رضيت ، قال لك مثله ، ومثله ومثله عشرة أضعافه ، ولك فيها

وكذا قوله : ﴿ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ سورة النور آية ٣٥ .

فإن قيل قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَوَاتِ ﴾ يقتضي ظاهره أنه في ذاته نور .

وقوله ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ يقتضي أن لا يكون هو في ذاته نوراً وبينهما تناقض .

قلنا نظر هذه الآية قولك : زيد كرم وجود .

ثم تقول : ينعش الناس بكرمه وجوده ، وعلى هذا الطريق لا تناقض .

الثالث : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وذلك صريح في أن ماهية النور مجعولة لله تعالى ، فيستحيل أن يكون الاله نورا ، فثبت أنه لا بد من التأويل » اهـ .

(١) أخرجه الطبراني بإسناد قوي عن أنس .

ورواه الترمذي عن أبي سعيد بلفظ :

أدنى أهل الجنة منزلة ، الذي له ثمانون الف خادم ، واثنتان وسبعون وزوجة ، وينصب له قبة من لؤلؤ ، وزبرجد وياقوت ، كما بين الجابية وصنعاء ، وإن عليهم التيجان ، وإن أدنى لؤلؤ منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب » اهـ أنظر كشف الخفا جـ ١ ص ٢٥٩ .

ما اشتهت نفسك ولذت عينك .

قال يا رب فأخبرني بأعلاهم منزلة ؟

فقال سوف أخبرك غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليه فلم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر ذلك على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[١] الآية .

ذكر تأويله

اعلم أنا قد بينا أن إطلاق وصف الله عز وجل بأن له يدين ، صفتين ، لا جارحتين ، ولا نعمتين ، مما ورد به نص الكتاب والسنة .

وتحقيق معناه على الوجه الذي يكون فيه إتباع الكتاب والسنة من غير تعطيل ولا تشبيه ، وأما قوله : وختمت عليه فيحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون المراد بذلك أي حكمت لهم به حكم العطاء والهبة لهم والتفضل عليهم بها ، وهذا مثل ما يجري في قول القائل ختمت عليك[٢] بفعل بمعنى أن حكمت وأوجبت عليك وخصصتك به .

والوجه الثاني أن يكون معناه وجعلت[٣] خاتمة أفضالي عليهم قدراً ومنزلة لا

---

(١) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

(٢) وفي نسخة أخرى : « وختمت عليك أنك تفعل » .

(٣) وفي نسخة أخرى : « وجعلت ذلك خاتمة أفضالي عليهم » .

غاية ولا نهاية ، إبانة[1] لهم بهذا التفضل واختصاصا لهم بهذا التشريف ، وقد بينا فيما قبل ، أن مثل هذا كلام إنما يجري على معنى التفضيل في العبادة وتخصيص المذكور بالزيادة رفعة ، وشرف فيه .

وإذا احتمل ذلك كان الاولى أن يحمل عليه دون الحمل على ما لا يليق بالله عز وجل من وصفه بالآلة والجارحة ، وإظهار الأفعال بالمباشرة والمعالجة ومن أوهم ذلك في تأويل هذا فقد أخطأ ومن نفى الوصف باليد فقد عطل وعدل عن لفظ الكتاب والسنة .

وقد روي في خبر رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺأنه قال : « **إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار وليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** » [2] .

واعلم أنه ليس ينكر إستعمال لفظ اليد على معنى النعمة ، وكذلك استعماله على معنى الملك والقدرة ، وقد جرى في كلام الناس بلا خلاف بينهم ، أن الأمور كلها بيد الله عز وجل ، وأن أيادي الله على خلقه كثيرة ، كما يقولون : إن أمور الخلق تجري بقدرة الله ، وأن نعم الله على خلقه وافرة ، وليس إذا إستعملت لفظة اليد في النعمة والملك والقدرة وجب أن يكون محمولا على ذلك في كل موضع أطلق فيه .

---

(١) أي تعريفا لهم بانه المتفضل عليهم سبحانه ، وهو الذي اختصهم بشرف التفضيل .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والامام مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه عن أبي موسى رضي الله عنه .

وكذلك إذا قلنا : إن معنى اليد في هذا الخبر معنى النعمة لم يمتنع ولم يمتنع أن يكون ما ذكر في قوله « لما خلقت بيدي » لا يكون معنى النعمة والقدرة .

وإذا كان كذلك فلو تأول متأول هذا ههنا على معنى النعمة لم ينكر ذلك عليه ، على أن نص القرآن قد ورد ببسط اليد ، وهذا قوله تعالى :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[٢] .

فأنكر الله عز وجل قول اليهود لما قالوا : ﴿ يَدُ ٱللهِ مَغْلُولَةٌ[٣] ﴾ فرد عليهم فقال : -

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

ولم ينكر عليهم إطلاق اليد ولا رد عليهم إضافتهم اليه اليد بل أثبتها لنفسه ووصفها بالبسط فدل على جواز إضافة ذلك اليه ، ووصفه بالبسط[١] .

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) قالوا : يعني اليهود ، إن الله يبخل علينا ، ويمنعنا فضله فلا يفضل ، كالمغلولة يده ، الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف ، تعالى الله عما قال أعداء الله ، فقال الله مكذبهم ومخبرهم بسخطه عليهم : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي أمسكت أيديهم عن الخيرات ، وقبضت عن الانبساط بالعطيات، ولعنوا بما قالوا ، وأبعدوا من رحمة الله وفضله ، بالذي قالوا من الكفر ، وافتروا على الله ، ووصفوه به من الكذب والافك بل يداه مبسوطتان بالبذل والاعطاء ، وأرزاق عباده ، وأقوات خلقه ، غير مغلولتين ولا مقبوضتين ، ينفق كيف يشاء .

(٣) ويقول الطبري في تفسيره :

« وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن جراءة اليهود على ربهم ، ووصفهم إياه بما ليس من صفته ، توبيخاً لهم بذلك ، وتعريفا منه نبيه ﷺ قديم جهلهم ، واغترارهم به وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم ، وكثرة صفحه عنهم ، وعفوه عن عظيم إجرامهم ، واحتجاجا لنبيه محمد ﷺ ، بانه له نبي مبعوث ،

ورسول مرسل ، أن كانت هذه الانباء التي أنبأهم بها كانت من خفي علومهم ، ومكنونها التي لا يعلمها إلا أخبارهم وعلماؤهم ، دون غيرهم من اليهود فضلا عن الامة الامية من العرب ، الذين لم يقرؤوا كتابا ، ولا وعوا من علوم أهل الكتاب علما ، فاطلع الله على ذلك نبيه محمداً ﷺ ليقرر عندهم صدقه ، ويقطع بذلك حجتهم » اهـ .

فصل آخر

وذكر صاحب كتاب التوحيد في ترجمة كتابه باب توهم فيه الغلط ، وهو أن قال : « باب ذكر إثبات الرجل لله عز وجل ، وأن رغمت أنوف المعطلة الجهمية الذين يكفرون بصفات خالقنا » ثم احتج لذلك أيضاً بقوله تعالى :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾[1] .

ويقول أمية بن أبي الصلت :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

وأن رسول الله ﷺ صدقه فقال : « **صدق أمية** »[2] .

وأعلم أن موضع الغلط في ذلك مما توهم أن القول بإضافة الرجل اليه سبحانه ، يجري مجرى القول بإضافة اليد إليه ، وقد بينا فيما قبل أن نصوص الكتاب والسنة على الوجه الذي لا يحتمل التأويل فيه غير ما قلنا ، مع إطلاق الأمة بأسرها عربيها وعجميها بالفارسية والعربية ، إضافة اليد إلى الله عز وجل ، وإجماعهم على استجازة ذلك ، وترك إنكاره مع إجماع الأكثرين على إنكار القول بإضافة الرجل الى الله تعالى ، وإنكار الجميع من أهل العلم والنظر من مثبتي صفات الله ومنكريها ، أن يقال :

الرجل صفة من صفات الله تعالى ، وإنما تأول من تأول منهم الخبر الذي أطلق فيه لفظ الرجل على معنى إضافة الخلق والملك لا على معنى الصفة .

---

(١) الآية : ١٩٥ من سورة ، الاعراف .

(٢) في حديث أخرجه ابو يعلى ، والطبراني في معجمه الكبير .

وأما احتجاجه بقوله ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ فغير صحيح في هذا الموضع من قبل أن الله عز ذكره إنما أراد به رد الكافرين عن عبادة الأصنام ، وعرفهم أنهم يأنفون من عبادة من له رجل يمشي بها ، ويد يبطش بها ، وعين يبصر بها ، وأذن يسمع بها ، فكيف يعبدون من ليس له شيء ذلك ؟ يقرعهم على عبادة الأصنام التي هي جماد وموتى ، ليس لها فعل ولا قدرة ولا سمع ولا بصر[1] .

وإذا كان القصد بالآية ما ذكرنا لم يكن فيها ما يوجب إثبات وصف الله عز وجل بالرجل ، كما ليس فيها ما يوجب إثبات وصف الله تعالى بالأذن ، ولا ما يوجب وصفه بأن له أرجلا ، وأيدي ، والمتمسك بظاهر الآية محتجا بها على ما ذكر يوجب عليه أن يكون الأمر فيه على ما قلنا ، من إثبات ما أجمع المسلمون على إنكاره من القول بالأيدي والأرجل والأذن والأعين .

ثم ذكر صاحب هذا المصنف في الباب الذي ترجمه بذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : ـ

﴿ يضع الجبار جل جلاله رجله في النار ﴾[2] .

وقد ذكرنا تأويل ذلك فيما قبل على وجوه تقدم ذكرها ، لا على معنى إثبات القدم صفة لله عز وجل ، ولم يذكر رواة هذا الخبر لفظ الرجل إلا بعضهم قال في خبره : « حتى يضع رجله أو قدمه » .

واحتمل أن يكون لما التبس اللفظ وتوهم أن القدم لا يكون إلا رجلا ذكر

---

(١) يصور ذلك قوله تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَنْ يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ .

(٢) سبق تخريجه فارجع اليه إن شئت .

بدل القدم الرجل وأكثر الفاظ هذا الخبر بذكر القدم ، وأنه يضع فيها قدمه ، ولا يخلو الكلام فيه من ثلاثة أوجه :

إما أن يكون على معنى إضافة الصفة اليه فهذا مما يمنع منه الخبر لأنه قال فيه فيضع فيها قدمه وقدم الصفة لا يجوز وصفها بالوضع في المكان ، وأما قدم الجارحة فمما لا يليق بالله سبحانه لاستحالة أن يكون أجزاء مبعضة وأجساماً متركبة ، وقد بينا فساد ذلك فيما قبل ، فلم يبق إلا أن معنى القدم الذي أضيف إليه في هذا الخبر بمعنى الخلق والملك ، على أحد الوجهين اللذين ذكرنا تأويلهما ، أو على معنى ما قاله النضر بن شميل ، أن ذلك على معنى ما تقدم في علم الله ، ممن يكفر به من خلقه .

وعليه يتأول قول من روى في هذا الخبر .

حتى يدلي فيها رب العالمين قدمه فتنزوي بعضها الى بعض وتقول : قط قط[1] .

وذلك بإدلاء الخلق فيها وهم القدم على معنى أنهم هم الذين تقدم لهم العلم من الله جل ذكره ، أنهم يدخلونها .

ولم يذكر صاحب هذا التصنيف في الباب الذي ترجمه بالرجل ذكر القدم سوى ما ذكر في بعض ألفاظ هذا الخبر من الراوي على طريق الشك : « حتى يضع قدمه فيها أو رجله » .

فبان ذلك أنه عدل عن الصواب ، وأوهم الخطأ بترجمته الباب بما ليس فيه ،

---

(١) وقد تقدم تخريج هذا الحديث ، وبيان المراد منه أيضا من قبل في هذا الكلام فارجع اليه إذا أردت المزيد من الايضاح .

وهذا النحو مما يضيق فيه الأمر حتى لا يمكن التوسع فيه بوجه من جهة الرأي والهوى ، لأنه موضع لا يعتمد فيه إلا على الخبر من الكتاب أو السنة الصحيحة ، وما توهم أنه يرغم به أنوف الجهمية من ترجمة الباب بذكر الرجل مع خلو الباب من ذكره ، على وجه الصحة ، فهو على العكس مما توهمه ، ثم ذكر صاحب التصنيف ماروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

إن الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره[2] .

واعلم أنه قد روي عن ابن عباس في تأويل الكرسي شيئان :

أحدهما أن معنى الكرسي العلم ، وأن معناه وسع علمه السموات

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) أخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال كرسيه : ﴿ موضع قدمه ، والعرش لا يقدر قدره ﴾ .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ والحاكم وصححه والخطيب ، والبيهقي عن ابن عباس قال :

« الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، وأبو الشيخ والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي موسى الاشعري قال .

« الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كاطيط الرحل » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابو الشيخ والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري قال : (الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل) .

قلت : هذا على سبيل الاستعارة تعالى الله عن التشبيه .

ويوضحه ما أخرجه ابن جرير ، عن الضحاك في الآية قال :

(كرسيه الذي يوضع تحت العرش الذي تجعل الملوك عليه أقدامهم) اهـ . أنظر الدر المنثور للسيوطي :

والأرض .

وروي عنه : أن الكرسي موضع القدمين ، ولم يقل هو موضع قدمي الله ، فيحتمل أن يكون موضع قدمي بعض خلقه من الملائكة أو غيرهم ، إذا لم يقل هو موضع قدمي الله ، ولو قيل ذلك أيضا لكان متأولا على الوجه الذي يصح كما ذكرنا في قوله : ﴿ يضع الجبار قدمه في النار ﴾ .

وقد بينا فيما قبل أن القدم هو الشيء المتقدم في اللغة وأن التقديم تارة بالوجود ، وتارة بالصفة ، وتارة بين تقدم العلم به .

فيحتمل أن يكون الكرسي موضعا لنوعين من خلقه مما تقدم خلقه لهما ، وإذا احتمل لفظ القدم ما ذكرنا من المعاني ولم يكن يختص معناه بالجارحة فقط كان الاولى أن يحمل على ما يصح من وصف الله منهما دون ما يستحيل .

فصل آخر

ثم ذكر صاحب التصنيف بابا ترجمه باستوائه على العرش ، وأوهم معنى التمكين والاستقرار وذلك منه خطأ ، لأن استواءه على العرش سبحانه ليس على معنى التمكين والاستقرار ، بل هو على معنى العلو بالقهر والتدبير ، وارتفاع الدرجة بالصفة على الوجه الذي يقتضي مباينة[1] الخلق ثم روي في هذا الباب حديثاً منقطعا عن عمر رضي الله عنه أن إمرأة أتت النبي ﷺفقالت :

أدع الله أن يدخلني الجنة ، فعظم الله تعالى ثم قال إن كرسيه وسع سبع السموات والأرض وأن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله[2] » .

وقد بينا تأويل هذا الخبر فيما قبل وأوضحنا أن معنى الرحل الجديد وثقله على كواهل الحملة ثقل التعظيم والاجلال لا ثقل الجثة .

---

(١) اي مغايرة الخلق ، ويقول صاحب المنحة الالهية :

(إن الاستواء على العرش صفة لله تبارك وتعالى ، لكننا لا نعرف كيفية هذه الصفة كما لا نعرف حقيقة ذاته ، ولا حقيقة صفاته ، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة ، ولذلك كان المتقدمون من السلف الاولين إذا سئلوا عن هذه الصفة أجابوا بقولهم :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » أما الجهمية ، والمعتزلة ، فعلى طريقتهم في إنكار صفات الله ، ينكرون صفة الاستواء ، وأما الاشاعرة : فإنهم يتاولون هذه الصفة ، ويقولون :

استوى على العرش ، يعني استولى على العرش أو استولى عليه ، والحق : هو اعتقاد اهل السنة والجماعة) اهـ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن ابي عاصم في السنة ، والبزار ، وأبو يعلي ، وابن جرير ، وأبو الشيخ والطبراني ، وابن مردويه ، والضياء المقدسي في المختاره عن عمر رضي الله عنه ثم زادوا :

« . . . ما يفضل منه أربع أصابع » اهـ .

وذكرنا قول القائل : الحق ثقيل مر ، وليس ذلك على معنى الثقل بالوزن .

وبينا أنه لا ينكر أن يخلق الله أطيطا في الكرسي يكون ذلك علامة للملائكة فيما يريد أن ينزل من العقوبة ببعض خلقه فيثقل عليهم ثقل استثقال لما يكون فيما يتجدد لهم من الهيبة والاجلال .

ثم ذكر أيضا حديث أسماء بنت عميس أنها قالت :

كنت مع جعفر بأرض الحبشة فرأيت إمرأة على رأسها مكتل من دقيق فمرت برجل من الحبشة فطرحت على رأسها فسفت الريح الدقيق فقالت أدلك إلى الملك يوم يقعد على الكرسي ويأخذ للمظلوم من الظالم[١] .

واعلم أنه كما لا يصح أن ينفي عن الله عز وجل ما أطلقه لنفسه من الصفة برأي بعض أهل الاهواء الذين لا يوثق بهم ، فكذلك لا يصح أن يضاف الى الله سبحانه وصف من غير أن يكون مضبوطا عمن يوثق به ، وقول هذه المرأة ، فمما لم يوثقه دليل ولا حجة فيه في إثبات صفات رب العالمين ، وكيف يستجيز ذلك ، وذكر مثل هذا الخبر في إثبات صفات الله ، وليس ذلك مما أثبته نص كتاب ولا سنة .

واعلم أن وصف الله تعالى ذكره بالقعود مما لم يثبت به نص كتاب ولا سنة ، ولو ثبت لكان ذلك محمولا على ما تحمل عليه سائر أوصاف أفعاله كنحو ما ذكر أنه ينزل إلى سماء الدنيا[٢] وما ذكر في قوله جل ذكره :

(١) أخرجه ابن ابي عاصم ، وأبو يعلى ، وأبو الشيخ ، والطبراني . والضياء المقدسي في المختارة .

(٢) وقد أوضحنا من قبل المراد من النزول .

﴿ فَأَتَى ٱللهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾(١) .

والاصل في ذلك ثبوت اللفظة بنص في كتاب الله ، أو سنة من طريق موثوق بها ، ثم يرتب عليها التأويل .

فأما شيء لم يثبت من طريق صحيح لفظ القعود في سنة النبي ﷺفلا وجه للتعليق به ، وقد ذكرنا عن مجاهد فيما قبل تأويله لقوله تعالى :

﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾(٢) .

أنه يقعده على العرش معه ، ولم ينكر إقعاد النبي ﷺعلى العرش ، تأويلنا لفظة معه على ما يليق به من معنى النصرة والمعونة ، لأنها لفظة مشتركة مستعملة في معنى العلم كقوله :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾(٣) بمعنى النصرة .

وكقوله : ﴿ إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾(٤) .

وأما الذي يكون بمعنى المجاورة فلا يليق به جل ذكره .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة النحل ، وقد سبق أن ذكرنا المعنى المراد من الاتيان والمجيء بالنسبة لله سبحانه وتعالى .

(٢) الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٤ من سورة الحديد .

(٤) الآية : ١٢٨ من سورة النحل .

ذكر فصل آخر

ثم ذكر صاحب الكتاب الذي ذكرنا قبل في ترجمة باب البيان ، أن الله جل وعلا في السماء .

واعلم أنه ليس ينكر قول من قال « إن الله في السماء لأجل أن لفظ الكتاب قد ورد به وهو قوله :

﴿ أَمْ أَمِنْتُم مَّنْ فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾[1] .

ومعنى ذلك : أنه فوق السماء لا على معنى فوقية المتمكن في المكان ، لأن ذلك صفة الجسم المحدود المحدث ، ولكن بمعنى ما وصف به أنه فوق من طريق الرتبة والمنزلة والعظمة والقدرة .

ثم ذكر هذا القائل في ذلك قوله عز وجل :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[2] .

وقوله ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ ﴾[3] .

وهذا منه غلط من قبل صعود الكلم الطيب اليه ليس على معنى صعود من سفل الى علو بالسفل لاستحالة ذلك على الكلام لكونه عرضاً لا يبقى ، وكذلك العمل الصالح ، وإنما معنى صعود الكلام الطيب اليه قبوله ، ووقوعه عنه ، موقع الجزاء والثواب .

---

(١) الآية : ١٧ من سورة الملك .

(٢) الآية : ١٠ من سورة فاطر .

(٣) الآية : ١٥٨ من سورة النساء .

وقوله : يرفعه لأعلى ، معنى رفع من مكان الى مكان ، ولكن رفع له على معنى أنه قد تقبل ، وأن الكلام إذا اقترن به العمل الصالح قبلاً دون أن ينفرد الكلام من العمل ، وأما قوله تعالى في قصة عيسى .

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ .

فمعناه : رفعه الى الموضع الذي لا يعبد فيه إلا الله ، ولا يذكر فيه غيره ، لا على معنى أنه ارتفع اليه كما يترفع الجسم من سفل الى جسم في علو ، بأن يقرب منه بالمسافة والمساحة .

ثم ذكر قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً ﴾[١] وتوهم أنه يحتج به على الجسمية ، فقال أليس العلم محيطا يا ذوي الالباب ؟ إن الله عز وجل لو كان في كل موضع ومع كل بشر وخلق كما زعمت المعطلة الجهمية لكان متجلياً لكل شيء ويدك جميع ما في الأرض كما دك الجبل ، وهذا منه وهم فاسد من قبل أن التجلي للرب سبحانه تعالى للجبل على معنى أنه جعل الجبل حيا عالما رائياً حتى رأى الله تعالى ثم دكه عند الرؤ ية ، علامة لموسى عليه السلام ، لأنه لا يراه أحد في الدنيا إلا دكه إلا من خصه بالرؤ ية إنابة وتشريفاً وهو نبينا عليه الصلاة والسلام ، وليس معنى تجلي الله لخلقه بأن يكون معهم بالمساحة والصحبة والمجاورة ، ولا أن ذلك مذاهب المخالفين أيضاً حتى يتوهم عليهم أنه يجب عليهم إذا قالوا : إن الله في كل مكان وموضع[٢] ؛ قال :

(١) الآية : ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٢) وهذا لا يصح لأنه سبحانه وتعالى لو كان في مكان أو موضع لكان محدوداً ، ولو كان فوق شيء لكان محمولا ولو كان في شيء لكان محصوراً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فذلكم الله ربكم فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وإنما يلزم مخالفيه ما لا يلزمهم ويتوهم عليهم ما لا يقولونه ، وتوهم بذلك الخطأ في التأويل والمذهب ليعلم أنه لم يكن يبني كلامه على أساس صحيح اختل عليه واضطرب ، فلم يصح مذهبه ولا أفسد مذاهب مخالفيه .

ثم ذكر في تأييد ذلك ما روي عن النبي ﷺأنه قال لفاطمة رضي الله عنها وهي تسأله خادماً .

« قولي اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والانجيل » (١) .

وقال مرة : **« والقرآن العظيم ، فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأعذنا من الفقر »** (٢) .

واعلم أن هذا الخبر يبين صحة ما قلنا في تأويل وصف الله عز وجل ، أنه فوق كل شيء ، لا على معنى المسافة والمساحة ، وذلك أن كل ما كان فوق شيء على معنى المساحة والتمكن فيه والعلو عليه ، على هذا الوجه ، كان دونه شيء ، وهو على ما عليه من المكان ، فلما أبان ﷺأنه ليس دونه شيء ، علمنا أن معنى أنه فوق كل شيء لا على معنى التمكين والمساحة والمسافة .

وقد أوهم هذا القائل خلاف ذلك ، وهذا الذي روي من الخبر يدل على

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن سعد في الطبقات ، والطبراني في معجمه الكبير ، والبيهقي في الدلائل .

(٢) أنظر كتاب الأذكار للامام النووي رضي الله تعالى عنه .

فساد ما أوهمه .

ثم ذكر في هذا الباب أيضاً ما روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« ان الملائكة تحضر الميت فإذا كان الرجل الصالح قيل أخرجي أيتها النفس الطيبة وأبشري بروح وريحان ورب عليك غير غضبان » (١) .

قال : فتقول ذلك حين تخرج فإذا خرجت عرجت الى السماء فيستفتح لها فيقال :

من هذا ؟

فيقال فلان ، فيقال مرحباً بالنفس الطيبة ؛ كانت في الجسم الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان .

« فيقال لهذا كذلك حتى تنتهي الى السماء التي فيها الرب تبارك وتعالى(٢) » .

---

(١) أنظر تفسير الحافظ ابن كثير قول الله تعالى :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَواةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ ﴾ سورة ابراهيم آية ٢٧ وكذلك تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي

(٢) أخرج هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده ، عن حسين بن محمد ، عن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : . . (. . الحديث) .

أخرجه أيضا ابن حبان في صحيحه عن عمر بن محمد الهمداني ، عن زيد بن أخرم ، عن معاذ بن هشام ، عن أبي قتادة ، عن قسام بن زهير ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : . . (. . الحديث) .

ورواه أيضاً همام بن يحيى عن أبي الجوزاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه قال : . . (. . الحديث) .

وقد ورد هذا الحديث بعدة روايات مطولة ذكرها ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى : =

وكذلك ذكر ما روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، أن قريشاً جاءت الى الحصين ، وكانت تعظمه ، فقالوا له :

كلم لنا هذا الرجل ، فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم .

فجاؤوا معه حتى جلوا قريباً من باب النبي عليه الصلاة والسلام دخل حصين ، فلما رآه النبي ﷺ قال :

« **أوسعوا للشيخ** » فقال حصين :

ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ، وقد كان آباؤك جفنة وخبزاً .

فقال يا حصين : « إن أبي وأباك في النار[1] ، يا حصين كم من إله تعبد » ؟ .

قال : سبعة في الأرض وإلها من السماء .

قال : « **فإذا أصابك الضر من تدعو** » ؟

قال : الذي في السماء .

قال : « **فإذا هلك المال من تدعو** » ؟

قال : الذي في السماء ، قال يستجيب لك وحده وتشكرهم معه[2] ، الحديث

= ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾
وذكر ذلك أيضاً السيوطي في تفسيره الدر المنثور ، والبغوي في تفسيره أيضاً .

(١) حديث إن أبي وأباك في النار ، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .
(٢) وهنا مسألة دقيقة ذكرها جلال الدين السيوطي في كتابه النفيس : (مسالك الحنفاء) في والدي المصطفى =

بطوله .

اعلم أن معنى قوله ﷺحتى تنتهي الى السماء التي فيها الرب يحتمل أوجها :

أحدها : أن يكون معناه إلى السماء التي فيها خزائن الارواح ، وسائغ أن يقال ذلك في اللغة كقوله تعالى :

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[1] . والمعنى حب العجل .

= ﷺ ، ناسب لنا أن نذكرها لما لها من أهمية مهمة وها هي :

رأيت الإمام أبا عبد الله محمد بن خلف الأبي ، بسط الكلام على هذه المسألة في شرح صحيح مسلم) عند حديث (إن أبي وأباك في النار) ، وأورد قول النووي فيه :

إن من مات كافراً في النار ، ولا تنفعه قرابة الأقربين ، ثم قال : قلت : أنظر هذا الإطلاق ، وقد قال السهيلي :

ليس لنا أن أقول ذلك ، فقد قال ﷺ : ﴿ لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات ﴾ .

وقال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ سورة الأحزاب آية ٥٧ .

ولعله يصح ما جاء أنه ﷺ سأل الله سبحانه ، فأحيا له أبويه فآمنا ، ورسول الله ﷺ فوق هذا ، ولا يعجز الله سبحانه شيء .

ثم أورد قول النووي وفيه :

أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار ، وليس هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة ، لأنه بلغتهم دعوة ابراهيم وغيرهم من الرسل ، ثم قال قلت : تأمل ما كان في كلامه من التنافي ، فإن بلغتهم الدعوة ليسوا بأهلي الفترة ، فإن أهل الفترة هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثاني ، كالإعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى ، ولا لحقوا النبي ﷺ .

والفترة بهذا التفسير تشمل ما بين كل رسولين ، ولكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة فإنما يعنون التي بين عيسى والنبي ﷺ .

ولما دلت القواطع على أنه لا تعذيب حتى تقوم الحجة ، علمنا أنهم غير معذبين . اهـ .

(١) الآية : ٩٣ من سورة البقرة .

وقد ذكرنا فيما قبل أنا لا ننكر القول أن الله في السماء ، إتباعا للفظ الكتاب ، ولكنا نأبى أن يكون معناه على معنى كون الجسم في الجسم بالتمكن عليه ، ولأن ذلك يؤدي الى القول بحدوثه ونفيه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وتأويلنا أيضا حديث الجارية لما قال لها أين الله ؟ فقالت « في السماء » فلم ينكر عليها بل « اعتقها فإنها مؤمنة » ونابت إشارتها عن إقرارها ، ودلت على ما في قلبها من الاخلاص والمعرفة بالله ، فكذلك شهد النبي ﷺ بإيمانها .

فصل

ثم ذكر صاحب الكتاب الذي أورد فصل إصلاح بعض ما غلط في ابهامه[1] وأخطأ مذهب الحق في إيراده حديث النزول ، وقد بينا تأويله فيما قبل ، غير انه ذكر في بعضها لفظاً اقتصرنا تأويلها ، فذكرنا من ذلك ما روى فضالة عن عبيد عن ابي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله تعالى ذكره في ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء .

ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن التي لم ترها عين ، ولم يخطر على قلب بشر ولا يسكنها من بني آدم غير ثلاثة : النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، فيقول طوبى لمن دخلك .

ثم ينزل في الساعة الثالثة الى السماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض ، فيقول : قومي بعزتي ثم يطلع على عباده فيقول :

هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من داع فأجيبه ، حتى تكون صلاة[2] الفجر ، وكذلك يقول » :

﴿ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[3] .

---

(١) أي في إخفائه ، من قولهم أمر مبهم ، أي لا مأتي له ، وأبهم الباب : أغلقه ، واستبهم عليه الكلام : استغلق .

(٢) أخرجه الأمام أحمد ، والطبراني في المعجم الكبير .

(٣) الآية : ٧٨ من سورة الإسراء .

يشهده الله تعالى وملائكة الليل والنهار .

وفي بعض الفاظ هذا الحديث في خبر آخر .

ثم ينظر في الساعة الثانية في جنة عدن ، وهي مسكنه لا يكون معه فيها الا النبيون ، والصديقون ، والشهداء ، وفيها ما لم تره عين ، ولم يخطر على قلب بشر ، ثم يهبط في الساعة الثالثة الى السماء الدنيا فيقول :

﴿ **من يسألني فأعطيه** ﴾ ؟ الخبر .

اعلم ان الذي يجب أن نبين في تأويل هذه الزيادة بعد ما تقدم ذكر معنى النزول وتأويل قوله ثم ينظر في جنة عدن وهي مسكنه ، ومعنى ذلك انها كرامة ومثوبة وهذا كقولنا للكعبة بيت الله ، وهي إضافة تشريف وتخصص ، لا على معنى أنه يسكنها سكن مجاورة لكنها مسكن الساكنين من أنبيائه وأوليائه ، وهي له مسكن على معنى أضافة التخصيص والتشريف .

وقوله : ﴿ **لا يكون معه فيها إلا النبيون** ﴾ فيها[1] بالحلول والسكون والله معهم بالنصرة والكرامة على ما تقدم ذكره في إبانة معنى[2] مع .

وأما قوله : ﴿ **ثم يهبط في الساعة الثالثة** ﴾ فعلى نحو معنى قوله ينزل وذلك إخبار عن فعل يفعله كما روينا عن الأوزاعي في تأويل قوله : ينزل الله أنه قال :

﴿ **ويفعل ما يشاء**[3] ﴾ .

---

(١) فيها أي الأنبياء ، والأولياء بالحلول والسكون ، والله معهم بالتأييد والكرامة والنصرة لأنه يستحيل في حقه تعالى الحلول في مكان ، والسكون به تعالى الله عن ذلك .

(٢) أي سبق بيان المراد من المعية ، وذلك عند الكلام عن قوله تعالى :
﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ .

(٣) وقد سبق أيضاً بيان المراد من ذلك .

وأما قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ فليس ذلك على معنى تغيير حكم قد استقر بأمر يبدو له ، ولكنه على معني ما له من تغيير الأحوال وتصريف الأسباب على ما يشاء ويريد[1] .

وأما قوله : ﴿ ثم ينظر في الساعة الثانية ﴾ فليس ذلك بمعنى نظر الرؤية ، ولكنه بمعنى نظر التعطف والرحمة ، وهو ما يبديه من نعمة ويجدده من كراماته .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « **ثم نزل في الساعة الثالثة الى السماء الدنيا بروحه وملائكته** » .

فيحتمل ان يكون الروح جبريل[2] إضافة اليه تشريفاً وإبانة بالذكر تخصيصاً ، وقد ذكره في كتابه تعالى فقال :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[3] يعني جبريل .

واعلم ان قوله : ﴿ نزل بملائكته الى السماء الدنيا ﴾ ، يؤيد ما نقول أنه إنزال فعل ، وأنه نزول بمعنى ما يحدث عن أمره ، ويضاف اليه لأجل انه عن امره حدث ، كقول القائل : ضرب الأمير اللص إذا أمر به .

---

(١) على ما يشاء ويريد وحده سبحانه وتعالى .

(٢) وهذا يؤيده قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ .

(٣) الآية : ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء .

فصل آخر

ثم ذكر صاحب الكتاب أبواباً في أن الله عز وجل كلم موسى موهما فيه خلافاً بين الناس ، ولم يختلفوا على تفاوت مذاهبهم في أن الله عز وجل كلم موسى وخصه بالتكليم[١] بما ابانه من غيره وتكلف ذكر آي وسنن في ذلك ، ولا معنى لتكلفه فيما اغنى عنه الإجماع ، وزال الخلاف فيه ما بين اهل الصلاة كلهم ، وإنما اختلفوا في معنى ذلك ، ولم يعرض لهم ، ولا فصل فيه موضع الخلاف .

ثم ذكر بعد ذلك ترجمة افسد بها جميع ما تقدم ذكره وما تأخر مما ينتحله من القول بأن القرآن غير مخلوق ، وأنه كلام الله لم يزل ، فقال :

باب في صفة معنى تكلم الله بالوحي والبيان ، وأن كلام ربنا لا يشبه كلام المخلوقين ، لأن كلام الله كلام متواصل لا سكت بينه ولا صمت[٢] ، لا ككلام الآدميين الذين يكون بين كلامهم صمت وسكت لانقطاع النفس أو التذكر والعي[٣] .

واعلم انه قد نقض بهذه الترجمة ما هو اصل من اصول السنة ، في أن كلام الله غير مخلوق ولا محدث ، وأنه لم يزل كلاماً ، وذلك بما ذكره في قوله : إنه كلام متواصل لا سكت بينه من قبل ان ما كان كذلك ، فالثاني متجدد بعد الأول ، وكذلك الثالث بعد الثاني ، وما كان كذلك كان محدثا مخلوقاً ، ولم تزد

---

(١) لقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ سورة النساء آية ١٦٤ .

(٢) ولهذا شرع علم القراءات لبيان الوقف ، والوصل ، والمد ، وغير ذلك مما اشتمل عليه علم قراءات القرآن الكريم .

(٣) أي العجز عن النطق السليم .

الجهمية القائلون بخلق القرآن على ذلك ، لما قالوا : إنه كلام يحدثه حالا بعد حال ويجدده مرة بعد أخرى فنقض ما أسس وهدم ما بنى ، وقد تقدم من شرط واضع هذا الكتاب في باب صفات الله أنه لا يتكلم في كيفيتها فإنه لا يثبتها على هذا الوجه بل يجريها مجرى التسليم دون البحث والتغير وهذا منه نقض لذلك الأصل .

ثم توهم أن ما روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ، حجته في ذلك وهو قوله :

« إذا تكلم الله بالوحي سمع اهل السماء للسماء صلصة كجر السلسلة على الصفاء » .

قال : **« فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبرئيل عليه السلام ، فإذا اتاهم جبريل فزع عن قلوبهم فيقولون »** :

يا جبريل ماذا قال ربك ؟

قال : فيقول : الحق ، فينادون الحق الحق :

وفي حديث عكرمة عن ابي هريرة ان رسول الله ﷺقال :

« إذا قضى الله في السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنها سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير »[١] .

وفي بعض الأخبار فيفزعون يرون انه من أمر الساعة قال فيسمعها مسترقو

---

(١) سبق تخريجه من قبل وكذلك حديث عبد الله بن مسعود سبق تخريجه أيضاً .

السمع وهم هكذا ، واحد فوق الآخر ، وأشار سفيان بأصبعيه ، وربما ادرك الشهاب المستمع فيحرقه ، وربما لا يدركه حتى يرمي اليه به الى الذي اسفل منه ، ويرميه الآخر على من هو اسفل منه ، فيلقيه على فم الساحر أو الكاهن فيكذب **معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا ؟ فوجدناه حقا** فيصدق بالكلمة التي سمعت من السماء .

واعلم ان هذا الخبر مما تقدم تأويله[1] ، ومما بينا أنه إنما اثبت الصلصلة للسماء ، وبين في خبر آخر : « **أن صوت الملائكة بأجنحتها خضعاناً** » لقوله : « **كأنها سلسلة على صفوان** » ولم يتضمن هذا الخبر شيئاً مما ترجم به الباب من قوله : إن كلام الله متواصل لا سكت بينه ولا صمت ، وإنما ذلك توهم منه برأيه الفاسد ، ولو استعمل ما قدم في اول كتابه من وعده أنه لا يتعدى لفظ الخبر وما نطق به الكتاب ولا يزيد فيه من عند نفسه لاستراح من هذا الغلط وأراح مقلديه فيه .

وقد بينا فيما قبل ان معنى ذلك راجع الى العبارات والدلالات التي هي الطريق الى الكلام ، وبها يفهم مراده منه ، لا أنه تعالى قوله إذا تكلم الله بالوحي أنه يتجدد له كلام ولكنه يتجدد إسماع وإفهام بخلق عبارات ونصب دلالات بها يفهم الكلام ، ثم يقال على طريق السعة والمجاز لهذه العبارات كلام من حيث انها دلالات عليه وقد مضى شرح فيما قبل بما يغني عن رده[2] ها هنا .

واعلم انه لا يصح على اصلنا في قولنا ان كلام الله غير مخلوق ولا حادث بوجه من الوجوه أن يقول :

---

(١) وقد سبق بيان ما قيل فيه تعليقا وتوضيحا وبيانا للمراد منه .

(٢) وفي نسخة أخرى : « بما يغني عن ذكره ها هنا ، وهو أوضح » .

إن الله يتكلم كلاماً بعد كلام ، لأن ذلك يوجب حدوث الكلام ، وإنما يتجدد الإسماع والإفهام ، ونصب العبارات وإقامة الدلالات على الكلام الذي لم يزل موجوداً وحدوث الدلالة والعبارة لا يقتضي حدوث المدلول المعبر عنه ، كما أن حدوث الذكر والدعاء لا يقتضي حدوث المذكور والمدعو ، ولسنا نقول أيضاً : إن الله عز وجل إنما تكلم في الأزل ثم لم يتكلم بعد ذلك كما توهمه بعض من غلط على أصولنا فظن أنا إذا قلنا إن لله كلاماً واحدا لم يزل به متكلما ولا يزال به متكلما ، فقد قلنا انه تكلم به مرة ، ثم لم يتكلم به بعد ذلك ، حتى حمله إنكار ذلك ، على القول بأن الله يتكلم كلاما بعد كلام ، لا سكت بينهما ولا صمت ، فنقض بذلك اصله أن كلام الله غير حادث ولا متجدد ، وأبان عن خفاء ما ذهبنا عليه وتوهمه بخلاف ما هو به ، وذلك أنا نقول :

إن الله لم يزل متكلما ولا يزال متكلما ، وإنه قد أحاط كلامه بجميع معاني الأمر والنهي ، والخبر والاستخبار ، وأن العبارات عنه والدلالات كثيرة ، تتجدد وتتزايد ، ولا يزيد بتزايد العبارات ، كما ان الدلالات على الله عز ذكره ، تتجدد وتتزايد ولا يقتضي تجدد المدلول وتزايده ، فإذا حصلت هذا الأصل علمت حقيقة ما نقول ، وأن الغلط في ذلك انما وقع لمن توهم ان تجديد العبارات تجديد الكلام ، ولم يفرق على الحقيقة بين ما هو كلام على الحقيقة وبين ما هو عبارة عنه ودلالات عليه .

فصل آخر

ثم ذكر صاحب كتاب التوحيد أبواباً ، وترجم في باب الرؤ ية ، وروى أخباراً اكثرها مما ليس فيها ما يشكل معناه ، ومنها ما يشكل بعض الفاظه ، فيقتضي بياناً وتفصيلاً ، غير انه خلط به ما ليس منه ، وتأول فيه اخباراً لا تدَل على ما قال ، ثم خلط به قوله ان من الكفار من يرى الله عز وجل يوم القيامة[1]، وأنه يراه بعضهم رؤ ية امتحان ، وأن تلك الرؤ ية قبل ان يوضع الجسر بين ظهري جهنم ، وأن ذلـك كما يكلم الكفار بالطرد والإبعاد ، ويكلم المؤمنين بالرحمة والقبول ، وكذلك يراه بعض اهل الكتاب ، ويراه المنافقون ولا يجدون في رؤ يته لذة وسروراً ، وإنما توجد اللذة والسرور في رؤ ية المؤمنين فقط .

واعلم ان هذه مقالة محدثة لأن الناس في رؤ ية الله على مقالتين :

فمنهم من قال : هي ممتنعة ولا يراه كافر ولا مؤمن ، وهو مذهب الجهمية والمعتزلة[2] .

وقائلون قالوا : وهم أهل الحق : إن رؤ ية الله تعالى جائزة في الآخرة وإنما يراه المؤمنون يوم القيامة دون الكفار لقوله تعالى :

---

(١) اعتبر المصنف أن قول من قال برؤ ية الكفار لله عز وجل يوم القيامة من باب الخلط بيد أن بعض علماء التوحيد يقولون بذلك ، ويستدلون بقولهم :
إن الكافر يرى ربه يوم القيامة ثم يحجب فيزداد حسرة ، وهذا عند تفسيرهم لقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ فالكافر عندهم يرى ربه ثم يحجب فيزداد بذلك ندماً وحسرة ، وهذا أوقع عندهم في العذاب .

(٢) وهذا القول مردود عند أهل العلم والإيمان ، كما هو مردود عندنا لأنه ينافي النص والعقل والشرع .

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[1] .

فأخبر أن الكافرين محجوبون عن رؤ ية الله تعالى ، وأخبر ان الوجوه الناظرة وهي المشرقة وهي وجوه المؤمنين المخلصين هي الناظرة الى ربها يومئذ ، فدل هذا التقييد وهذا النص على أن الكافرين لا يرون الله تعالى ، وما كنت اظن ان احدا قال برؤ ية الكفار سوى ابن سلم البصري ، وكان مذهبه مزهوداً فيه، عند العلماء مرغوباً عنه ، مبتدعا فيه عند علماء العراق والحجاز ويهجنونه بذلك ، وينسبونه الى البدعة لهذا القول ، حتى رأيته لهذا المصنف ، وقد خص بذلك ايضاً بعض الكافرين ، لأنه قال ان المنافقين وبعض اهل الكتاب يرون الله تعالى يوم القيامة ، وكان ابن سلم يذهب الى ان سائر الكافرين يرونه ثم وجدت هذا المصنف تعلق في ذلك بخبر رواه ابو سعيد الخدري وقال :

سألنا رسول الله ﷺ، فقلنا يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة فقال :

« هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب » ؟

قال ؛ قلنا لا .

قال : « فهل تضارون في القمر ليلة البدر ، ليس دونه سحاب » ؟

قال : قلنا لا .

قال « فإنكم ترون ربكم كذلك يوم القيامة »[2] .

قال : « ويقال من كان يعبد شيئاً فليتبعه » .

---

(١) سبق ان أوضحنا القول في هذا .

(٢) سبق تخريجه .

فيتبع الذين كانوا يعبدون الشمس ، الشمس ، فيتساقطون في النار .

ويتبع الذين كانوا يعبدون القمر القمر ، فيتساقطون في النار .

ويتبع الذين كانوا يعبدون الأصنام الأصنام والأوثان ، الأوثان وكل من كان يعبد من دون الله شيئاً فيتساقطون في النار .

ويبقى المؤمنون ومنافقوهم بين اظهرهم وبقايا من اهل الكتاب .

قال وقللهم بيده ، فيقال لهم : ألا تتبعون ما كنتم تعبدون ؟

فيقولون : كنا نعبد الله ولم نر الله .

قال : فيكشف عن ساق فلا[1] يبقى احد كان يسجد لله إلا خر ساجداً ولا يبقى احد كان يسجد رياء وسمعة إلا وقع على قفاه .

وفي بعض الفاظ هذه الأخبار إلا على ظهره طبق كلما اراد ان يسجد خر على قفاه • ثم قال • ترفع رؤسنا وقد عاد لنا في صورته التي رأيناه فيها أول مرة ، فنقول :

نعم انت ربنا ثلاث مرات ، ثم يضرب الجسر على جهنم، قال رسول الله :

« فأكون أول من يجوز من الرسل بأمتي ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل » [2] .

وفي بعض الفاظ هذا الخبر :

---

(١) سبق بيان المراد من كلمة الساق .

(٢) وهذه من خصوصياته الخاصة به وحده ﷺ دون غيره من سائر الأنبياء والرسل عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم[١] الله في غير صورته فيقول :

﴿ أنا ربكم ﴾ ، فيقولون : نعوذ بالله هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفنا فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقولون :

أنت ربنا فيدعوهم ويضرب الصراط بين ظهري جهنم[٢] .

وذكر في بعض الفاظ هذا الخبر . ويبقى المسلمون ، فيطلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا تتبعون الناس ؟

فيقولون : نعوذ بالله منك ، الله ربنا ، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا ، وهو يأمرهم ويثبتهم ، ثم يتوارى ثم يطلع ، فيقول : ألا تتبعون الناس ؟

فيقولون : نعوذ بالله منك ، الله ربنا ، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم ، قالوا : هل نراه يا رسول الله ؟

قال : « وهل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر » .

قالوا : لا يارسول الله ، قال فإنكم لا تمارون في رؤيته تلك الساعة ، ثم يتوارى تلك الساعة ، ثم يطلع عليهم فيعرفهم بنفسه فيقول : **﴿ انا ربكم فاتبعوني ﴾** ؟

فيقوم المسلمون ويوضع الصراط وهم يجوزون على مثل جياد الخيل والركاب ، وقولهم عليه : سلم سلم[٣] .

---

(١) وقد سبق من قبل تأويل معنى الإتيان والمجيء بالنسبة لله تعالى .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) وأحاديث الرؤيا كثيرة وقد سبق تخريجها .

وذكر في بعض الفاظه ايضا قال : ثم يتمثل الله للخلق فيلقي اليهود فيقول : ﴿ من تعبدون ﴾ ؟ إلى ان قال : حتى يلقى المسلمين ، فيقول : ﴿ من تعبدون ﴾ ؟ فيقولون • نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، فيقول : ﴿ هل تعرفون ربكم سبحانه ﴾ ؟ فيقولون : إذا اعترف لنا عرفناه ، فعند ذلك يكشف عن ساق ولا يبقى مؤمن ولا مؤمنة إلا خر ساجداً[١] .

واحتج ايضا بحديث سهيل عن ابيه عن ابي هريرة قال :

فيلقى العبد فيقول ألم اكرمك ؟ ألم أسودك ؟ ألم اسخر لك الخيل والإبل ؟ الم ازوجك وأتركك ترأس وتربع ؟ قال بلى يا رب ،قال افظننت انك ملاقي؟ قال لا يارب ، قال : فاليوم ننساك كما نسيتني[٢] .

قال ثم يلقى الآخر فيقول : ما أنت ؟ فيقول انا عبدك آمنت بك ونبيك وكتابك وصمت وصليت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقال له أفلا نبعث عليك شاهداً ؟ قال فيكفر في نفسه من الذي يشهد عليه ، قال فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه[٣] وعظامه بما كان يعمل فذلك المنافق ، وذلك

---

(١) سبق تخريج هذا ، وبيان المراد من قوله ﴿ يكشف عن ساق ﴾ .

(٢) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله :
(وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) قال :
(تركتم ذكري وطاعتي ، فكذا أترككم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) ثم قال :
(تركتم ذكري وطاعتي فكذا تركتكم في النار) .

(٣) وهذا يشهد له قوله تعالى :
﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .
وقوله سبحانه :
﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

ليعذر من نفسه ، وذلك الذي يسخط الله عليه .

قال : ثم ينادي مناد الا تتبع كل امة ما كانت تعبد قال : فيتبع الشياطين والصليب أولياؤهم إلى جهنم ، وبقينا ايها المؤمنون فيأتينا ربنا ، فيقول ، على ما هؤلاء ؟

فيقولـون : نحن عباد الله المؤمنون آمنا بربنا ولم نشرك به شيئاً ، وهو ربنا وهو يأتينا وهو يثبتنا وهو أقامنا ، حتى يأتينا .

فيقول : أنا ربكم فانطلقوا فننطلق حتى نأتي الجسر وعليه كلاليب من نار يخطف عند ذلك حلت الشفاعة .

اللهم سلم ، اللهم سلم ، فاذا جاوزوا الجسر فكل من كان انفق زوجين من المال في سبيل الله مما يملكه فكل خزنة الجنة يقول : يا عبد الله يا مسلم تعال هذا خير لك .

قال ابو بكر : يا رسول الله ، ان هذا عبدي لا توى عليه ، يدع بابا ويلج من آخر ، فضرب كتفه وقال : « إني لا ارجو ان تكون منهم »[1] .

---

(١) الحديث بطوله أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من كتاب الزهد جـ ١٠ ص ٣٤٢ هامش القسطلاني .
ثم أنظر كتاب الاحاديث القدسية جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

فصل

الجواب عن ذلك

اعلم إنما ذكرنا الفاظ هذه الأخبار وانتقيناها من مجموع كلامه ، لنرى لا حجة له فيه على ما قال ، ثم نبين بعد ذلك تأويل ما كان فيه مشكلا من اللفظ وتظهر صحة معناه على الوجه الذي يليق بالله جل ذكره ، ولا يؤدي الى تشبيه بخلقه .

وقد ذكرنا فيما قبل بعض هذه الألفاظ ، وبينا تأويله وطريق تخريجه ، وتفسيره على الوجه الصحيح ، ولكنا نذكر الآن ما لم يضمنه كلامنا قبل ، ليكون ما نذكر مع ما سبق ذكره جامعاً لما يهتدي به الى تأويله على الوجه الصحيح .

فأما ما ذكره هذا القائل من ان بعض اهل الكتاب والمنافقين يرون الله عز وجل يوم القيامة رؤية امتحان واختبار ، لا رؤية فرح وابتهاج ، احتجاجا بهذا الخبر فلا دليل فيه ، وذلك ان الفاظ هذا الحديث تدور على ثلاثة أوجه :

أحدها : ما قيل فيه فكشف عن ساق ، ويخرون له سجداً ، وليس في ذلك ذكر اللقاء ، ولا إثبات رؤية المنافقين ، وقد فسرنا معنى قوله : ﴿ يكشف عن ساق ﴾ على ما روي عن ابن عباس انه قال :

يكشف عن ساق ، عن شدة ، أو يكشف عن امر عظيم يريد به هولا من اهوال القيامة ، ولم يذكر في هذا الخبر رؤية الكفار لله[1] عز وجل .

---

(١) وقد سبق أن ذكرنا دليل من قال برؤية الكافر ربه يوم القيامة فارجع إليه إن شئت .

فأما الوجه الثاني : فهو ما قيل فيه : فيطلع الله عليهم ، فليس ذلك مما يختص بمعنى الرؤية ، لأن الأطلاع عليهم ، قد يكون بغير ان يردوه ، بأن يظهر لهم فعلا من افعاله ، وعلما من اعلامه وآية من آياته .

وأما قوله فيقولون : ألا تتبعون الناس فيقولون : نعوذ بالله منك .

أي من هذا القول الذي تدعونا اليه فيه الى إتباع الناس .

وهذا يدل على ان ذلك لم يكن رؤية ، إذ لو كان ذلك رؤية عين لقالوا :

نعوذ بك منك من هذا القول ، ولم يقولوا نعوذ بالله[1] منك ، فدل على ان هذا الإطلاع على الوجه الذي ذكرنا ، وليس هو مما يختص[2] معنى الرؤية ، فلا دلالة فيه على ان الكافرين يرون ربهم الله يوم القيامة ، وذلك : معنى قوله بعد ذلك ثم يتوارى ثم يطلع ، فيقول :

ألا تتبعون الناس في ان ذلك يرجع الى خلق من خلقه ، وملك من ملائكته ، يناديهم بأمر الله عز وجل ، ويخاطبهم عن وحيه ، فيكون التواري والإطلاع راجعا اليه دون ان يكون راجعا الى الله عز وجل .

فأما قوله ثم يقول « أنا ربكم » فاتبعون فليس فيه ايضا ما يدل على رؤية الكفار لله عز وجل ، لأن هذا خطاب وليس فيه معنى الرؤية ، ولا ذكر فيه انهم يرونه ، بل فيه انه يخاطبهم بذلك ، وقد يجوز ان يخاطب الخلق من غير ان يروه .

فأما ما قيل في الخبر الآخر ، ثم يتمثل الله للخلق ، فيلقى اليهود : فيقول :

---

(١) لأن العبارة تفيد أنهم لم يعرفوه وبالتالي فإنهم لم يروه ، ولو رأوه لعرفوه حق معرفته ، ولو عرفوه لما قالوا : نعوذ بالله منك ، ولكن كانوا يقولون : نعوذ بك منك .

(٢) وفي نسخة أخرى : وليس هو مما يخص معنى الرؤية .

من تعبدون .

واعلم انه لا يجوز ان يكون لله تعالى مثال يتمثل به للخلق لإستحالة أن يكون له شبه او مثل بوجه من الوجوه[1] ، وإذا لم يجز ذلك احتمل معنى هذه الكلمة ان يقال فيه : إنه اراد إن خلقا من خلقه يتصور لهم من الملائكة يخاطبهم بأمر الله تعالى .

ويقال على التوسع : تمثل الله بخلقه ، والمراد به ملائكته ووليه ، كما انهم يقولون في اللغة : ضرب الأمير اللص ، وإنما امر[2] به فنسب اليه الفعل ، إذا كان عن امره ، وإذا كان كذلك واستحال ان يكون لله تعالى من خلقه مثال ، وجب ان يحمل على ما قلنا ، وان يكون التمثيل للخلق هو الذي يلقي اليهود ويخاطبهم عن الله بقوله من تعبدون .

فأما معنى قوله في الخبر الآخر :

فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقولون :

أنت ربنا ، فقد تقدم تأويل ذلك ، وبينا انه نظير ما في الآية من قوله جل ذكره :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ ٱللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[3] .

فـروي عن ابن عباس في تأويله : أن معناه بظلل من الغمام ، وأن في بمعنى

---

(١) « ليس كمثله شيء » .

(٢) وتقدير الكلام : أن الأمير لم يضرب اللص ولم يباشر الضرب وإنما أمر بضرب اللص ، فالضرب صدر وحصل عن أمره .

(٣) الآية ٢١٠ من سورة البقرة ، وقد سبق بيان المراد من الإتيان أو المجيء بالنسبة لله سبحانه وتعالى .

الباء ، وكذلك قوله : فيأتيهم في غير صورته ، بمعنى بغير صورته ، وإضافة الصورة اليه من طريق الملك .

وقيل ايضا ان الآتي في غير صورته غير الله جل ذكره بدلالة قوله : إنهم يقولون نعوذ بالله منك ، ولو كان الآتي هو الله لكان قولهم نعوذ بك ، ولم يقولون نعوذ بالله منك ، حتى يأتينا ربنا هذا مكاننا .

وأما قوله ويقولون « فاذا جاء ربنا عرفناه » فتأويل مجيء الرب على ما تقدم ذكره في تأويل الآية من قوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ وأن ذلك بظهور فعل لا بتحويل من مكان الى مكان[1] .

وأما قوله « فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون » فمعناه : يأتيهم بصورته التي يعرفون فيقولون : أنت ربنا ، ومعنى ذلك ان الإتيان فعل من افعال الله عز وجل ، أو فعل بعض ملائكته فيضاف اليه من طريق انه يقع بأمره .

فأما قولهم : « أنت ربنا » فيحتمل وجهين :

أحدهما ان يقال : إن معناه أنت ربنا يخاطبنا صدقا فيتحققون نداءه وخطابه انه عن الله تعالى :

ويحتمل ان يكون ذلك عن تجلي الله للمؤمنين من خلقه فيقولون عند رؤيتهم له وظهور تلك الصورة التي يعرفون مما اضيف الى الله تعالى ملكا وخلقا أنت ربنا اعترافا بالربوبية، وفصلا بين حالهم واحوال الكفار الجاحدين ، فأما ما رتب عليه هذا القائل هذا الخبر مع الآية في قوله :

---

(١) لأن التحويل من مكان إلى مكان يستحيل في حقه سبحانه ، وإلا لترتب عليه أن يحده حد ، ويحتويه مكان والله سبحانه وتعالى لا يجوز في حقه هذا ، فلا يحده حد ، ولا يقيده زمان .

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[1] .

وأن ذلك يرجع الى الكافر الجاحد ، وأن المنافق وإن كان بقلبه مكذبا فهو بلسانه مقرا ، وأن الله تعالى ذكره يريهم نفسه رؤية امتحان واختبار ليكون عجبه إياهم بعد ذلك رؤيته حسرة عليهم[2] ، وندامة ، فهذا مما لا حاجة الى ترتيبه على هذا الوجه من قبل ان ما ذكر من الأخبار ليس فيها ما يدل على إثبات رؤية المنافقين ، والآي ناطقة بتخصيص النظر الى الرب يوم القيامة للمؤمنين وبحجب الكافرين ، وإذا كان كذلك ـ وليس للناس في هذه المسألة إلا قولان على الوجه الذي بينا ـ بان لك ان هذه مقالة محدثة لم يسبق هذا القائل اليها ، حتى فصل بين الكافرين من اهل الكتاب وغيرهم ، وبين المنافق والمقرّ و بين الجاحد .

وإذا كان كذلك علمت ان ما ذكر من الفاظ هذه الأخبار فمعناها محمولة على ما ذكرنا على الوجه الذي لا يؤدي الى تمثيل الله عز وجل بخلقه مع قبول الخبر إفادة معناه ، وبان لك فساد ما اختار هذا القائل من إثبات رؤية الكافر لله تعالى ذكره ، وأن لا تعلق فيما احتج به .

---

(١) الآية : ١٥ من سورة المطففين .

(٢) وهذا أشد وأقسى في العذاب والحرمان ، لأن الحرمان بعد المشاهدة والعيان يكون أقسى وآلم من الحرمان الذي يسبق برؤية ولا مشاهدة ، ولما كان الموطن هو موطن العقاب والعذاب ، كان الحرمان بعد الرؤية آكد وأشد حسرة على صاحبه ، لهذا قال من قال : بالحجب بعد الرؤيا .

فصل آخر

ثم ذكر صاحب هذا الكتاب الملقب بالتوحيد بابا في إثبات ضحك الرب تعالى فقال :

ضحك لا يشبه ضحك المخلوقين كما أن كلامه لا يشبه كلام المخلوق ، وقال :

إنا نؤمن بأنه يضحك ربنا كما أعلمنا النبي ﷺ، ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلا إذ الله استأثر بصفة ضحكه فلم يطلعنا على ذلك[1] ، ثم ذكر حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن ابن مسعود عن النبي ﷺأنه قال :

« إن آخر من يدخل الجنة رجل يمشي على الصراط فينكب مرة ويمشي مرة أخرى » إلى أن قال في آخر الخبر **« فيقول الله تبارك وتعالى ما يرضيك مني أي عبدي ؟ أيرضيك أن أعطيك من الجنة مثل الدنيا ومثلها معها »**

« قال فيقول : أتهزأ بي يا رب وأنت رب العزة ؟ » .

قال : فضحك عبد الله حتى بدت نواجذه ثم قال :

ألا تسألونني لم ضحكت ؟

فقالوا : لم ضحكت ؟

قال : لضحك رسول الله ﷺ، ثم قال لنا رسول الله ﷺ:

---

(١) وهذا هو أحسن ما يقال عندنا ، إذ في ذلك تفويض لله فيما لا علم لنا به .
﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ سورة ال عمران اية ٧ .

« ألا تسألوني لم ضحكت ؟ »

فقالوا لم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « **لضحك الرب تبارك وتعالى ، حين قال :**

أتهزأ بي يا رب ، وأنت رب العزة »[١] .

وذكر حديث أبي هريرة .

إن الناس قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فذكر الحديث بطوله وقال :

« يبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل الجنة دخولا مقبل بوجهه على النار فيقول يا رب اصرف وجهي عن النار فقد أحرقني ذكاؤها وقشبني ريحها .

فيقول الله عز وجل:

هل عسيت أن فعل بك أن تسأل غير ذلك ؟ فيقول : لا وعزتك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيصرف وجهه عن النار » فذكر الحديث .

فيقول « أولست قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير هذا الذي أعطيتك ؟ . فيقول : يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله »[٢] منه ثم ذكر باقي الحديث .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، تابع حديث الشفاعة وآخر من يدخل الجنة من صحيح مسلم .

(٢) أخرجه الامام مسلم في صحيحه من حديث طويل باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى .

فصل آخر

ذكر ما يجب أن نبين ما في الفصل من اللفظ

اعلم أن وصف الله عز وجل بالضحك على ما ورد به الخبر مطلق سائغ ، وأما على توهم هذا القائل أنه ضحك صفة كالكلام فخطأ ، وقد بينا فيما قبل تأويل الاخبار التي روي فيها الضحك ، وفسرناه وبيناه وبينا وجهه وأوضحنا أن أصل معنى الضحك في اللغة هو الظهور والبروز والايضاح على وجه مخصوص منه .

قال : ضحكت الأرض بالنبات[٢] إذا ظهر نباتها ، ومنه قول القائل :

والارض تضحك من بكاء السماء وسقيها .

أي بظهور زهرتها ونورها من مطر السماء وسقيها ، وأن معنى وصف الله جل ذكره به من الضحك فهو على معنى إظهار ألطافه وفوائده ومننه ونعمه .

وكذلك معناه في هذا الخبر أن يظهر نعمه ومننه لهذا الداخل أخيراً الجنة ، وليس ذلك ضحك كما توهم ، ولا الأمر فيه كما قدر أنه مما استأثر الله عز وجل بعلمه ، فلم يطلع على ذلك خلقه ، وذلك أن النبي ﷺ خاطبنا بلغة العرب ، وإذا وجدنا لكلامه وجهاً في اللغة صحيح المعنى مفيداً حملناه عليه ، ولم ينكر أن يكون ذلك هو المراد .

والعجب من هذا القائل تارة يروي الحديث ويتكلم في معناه ، وتارة يقول نسكت ، لأن الله لم يطلعنا عليه ، والطريق فيهما واحد ، وكلما أمكن استدراك معناه من جهة اللغة واستقامت الفائدة فيه لم ينكر أن يحمل الخبر عليه ، ولا معنى

(١) أنظر القاموس المحيط واللسان ومختار الصحاح .

لأن يقال : إن ذلك مما لا يوقف على معناه ، وأن الله جل ذكره استأثر بعلمه لان النبي ﷺ، خاطبنا به ليفيدنا ، وخاطبنا بلغة معروفة وطريقة معقولة ، ولم يعلمنا أن ذلك مما لا يعلم ، أو أن له معنى غير ما يمكن التوصل اليه من طريق اللغة .

فأما معنى قوله : أتهزأ بي وأنت رب العزة ، توسع في الخطاب ، ومعناه : أن مثله إنما يقوله الهازىء لعبد رجائه مما أطمع فيه ، وإنما استخرج الله تعالى منه ذلك على هذا الوجه من الخطاب ، ومعناه ليعلمنا أنه الذي لا ينقطع عنه رجاء عبيده كيف تصرفت بهم الاحوال ، وأنهم أبعد ما كانوا من الرجاء من رحمته بمقربة منها حتى يكونوا أقرب اليها في الحال التي كانوا عندهم أبعد منها ، وهذه بشارة من الله جل ذكره للمؤمنين برحمته لئلا ييأسوا منها .

فإن قال قائل : كيف قيل في الخبر لم ضحكت يا رسول الله ؟

فقال « ضحكت لضحك الرب » ؟

قيل : إن ضحك رسول الله ﷺ، بتغير يحدث فيه يظهر عنده فرحة ، وضحك الرب إظهار نعمه وفضله ورحمته ، ومعنى الخبر أن رسول الله ﷺأظهر فرحاً وسروراً بما يظهر الله عز وجل من نعمه وفضله ورحمته على من كان من أمته في أبعد حالة من رجاء ظهور مثلها فيه من النعم ، شكراً لله جل اسمه ، على ما يخص به الأشقياء من أمته والا بعد من رحمته .

ثم ذكر صاحب هذا الكتاب أبواباً من شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن ذلك مما يقتضي ذكر الكلام في التوحيد ومع ذلك فلم يجىء فيه شيء مما يجب أن يبين الخطأ فيه من طريق التوحيد فاعرضنا عنه .

إنتهى ما أخذ على ابن خزيمة رحمه الله .

فصل آخر

فيما ذكره الصبغي من كتاب الاسماء والصفات

ثم سألني بعد ذلك ، عند انتهائنا الى هذا الموضع من كتابنا ، أن نتأمل أيضاً مجموع الشيخ أبي بكر محمد بن إسحاق صاحب ابن خزيمة ، وهو الكتاب الذي سماه كتاب الاسماء والصفات ، فتأملنا ذلك فوجدناه قد رتب أبوابه على الاسماء والصفات ، وابتدأ بذكر الأمر بالايمان بالمتشابه ، وحكى عن بعض السلف أن ما ذكره من المتشابه في الكتاب والسنة من باب الصفات وأسماء الرب تعالى ، وأنه تمر كما جاءت بلا كيف .

وذكر ابن عيينة[1] أنه قال :

كما وصف الله تعالى به نفسه ، فقراءته تفسير فليس لأحد أن يفسره إلا الله عز وجل .

---

(١) هو سفيان بن عيينه .

فصل الجواب

اعلم أنا قد ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب أن كل ما كان لنا طريق الى معرفته من طريق اللغة ، وأفاد معنى صحيحاً إذا حمل عليه ، فإنه لا ينكر أن يقال : إن المراد به بذلك إذا كان موافقاً بني عليه أصل التوحيد ولم يقتض وجهاً من وجوه التمثيل لله عز وجل بخلقه ، وبينا أن ما قال بعض السلف من ذكر الكف محمول على أحد وجهين :

إما أن يكون أراد به أمر من ليس من أهله في استنباط تأويله والتطرق الى معرفة معناه .

أو يكون ذلك عند تعذر الطريق الى معناه ، فأبانوا أن ذلك ليس بفرض ، وأن من كف عنه تسليمًا لأمر تعذر الطريق أن لا يعتقد فيه اعتقاداً فاسداً ، يؤدي الى تشبيه الله عز وجل بخلقه ، لم يكن في حرج .

وذكرنا أن سائر ما ذكر من هذا الباب مما جمعها الجامعون في تصانيفهم مما يمكن تخريج معناه على الوجه الصحيح من غير تشبيه ولا تمثيل ، وأن لكل ذلك طريقاً في اللغة يشهد لصحته ، ويبين معناه ، فوجب أن يكون معنى قوله :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾[1] على ما قلنا أن الراسخين في العلم يعلمونه ، ومع ذلك يصدقون به ، ويعترفون بصحته وأن معنى ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال :

« نزل القرآن على خمسة أوجه ، حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ،

---

(١) الآية ٧ من سورة آل عمران .

وأمثال ، فأحلوا الحلال وحرموا الحرام ؛ واعملوا بالمحكم وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال »[1] .

على ما قلنا أنه يعلم الراسخون في العلم مؤمنين به ، وكذلك معنى ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال :

« الأمر ثلاثة أمر مبين رشده فاتبعه ، وأمر مبين غيه فاجتنبه ، وأمر اختلف فيه فكله الى الله تعالى »[2] .

وذكر الحديث ، ومعناه : أن ما اختلف فيه موكول الى الله تعالى ، أي هو مردود إلى كتاب الله ، والى ما بينه وأحكمه وأوضح وجهه ، وهو معنى قوله عز ذكره :

---

(١) أخرجه ابن الضريس ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : . . . الحديث .

وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ . . . الحديث .

وله طرق عدة وروايات مختلفة أنظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ، ثم أنظر كنز العمال كتاب التفسير .

(٢) يقول مجاهد وغير واحد من السلف :

« أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء منازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ سورة الشورى آية ١٠ .

فما حكم به الكتاب والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ولهذا قال تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ سورة النساء آية ٥٩ .

أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحا كموا إليها فيما شجر بينكم ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر » اهـ .

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ ﴾[1] .

معناه الى كتاب الله لتبينوا الحق فيه به ، وقد أشبعنا هذا الكلام في أول هذا الكتاب بما يغني عن رده ، وعرفناكم طريقتنا في متشابه القرآن والسنة ؛ وإنا لا نقطع القول بأن فيه مالا يعلمه إلا الله عز وجل ، بل يجوز أن يكون لأهل العلم طريق الى معرفة ذلك يتوصلون اليها بالفكرة والاستنباط ؛ ثم تأملنا بعد ذلك ما ذكر من الاخبار ، مما يدخل في النوع الذي وضعنا كتابنا لتأويله وتخريجه ونبين معناه .

فكل ما وجدنا فيه من زيادة لفظه لم يدخل فيما تقدم ذكره مما يقتضي تأويلا ، أضفناه الى ما تقدم وذكرناه ، وبينا وجهه ، فمن ذلك أنه ذلك في باب العين الحديث الذي ذكر فيه الدجال من حديث شهر بن حوشب ، عن أسماء أن رسول الله ﷺ جلس مجلساً فحدثهم عن الاعور الدجال فقال : « **اعلموا أن الله صحيح ليس بأعور** »[2] .

وقد بينا ما فيه فيما قبل هذا الخبر ، وذكرنا أن ما قيل فيه :

إن الدجال أعور وأن ربكم ليس بأعور ؛ أن المراد به نفي النقص عن الله عز وجل ، لا إثبات الجارحة وأما هذه الزيادة التي ذكرها في هذا الخبر من قوله : « اعلموا أن الله صحيح فمؤيدة » لما تقدم ذكره أن المراد بنفي النقص لا إثبات الجارحة ومعنى وصف الله جل ذكره بصحيح إثباته على غاية الكمال في صفات المدح والتعظيم ، ومن كمال صفات المدح والتعظيم إثباته بصيراً ، وأن له بصراً هو

(١) الآية : ٥٩ من سورة النساء .

(٢) أنظر أحاديث الفتن في كتاب « النهاية » لابن كثير .

صفة له قائمة به لا قائمة بجارحة لاستحالة وصفه بالجوارح[1] والآلات .

ثم ذكر بعد ذلك أيضاً زيادة لفظه في معنى الرؤية .

عن عاصم بن لقيط بن عامر ، خرج وافداً الى النبي ﷺ؛ معه صاحبه قال :

فأتينا رسول الله ﷺ، حين انصرف من صلاة الصبح ، قال وذكر الحديث وقال فيه :

« فتخرجون من مصارعكم تنظرون اليه وينظر اليكم »[2] .

وقد بينا فيما قبل أن معنى ما يوصف الله عز وجل به من النظر الى الشيء ، فهو بمعنى نظر التعطف والرحمة ، وعليه يحمل قوله « وينظر اليكم » أي يرحمكم ويتعطف عليكم في مصارعكم .

ومثله في حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله ﷺ :

« بينما أهل الجنة في نعيمهم إذا سطع لهم فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قول الله تعالى :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[3] :

فقال : فينظر اليهم وينظرون ، فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ما داموا

---

(١) وقد بينا ذلك كثيراً من قبل وتأويل ذلك بالنسبة لله سبحانه وتعالى .

(٢) سبق تخريجه من قبل .

(٣) الآية ٥٨ من سورة يس .

ينظرون » وذكر[1] الحديث .

واعلم أن النظر أيضاً لا يمنع أن يكون المراد التعطف والرحمة ، وأن الله عز وجل يتعطف عليهم فيرديهم نفسه جل وتعالى .

ومثله ما روي عن كعب أنه قال :

« ما نظر الله الى الجنة قط إلا قال طيبي لأهلك[2] » .

وقال **« فازدادت طيباً الى ما كان سبعين ضعفاً »** .

وهذا أيضاً نظر تعطف ورحمة ، لأنه إظهار نعم الله وتجديد كراماته .

ولسنا ننكر النظر بمعنى الرؤ ية ، إذا كان مقرونا بإلى ، وكان معه ذكر الوجه مضافاً اليه بإلى ، ولكن أكثر ما ذكر في هذه الأخبار من لفظ النظر ، فالمعنى فيه نظر التعطف والرحمة .

وأما معنى قوله : ﴿ **إذا سطع لهم نور** ﴾ فيحتمل أن يكون أراد به ما يتجدد من كرامات الله عز وجل وتأييدهم بألطافه وإسعادهم بما يزيدهم من معارفهم وأنوارها ، فعند ذلك يرفعون له رؤ وسهم ، على معنى ما يقال : رفع فلان رأسه إذا ارتفعت حاله عن انخفاض ، أي بما يتجدد لهم في الكرامة يزدادون رفعة ، فعند ذلك أشرف عليهم الرب من فوقهم ، ومعنى ذلك من فوق رجائهم ، لأنهم لم يطمعوا حينئذ في رؤ يته ، فيرون الله عز وجل ويتجدد لهم لذة الرؤ ية من غير استشراف وانتظار .

ويؤ يد الخبر الآخر وهو ما قيل فيه :

---

(١) انظر الأحاديث القدسية ، للمناوي ، وطبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير والطبري في تفسيره .

إن منادي الرب ينادي أهل الجنة أن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم ألم ، فيتجلى لهم الرب عز وجل عند ذلك[1]

فأبان هذا الخبر أن رؤية الله جل ذكره تكون لهم مبادهة من غير إستشراف ولا توقع ، وهكذا نعيم أهل الجنة ليس لأهلها في شيء منه انتظار ، وأفضلها وأتمها عندهم رؤيتهم لله جل وعز ، فعلى هذا يتأول الخبر لاستحالة المقابلة على الله جل ذكره للأجسام والتحيز في الجهات .

(١) سبق تخريجه من قبل ، كما سبق بيان المراد من التجلي والنزول في حق الله تعالى .

فصل آخر

ثم ذكر في ذلك أخباراً في ذكر ما أضيف الى الله عز وجل ، من الوجه ، وقد مضى تأويل ذلك على الوجه الصحيح من مذهبنا ، غير أنا نزيدك أيضاحاً ها هنا ونقول :

إن جميع ما ذكر في القرآن الكريم ، والسنة الشريفة من الوجه المضاف الى الله عز ذكره لا يخلو من معان :

أحدها : ما أراد به الاخلاص ، كقوله ﷺ :

« يجاء يوم القيامة بصحف مختومة فتنصب بين يدي الله ، فيقول عز وجل للملائكة : ألقوا وأقبلوا ، قال فيقول الملائكة : وعزتك ما رأينا إلا خيراً فيقول ـ وهو أعلم ـ

إن هذا كان لغير وجهي ، ولا أقبل اليوم من الأعمال إلا ما ابتغي به وجهي »(١) .

وكنحو ما روي عنه ﷺ قال :

« من بنى مسجدا ابتغى به وجه الله بني له مثله في الجنة » (٢) .

وكنحو قوله ﷺ ، **« ثلاث : والذي نفسي بيده إن كنت لحالفا عليهن لا**

---

(١) أخرجه الحافظ المنذري في كتاب الترغيب والترهيب ، باب الاخلاص .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما ، والترمذي في سننه عن ابن عباس ، وابن عمر ، وعن عثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وللحديث عدة روايات صحيحة ومتفق على صحتها .

ينقص مال من صدقة فصدقوا[1] ، ولا يعفو رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها يوم القيامة ، ولا يفتح رجل على نفسه باب مسألة الا فتح الله عليه باب فقر » .

فهذا النحو من الاخبار بمعنى ذكر الوجه فيه الاخلاص لله بالطاعة .

والوجه الثاني : أن يراد بذكر الوجه المضاف إلى الله عز وجل صفته على حسب ما يقول وذلك كقوله تعالى : .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ[2] ﴾ .

وكقوله ﷺ : « أتاني جبريل فقال : يا محمد ، إن ربك سألني ما جزاء من أذهبت كريمتيه في الدنيا[3] فقلت لا علم لي إلا ما علمتني قال جزاؤه الخلد في داري والنظر الى وجهي » .

وكقوله : « وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه » .

ومثله ما روي في تأويل قوله عز وجل :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[4] .

عن أبي بكر أنه قال : الزيادة النظر الى وجه ربهم[5] .

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، ومسلم في صحيحه ، والترمذي في سننه .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

(٣) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والنسائي في سننه والطبراني في المعجم الكبير .

(٤) الآية ٢٦ من سورة يونس .

(٥) وعليه كثير من التابعين والمفسرين .

وكذلك روي عن أبي موسى الأشعري ، وعن حذيفة رضي الله عنهما ومثله ما روي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول في دبر كل صلاة :

بسطت يدك فأعطيت ولك الحمد ربنا وجهك أكرم الوجوه[١] .

ومثله ما روي فيما تقدم ذكره من الخبر في قوله لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره . فأما الوجوه بمعنى الذات فلا يوجد في اللغة أصلا .

والوجه الثاني الذي بمعنى الجارحة فلا يليق بالله عز وجل ، وقد بينا تأويل قوله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٢]. وأنه بمعنى فثم أمر الله الذي له الوجه فعلى ذلك فرتب كلما ورد عليك من الوجه في السنن والأخبار وآي الكتاب[٣] .

---

(١) أنظر شرح نهج البلاغة للحديدي .

(٢) الآية ١١٥ من سورة البقرة .

(٣) وسبق كذلك بيان المراد من كل خبر ، أو آية أو حديث يـ م الاشكال في ظاهره كما سبق تأويله الى معنى يتناسب مع ما ثبت في حق الله سبحانه وتعالى .

فصل آخر

ثم ذكر بعد ذلك ماروي من الأخبار في ذكر العين ، وقد تقدم شرحه ، غير أنه روي في خبر عن أبي بكر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ، قرأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً ﴾[١] فوضع أصبعه الدعاءة على عينه، وإبهامه في أذنه، وقد بينا تأويل ذلك ، وأن الفائدة فيه إنكار قول من ذهب اليه من البدع الى أن معنى العين ما وصف به جل وعز ، أنه سميع بصير ، أنه عليم لا على إثبات سمع وبصر على الحقيقة ، إلا بمعنى العلم ، ولم يرد ﷺإثبات جارحة لاستحالة وصفه بالجوارح ، بل أراد تحقيق معنى السمع والبصر في وصفه على غير معنى العلم ، وبذلك على ذلك أن الجارحة معراة عن السمع والبصر ، لا تمدح بكونها .

ولما قصد النبي ﷺمدحه تعالى بذلك ، وجب أن يحمل عليه ، وهذا كما أشار الى القمر ليلة البدر عند تحقيق الرؤية ليعلمهم أنه مرئي بالأبصار ، لا على معنى العلم ، كما أن الله تعالى مرئي بالبصر على معنى أنه معلوم فقط ، ولم يرد تشبيهاً بالبدر وإنما أراد تحقيق الرؤية على الوجه الذي يمنع تأويل العلم .

ومثله ما روي في خبر آخر قال : كان ملك في بني إسرائيل نذر أن يمشي على ثدي النساء ففرشت له النساء ، فجعل يمشي على صدورهن ، فبينا هو يمشي على صدر امرأة منهن إذ رفعت رأسها الى السماء فقالت :

اللهم إن هذا بعينك ، فقال تعالى : ﴿على تمرد ؟ يا أرض خذيه ﴾ .

قال : فخسفت به الأرض والناس ينظرون[٢] .

---

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .

(٢) والخسف بالجبابرة وإن كان جائزا كما حدث فعلا بقارون ﴿ فخسفنا بِهِ وبِدارِهِ ٱلأرْض ﴾ سورة القصص آية ٨١ . إلا أن هذا الخبر لم يذكره أحد من الثقات .

وهذا مما ذكر فيه العين مضافاً اليه جل ذكره ، وقد بينا أن ذلك مما لا يمتنع وليس المراد به عين جارحة ، ولكن المراد عين صفة ، كما قلنا في اليد والوجه ، أو يكون المراد به البصر كما ذهب اليه بعض أصحابنا ، وقدروي في بعض الأخبار ما يؤيده ، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

كنا مع رسول الله ﷺ فقال :

« يا أيها الناس إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعاً بصيراً » [١] .

فنفى الصمم والنقص والعمى عنه ، وأثبت السمع والبصر ، فدل ذلك على تحقيق معنى وصفه بالسمع والبصر ، قالت عائشة رضي الله عنها :

« تبارك الذي وسع سمعه كل شيء [٢] .

وأثبتت له سمعاً ، ولم تثبت له أذنا ، فدلت على أن صفته التي يوصف بها مما ينفي النقص من الصم عنه هو السمع لا الجارحة .

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وابن خزيمة .

(٢) أنظر الأذكار للامام النووي .

فصل

ثم ذكر بعد ذلك السنن المأثورة في ذكر اليد المضافة الى الله تعالى ، واتبع هذا الباب بما روي فيه من ذكر الكف والقبضة واليمين ، وقد تقدم شرح أكثر هذه الأخبار[١] إلا إنا نذكر جملة تقف على تخريج جميعاً[٢] .

واعلم أن اليد في اللغة تستعمل على معان .

منها : الجارحة ، والملك ، والنعمة ، وما أضيف الى الله جل ذكره من ذلك ، مما هو بمعنى الجارحة فيما بينا فهو بمعنى الصفة في وصفه لاستحالة وصفه بالجوارح وصحة وصفه بالصفات ، وقد يضاف اليه اليد على معنى الملك والقوة والنعمة والقدرة أيضاً ، وإنما نميز بين معانيها بمواضعها المذكورة فيها قراءتها المقترنة بها ، فأما معنى قوله جل وعز :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[٣] .

وقوله عليه الصلاة والسلام « خلق الله آدم يوم الجمعة بيده »[٤] .

فهو بمعنى الصفة ، لا يليق به معنى النعمة ، والقوة ، والملك .

وكذلك قوله « كتب بيده على نفسه »[٥] .

---

(١) وتوضيح ما خفي منها ، والتعليق عليه قدر الاستطاعة ، وما وفقنا به الله سبحانه وتعالى .

(٢) وفي نسخة أخرى : نذكر جملة تقف على تخريج جميعها .

(٣) الآية : ٧٥ من سورة ص .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) سبق تخريجه ، وبيان المراد من اليد في حقه سبحانه وتعالى .

و﴿ أن رحمتي تغلب غضبي ﴾[1] فهذا لا يليق به إلا بمعنى الصفة .

فأما ما يليق به معنى الملك والقدرة مما أضيف الى الله جل ذكره من اليد ، فكما روي أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاته :

« لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير » [2] .

فهذا يحتمل معنى القدرة والملك ، وكذلك قوله ﷺ :

« تكون الأرض خبزة واحدة ، يتكافأها الجبار بيده كما يتكافأ أحدكم خبزه في السفر نزلا لأهل الجنة » [3] .

وأما الذي يحتمل أن يكون أراد به النعمة مثل قوله ﷺ في الخبر الذي تقدم ذكره :

« فوضع يده بين كتفي فوجدت برد أنامله » [4] .

وقد بينا أن المعنى في ذلك ما وصل الى قلبه من نعم الله وألطافه .

وقد تكون اليد أيضاً مضافة اليه ، بمعنى النصرة والمعونة ، وذلك يرجع الى معنى النعمة كما روي عنه ﷺ أنه قال :

« يد الله على الجماعة فاتبعوا السواد الاعظم » [5] .

وقال ﷺ :

---

(١) سبق تخريجه ، وبيان المراد من الرحمة والغضب في حق الله سبحانه وتعالى

(٢) أخرجه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ، وقد سبق تخريجه مفصلا من قبل .

(٣) سبق تخريجه وبيان المراد منه .

(٤) سبق تخريجه ايضاً .

(٥) سبق تخريجه ايضاً .

« يد الله مع القاضي حتى يقضي ، ويد الله مع القاسم حتى يقسم ، ويد الله مع الجماعة ، فإذا شذ الشاذ منهم اختطفه الشيطان » [١] .

والذي هو بمعنى الملك أيضاً ، كقوله كثيراً في الاخبار المروية عنه :

« والذي نفسي بيده لآنية حوضي أكثر من عدد النجوم » [٢] .

« والذي نفسي بيده لو أن فاطمة سرقت لقطعتها » [٣] .

« والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله » [٤] .

فأما ما روي في هذا من ذكر اليمين ، نحو قوله :

« يخرج كل طيب بيمينه » .

وقوله : **« ثم مسح إحدى يديه بالأخرى »** ، فقد تقدم بيانه ، وأن المراد به : ظهور فعل ظهر من بعض خلقه من الملائكة ، أضيف إليه ، على معنى أنه عن أمره كان ، كقولهم قطع الأمير اللص .

فأما قوله عليه الصلاة والسلام :

« ما تصدق أحد بصدقة من طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت ثمرة فتربى في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل » [٥] .

---

(١) سبق تخريجه يصا .

(٢) سبق تخريجه وبيان الحكم عليه .

(٣) وفي رواية الامام حمد (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)
أما رواية المصنف هذه ، فقد أخرجها الطبراني في المعجم الكبير وأصحاب السنن .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، والنسائي ، والطبراني في المعجم الوسط . والحاكم في المستدرك .

(٥) سبق تخريجه .

فإن اليمين ههنا بمعنى النعمة والفضل ، وذلك بفضله في القبول وتضعيف الثواب عليها ، والمراد بالكف القدرة أيضا كما قال القائل :

هون عليك فإن الأمور بكف الاله مقاديرها[1] .

ومثله ما روى نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر :

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[2] .

قال : مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة .

فهذا يرجع أيضاً الى معنى القدرة ، والقبضة يرجع معناها الى الملك ، كقول القائل : ما هذا الدار الا في قبضتي ، وليس يريد قبضة الجارحة ، وكذلك معنى مطويات فانيات من قولك اطو هذا الأمر والحديث ، يعني أفنه ، أي اسكت واقطعه ، فقدر رسول الله ﷺ ، أمر المعاد في نفوس المشركين المنكرين له ، وأن ذلك مما لا ينكر في قدرته ، وكذلك شبهه برمي الغلام بالكرة ، فهذا يرجع أيضاً الى معنى القدرة تحقيقاً لما أراد من معنى القدرة .

فأما ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« يد الله ملأى لا ينقصها نفقة سحاء الليل والنهار مذ خلق الله السموات والأرض ، وإن ذلك لم ينقص مما في كف الله شيئاً ، واليد الأخرى فيها الميزان يخفض ويضع ويرفع » [3] .

فيحتمل أن يقال : إن المراد بقوله ﷺ :

---

(١) سبق بيان المراد من ذلك .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) سبق تخريجه .

« **يد الله ملأى لا ينقصها نفقة** » أي نعمة وأياديه وفضله[1] .

وقوله : « **ما في كف الله** » أي مما في قدرته على ما تقدم تأويله .

وقوله اليد الاخرى فيها الميزان يخفض ويضع ويرفع ، وإنما أراد بذلك إشارة الى العدل والفضل ، وأنه إذا بسط نعمه وفضله لم ينقص مما في يديه شيء ، بأن يعجزه ، وإذا أعدل بحق ملكه لهم فيهم خفض ورفع وبسط وقبض .

وكذلك ما روى الحسن عن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

« **ما التقت فئتان قط إلا وكف الله بينهما ، فإذا أراد أن يهزم إحدى الطائفتين أمال كفه عليها** »[2] .

فهذا ايضاً يرجع الى معنى القدرة وإظهار النصرة والخذلان .

فهذا أيضاً يرجع الى معنى القدرة ما روي عن كعب أن السفينة تجري على كف الرحمن .

أي أنها تجري بقدرته ، وأن الله عز وجل هو المسير لها ، وهو معنى قوله تعالى :

﴿ **هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ** ﴾[3] .

فأما ما روى حكيم بن هشام أن رجلا قال يا رسول الله أنبتدىء الأعمال أم قد قضي ؟

---

(١) وهذا هو المناسب .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الآية : ٢٢ من سورة يونس .

قال : إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه ، فقال : هؤلاء للجنة ، وهؤلاء للنار[1] .

فمعنى ذلك يرجع الى نوعي العدل والفضل في مقدوراته المقدورة في أمور عباده ، وأنه قد سبق حكمه لفريق بالفضل ، ولآخرين بالعدل .

وكذلك ما روي من الأصابع والانامل فمحمول على أحد معنيين :

إما على النعمة والفضل ، كما يقال لفلان على أصبع حسن ، والمراد بذلك أثر حسن من طريق النعمة .

أو يراد به القدرة : كما يقال ما فلان الا في قبضتي وتحت أصبعي .

وأما ما روي في الخبر أن ابني مليكة أتيا النبي ﷺ فقال :

إن أمنا كانت تكرم الزوج . وذكر الحديث وقال فيه : قال النبي ﷺ :

« **فأقوم على يمين الرحمن مقاماً لا يقومه أحد غيري** »[2] .

فالمراد بذلك : أحد تأويلين :

أحدهما : فأقوم على يمين عرش الرحمن ، فذكر الرحمن وأراد عرشه ، كما قال :

﴿ **واسأل القرية** ﴾ وأراد أهلها ، وأشار الى مقام أوليائه أصحاب اليمين :

والثاني : أن يكون معناه ما يظهر له من نعم الله وكرامته ، وذلك بأن يقوم

---

(١) ذكره صاحب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال كتاب التفسير عند قوله تعالى :
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ . . . الآية سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٢) سبق تخريجه .

مقاماً يظهر الله عز وجل ، من فضله له ، ما يبين به من سائر الأنبياء والمقربين .

وإنما قلنا ذلك لأن يمين الجهة ويسار الجهة من صفة الأجسام المحدودة[1] .

وكذلك معنى ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« إن على يمين الرحمن منابر وكراسي عليها رجال » [2] .

وكذلك قوله ﷺ :

« إذا كان يوم القيامة مد الله الارض مد الاديم حتى لا يكون لبشر من الناس الا موضع قدمه ، فأكون أول من أدعى وجبريل عن يمين الرحمن » [3] .

ومعنى ذلك على ما تقدم ذكره من الوجهين :

إما أن يراد به يمين عرش الرحمن ، أو يراد به تقريب المنزلة ، وتحقيق الرفعة والعظمة .

وأما ما روي عنه ﷺ أنه قال :

« يجاء بهم يوم القيامة فيوقفون على جسر جهنم ، فمن كان مطواعاً لله تناوله الله عز وجل بيمينه حتى ينجيه » [4] .

ومعنى ذلك ما يلحقه من رحمة الله وكرمه وعفوه ، وقد ذكرنا فيما تقدم استعمال العرب اليمين في معنى الرحمة والنعمة والفضل .

---

(١) والله سبحانه وتعالى يستحيل في حقه ذلك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٢) سبق الكلام فيه ، وبيان المراد من يمين الرحمن . . . الخ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه ، ثم أنظر الأحاديث القدسية للمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية باب صفة اهل الجنة .

وأما ماروى أبو أمامة عن رسول الله ﷺأنه قال :

« **إن الله خلق الخلق وقضى القضية وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله** »[١] .

وكذلك ماروي أبو موسى أن رسول الله ﷺقال :

« **إن الله عز وجل يوم خلق آدم قبض قبضتين فقال :**

هؤلاء أهل اليمين ولا أبالي أصحاب الجنة ، وهؤلاء أهل الشمال ولا أبالي أصحاب النار »[٢] .

فكلا الخبرين مطعون في إسنادهما .

أما حديث ابي موسى فإن يزيد الرقاشي فيه[٣] نظر ، وحديث أبي أمامة فجعفر بن الزبير فيه نظر ، على أنه إن ثبت يؤول ذلك على ما قلنا فيها قبل ، أنهم هم الذرية ، لأنهم خلقوا من جانبي آدم ، خلق المؤمنين من يمينه ، والكافرين من شماله ، واليمين والشمال لآدم عليه السلام ، وذلك يرجع الى المخلوقين ، فهما من الخلق .

وإنما قلنا ذلك لما روي في الخبر عن النبي ﷺمن طريق موثوق به :

---

(١) سبق تخريجه ايضاً .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) ويزيد الرقاشي ، قال عنه الحافظ الذهبي في الكاشف :

« يزيد الرقاشي بن إبان الرقاشي ، الزاهد القاضي ، ضعيف » .

وقال عنه ابن حبان :

« كان من خيار عباد الله من البكائين بالليل ، لكنه غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة حتى كان يقلب كلام الحسن فيجعله عن أنس عن النبيﷺ ، فلا تحل الرواية عنه الا على جهة التعجب » اهـ .

« وكلتا يدي الرحمن يمين » [1] .

وبينا فيها قبل أن فائدة ذلك التنبيه على نفي الجوارح ، لأن اليمين التي بمعنى الجارحة ، لا بد أن يكون ما يقابلها يساراً فقال النبي ﷺ : ﴿ وكلتا يديه يمين ﴾ إشارة الى نفي ، التشبيه والجارحة ، ولم يثبت لفظه في خبر من طريق صحيح بذكر الشمال مضافا اليه جل ذكره ، فرتب على ما ذكرنا لك جميع ما ورد عليك من هذه الأخبار ، من لفظ اليد ، والكف ، واليمين ، والاصبع ، والقبضة ، والانامل ، من غير أن تخرج عن جملة معاني ما ذكرنا ، فتخرج الى طريق الضلال والهلاك ترشد إن شاء الله تعـالى :

---

(١) حديث صحيح أخرجه الامام احمد في مسنده ، والنسائي وابن ماجه وغيرهم . وقد سبق بيان تأويل

فصل آخر

ثم ذكرنا بعد ذلك ما روي عن ذكر الساق والقدم والرجل اليمنى والأخرى ، فروي في حديث ذكر الساق ، وحديث الرؤية ، وما روي فيه ، هل بينكم وبينه آية تعرفونها ؟ .

فيقال : الساق ، فيكشف عن ساق فيسجد له كل مؤمن [١] .

واعلم أن هذا الخبر مما تقدم البيان في تأويله ، وأوضحنا أنه لا يجوز أن يقال : لله ساق ، أو يكشف عن ساقه ، من قبل أن الألفاظ المروية في الأخبار ، وما ورد في القرآن الكريم ؛ من ذلك قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ سورة الحاقة آية ٤٢ . فإنما ورد مطلقاً غير مضاف ولا مقيد .

وقد روي عن ابن عباس تأويل ذلك ، وأن معناه : يوم يكشف عن شدة [٢] ، وإن ذلك [٣] كلام العرب ، لأنهم يقولون : قامت الحرب على ساق ، أي على شدة .

وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ، قال : عن نور عظيم . وورد لفظ النور مطلقاً أيضاً غير مضاف إلى الله جل ذكره ، فيحتمل أن يكون المعنى في ذلك ما يتجدد لهم عند رؤية الله عز وجل ، من الفوائد والمكاشفات والألطاف التي تظهر لسرائرهم [٤] .

---

(١) وقد سبق بيان تأويل ذلك والمراد منه باستفاضة فارجع اليه إن شئت .

(٢) أنظر تفسير الطبري ، وتفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي .

(٣) وفي نسخة أخرى : « وأن ذلك من كلام العرب . الخ » .

(٤) أنظر تفسير الفخر الرازي لقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ سورة النور آية ٣٥ .

فأما ما روي من الأخبار في الرجل ، فمن ذلك ما روى عكرمة عن ابن عباس قال :

صدق رسول الله ﷺ أمية بن أبي الصلت في بيتين من شعره :

رجـــل وثـــور تحت رجـــل يمينـــه والنسـر لـلأخـرى وليث مـرصـد

فقال ﷺ : « صدق » .

وروى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« **تحتاجه الجنة والنار** » ،وذكر الحديث وقال فيه :

« **وأما أهل النار فإنهم يلقون فيها فتقول : هل من مزيد فلا تمتلىء حتى يضع فيها رجله** » [1] .

وروي حديث عمارة بن عامر عن أم الطفيل امرأة أبي بن كعب أنها قالت : سمعت النبي ﷺ ، فذكر أنه رأى ربه في المنام ، وذكر الحديث وقال فيه الرجل .

الجواب

اعلم أنا ذكرنا هذا الخبر فيما تقدم ، وبينا تأويله ؛ وذكرنا أنه يحتمل أن يكون المعنى فيه ما يضعه الله في النار من الكفار ، وهم الخلق الكثيرون فتمتلىء جهنم بهم ، وأنه سمي ذلك رجلا على عادة العرب في تسمية الجماعة رجلا ، لأنهم يقولون للجراد الكثير رجل ، ويقولون : جاءت رجل من الجراد يعنون بذلك [2]

---

(١) سبقت تخريجه .

(٢) أنظر النهاية في غريب الحديث ، والأثر لابن الأثير الجزري .

جمعاً كثيراً .

ويحتمل أن يكون رسول الله ﷺ ، أراد بالرجل ههنا الخلق الكثير ، واضافة إلى الله تعالى على طريق الملك والفعل .

فأما ما في بيت أمية بن أبي الصلت ، فيحتمل أن يقال :

إنه أراد يمين العرش ويساره ، وأن هذه الأملاك التي تحمل العرش منهم من هو قائم عن يمين العرش ، ومنهم من هو قائم عن يساره .

فأما ما روي في ذكر الرجل في رؤ يا النوم فقد مضى بيانه ، وإنه لا ينكر أن يكون الشيء يرى في المنام على خلاف ما هو به ، وقد بينا لذلك وجوها أخر قريباً ، وهو :

أن يكون رأى صورة على تلك الهيئة رأى الله تعالى فيها ، على معنى أنه رآه عند رؤ يته له ، وذلك على أحد معنيين :

أحدهما : أن يكون معناه أنه لم يلههم النظر إليه عن ذكر الله عز وجل ورؤيته له بالقلب[1] .

والثاني : أن يكون معناه أنه رأى ربه فيها معتبراً بها لأنه رأى الهيئة والصورة لله جل ذكره [2] .

---

(١) وهذا يؤيده الخبر الوارد :

« انعكس بصري في بصيرتي فصرت كلي بصراً ، فرأيت من ليس كمثله شيء » .

(٢) وهذا غير بعيد ، خاصة وأن أهل السنة جوزوا رؤ ية الله تعالى ، والرؤ ية عندهم غير مستحيلة .

فصل آخر

ثم ذكر بعد ذلك سنناً وأخباراً كثيرة يريد بذكرها نص القول بأن الله تعالى لم يزل ولا يزال ، وينكر قول من حكى عنه ، أو يتوهم عليه ، أنه يقول : إن الله لم يتكلم الا مرة ثم لم يتكلم بعد ذلك[١] ، وليس في جميع ما ذكره ما ينكر .

غير أنه قد أوهم برواية هذه الأخبار التي ذكرها أن الله عز وجل يتكلم كلاما بعد كلام ، ويقول قولا بعد قول ، وإن لم ينص عليه بتصريح هذه العبارة والأولى في ذلك أن يقال :

إن كلام الله لم يزل ولا يزال موجوداً فإنه يفهم خلقه معاني كلامه ، أولا فأولا ، وشيئاً فشيئاً ، وأن الذي يتجدد الاسماع والإفهام دون المسموع المفهوم ، وقد ذكر في هذا القدر ما يغني عن ترداد الأخبار فيه ، وابهام الخطأ بأن تكلم في وقت كذا ، وتكلم في وقت كذا ، لأجل أن كلامه لا يخص الأوقات والأزمان ، كما أن علمه وسمعه وقدرته لا يصح أن يقال فيه شيء من ذلك ، وإنما يتجدد المعلوم والمقدور بحدوثه شيئا بعد شيء دون العلم به والقدرة عليه .

والذي ذكره من الأخبار نحو ما روي : أن الله تكلم بعدما خلق آدم يوم أخذ الميثاق[٢] .

وتكلم لما خلق ذرية آدم[٣] .

---

(١) مع أن الكلام صفة قديمة من صفاته القائمة بذاته سبحانه وتعالى .

(٢) وهو المراد بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴾ الآية ١٢ من سورة المائدة .

(٣) وهو المراد بقوله تعالى :

وتكلم لما خلق العقل[1] .

وتكلم لما خلق الجبال .

وتكلم بعد أن بعث إبراهيم ﷺ، وبعد أن بعث أيوب ، وبعد أن بعث يوسف ، وموسى ، وأورد ، من ذلك وكثر .

واعلم أنه كما ينكر قول من قال : إن الله لم يتكلم إلا مرة واحدة ، كذلك ينكر قول من قال : إن الله تكلم مرة بعد أخرى ، لأن كل ذلك يوجب حدث الكلام .

فإن قيل : أليس قدروي في الخبر أن الله عزوجل ناجى موسى بثمان مائة ألف كلمة ، وأربعين ألف كلمة ، وصايا كلها .

قيل : إن ذلك يرجع الى تكسير الاسماع والافهام ، لا إلى معنى الكلام الذي لم يزل .

فأما كلام الله الذي هو صفة من صفات ذاته ، غير بائن منه ، فكلام واحد ، شيء واحد ، يفهم منه ويسمع مالا يحصى ولا يعد ، من الفوائد والمعاني ، ونظير ذلك ما نقول :

إن علمه واحد ولكنه يحيط بمعلومات لا تتناهى ، والذي تقع عليه الكثرة والقلة المعلومات دون العلم ، وهذا هو معنى جملة ما ذكر من هذه الأخبار على كثرتها من قوله قال الله ، ويقول الله ، وليس المراد تكرير القول وتجديده .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شهِدْنا أَنْ تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ .

(١) وهو المراد بقوله ﷺ : « أول ما خلق الله العقل فقال له : أقبل فأقبل الحديث » وأن كان في الحديث كلام ..

فصل آخر

فإن قال قائل : أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال :

إن الله عز وجل تكلم ويكلم عباده بعد أن يقيم القيامة ، وكما قال عز وجل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [1] .

و ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾[2] .

وما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم :

« **ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان** » [3] .

قيل هذا راجع الى التكليم والأفهام ، لا إلى تجديد الكلام ، ومثال ذلك مثال الأسماع من سمعه ، والتعليم من علمه ، والتقدير من قدرته ، في باب أنه عنه يصدر ، ولا يكون هو نفسه ، والمراد بذلك أن يفهمهم خطابه يوم القيامة من غير ترجمان ، فإذا حاسبهم يوم القيامة أفهمهم كلامه ، وأسمعهم خطابه من غير واسطة لا كما أفهمهم في الدنيا بوسائط الرسل والكتب .

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٣) هذه فقرة من حديث صحيح متفق عليه ولفظه :

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء ووجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة** » اهـ .

ثم ذكر في ترجمة باب أوهم فيه ما ليس هو المذهب ، وذلك أنه قال في تضاعيف هذه الأبواب التي ذكرها من هذا النوع ، ذكر الآي المتلوة ، والسنن المأثورة ، في أن الرب تعالى لا يزال يتكلم إلى أبد الأبد ، قال الله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ (١)

وقال : ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ (٢) .

ثم ذكر في ذلك حديث سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة ، فقال أبو هريرة :

(أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة)(٣) .

قال سعيد : وفيها سوق ؟

قال : نعم . وذكر الحديث وقال فيه أبو هريرة :

حدثني النبي ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة ، من أيام الدنيا ، فيزورون الله وذكر الحديث ، وقال فيه أبو هريرة :

قلت للنبي ﷺ يا رسول الله ، هل نرى ربنا ؟ .

قال :« **نعم ، هل تمارون في رؤية الشمس وفي القمر ليلة البدر ؟** » .

قلنا : لا . قال : « **وكذلك لا تمارون في رؤية ربكم** » ، فلا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة حتى أنه ليقولن الله جل ثناؤه للرجل :

---

(١) الآية : ٤ من سورة الاحزاب .

(٢) الآية : ٨٤ من سورة ص .

(٣) أنظر ترجمة سعيد بن السيب في كتابه حلية الاولياء .

يا فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا ، ويذكره ببعض غدراته في الدنيا .

فيقول : يا رب ألم تغفر لي ؟ .

فيقول : بلى فتسعه رحمته ومغفرته[1] .

واعلم بأن إطلاق القول بأن الله عز ذكره ، لا يزال يتكلم إلى الأبد يوهم الخطأ ، وأنه يتجدد له كلام بعد كلام ، وما يتجدد فهو حادث ؛ وكما لا يجوز أن يقال :

إن الله لا يزال يعلم إلى الأبد ، لأنه يوهم الخطأ كذلك[2] القول في الكلام .

والصحيح أن يقال : إن كلام الله لم يزل ولا يزال ؛ وأنه مسمع من يشاء من خلقه ومنهم من أراد منهم إفهامه في الوقت الذي يريد أن يسمعه ويفهمه ما يريد من ذلك من غير تجديد قول ، ولا كلام .

وإذا قيل في ألفاظ هذه الأخبار فيقول الله ، ويتكلم الله ، فليس المراد به تجديد الأسماع والأفهام ، للقول الذي لم يزل ، فعلى ذلك ترتيب كل ما ورد من الأخبار التي ذكرناها من هذه الألفاظ التي نصصتها ، مما يوهم حدوث قول الله وتجديد شيء منه بعد شيء .

ويجب أن تعلم أن ذلك مرتب على ما قلنا لا على الوجه الذي يقتضي حدوث كلام الله وتجدد كلام له بعد كلام ؛ فعلى ذلك رتبه .

(١) وقد سبقت أحاديث الرؤيا ، وسبق الكلام في بيان المراد منها وما قيل فيها .

(٢) وفي نسخة أخرى : كقولك القول في الكلام .

فصل آخر

ثم ذكر في ترجمة باب ذكر كيفية تكلم الله جل وعز بالوحي ، فذكر حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال :

إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون ويرون أنه من أمر الساعة ثم قرأ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[1] .

واعلم أنه قد بينا قبل معنى هذا الخبر ، وأن الصلصلة للسموات وهي مضافة إليها في الخبر نصاً ومعنى ، ذلك ما يخلق من العبارات عن كلامه ، وأن يكون أصواتاً مخلوقة في غيره ، هي أصوات لغيره ، ولو قال في هذه الترجمة البيان عن معنى تكليم الله بالوحي خلقه لكان أولى ، لأن الكلام والمتكلم شيء واحد .

وأما التكليم فمن أصحابنا من قال :

هو صفة الكلام يوصف بها الكلام إذا أفهم المخاطبين مراده بما يحدثه من العبارات والكنايات ، وليس لتكلم الله كيفية ، ولأن ما ذكره في الخبر في بيان الترجمة ، وإنما هو بيان التكليم لا إثبات التكلم .

وقد روي في خبر آخر أيضاً أن أبا هريرة ، قال : إن رسول الله ﷺ قال :

« إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان »[2] .

---

(١) الآية : ٢٣ من سورة سبأ ، والحديث سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه وبيان المراد منه .

فبين أن تلك الأصوات أصوات أجنحة الملائكة ، وأن ذلك عند قضائه أمراً ، وتجديده فعلا ، وليس ذلك يرجع الى حدوث الكلام ، وكذلك ما ذكره بعد كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ ، وما ذكر فيه من خبر عائشة رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله ﷺ :

« أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال » .

« وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا ويتكلم فأعي ما يقول » .

قالت عائشة رضي الله عنها :

ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليقطر عرقاً[1] .

واعلم أن ذلك مما يدلك على ما قلنا من حدوث العبارات ، فتارة يسمعها من الملك ، فيسمع كلام الله عندها وتارة يتجدد له فهم بابتداء بما يريد الله تعالى من معاني مخاطباته بالأمر والنهي ، وكل ما يرجع إلى العبارات والكنايات فحكمه الحدوث ، وأما المكتوب المعبر فهو كلام الله جل ذكره وليس نزول الوحي على معنى انتقال شيء من مكان إلى مكان ، ولكنه يحدث فيه ويسمع الرسول ﷺ، بما سمعه ويفهمه من كلام الله ، تارة عند حدوث عباراته من أصوات وغيرها ، وتارة عند حدوث فهم وعلم ابتداء .

وقد يسمى كلام الله وحيا كما يسمى العبارة عنه وحيا ، وهذا كما يسمى الكلام وتلاوته قرآنا ، وأحدهما متلو والآخر تلاوة ، وقد تقدم تفصيلنا لذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

فصل آخر

ثم ذكر بعد ذلك باب استواء الله تعالى على العرش ، وذكر فيه آي الكتاب ، وقد روى بعد ذلك أخباراً فقد ذكرنا تأويل الاستواء في موضعه ، وأما الأخبار التي ذكرها فمنها حديث العباس بن عبد المطلب أنه كان جالساً في البطحاء في عصابة [١] ، ورسول الله ﷺ جالس فيهم ، إذ مرت عليهم سحابة فنظروا اليها ، فقال رسول الله ﷺ :

« هل تدرون ما اسم هذه ؟ »

قالوا : نعم هذه السحاب .

قال فقال رسول الله ﷺ : « والمزن ؟ »

قالوا : والمزن والعنان .

ثم قال رسول الله ﷺ :

« هل تدرون كم بعد ما بين السماء والأرض ؟ »

قالوا : والله ما ندري .

قال : « فإن بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، والسماء الثانية فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء ، ثم فوق ذلك ثمانية ، أو عال ما بين أظلافهن وركبهن كما بين السماء إلى السماء ، ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء ، والله تعالى فوق ذلك » [٢] .

---

(١) أي في جماعة من الرجال .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والطبراني في معجمه الكبير .

وذكر أيضا بعده حديث جبير بن محمد عن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال :

أتى اعرابي إلى رسول الله ﷺفقال يا رسول الله : جهدت الأنفس ، وضاعت العيال ، وهلكت الأنعام ، فاشفع لنا إلى ربك فإنا نستشفع بك على الله تعالى ونستشفع بالله عليك .

قال فقال رسول الله ﷺ :

« **ويحك أتدري ما تقول ؟** »

وسبح رسول الله ﷺ ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك ، أو عرف في وجهه أصحابه ، ثم قال :

« **إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم** » .

« **ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سمواته وأرضه له كذا بأصابعه مثل القبة عليها ، وإنه ليئط أطيط الرحل بالراكب** » [1] .

اعلم أن حديث العباس بن عبد المطلب ، ليس فيه ما يجب أن نبين معناه ، سوى قوله : (**والله تعالى فوق ذلك**) .

وقد ذكرنا فيما قبل معنى وصف الله سبحانه بأنه فوق خلقه ، وأن ذلك راجع إلى فوقية المنزلة والمرتبة وفوقية القدرة والعظمة [2] ، وأما الفوقية بالمسافة والمكان فمحال في وصفه [3] .

---

(١) أخرجه ابن حميد في مسنده ، والطبراني في معجمه الكبير ، والبزار .

(٢) وقد سبق بسط القول في ذلك .

(٣) لأنه سبحانه ليس له مكان ، ولا هو في مكان معين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وفائدة الخبر تعريفنا أنه عز ذكره ممن لا يدخل بين طبقتين ، ولا ممن هو في كل مكان ، كما ذهب إليه المخالفون .

وإذا استفدنا بهذا الخبر تكذيب هذين الفرقتين في دعواهما على الله أنه يحل في بعض المخلوقات ويوصف أنه في كل مكان رجع تأويل الخبر إلى ما نقول ، أنه أراد به أنه غير مختلط ولا ممتزج بشيء من خلقه ، وأنه بائن مما خلق ، بينونة الصفة والنعت ، لا بالتحيز والمكان والجهة .

فأما حديث جبير بن مطعم فليس فيه ما يقتضي تأويلا أكثر من قوله : وأنه ليئط أطيط الرحل بالراكب ، وذلك يرجع إلى العرش .

وليس فيه ما يدل على أن الله تعالى مماس له مماسة الراكب لرحله ، بل فائدة الخبر أنه يسمع للعرش أطيط الرحل ، إذا ركب .

ويحتمل أيضاً تأويلا آخر وهو أن يقال :

معناه أطيط الملائكة وضجيجهم ، بالتسبيح حول العرش ، فأضيف الأطيط إلى العرش ، والمراد به الطائفون به ، وهذا سائغ في اللغة كما قال :

واستب بعدك يا كليب المجلس .

وإنما المراد أهل المجلس ، كذلك تقول العرب :

اجتمعت اليمامة ، والمراد أهلها .

وكذلك يقولون : بنو فلان يطؤهم الطريق ، والمراد المارة في الطريق [١]

ثم ذكر في هذا الباب حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) هذا مبسوط في كتب المعاجم والقواميس ، واللغة .

« لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي »[1] .

وقد بينا فيما قبل تأويل ذلك أن رحمتي سبقت غضبي .

فأما قوله فهو عنده فوق العرش ، فإن لفظة عند تستعمل على وجوه ومعان .

فمنها أن يقال : عند الله ، بمعنى أنه في علم الله تعالى .

ويقال عند الله ، على معنى أنه في حكم الله تعالى .

ويقال عند الله ، على معنى النصرة ، والكرامة ، والقدرة ، والمنزلة ، على قراءة من قرأ :

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمنِ إِنَاثاً ﴾[2] .

والمراد وضعهم بالقرب والكرامة .

ويحتمل أن يكون ذلك الكتاب موضوعاً على العرش على معنى المماسة له ، ويكون عند الله على معنى إحاطة علمه بما فيه من حديث لا يخفى عليه منه شيء .

---

(١) سبق تخريجه أكثر من مرة ، كما سبق بيان المراد منه بالنسبة لله سبحانه وتعالى .

(٢) الآية : ١٩ من سورة الزخرف .

فصل آخر

ثم ذكر ما روي من الأخبار في الكرسي فذكر حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :

تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في ذات الله ، فإن ما بين السماء السابعة إلى كرسيه [1] سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك .

---

(١) يقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبري :

« اختلف اهل التأويل في معنى الكرسي الذي أخبر الله تعالى ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ أنه وسع السموات والأرض .

فقال بعضهم : هو علم الله تعالى ذكره : وممن قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما ، وزاد فيه ألا ترى الى قوله ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ .

وقال آخرون : الكرسي : موضع القدمين ، وممن قال ذلك أبي موسى قال :

الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل .

ويقول السدي أيضاً : فان السموات في جوف الكرسي ، والكرسي بين يدي العرش وهو موضع قدميه .

ويقول الضحاك : كرسيه الذي يوضع تحت العرش الذي يجعل الملوك عليه أقدامهم :

ويقول الربيع : لما نزلت ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال أصحاب النبي ﷺ :

يا رسول الله ، هذا الكرسي وسع السموات والأرض ، فكيف العرش ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الى قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقال آخرون : الكرسي : هو العرش نفسه ، وممن قال ذلك الحسن رضي الله عنه .

ثم يعلق الطبري معقبا على ذلك فيقول :

« ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب ، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ ، وهو ما حدثني به عبد الله بن ابي زياد بسنده عن عبد الله بن خليفة قال :

أتت امرأة النبي ﷺ فقالت :

ادع الله أن يدخلني الجنة ، فعظم الرب تعالى ذكره ، ثم قال :

إن كرسيه وسع السموات والأرض ، وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع ، ثم قال

وذكر حديث ابن عباس أيضاً أن النبي ﷺ خطبهم فقال :

« **آتي باب الجنة فأفتحها فيفتح فيتجلى الله عز وجل لي على كرسيه وأخر على وجهي ساجداً** »[١] .

وروى حديثا عن النبي ﷺ ، أنه قال :

قدم جعفر من أرض الحبشة ، قال رسول الله ﷺ : ﴿ **ما أعجب شيء رأيت ؟** ﴾

قال : رأيت امرأة على رأسها مكتمل دقيق فمر فارس يركض فأدراه[٢] ، فقعدت تجمع طعامها ، ثم التفتت إليه ، فقالت :

ويل لك يوم يضع الملك كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم .

فقال رسول الله ﷺ ـ تصديقاً لها ـ « **كيف تقدس أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها وهو غير متعتع** »[٣] ؟

وذكر حديث ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال :

« **يشتد يوم القيامة على الناس** » ، وذكر الحديث وقال فيه فيفتح فآتى باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فأقرع الباب ، فيقال : من أنت فأقول : **محمد** ، ﷺ ،

باصابعه الاربعة فجمعها :

وإن له أطيطا كأطيط الرّحل الجديد إذا أركب من ثقله » .

(١) سبق تخريجه ، وبيان تأويله ، والمراد منه .

(٢) أي اطلقه في الريح ونثره حتى صار .

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن عاصم في السنة ، والبزار ، **وأبو يعلى** ، **وابن جرير** ، **وأبو الشيخ** والطبراني وابن مردويه ، والضياء المقدسي في **المختارة** .

فيفتح لي فأرى ربي على كرسيه أو سريره فأخر ساجداً ، وذكر الحديث [1] .

وذكر عن أبي ذر أنه قال قلت يا رسول الله أيما آية أنزلت عليك أعظم ؟

قال : ﴿ آية الكرسي ﴾ ، ثم قال : « **يا أبا ذر ما السموات السبع من الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة** » [2].

اعلم أن جميع ما وصف به الكرسي من عظم الجثة ، وطول المسافة ، فلا ينكر في مقدور الله عز وجل ما هو أعظم من ذلك أضعافاً مضاعفة ، فأما ما قال ابن عباس وهو فوق ذلك فكمثل ما تقدم في خبر النبي ﷺ في قوله وهو فوق ذلك كله .

وقد بينا أن ذلك ليس من طريق المساحة والمسافة ، فأما ما روى ابن عباس عن النبي ﷺ في الخطبة من قوله فتجلى الله على كرسيه فأخر على وجهي ساجداً فيحتمل أمرين :

أحدهما أن تجليه له تصديقاً فيما وعده وإظهاره له من الكرامة أكثر مما توهمه ورجاه .

وقد يقول القائل ، تجلى فلان لفلان ، والمراد بذلك ما يظهر له من فعله وتدبيره وآثاره .

ويحتمل أيضاً أن يكون أراد به الرؤ ية ، وأن النبي ﷺ يرى الله عز وجل عند دخول الجنة .

---

(١) أخرجه البزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير الطبري .

(٢) أخرجه ابن جرير ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر رضي الله عنه .

فأما قوله على كرسيه فهو كقوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ وقد بينا معنى على فيما قبل وأنه ينقسم على وجوه :

أحدها علو الرفعة بالقدرة والمنزلة .

والثاني كقوله : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وكقوله على زيد مال ، وليس المراد بذلك علو بالمكان ، وإذا لم يكن معنى على مختصاً بعلو المكان فقد بان أن معناه علو على ما يليق به مما لا يقتضي المكان .

ولو قال قائل : إن معناه النبي ﷺعلى كرسيه في الجنة فيرى ربه عز وجل ، ويضاف إلى الله عز وجل من طريق الملك والفعل والخلق كما قال : ﴿ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾(٢) في صفة أهل الجنة وهن السرر .

وأما ما روي في حديث جعفر من قول المرأة بأرض الحبشة ، يوم يضع الملك كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم ، فليس فيه ما يحتاج إلى تأويل ، بل معناه : تعريفنا أنه ينتقم ذلك اليوم من الظالم للمظلوم ، وهذا كما يقول القائل :

بسط الأمير بساطه ، ووضع وساده ، يريد بذلك إظهار ملكه وقدرته للانتصار والإنتصاف ، وليس هذا مما ينكر .

فأما حديث أنس فقد بينا تأويله ، غير أنه قال فيه : فأرى ربي وهو على كرسيه ، وهذا أخذ معنى التجلي ، لأنه تصريح بالرؤ ية ، وقد بينا وجهه فيما قبل ، وليس ينكر عندنا رؤ ية الله عز وجل .

---

(١) الآية : ٤ من سورة القلم .

(٢) الآية : ٢٣ من سورة المطففين .

فصل آخر

ثم ذكر بعد ذلك ما روي في الآثار[1] من ذكر الحجاب وذكر حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال :

« دون الله سبعون ألف حجاب من نور لا يسمع أحد حس شيء من تلك الحجب إلا ذهقت نفسه »[2] .

وذكر حديث عائشة أن رسول الله قال :

« إن لله ديكا يجاوز رأسه كذا ، والسبعين الحجاب ورجلاه قد جاوزت السبع الأرضين »[3] .

وذكر حديث عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ يقول :

« رأيت البارحة عجباً رأيت رجلا من أمتي جاثياً عن ركبتيه بينه وبين الرب حجاب فجاء حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل إليه »[4] .

وذكر حديث صهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[5] .

وذكر الحديث ، وقال فيه : فيكشف لهم عن الحجاب فينظرون إليه . :

---

(١) كمشكل الآثار للطحاوي وهو كتاب نفيسي من أربع أجزاء .

(٢) أخرجه أبو يعلى والعقيلي والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه عن سهل بن سعد ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٣) قال عنه صاحب اللالىء موضوع ، ثم قال عنه السيوطي أنه ضعيف .

(٤) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والطبراني في المعجم الكبير .

(٥) الآية ٢٦ من سورة يونس .

وذكر حديث عبد الله بن عمر ، وقال سمعت رسول الله ﷺ [1] ، وذكر وصية نوح عليه السلام [2] ابنه فقال :

« **أنهاك عن الكبر والشرك ، فإن الله تعالى يحتجب عنهما** » .

وذكر حديث مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

احتجب الله عن خلقه بأربع : بنار ، وظلمة ، ونور وظلمة [3] وذكر حديث الحكم بن ثوبان أنه قال : سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول :

والذي نفسي بيده ، إن دون الله تعالى يوم القيامة سبعين حجابا ، إن فيها لحجباً من ظلمة ، وذكر الآية فيه أيضاً وهو قوله :

﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ [4] .

وذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺقال : « **ان موسى عليه السلام قال :**

يا رب أرنا أبانا آدم ، وذكر الحديث فقال فيه :

قال آدم من أنت ؟

فقال : أنا موسى ، قال نبي بني إسرائيل ، أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب لم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه » .

---

(١) أنظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي رضي الله عنه عند قوله تعالى .
﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ آية ٢٦ من سورة يونس .

(٢) أنظر تفسير الدر المنثور للسيوطي ، لقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها . . . الآية ﴾ .

(٣) أخرجه ابو يعلى والعقيلي والبيهقي في الأسماء والصفات ، والطبراني ، وقالوا : ضعيف .

(٤) الآية : ٥١ من سورة الشورى .

فصل

في الجواب عن ذلك

اعلم أن الذي يجب أن يوقف عليه من هذا الباب مما يبنى عليه الكلام فيه ، أن تعلم أن الله عز وجل ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا محدود ، وأنه لا يصح أن يكون محجوباً على معنى أن يكون مستورا بالسواتر المغطية ، كما تستر الأجسام الساترة الحائلة بينه وبين غيره ، وهذا هو الأصل الذي يبنى عليه التوحيد ، وينفي التشبيه ، ومن أثبت لله تعالى حداً أو نهاية ، أو غاية ، وأجاز أن يكون مستوراً محجوباً بحجب التغطية والسواتر المانعة ، فقد أحال [١] في ذلك ونقص التوحيد ، وأوجب تشبيه الله تعالى بخلقه .

الوجه الثاني من ذكر الحجاب في وصف الله تعالى ، هو أن يرجع به إلى أن يكون الحجاب في غيره والمحجوب به غيره [٢] ، وذلك إنما يكون بالأعراض المانعة عن رؤيته ، والموانع الحاجبة عن العلم به وذلك لا يليق به إلا أن يكون معاني حادثة ، في المخلوقين ، وأن يكونوا هم المحجوبون عنه بها ، إما أن يكونوا ممنوعين عن العلم به أو عن رؤيته .

ثم قد يقال للموانع التي يحدث عندها المنع للمحجوب حجب ، وأن تكون

---

(١) أي أثبت في حقه سبحانه وتعالى ما هو مستحيل في حق الله سبحانه وتعالى .

(٢) يؤيده قوله تعالى :

﴿ لا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ ﴾

تلك الأشياء حجبا على الحقيقة ، كما يقال :

إن الحائط حجاب بيني وبين ما وراءه والمراد بذلك : أنه مانع من رؤ يته على معنى أن المنع يحصل عنده ، والحجب يحصل معه لا أنه هو وهذا كما تقول في القيود الثقيلة : إنها تمنع من المشي للمقيد بها ، على معنى أن المنع يحدث عند التقيد بها للمقيد من المشي ، وإذا كان كذلك فجميع ما ذكرها من ألفاظ الحجاب من هذه الآية والسنن محمول على ما ذكرناه ، ومرتب على ما قلناه ، فمحال فيه أحد الوجهين ، ويصح الآخر ، وهذه جملة تكفي عن الجواب عن سائر هذه الأخبار .

ثم نقول : إن معنى قوله ﷺ :

« **دون الله سبعون ألف حجاب من نور** » إنما يرجع جميع ذلك إلى المحجوبين من خلقه بها ، لا إلى الله عز وجل ، وأنها حجب لهم لا له .

ولم يذكر في الخبر أن تلك حجب الله ليس فيه أكثر من أنها حجب ، وإذا لم يصح أن يكون الله عز وجل محجوباً كما لا يصح أن يكون ممنوعاً ، ولا مستورا ولا محدودا ولا مغطى ، ثبت أنه يرجع إلى حجب المخلوقين [١] .

فأما حديث عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ ، في قوله :

« **رأيت من أمتي رجلا جاثياً على ركبتيه بينه وبين ربه حجاب** » [٢] .

فالمراد به : حجاب للعبد عن رحمة الرب ، أي ممنوع الرحمة والنعمة حتى أثيب على حسن خلقه ، ورحم بذلك ، فأخذ الله تعالى بيده ، أي نجاه وخلصه ،

---

(١) وهذا هو الاليق والاولى ، إذ أنه سبحانه لا يحجبه شيء ، وإنما هو يحجب من شاء عن رؤ يته تعالى .

(٢) سبق تخريجه .

كما يقال أخذ الله بيدك على أنه نصرك ونجاك .

وكذلك قوله : فأدخله الله عليه ، أي أدخله في رحمته وكرامته [١] .

وهـذا كقول الحجاج : أتيناك شعثاً غبراً .

وكقولهم للحجاج : إنهم زوار الله [٢] .

فأما قولهم في تأويل قوله : وزيادة فيكشف لهم عن الحجاب فينظرون إليه ، فإنه يرجع إلى رفع المانع عن الرؤ ية من الممنوعين عن رؤ يته من الخلق .

فأما ما ذكر في وصية نوح عليه السلام ابنه قال :

أنهاك عن الكبر والشرك فإن الله يحتجب عنهما ، فإن ذلك يؤ يد ما قلناه أن يكون حجاب واحتجاب ، لا على معنى التغطية والستر ، لأن احتجاب الله عز وجل من الكبر والشرك ، ليس احتجاباً عن ساتر ، ومغط ، وحاجب ، ومانع ، بل ذلك هو منع المتكبر والمشرك ما عنده من الرحمة للمؤمنين ، وصرف النعمة عنهم ، فسمي ذلك احتجابا عنهم .

فأما قول عبد الله بن عمرو بن العاص :

(فوالذي نفسي بيده أن دون الله يوم القيامة سبعون ألف حجاب) .

فقد بينا أنها حجاب للمخلوقين[٣] لا لله ، ولم يذكر أيضا أنها حجاب الله عز وجل ، وقد ذكرنا وجه تسمية الحوائل والسواتر حجبا وحجابا ، وأن ذلك يرجع إلى تسمية ما يحدث عنده ، وذلك أن المنع للرائي يحصل عنده فيسمى حجاباً ، والحجاب

---

(١) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ . . ﴾ الآية ٨ من سورة الشورى .

(٢) كما ثبت في الحديث الصحيح « الحجاج والعمار وفد الله ، وفي رواية أخرى : زوار الله » .

(٣) أي أن الحجاب يقع على المخلوقين ولهم ، ولا يصح أن يقع على الله تعالى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

هو المنع الذي يضاد رؤ ية المحجوب به ، على معنى أنه يمنع الرؤ ية ، فعلى هذا فرتب ما ذكر في لفظ الحجاب ، فأما الآية فقد تقدم تأويلها فيماقبل فأغنى عن إعادته .

فصل آخر

فيما روي من الأخبار التي ذكرها في التجلي ، روى ابو بردة عن ابي موسى قال : قال رسول الله ﷺ :

« **يتجلى ربنا ضاحكا يوم القيامة** »[1] .

وروى ثابت عن انس ان رسول الله ﷺقال في هذه الآية :

﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾[2] ـ قال :

بدا منه قدر هذا[3] .

وعن ابن عباس في قوله تعالى :

﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ** ﴾ قال :

---

(١) يقول صاحب كتاب المنحة الالهية :

« وهذا الحديث يثبت صفة « الضحك » لله تعالى بكيفية لا يعلمها إلا هو ، ولا يستلزم ضحكه تعالى ما يستلزم منه ضحكنا من انفعالاتنا وانبساط أساريرنا » اهـ .

(٢) الآية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٣) ويقول الالوسي :

« أي ظهر له على الوجه اللائق بجنابه تعالى بعد جعله مدركا لذلك » اهـ .

وفي هذا المعنى أخرج الامام أحمد والترمذي وصححاه والبيهقي وغيرهم من طريق عن أنس بن مالك أن النبي ﷺقرأ هذه الآية : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ** ﴾ الخ قال ·

هكذا أشار باصبعه ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر فساخ الجبل » اهـ .

ما تجلى منه إلا قدر الخنصر[١] .

فصل

في الجواب عن ذلك وبيان تأويله

اعلم ان معنى التجلي الظهور ، يقال تجلى لي الرأي إذا ظهر له الرأي ، ولم يكن ظاهراً ، فإذا تجلى الرب فمعناه يتوجه على وجهين .

أحدهما بإظهار أفعاله الدالة عليه ، على معنى انه يضع العلامات التي بها يستدل عليه .

والثاني ان يكون بمعنى ما يخلق من الرؤية فيهم ، اي ما يخلق رؤية يوم القيامة للمؤمنين فيتجلى لهم عندها ، وهذا غاية ما يكون من التجلي ، لأن المعرفة بالشيء بعد ما لم يكن تجل ، والرؤية له ايضا بعد ما لم يره تجلي ، والعيان في التجلي ابلغ .

وأما معنى الضحك فقد بينا فيما قبل انه هو بمعنى إظهار النعمة ، وأن الله عز وجل يظهر النعمة يوم القيامة لأوليائه في الجنة .

فكأنه قال : يتجلى ربنا يوم القيامة ، بنعمه ، وأياديه ، وأحسانه ، وفضله ، وأعظم ما يتفضل به على اهل الجنة ما يخلق لهم من رؤيتهم له[٢] .

---

(١) ذكر ذلك الألوسي في تفسيره ، كما ذكره من قبله الطبري في تفسيره . ثم يعلق الالوسي على هذا فيقول :

« وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم ، أو التأويل بما يليق بجلال ذاته تعالى » .

وعلى هذا المعنى قوله تعالى :

(٢) ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

فأما معنى قوله :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ فقد ذكرنا فيه جوابين .

أحدهما انه جعل الجبل حياً عالما رائياً حتى رآه فذلك تجليه له .

والثاني ان ذلك تجل بإظهار الفعل والتدبير .

وأما معنى قوله بدا منه قدر هذا ، فالمراد به الإشارة الى الشيء اليسير من آياته[1] .

يريد أن ما اظهر الله في الجبل من الآية كان قدراً يسيراً في جنب ما يقدر عليه بالإضافة الى ما يبديه من علاماته ، ويظهره من آياته ، يوم القيامة .

وعلى ذلك يتأول قول ابن عباس : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر .

وذلك أنه مثل يضرب عند تقليل الشيء ، وقد جرت العادة في لغة العرب والعجم على هذا النحو[2] .

وإنما قلنا ذلك لإستحالة أن يوصف الله عز وجل بالتبعيض والتجزئة .

فالحسنى هي الجنة ، والزيادة هي رؤية الله تعالى ، كما ورد ، وهو الراجح والمعتمد .

(١) كما ذكر ابن عباس رضي الله عنه في قوله بهذا الرأي كما سبق أن ذكرنا .

(٢) أنظر القاموس المحيط ولسان العرب .

فصل

مما ذكر فيه النزول والمجيء ، مع الفاظ زائدة على ما تقدم ذكرها ، وبيان تأويلها ، وما ذكر في بعض الأخبار من ذكر العلو والصعود ، ومما لم يتقدم ذكره ، ولا بيان تأويله ، فمن ذلك ما روى عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّاَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ آللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[1] .

قال ينزل الجبار جل جلاله يوم القيامة في سحاب قد قطع كهيئة **الطاقات**[2] .

وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال :

« إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم » وذكر الحديث ، وقال فيه :

فلأهل السماء السابعة أكثر من اهل السموات الست ، وأهل الأرض بالضعف ، فيجيء الله تبارك وتعالى فيهم والأمم[3] .

وعن ابي هريرة وأبي سعيد انهما شهدا على رسول الله ﷺ، أنه قال :

« **إن الله يمهل حتى إذا كان الأول هبط الى السماء الدنيا فقال : هل من مذنب فيتوب** » الخبر[4] .

وروى عطاء بن يسار عن رفاعة بن عرابة عن النبي ﷺقال :

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة ، وقد سبق بيان المراد منها .

(٢) سبق تخريج ذلك .

(٣) أنظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي .

(٤) أخرجه الامام مسلم في صحيحه ، والامام البخاري في صحيحه بنحوه .

« إذا مضى شطر الليل ، أو قال : ثلثا الليل ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول : لا يسأل عن عبادي احد غيري من ذا الذي يسألني فأعطيه » [1] ؟

وروى جابر ان رسول الله ﷺ قال :

« ما من ايام افضل عند الله من ايام عرفة ينزل الله الى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض » [2] .

وعن ابن عباس انه قال :

يوم الحج الأكبر يوم عرفة ، وهو يوم المباهاة ، ينزل الله الى السماء الدنيا فيقول للملائكة أنظروا الى عبادي [3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قرأ هذه الآية :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ [4] .

أهل السماء الدنيا وهم أكثر من أهل الأرض من الجن والإنس ، فيقول أهل الأرض أفيكم ربنا ؟ فيقولون لا وسيأتي .

وذكر الحديث وقال :

وفيه تشقق السماء السابعة ، وهم أكثر ممن اسفل منهم من اهل السموات والأرض ، فيقولون أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا وسيأتي ثم يـأتي الرب في

---

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه وهو بعدة روايات مختلفة الالفاظ .

(٢) أخرجه الامام مسلم في صحيحه .

(٣) الامام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه .

(٤) الآية ٢٥ من سورة الفرقان .

الكروبيين وهم أكثر من أهل السمٰوات السبع والأرضين[١] .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ :

« ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا » .

وذكر الحديث وقال فيه :

فيكون كذلك حتى يصبح الصبح ثم يعلو ربنا الى كرسيه[٢] .

وعن عبد الله بن مسعود قال :

جاء رجل من بني سليم إلى رسـول الله ﷺولم يكن رآه إلا بمكة يقال له عمرو بن عبسة ، فقال يا رسول الله :

علمني مما أنت به عالم ، وأنا به جاهل ، أي صلاة المتطوعين أفضل ؟

فقال رسول الله ﷺ :

« إذامضى نصف الليل أو ثلث الليل فتلك ساعة ينزل الله فيها الى السماء الدنيا فيقول :

هل من مستغفر فأغفر له . . . . . إلى ان قال حتى ينفجر الصبح ، فإذا انفجر الصبح صعد الرحمن الى الملأ الأعلى » [٣] .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن ابي الدنيا في الاهوال ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن ابي حاتم والحاكم في المستدرك ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) سبق تخريجه قريباً جداً .

(٣) سبق تخريجه أيضاً .

فصل

الجواب عن هذا الباب وبيان تأويله

اعلم أنا قد بينا فيما قبل معنى هذا الخبر ، وأن النزول ينقسم الى اقسام ، وليس معناه يختص النزول بالنقلة والتحويل فقط ، بل معناه في غير الحركة أكثر منه : يقال نزل فلان من معالي الأمور ومكارمها الى سفاسفها .

ويقال نزل فلان عن رأيه ، وأنزل فلان فلانا[1] عن درجته ورتبته وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وقال ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[3] في صفة القرآن .

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا :

﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ ﴾[4] .

ويقال : نزل بني فلان خير وخصب ، وارتفع عنهم جدب وقحط ، وليس يراد بذلك معنى النقلة والتحويل من مكان الى مكان ، ومع ذلك فمعنى النزول فيه صحيح على الوجه الذي يليق به ، كذلك معنى ما وصف به الرب من النزول، وإن لم يكن معنى النقلة سائغ في لغة العرب . وذكرنا ان ذلك يرجع تأويله إلى إظهار فعل وتدبير في عباده يسميه نزولا . وأنه يحتمل ان يقال :

---

(١) أنظر القاموس المحيط ، ولسان العرب .

(٢) الآية ٤ من سورة الفتح .

(٣) الآية رقم ١ من سورة القدر .

(٤) الآية ٩٣ من سورة الانعام .

إن معناه أن يظهر رحمته لهم وإجابته لدعائهم ، وأنه من له أن لا يجيب ولا يرحم . لأن الإجابة منه فضل وتركها منه عدل ، فإذا اجابهم فقد نزل عماله أن يفعل بهم من ترك الإجابة إلى ان يفعل بهم ما يكون من فعله متفضلا .

ويحتمل ايضا ان يكون معناه نزول ملائكته بأمره فيضاف اليه النزول على معنى ما وقع بأمره كما يقال : نزل الأمير بموضع كذا إذا نزل أصحابه بأمره ونفذ فيه حكمه وسلطانه .

وإذا كان ذلك مما يحتمله اللفظ ، ويصح معناه ، وكان حمله على بعضها لا يؤدي الى وصف الله جل ذكره ، مما لا يليق به ، كان أولى مما قالوا .

وأما اللفظ الآخر الذي ذكره في الخبر وهو قوله : فيجيء الله تبارك وتعالى فيهم فتأويله على نحو قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[1] .

أحدهما أن يكون المراد به إظهار فعل يسمى مجيئاً .

والثاني أن يكون يجيء فيهم ، أي يجيء بهم ، وهذا نحو ما روي عن ابن عباس في تأويل قوله تعالى :

﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ أن معناه بظلل ، وما ذكرنا في تأويل النزول والمجيء ، فهو تأويل الهبوط وأن ذلك ايضاً ليس هو بمعنى التحويل من مكان إلى مكان .

فأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : إن الحج الأكبر يوم

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

عرفة[1]، وأن ذلك يوم المباهاة ، وأن الله تعالى يقول للملائكة : انظروا الى عبادي ، فليس فيه ما ينكر ، ومعنى المباهاة تعريف الملائكة ما يفضل به على بني آدم من الواقفين بعرفة من توفيقه إياهم لطاعته ، واحتمالهم المشاق فيها .

فأما ذكره في الخبر الآخر ، من قوله وسيأتي ، فهو بمعنى قولنا يجيء وجاء ينزل ويأتيهم الله في ظلل ، وليس معنى شيء من ذلك هو على الحد الذي لا يليق بالله تعالى من الحركة والنقلة والزوال من مكان الى مكان ، بل كل ذلك على معنى ظهور فعله وتدبيره[2] ، أو على معنى ظهور الفعل من غيره بأمره وحكمه ، فيضاف اليه اللفظ الذي يكون من قبله ، على معنى أنه بأمره وحكمه وقع ، وعلى ذلك يتأول ما ذكر فيه من العلو والصعود ، وأنه لا يخلو المراد فيه من احد وجهين :

إما أن يراد به علو الأملاك الذين نزلوا بأمره الى حيث يريد من فوق بأمره ايضا فيضاف الفعل اليه كما قلنا : أنهم يقولون ضرب الأمير اللص ، وإنما المراد به أمر بذلك .

ويحتمل ايضا ان يكون معناه ظهور فعل بعد فعل ، فإذا كان فعله فضلا سمي نزولا ، وإذا كان عدلا سمي صعود الأجل ما يرجع الى المعقول فيه ، وإلى صفة الفاعل فيما له أن يفعل وأن لا يفعل .

---

(١) كما أخرج الامام أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الكبير والترمذي في سننه .

(٢) وقد سبق توضيح ذلك وبيانه .

فصل

في ذكر الفاظ زائدة في الأخبار التي فيها الضحك ، فمن ذلك ما روى ابن مسعود عن النبي ﷺأنه قال : ـ

« إني لأعلم آخر اهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة[1] ، رجل يقال له ادخل الجنة ، فيأتيها فيرى انها ملئت فيرجع ، فيقول : يا رب قد امتلأت .

فيقول ارجع ثلاث مرات ، ثم يقول له :

لك مثل الدنيا ولك مثل عشرة أمثالها .

فيقول : أتضحك بي وأنت الملك » قال ورأيته يعني النبي ﷺضحك حتى بدت نواجذه .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله ﷺيقول :

« إن الله ليضحك من إياس العبد وقنوطه ، وقرب الرحمة[2] منه » .

وعن طلحة بن البراء أن النبي ﷺ، لما اخبر بموت طلحة رفع رأسه الى السماء وقال :

« اللهم القه وهو يضحك وأنت تضحك اليه »[3] .

---

(١) سبق تخريجه ، وبيان المراد منه .

(٢) أخرجه الامام أحمد ، والبيهقي ، وابن أبي الدنيا ، والطبراني في معجمه الكبير .

(٣) أنظر مشكل الآثار للطحاوي .

وعن ابي هريرة عن النبي ﷺقال :

« **يضرب الصراط بين ظهراني جهنم** » ، وذكر الحديث وقال فيه :

فيقول يا ابن آدم ما أغدرك تعطي عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير ما اعطيت ؟ فيقول :

أي يا رب لا أكون اشقى خلقك فلا يزال يدعو حتى يضحك الرب منه فإذا ضحك منه قال له : ادخل الجنة[١] .

وعن عاصم بن لقيط بن عامر ، خرج وافدا الى رسول الله ﷺقال :

فوافينا رسول الله ﷺحين انصرف من صلاة الغداة ، فذكر الحديث وقال فيه : فيظل يضحك قد علم أن دعوتكم قريب قال لقيط لن نعدم من رب يضحك خيراً[٢] .

---

(١) سبق تخريجه من قبل .

(٢) أخرجه ابن حميد في مسنده ، والبيهقي ، والطبراني في المعجم الوسط وابن أبي الدنيا ، وأبو عوانه في مسنده .

فصل في بيان تأويله

اعلم ان الضحك ليس هو مخصوصاً بتكشر الفم ، وظهور الاسنان، وتغير الحال ، على الإنسان به ، بل معناه مشترك ، قالت العرب :

ضحكت الأرض بالنبات إذا ظهر فيها النبات[١] قال الشاعر :

تضحك الأرض من بكاء السماء

يريد بذلك ما تظهر الأرض ، من النبات وأنواره ، عن مطر السماء .

فأما وصف الله جل ذكره به فذلك راجع الى ما يظهر من نعمه ويبديه من منته .

فأما ما قيل في خبر من يدخل الجنة آخراً أتضحك بي وأنت الملك فقد قيل في بعض الأخبار ايضاً في مثل هذا الموضع منه أتستهزيء ، وأنت رب العزة ؟

وليس المراد بذلك إلا ما يقع في وهم هذا القائل أن ما يطمع فيه ويرجى غير موثوق به ، ولا متحقق لما رجع الى متحقق حالة نفسه في خروجه من النار والعذاب ، وذلك ايضا مجاز في الكلام ، أي يفعل مثل ما يفعله من لا يحقق ما يقول ، والمشبه بالشيء قد يسمى باسمه ، قال الله تعالى :

﴿ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[٢] .

وقوله :

---

(١) وقد سبق شرح ذلك وبيان المراد منه .

(٢) الآية ١٩٤ من سورة البقرة .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[1] .

فأما قوله في الخبر الآخر : ﴿ **إن الله يضحك من يأس العبيد وقنوطهم** ﴾ ، فيحتمل ان يقال :

إن معناه أنه عند يأس العبد مما سوى الله جل ذكره يظهر الله رحمته ، وعطفه ، ولطفهم ، فيرحمهم ، وليس ذلك يـرجع الى يأس العبد من الله جل وعز ، لأن من كان كذلك لم يظهر له نعم الله جل ذكره .

فأما قوله : « **اللهم القه وهو يضحك ، وأنتَ تضحك اليه** » ، فضحك الله اليه إظهار لكرامته ، وضحكه ظهور الفرح فيه ، بما يظهر الله من النعم عليه وفيه .

فأما قوله في الخبر الآخر : وإذا ضحك ربك الى عبد في موطن فلا حساب عليه ، فالمراد ايضا نظره له ورحمته ، وأنه إذا ابدى نعمه على عبد رفع عنه الحساب فيها إتماماً لنعمه ، وإكمالا لها ، ولمننه وفضله فيه .

وكذلك قوله : فلا يزال حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : ادخل الجنة .

فالمعنى إظهار إجابته والإنعام عليه وإبتداؤه بالكرم والرحمة ، وليس يخرج جميع ما وصف به الرب سبحانه من الضحك من أن يكون معناه راجع الى ما قلنا ، فعلى ذلك فرتبه للاستحالة في وصف الله جل وعز بما هو تكشر الفم وظهور الأسنان وتغير الأحوال ، لأن ذلك من صفات الأجسام المحدثة الذي يدل تعاقب الحدوث عليها على حدثها .

---

(١) الآية : ٤٠ من سورة الشورى .

فصل

في ذكر ما روي من الفاظ الفرح والإستبشار

روى النعمان بن بشر عن النبي ﷺأنه قال :

« **لله افراح بتوبة العبد من رجل كان في سفر معه راحلته** »[١] ، الحديث .

وروى ابو هريرة عن رسول الله ﷺ، قال يقول الله عز وجل : « **أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني** » ، « **والله افرح بتوبة عبده من الرجل يجد ضالته بالفلاة** »[٢] .

وعن ابي هريرة ان رسول الله ﷺقال : « **لاستبشار الله بتوبة احدكم افضل من استبشار احدكم بضالته عليها زاده ومتاعه وسقاؤه وما يصلحه** »[٣] .

وروى ابو الدرداء عن النبي ﷺأنه قال :

« **ثلاثة يحبهم الله ويضحك اليهم ، ويستبشر بهم ، الذي إذا اكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله** »[٤] .

وعن ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

« **لا يتوضأ احدكم فيحسن وضوءه ويسبغه حتى يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا يستبشر الله تعالى به كما يستبشر اهل الغائب بطلعته** »[٥] .

---

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه والبخاري بنحوه .

(٢) أخرجه الامام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) الامام مسلم ، والامام أحمد في مسنده .

(٤) الامام أحمد في مسنده ، وابن حميد ، وابن جرير .

(٥) أخرجه ابن خزيمة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فصل

الجواب في ذلك

اعلم أن معنى ما وصف به الله جل ذكره من الفرح ، فهو بمعنى الرضا ، لأن الفرح ينقسم معناه الى السرور والرضا ، ولا يليق بالله تعالى السرور ، لأنه يقتضي تغير صفته وحدوث الحوادث فيه .

فأما الذي هو بمعنى الرضا ، فصحيح في وصفه ، ويكون معناه إرادته الانعام على من هو راض عنه ، ومن تاب الله عز وجل عليه ، فقد فرح به على معنى أنه راض عنه وأراد الانعام عليه .

فأما معنى استبشاره بتوبة العبد فراجع أيضا الى ما يظهر للعبد من الكرامة واللطف والنعمة وأفعاله لا تحله ولا تحدث في ذاته بل تحدث في غيره ، فأما البشبشة فهو بمعنى الاستبشار ، لأنه يقال في فلان بشبشة وهشاشة وبشاشة[١] ، وفلان باش ، إذا كان مظهر الرضا بما يستقبله ، فلما كان الله عز وجل راضيا عن التائب عن عبيده مظهرا للنعم لديه بتوفيقه إياه للتوبة أولا ، وتثبيته عليها ثانيا ، ومثوبته ثالثا ، كان ذلك منه إستبشاراً وبشبشة .

---

(١) أنظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، والقاموس المحيط .

فصل

في ذكر ما روي من ألفاظ الاستحياء

روى أبو واقد الليثي أن النبي ﷺ، بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة[1] نفر ، فأقبل اثنان الى رسول الله ﷺ، وذهب واحداً ، قال فوقف على رسول الله ﷺ.

فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، فأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر[2] ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله ﷺقال :

« ألا أخبركم عن الثلاثة نفر ؟ أما أحدهما فأوى[3] إلى الله فآواه الله ، والآخر فاستحيا[4] فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه »[5].

وعن أبي خنيس الغفاري قال :

خرجت مع رسول الله ﷺفي غزوة تهامة ، قال خطب رسول الله ﷺ، فجاء ثلاثة نفر ، فجلس اثنانَ مع رسول الله ﷺ، فقال ﷺ :

« ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟

---

(١) النفر عدة رجال من الثلاثة إلى العشرة .

(٢) فأدبر : أي رجع .

(٣) « فأوى إلى الله » أي لجأ إليه سبحانه : بانتظامه في مجلس رسول الله ﷺ طلبا للعلم والعظة . فاثابه الله على لجوئه إليه تعالى .

(٤) استحيا بترك المزاحمة حياء من الرسول ﷺ : خوفا أن يحدث ضوضاء أثناء حديث رسول الله ﷺ . فجازاه الله كثيرا من الثواب على حيائه .

(٥) أخرجه الامام البخاري في صحيحه .

أما احدهما فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأقبل تائبا الى الله فتاب الله عليه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

« يا أيها الناس إن ربكم حي كريم يستحيي أن يمد عبده اليه يديه أن يردهما خائبتين »[1] .

وعن أنس أن النبي ﷺ قال .

« إن الله يستحيي من عبده أو أمته يعذبهما بعد ما شابا »[2] .

---

(١) سبق تخريجه ، وبيان المراد منه .

(٢) سبق تخريجه أيضاً .

فصل

في الجواب عن ذلك

اعلم أن الاستحياء من الله عز وجل بمعنى الترك ، وعلى ذلك تأول المتأول قوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾[1] وأن معناه أنه لا يترك .

وأما قوله : وأما الآخر فاستحيا فأستحيا الله منه ، فيحتمل أن يكون معناه ترك أذى القوم بمزاحمتهم في الحلقة فجلس خلفهم ، فترك الله عز وجل عقوبته ، وعفا عن ذنوبه .

وكذلك معنى قوله إن ربكم حي كريم ، أنه يترك عقوبة العبد عن خطيئته ، ويعفو عن زلته بكرامته ، فإذا رجع اليه سائلا مستغفرا أجابه وغفر له .

وكذلك معنى قوله « إن الله يستحيي من عبده أو أمته أن يعذبهما بعد ما شابا » .

أنه يترك عذابهما إذا شابا في الاسلام .

وإنما قلنا ذلك لان الحياء الذي هو الانقباض بتغير الاحوال وحدوث الحوادث فيمن يتغير به لا يجوز على الله عز وجل[2] .

---

(١) الاية : ٢٦ من سورة البقرة .

(٢) الحياء معناه لغة : تغير وانكسار يعتري الانسان من خوف ما يذم به ، وهذا محال على الله حقيقة ، فلهذا يأول بمعنى مجازي مناسب للمقام ، والمراد منه في هذا الحديث : أنه تعالى يحسن مثوبته ، ولا يرضى له بقليل الأجر والثواب .

فصل آخر

في معنى ما روي عن النبي ﷺ في وصف الله تعالى بالصبر والغضب والبغض .

روى أبو موسى عن رسول الله ﷺ قال :

« لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى ، إنه يشرك به ويجعل له ولدا ويرزقهم ويدفع عنهم ويعافيهم »[1] .

وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يبغض الفاحش البذيء »[2] .

وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ :

« من لم يسأل الله يغضب عليه »[3] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد :

« اشتد غضب الله ، عز وجل على قوم قسموا البيضة على رأس نبيهم ، وهو يدعوهم الى الله عز وجل »[4] .

وعن سلام عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ .

« اشتد غضب الله على امرأة ألحقت ولداً بقوم ليس منهم ، يشركهم في

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده والبيهقي ، والطبري في معجمه الكبير .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده عن أسامة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الامام أحمد ، وابن أبي شيبة . والحكيم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن حميد في مسنده ، والبيهقي ، والطبراني في معجمه الكبير .

آموالهم ، ويطلع على عوراتهم » [1] .

وعن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« اشتد غضب الله على من كذب علي متعمداً » [1] .

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« تدنو الشمس فيبلغ الناس : من الكرب والغم مالا يطيقون » [2]

ـ وذكر الحديث وقال فيه :

« فيأتون آدم ﷺ فيقولون : اشفع لنا إلى ربك :

فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله ولا يغضب مثله بعده » [3] .

---

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده والبيهقي ، وابن أبي شيبة .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، والنسائي عن أنس رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الامام مسلم في صحيحه بنحوه .

(٤) أنظر حديث الشفاعة العظمى ، الذي أخرجه الامام البخاري ومسلم في صحيحيهما .

فصل

في الجواب عن ذلك

اعلم أن معنى وصف الله جل ذكره بالصبر ، فهو بمعنى الحلم ، ومعنى وصف الله جل ذكره بالحلم فهو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصف الله بالصبر لم يرد به الكتاب ، وإنما ورد في نوع من هذه الأخبار ، وتأويله على معنى تأويل الحلم .

فأما وصفه بالغضب فقد ورد به الكتاب ، ومعناه إرادة العقوبة لأهلها ، ومن علم أنه يعاقب عليها ، وكذلك نقول ، في الرضا ، إنه إرادة التنعيم والتفضيل لمن علم أنه أهل لذلك ، وذلك من صفات الذات ، لأن تأويله يرجع الى الارادة وإرادة الله تعالى من صفات ذاته .

فأما معنى اشتد غضبه ، فالمراد به ما يبديه من زيادة العقوبة على بعضهم دون بعض[1] .

فأما ما هو صفة الذات فلا يجوز وصفه بالتزايد ، وإنما يرجع التزايد إلى الأفعال الصادرة عن الارادة .

وأما معنى السخط ، فهو بمعنى الغضب .

وأما معنى البغض فهو بمعنى الكراهية ، فإذا قيل أبغض الله فلانا من خلقه ، فالمراد به كراهته الفضل عليه ، والاحسان اليه والرحمة له .

---

(١)وقد سبق أن بسطنا القول في بيان المراد من الغضب في حق الله تعالى ، والرحمة في حقه سبحانه وتعالى كذلك .

وإذا قيل للموجود إن الله يبغضه ، فالمعنى فيه أنه يكره أن يكون بخلاف ما هو به ، وعلى ذلك يتأول قوله : إن الله يبغض الفاحش البذيء .

فصل آخر

في ذكر ما ورد في السنة من وصف الله جل ذكره بالاعراض .

روي عن وائل بن حجر : اختصم رجل من حضرموت ، ورجل من كندة إلى رسول الله ﷺ .

فذكر الحديث وقال فيه : قال رسول الله ﷺ :

« **أما إنه حلف على ماله ليأكله ظلمًا ليلقين الله عز وجل ، وهو عنه معرض** »[1] .

وروى عطاء عن أبي أيوب قال قال رسول الله ﷺ :

« **هجرة المؤمن ثلا ث ، فإن تكلما وإلا اعرض الله عنهما حتى يتكلما** » .

(١) أخرجه النسائي في سننه ، والبيهقي ، وابن حميد في مسنده .

فصل

في الجواب عن ذلك

اعلم أن وصف الله جل ذكره بالاعراض عند العبد يرجع الى تركه توفيقه للخير ومعونته عليه ، أو عن إثباته وإكرامه[1] .

فإذا قيل للعبد إنه معرض عن الله عز وجل ، فالمراد به أنه منصرف عن طاعته .

وكذلك يقال في الاقبال اذا قيل ، إن الله مقبل على عبد ، أو قيل للعبد إنه مقبل على الله ، أو إلى الله جل ذكره .

فالمراد به في وصف الله تعالى به ، معونة العبد على فعل الخير بتيسيره له طريق الطاعة ، وإذا وصف به العبد ، فالمراد به استعماله بالطاعة والعبادة .

وإنما قلنا ذلك لاستحالة أن يوصف الله عز وجل بالملاقاة والمقابلة ، فيكون إعراضه والاعراض عنه ، حسب الاعراض عن الأجسام ، والاقبال عليها ، بتلقي المحاذاة لها ، ووجه المقابلة ، وذلك لاستحالة كونه جسمًا أو جورهاً وموصوفاً بما يؤدي الى وصفه بالحدوث وسماته .

---

(١) ذلك أن الاعراض لغة : هو الالتفات إلى جهة أخرى ، وهذا يمكن في البشر حقيقة ، أما من الله سبحانه وتعالى فالمراد به معنى مجازي مناسب وهو بمعنى الحرمان من الرضا والعقاب ، لأن المعنى الحقيقي مستحيل عليه سبحانه وتعالى ، لأنه سبحانه منزه عن الحلول وعن الجهة .

ومن هنا كان الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه : بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر الحديث وفيه :

(وأما الثالث : « فأعرض فاعرض الله عنه » .)

أي تولى غير مهتم ، وخرج من المسجد ولم يقبل على مجلس رسول الله ﷺ .

فصل آخر

في ذكر ما روي في الاثارة في المبالاة

فمن ذلك قوله تعالى في كتابه :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[1] .

وروى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ، أنه قال :

« **من جعل الهم همًّا واحداً كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك** »[2] .

وروى حماد ، عن ثابت عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي** »[3] .

وروى خالد بن عبد الله عن بيان عن قيس بن مرداس الاسلمي قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الفرقان .

(٢) أخرجه البيهقي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وعبد الله بن حميد . وأبو داود والترمذي وحسنه . وابن المنذر . وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردوية عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله ﷺ يقرأ :

« يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي . إنه هو الغفور الرحيم » .

« يذهب الصالحون الاول فالأول ، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر لا يباليهم[١] الله باله » .

وروى شهر بن حوشب عن معدي كرب عن أبي ذر عن النبي ﷺ يرويه عن ربه جل وعــز :

﴿ يا ابن آدم إن تذنب حتى يبلغ ذنوبك عنان السماء ثم تستغفرني غفرت لك لا أبــالي ﴾[٢] .

فصل في الجواب عن ذلك

اعلم أن كل ما وصف به الله عز وجل من أمثال هذه الألفاظ ، فالمراد به الاخبار عن غناه عز وجل ، وأنه ممن لا ينتقص شيء مما يفعله ، وكذلك معنى ما روي عنه ﷺ ، أنه قال في القبضتين اللتين أخرجهما من صلب آدم عليه السلام : للنار ولا أبالي وللجنة ولا أبالي .

وأفاد بذلك أنه يوصل فضله وعدله الى ما شاء من خلقه ، من غير أن يزداد عن فعل الفضل ، أو يكون له نقص بفعل العدل من تعذيبهم ابتداء من غير جرم ، وإذا كان كذلك كان معنى الآية محمولا عليه .

(١) أخرجه الامام في مسنده . والبخاري في صحيحه عن مرداس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، والبيهقي والطبراني في معجمه الكبير .

فصل آخر

في البيان عما روي عن النبي ﷺ من وصف الله بالمباهاة .

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

« إن الله يباهي بأهل عرفات ، فيقول : يا ملائكتي أنظروا الى عبادي جاؤوني من كل فج عميق ، أشهدكم أني غفرت لهم »[1]

وروى مطرف بن عبد الله بن الشخير أن نوفا البكالي ، وعبد الله بن عمرو اجتمعا فقال عبد الله بن عمرو :

أنا أحدثك عن رسول الله ﷺ ، صلينا معه المغرب ذات ليلة ، فرجع من رجع ، وعقب من عقب ، فجاء رسول الله ﷺ من قبل أن يثوب الناس لصلاة العشاء وقد حفزه النفس ، وهو رافع إصبعيه الى السماء ، وهو يقول :

« أبشروا يا معشر المسلمين هذا ربكم ، فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة » .

« فيقول : أنظروا عبادي قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى »[2] .

وروي أن معاوية خرج على أناس وهم جالسون ، فقال : خرج رسول الله ﷺ على حلقة وهم جلوس فقال :

« ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ، ونحمده ، على ما هدانا

---

(١) سبق أن أخرجناه من قبل . مع بيان المراد به أيضاً .

(٢) سبق تخريجه وبيان المراد منه .

للاسلام ، ومن علينا بك فقال آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ »

قالوا آلله ما أجلسنا إلا ذلك .

قال : « **إني لم استحلفكم تهمة لكم ولكني أخبرني جبريل عليه السلام ؛ أن الله يباهي بكم الملائكة** »[1] .

فصل

في الجواب عن ذلك

اعلم أن معنى المباهاة ، هو أن الله عز وجل يظهر من فعله للملائكة ما يحقرون طاعتهم ، وعبادتهم في عبادتهم .

وأصل المباهاة هو[2] مفاعلة من البهاء ، والبهاء من العظمة ، فكأنه أراد أن الله عز وجل يظهر من عظمة هؤلاء المطيعين وبهائهم فيها ما يزيد على بهاء الملائكة وحالهم في طاعتهم وعبادتهم ، والغرض في معنى هذا الخبر وفائدته : تعريف الخلق من الآدميين مواضع الفضل في طاعتهم وعبادتهم ، وأنهم قد تبلغ طاعتهم مبلغاً يزيد قدره على قدر طاعة الملائكة ، وهذا مما يمكن أن يستدل به أن أفاضل الآدميين أفضل من الملائكة ، لأنه لا يباهي إلا بالأفضل[3] .

---

(١) كما ورد في أحاديث يوم عرفة . وقد سبق أن خرجناه .

(٢) أنظر لسان العرب والقاموس المحيط . والنهاية في غريب الحديث والأثر

(٣) وقد قال بهذا القول جماعة من علماء التوحيد . أنظر شرح الجوهرة للباجوري .

فصل آخر

مما ذكر في الخبر من معنى المناجاة

روى حميد[١] الطويل عن أنس عن النبي ﷺ أنه رأى نخامة في قبلة المسجد فشق عليه حتى عرف ذلك في وجهه فحكسه ، وقال :

﴿ إن أحدكم إذا قام الى الصلاة فإنه يناجي ربه ، وإن ربه بينه وبين القبلة ﴾[٢]

وعن أبي هريرة قال :

صلى بنا رسول الله ﷺ ، فلما سلم فإذا رجل في آخر الصف قال يا فلان ألا تتقي الله ؟ ألا تنظر كيف تصلي ؟ فإن أحدكم إذا قام يصلي يقوم يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه [٣] .

وعن صفوان بن محرز قال :

بينما أنا أسير مع عبد الله بن عمر آخذاً بيده إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟

قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدنى منه المؤمن فيقول :

أتعرف كذا ؟ أتعرف ذنباً كذا[٤] .

---

(١) أخرج ذلك في مسنده .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه مع اختلاف في ألفاظه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم في صحيحه بنحوه .

فصل

الجواب عن ذلك

اعلم أن معنى المناجاة ، هو مخاطبة المخاطب على الوجه الذي يختص به ، ولا يشاركه في سماع الخطاب غيره ، وذلك إذا وصف الله تعالى به ، فالمراد إسماع الله تعالى وإفهامه من أراد من خلقه ، على الوجه الذي يختصون به من غير أن يشاركوا في إسماع ما يسمعون ، وإفهام ما يفقهون ، وهذا هو معنى النجوى يوم القيامة ، لأنه تعالى ، يسمع من يشاء من خلقه خطابه ، على التخصيص بالخطاب من غير أن يشاركه في سماع ذلك الخطاب غيره .

وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« **ما منكم من أحد إلا وسيخلو لله عز وجل يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان** »[1]

ومناجاة العبد لله عز وجل ، هو إخفاء الخطاب من غير أن يسمع غيره ، وهو أن يذكر الله تعالى سراً ، فعلى ذلك يحمل معنى المناجاة إذا وصف به الله عز وجل ، أو وصف به الخلق .

---

(١) سبق تخريجه وبيان المراد منه .

فصل آخر

في تأويل ما روي من النفخ

وهو ما ذكر في قوله عز وجل ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1]

وقال ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾[2] .

وعن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

﴿ يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون لو تشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون :

« أنت آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه »[3] .

وعن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« لقي آدم موسى عليهما السلام فقال له موسى :

أنت الذي خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، ونفخ فيك من روحه ، ثم فعلت ما فعلت »[4] وذكر الحديث .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الحجر .

(٢) الآية : ١٢ من سورة التحريم

(٣) أنظر حديث الشفاعة الذي أخرجه الإمام البخاري والامام مسلم في صحيحيهما .

(٤) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو داود في سننه ، وابن حبان في صحيحه .

فصل

في الجواب عن ذلك

أعلم ان ما يوصف به الله عز ذكره من نفخ الروح ، فالمراد به خلقه الروح فيمن يخلقه فيه ؛ وأفعال الرب جل ذكره غير واقعة على طريق المباشرة والتولد ؛ بل أفعاله كلها ابتداء اختراع من قبل أن الله عز وجل لا يقتضي تغير المخترع به ولا حدوث شيء منها فيه .

فأما وجه إضافة الروح اليه ومعناه وفائدته ؛ فهو تخصيص تشريف؛ لأن المذكور قد يخص بالذكر تشريفاً له وإن كان غيره في معناه ؛ كما قيل : بيت الله ؛ وعبد الله ؛ وناقة الله ؛ تخصيصاً بالذكر من جملة المسميات ؛ وإبانة بالفضل ؛ وأمارة له يبين بها عما سواه للتنويه بذكره ؛ والرفع من حاله .

وعلى هذا الوجه أضاف روح عيسى عليه السلام إليه فقال :

روح الله[1] ؛ وذلك أحد وجوه الاضافات مما معناه لا يخرج عن الملك ؛ والخلق ؛ والتدبير ؛ والقدرة ؛ لاستحالة الاضافة اليه ، من طريق المجاورة له ؛ والتغيير به لاستحالة أن يكون جسماً أو جوهراً ، فيتغير بما يحدث فيه ؛ أو يجاوره ؛ فعلى ذلك فرتب هذه الأبواب إن شاء الله .

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ .

فصل آخر

في الكلام على من قال : إن ما روينا من هذه الأخبار ، وذكرنا في أمثال السنن والآثار . مما لا يجب الاشتغال بتأويله وتخريجه وتبين معانيه وتفسيره .

اعلم أن أول ما في ذلك أنا قد علمنا أن النبي ﷺ، إنما خاطبنا بذلك ليفيدنا أنه خاطبنا على لغة العرب بألفاظها المعقولة ، فيما بينها . المتداولة عندهم في خطابهم ، فلا يخلو أن يكون قد أشار بهذه الالفاظ الى معان صحيحة مفيدة . أو لم يشر بذلك الى معنى ، وهذا مما يجل عنه . أن يكون كلامه يخلو من فائدة صحيحة . ومعنى معقول . فإذا كان كذلك فلا بد أن يكون لهذه الالفاظ معان صحيحة ، ولا يخلو أن يكون إلى معرفتها طريق أو لا يكون الى معرفتها طريق ، فإن لم يكن الى معرفتها طريق. وجب أن يكون تعذر ذلك لأجل أن اللغة التي خاطبنا بها غير مفهومة المعنى . ولا معقول المراد ، والامر بخلاف ذلك . فعلم أنه لم يعم على المخاطبين من حيث أراد بهذه الألفاظ ، غير ما وضعت لها . أو ما يقارب معانيها ، مما لا يخرج من مفهوم خطابها .

إذا كان كذلك كان تعرف معانيها ممكنا ، والتوصل الى المراد به غير متعذر ، فعلم أنه مما لا يمتنع الوقوف على معناه ومغزاه ، وأن لا معُنى لقول من قال : إن ذلك مما لا يفهم معناه ، أذ لو كان كذلك لكان خطابه خلوا من الفائدة ، وكلامه معنى[1] عن مراد صحيح ، وذلك مما لا يليق به ﷺ.

---

(١) وفي نسخة أخرى : وكلامه معرى عن مراد صحيح ، وهو الأصح لمناسبة المعنى .

فإن قيل : ألستم تقولون في متشابه القرآن : أنه مما لا يوقف على معناه ، وإن كان على لغة العرب ، ولا بد فيه من فائدة ؟

قيل فيه جوابان :

من أصحابنا من قال : إن في مشكل القرآن مالا يعلم تأويله إلا الله[1] ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، ولا نعلم تأويله ، لكن الله هو المخصوص بمعرفة تأويله ، ولكن فائدته التلاوة التي هي طاعة وهي مندوب إليها مثاب على فعلها .

ومنهم من قال : إنه لا متشابه في القرآن ، إلا والراسخون في العلم يعرفون تأويله ، وأن قوله (والراسخون) معطوف على قوله (إلا الله)[2] على ذلك يسقط هذا السؤال .

فإن قيل أليس معاني هذه ألفاظ التي وردت في هذه الآثار إذا حملت على المعقول فيما بيننا لم يصح في وصف الله تعالى ذكره ، وإذا خرجت عن معانيها المعقولة ، أدى إلى أن لا تكون على حسب اللغة وأن يكون ذلك مما يختص بعلم الله ؟

قيل : إن معانيها معقولة على حسب ما يصح في وصف الله تعالى محمولة على ذلك ، وسبيلها كسبيل سائر الاوصاف التي وردت في الكتاب من ذكر الله سبحانه

---

(١) بدليل قوله تعالى :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ ، وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ ﴾ اهـ سورة آل عمران آية ٧ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي تفسير سورة آل عمران ، وتفسير البيضاوي نفس السورة ، وتفسير الألوسي كذلك .

بالنعوت التي حصلت فيها النصوص والتوقيف ، وكانت معانيها معقولة ومرتبة على حسب ما نزلتها العقول على حسب إختلاف الموصوفين بها ، بعد أن لا تخرج عن حقائقها ، وحدودها ، وأحكامها اللازمة ، ولو وجب الوقوف في معاني هذه الالفاظ لهذه الاخبار الواردة في وصف الله جل ذكره ، لأجل ما قالوا ، لزم الوقوف في سائر وصف الله ، مما ورد في الكتاب ، لمشاركتها لهذه في مثل هذا المعنى ، فلما لم يجز ذلك ، وكان سائر ما ورد من وصفه محمولا على ما يصح ، غير متوقف في معناه ، فكذلك سبيل هذه الالفاظ التي وردت في هذه الآثار[١] .

فإن قيل : إنكم لا توجبون العلم والقطع بأمثال هذه الأخبار ، لأنها آحاد وما في معانيها ، فكيف تجمعون بينها وبين ما في الكتاب ؟

قيل طريق الجمع بينها من وجه آخر ، وهو أنه مما طلق في وصف الله جل ذكره ، وله معنى صحيح معقول ، وإذا كان أحدهما مقطوعاً به والآخر مجوزا وليس لاختلافهما في طريقهما ما يوجب اختلاف حكمها في جواز الاطلاق ، حمل معانيها الوجه الصحيح .

فإن قيل : فإذا لم يكن خبر الواحد موجباً للاعتقاد والقطع ، وليس في هذه الأخبار عمل يقتضي ذلك منها بحسبه فعلى ماذا تحملونها ؟

قيل إنها وإن لم تكن موجبة للقطع بها ، مقتضية للعلم ، فإنها مجوزة مغلبة ، وقد يفيد الخبر التجويز من جهة إطلاق اللفظة ، وقد يفيد ذلك من طريق القطع والاعتقاد ، وإذا كان طريقه تواترا وإجماعا ظاهراً أو كتابا ناطقا، فإنه يقتضي الأعتقاد والقطع بحسبه .

---

(١) أنظر مشكل الآثار للطحاوي .

وإن كان ذلك مستندا إلى أخبار آحاد ، وعدول ثقات ، كان الحكم بها على الظاهر واجبا من طريق التجويز ، ورفع الاحالة ، وإن لم يكن فيها القطع والاعتقاد ، فلذلك رتبنا هذه الأخبار على هذه الوجوه التي ذكرناها .

واعلم أنه إذا كان لا بد من قبول أخبار العدول ، ولا بد أيضاً من أن يكون لكلام رسول الله ﷺ، الأثر والفائدة ، وكان التوقف فيما يمكن معرفة معناه لا وجه له ، وكان تعطيل هذه الأخبار لأجل توهم تعذر تخريجها وترتيبها لا وجه له ، وكان بعضهم ممن يتوهم أنه لا سبيل الى تخريجها ، يذهب الى أبطالها ، وبعضهم يذهب الى إيجاب التشبيه بها ، وبعضهم يذهب الى إخلائها من معان صحيحة ، وجب أن يكون الأمر فيها على ما قلنا ورتبنا ، وأن يكون أوهام المعطلين من الملحدة والمبتدعة والمشبهة لله بخلقه فاسدة باطلة ، وأن يكون معاني هذه الآثار صحيحة معقولة على الوجه التي رتبناها ، وبطل توهم من يدعي أن ذلك مما لا يجوز تأويله ، ولا يصح تفسيره .

ووجب أيضاً أن يكون معنى قول من قال بإمرارها على ما جاءت محمولا على أنه لا يزاد فيها ولا ينقص منها ، لئلا يؤدي الى وقوع الغلط فيها ، وخاصة إذا خاض في تأويلها من لم يكن له دربة بطريق التوحيد ، ومعرفة الحق فيها ، ولذلك حملنا هذا القول على هذا المعنى من قائله ، وإن لم يكن أراد ذلك ، فإنا بيناه لتوضيح بطلان ما قاله ، وتصحيح ما قلنا ، فعلى ذلك فلترتب إن شاء الله تعالى .

كمل بيان ما أشكل ظاهره من صحيح الحديث مما أوهم التشبيه ولبس بذلك المجسمون ، وازدراه الملحدون ، وطعن في روايته المبتدعون ، وإيضاح ما خفي باطنه مما أغفله الجاهلون ، وأنكره المعطلون ، وشرح ذلك وتنزيله ما يليق بوصف الله تعالى بالدلائل التي لا شك فيها ، وموافقة السنة المعمول بها واللغة المجتمع

عليها .

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين .

فهرس الكتاب وأهم المراجع

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من أهم المراجع

١ ـ تفسير الفخر الرازي .

٢ ـ تفسير الخازن .

٣ ـ تفسير البيضاوي .

٤ ـ تفسير أبو السعود .

٥ ـ تفسير النيسابوري .

٦ ـ تفسير الألوسي .

٧ ـ تفسير الدر المنثور : للسيوطي .

٨ ـ تفسير محاسن التأويل : للقاسمي .

٩ ـ الغربيين في التفسير والحديث .

١٠ ـ أساس التقديس : للفخر الرازي .

١١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل .

١٢ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري .

١٣ ـ صحيح مسلم .

١٤ ـ تحفة الأحوزي شرح سنن الترمذي .

١٥ ـ عون المعبود شرح سنن أبو داود .

١٦ ـ سنن النسائي .

١٧ ـ سنن ابن ماجه .

١٨ ـ مجمع الزوائد .

١٩ ـ كنز العمال .

٢٠ ـ زخائر المواريث .

٢١ ـ دليل الفالحين .

٢٢ ـ مشكل الآثار للطحاوي .
٢٣ ـ النهاية في غريب الحديث .
٢٣ ب ـ تأويل مشكل الحديث لابن قتيبة .
٢٤ ـ معجم البلدان .
٢٥ ـ الاستيعاب لابن عبد البر .
٢٦ ـ الإصابة لابن حجر العسقلاني .
٢٧ ـ مرآة الجنان اليافعي .
٢٨ ـ صفة الصفوة .
٢٩ ـ طبقات ابن سعد .
٣٠ ـ الحلية لأبي نعيم .
٣١ ـ تاريخ الطبري .
٣٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان .
٣٣ ـ طبقات الشافعية : للسبكي .
٣٤ ـ كشف الظنون .
٣٥ ـ فيض القدير : للمناوي .
٣٦ ـ نصب الراية للامام الزيلعي .
٣٧ ـ لسان العرب .
٣٨ ـ القاموس المحيط .